محمد سعيد ريان

المبني والمعرب في دنيا السياسة

العرب في الدولة اليهودية
من المواطنة المنقوصة
إلى السيطرة الاستعمارية



المبني والمعرب في دنيا السياسة

العرب في الدولة اليهودية
من المواطنة المنقوصة
إلى السيطرة الاستعمارية



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية
٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات - القاهرة
ت : ٣٤٤٨٣٦٨ ، ف : ٣١٤٨٠٤٢

محمد سعيد علي ريان

المبني والمعرب في دنيا السياسة

العرب في الدولة اليهودية
من المواطنة المنقوصة
إلى السيطرة الاستعمارية



الكتاب : المبني والمعرب في دنيا السياسة
العرب في الدولة اليهودية
من المواطنة المنقوصة
إلى السيطرة الاستعمارية

الكاتب : محمد سعيد علي ريان

الناشر : مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الأولى : القاهرة ٢٠٠٢

رقم الإيداع : ٣٦٦٣ / ٢٠٠٢
الترقيم الدولى: I.S.B.N.977-291-374-7

الغلاف
تصميم وجرافيك : ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الالكترونى :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيذ : أحمد أمين
تصحيح : زكريا منتصر

الإهداء

إلـــى روح صـــاحب الرسالة الخالدة ، صلى الله عليه وسلم، على ما علمنا من مكارم الأخلاق، وعلى ما أصل فينا من حب الغير والرحمة بالمخالف وما وأد في نفوســـنا من فلسفة "ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد" وفتح قلوبنا على فلسفة "أشيروا علي أيها الناس" ، وهو المؤيد من السماء .

إلى روح الصديق، ثاني اثنين إذ هما في الغار، إذ يقول لنا: "وليت عليكم ولست خـــيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن زغت فقوموني" وبهذا شرّع لنا الصديق ومن قبله الرسول الخاتم ومن بعده الفاروق تقييم الأشخاص ومن ثم تقويمهم.

إلـــى روح الفاروق عمر وهو يعلمنا أن النقد والتقييم هدية فقال: "رحم الله امرأً أهدى إليّ عيوب نفسي" ما أعظم هذه التعاليم، يرحمك الله أيها الفاروق وأنت تحث الأمـــة علـــى قـــول كلمة الحق وتحرضهم على النقد، فلا خير في أمة خافت النقد واغتالته "لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا (القادة) إن لم نسمعها".

إلى روح فتى الإسلام علي، كرم الله وجهه وهو يقبل مقاضاة نفسه في درع مع أحد رعيته وينزل على الحكم راضيًا.

إلـــى روح والديّ اللذين أشرباني حب الحق صغيرًا لكي أنطق به كبيرًا .. إلى روح والـــديّ اللذين غرسا في قلبي حب الخير للناس ومنحاني من الرحمة والحنان ما جعلني أبذلهما لمن حرمني وأقصاني.

إلى ولدي سعيد، وابنتي خديجة اللذين أحباني حبًّا جعلني أمشي به بين الناس.

وإلـــى زوجتي نهله التي منحتني من وقتها ورعايتها ما خفف عني عبء السهر ليلاً، وسآمة الضجر نهارًا.

إلى كل القلوب العامرة بالعقل، المتحركة بالإيمان، القائمة بالحق والعدل.

أهدي هذا العمل ،،

محمد سعيد علي ريان

تمهيد

وقفة في ساحة الغضب :

في دراستنا لأحوال الأقلية العربية الفلسطينية التي تعيش داخل الدولة اليهودية، وطموحاتهـا المشروعة في ضوء الإمكانيات المحدودة، ومحاولة صياغة المعادلة الحياتـية المباشـرة ضمن الرؤية الشاملة للظروف المتغيرة .. وتوظيف كل ذلك لتحقيق حد أدنى من التوازن بين المطلوب والموجود، فلا بد من العمل ضمن أربعة مسـتويات مـتفاوتة ومتمـيزة ومتغـيرة وفوق ذلك متشابكة في ظل ضوابط من العلاقات التي تتحكم بها موازين القوى المتغيرة محليًا وشرق أوسطياً وعالمياً.

أولاً : الأقلـية العربية التي تعيش ظروفًا خاصة ضمن أطر ومؤسسات الدولة الـيهودية علـى المسـتوى الرسمي، وتسعى لتحقيق طموحاتها من توفير أسباب ومقومات العيش الكريم فوق أرضها وفي حدود وطنها حياة آمنة مستمرة. وتناضل لكسـب حقوقهـا المهدورة من خلال أكثرية يهودية تتحكم بكل موارد الدولة وتقيم علاقـات تشوبها الريبة والشك والخذر من هذه الأقلية ، بل إن العديد من مؤسسات الدولـة الـيهودية تتعامل مع هذه الأقلية بكونها إشكالية ينبغي معالجتها والحدّ من خطرها (المشكلة العربية) في المستقبل القريب والبعيد.

ثانـياً : الأكـثرية اليهودية التي تملك دولة بكل أذرعها وتعرفها على أنها دولة يهودية تسعى لتحقيق طموحات الشعب اليهودي ولتلبي احتياجاته بعد عملية تفريغ للأرض من غالبية سكانها الأصليين .. ولهذا فإن العلاقات اليهودية الفلسطينية منذ بداية القرن العشرين هي علاقات صدامية، لأن التمدد اليهودي يحصل على حساب الفلسطينين، بعد حرب 1948 وتهجير الشعب الفلسطيني في غالبيته وبقاء أقلية منه فضـلت التشـبث بوطنها ورفضت هجرته، متحملة تبعات المغامرة في المستقبل المجهـول. ومـن هـنا تميزت العلاقة بين أقلية رافضة لكل الممارسات الجائرة والظالمة التي فرضت عليها من قبل الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة بداية، ثم اتبعت أسلوب المقاومة ضد سياسة مصادرة الأراضي والحرية والتمييز الممارس ضدها. وتطمـح لتحقـيق المزيد من تحسين أحوالها المادية وأوضاعها الثقافية والسياسية. وفـي الطـرف الآخر تقف أكثرية يهودية تحيط بكل مرافق الدولة، وتنظر للأقلية

العربية بالشك والريبة، بل في ظروف معينة رأت فيها طابورا خامسا ينبغي التعامل معه بحذر ووضعه تحت الرقابة وقانون الطوارئ.

ثالثاً: العالم العربي بما فيه الشعب الفلسطيني الذي يعيش في الشتات. هذا العام العربي والذي هو في حقيقة الأمر عبارة عن عوالم عربية متعددة يفتقد الثقة بين دويلاته وشعوبه .. فالأدبيات السياسية منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر وحتى اليوم تتحدث عن الوحدة القومية، وتطرح المشاريع لتحديث المجتمع العربي وعصرنته عن طريق قطع صلاته مع التراث، واستنساخ النموذج الأوروبي للدولة القومية وظلت الوحدة السياسية والاقتصادية تراوح مكانها في نطاق الإنشاء الأدبي، وواقع الحال يعمل على تكريس الدولة الإقطاعية أو دولة القبيلة والعشيرة، أو ما عرف فيما بعد بالدولة القطرية التي عملت على تكريس الفرقة، والابتعاد عن كل الأسباب والعناصر التي قد تقود إلى الوحدة ... عن طريق تعميق شعور الانتماء للدولة القطرية والدفاع عن حدودها التي صاغتها اتفاقية سايكس ـ بيكو. وهكذا أصبحت الدولة القطرية مطلوبة لذاتها وأصبحت هدفًا وتدافع عن استقلالها الشكلي تحت الحماية الغربية .. وسقط قناع التوجه القومي بعد المواقف المخزية للدولة القومية العربية، والثورية منها بشكل خاص .. عندما وقفت في خندق واحد مع قوى الاستعمار الغربي ضد دولة عربية كانت تعتبر الحارس الشرقي للقومية العربية .. كيف رمت دول الثورة العربية كمصر وسوريا وغيرها من بلاد العرب، جنبًا إلى جنب مع حلف الناتو، أعداء الأمة العربية، العراق عن قوس واحدة ؟ وما زالوا يفرضون عليه حصارًا ظالمًا يحصد في كل يوم العديد من الضحايا بسبب النقص في توفير الدواء والغذاء ! كيف لا تخجل الدولة القومية وهي تتهرب من دفع مستحقاتها تجاه الشعب الفلسطيني وتحرير مقدسات الأمة ..؟ والعالم العربي اليوم وهو يعيش حالة من الفوضى والانحلال والتفكك وغياب دوره وفعاليته من على مسرح الأحداث، في ظل أنظمة جبانة لا ترتقي إلى مستوى تطلعات شعوبها، أنظمة دكتاتورية استبدادية معادية لتطلعات شعوبها .. وهكذا أصدر "الإخوة القوميون العرب" حكم الإعدام على شقيقهم" المشروع القومي العراقي الجريء، الذي أراد بل وكاد أن يتخطى عتبة التخلف ليقيم أول قوة عربية إقليمية تستطيع أن تؤثر في القرار المتعلق بمصير المنطقة.. ومن قبل ذلك أجهزت الحركات والتنظيمات القومية العربية التي ترجع أصولها إلى الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، على مشروع عبد الناصر القومي ورموه

كذلك عن قوس واحدة مع السادة من عبر البحار، مع القوى الأوروبيةالاستعمارية هـم هـم أنفسهم دعاة الطرح القومي الذين يحاولون توظيف "قميص عبد الناصر القومـي" لصـالح دعوتهم بعد أن اغتالوه وقتلوه، وفي ظل غياب الذاكرة الجمعية العربـية أو تضـليلها والانحراف بها واستغلالها، يجول القاتل المجرم في الساحة العربية ويصول .. هذا المشروع القومي المعاصر والذي يصدر عن ذات الأصول ويتغذى من نفس الجذور التي صدر عنها أول مرة مع نهاية القرن التاسع عشر .. نفـس المدرسـة والمرجعـية، إنهـا أوروبا مع كل ما تمثله في المخيال العربي الإسلامي .

رابعـاً: الوضع الدولي وما آل إليه من هيمنة القطب الواحد بعد انهيار الاتحاد السوفيتي المفاجئ والسريع والذي لم يعط فرصة من الوقت لنمو قطب جديد ليحفظ الـتوازن الدولي .. وبروز القوة الأمريكية مع كل ما تمثله من قيم الجشع والبطش الإعلامي والاقتصادي والسياسي في طول العالم وعرضه والتنكيل بكل من يتصدى لهذه الهيمنة سواء كان فردًا أو جماعة أو دولة .. وهي تقف بكل طغيانها وجبروتها ضد الحق الفلسطيني والعربي والإسلامي بشكل خاص. بل إن أجهزة مخابراتها في حـالات عديـدة تقـوم بزرع جماعات تفتعل الغضب والتطرف في العالم العربي والإسلامي، منها المنظمات القومية ومنها الإسلامية، لكي تبيح للبطش المتكدس في النفسية الأمريكية سبلاً وطرقاً لتفريغ شحنات غضبها في ملاحقة أهداف وهمية في مـناوراتها التي تجريها في طول العالم وعرضه بينها وبين تلك الأهداف الوهمية التي أوجدتها وترعاها بنفسها من أجل أن تحكم السيطرة وتزرع الإرهاب بين دول العـالم ومجتمعاته، ومن أجل الإبقاء على تماسك دول الناتو وفي تخطيطها افتعال حـرب باردة مع الجماعات الإسلامية كغطاء من الدخان يخفي نواياها الحقيقية من الاستعداد لمواجهة قوة الصين القادمة والتي تخطو وتتقدم بسرعة مذهلة لتحتل خانة القطـب الثانـي، قـبل أن يتشكل قطبًا ثالثًا متمثلاً في القوة الأوروبية.. ومع كل المحـاولات التي تبديها الولايات المتحدة فستبقى قاصرة عن احتواء بلد كالصين، مهما اتسع فكّاها وتضخمت أحشاؤها.

هـذا هـو الوضع المحلي والدولي الذي نتحرك فيه ومن خلاله لتحقيق أهداف كبـيرة قياسًـا مـع إمكانـيات محدودة وظروف صعبة مع أنها أهداف قد تكون متواضعة في ظروف أخرى .

الظرف الراهن والإعراب المعكوس :

العـــروبة اســـم مفعول، مرفوع دائمًا بالهتاف والشعارات وعلامة رفعه هزائمه المتكررة . والعرب اسم أضيف إلى غيره مجرور في كل أحواله خاصة في تاريخه الحديـــث وعلامـــة جره الكسور الظاهرة في أطرافه .. والنظام العربي اسم جامد مبنـــي للمجهول .. إذا تحرك لا نعلم من الذي حركه؟ وإذا سكن لا ندري من الذي أسكنه؟

العقـــل العربـــي شُـــرّد بعيدًا مثله مثل الأماني والآمال والتطلعات العربية فهل بالإمكان استحضار هذا العقل هنيهة، حتى نحتكم إليه أو نحاكمه فالأمر سيّان.

وإذا كان طرح السؤال في حدّه الأدنى يساوي نصف الفلسفة وسواء كان بعضها أو كلهـــا، فإن هناك العديد من الأسئلة، ليس في اتجاه معين وليس لفئة أو شخصية بعينها .. فهي أسئلة تحوم في فضائي كما أنها قد تحوم في فضاء غيري.

وإذا كنت قد نشرت العديد من المقالات في "الميثاق" فلماذا أنشر الآن إلى جانب "الميثاق" في صحيفة "الاتحاد"؟ مع ما بيننا من بعد أيديولوجي وعقائدي ؟ ألأنها أقدم الصـــحف العربية في هذه البلاد؟ أم لأن الأحداث والظروف الراهنة ترشحها لأن يكـــون لهـــا رســـالة متمـــيزة؟ ألكونها الصحيفة الأولى التي كتبت فيها في مطلع الشـــباب؟ أم لكونها يومية واسعة الانتشار؟ لعلي تذكرت يوم كان لها رسالة أممية عندما كانت تنادي بمبدأ التعايش السلمي بين اليهود والعرب؟ وما جدوى ذلك الآن؟ وقد وقع الطلاق البائن الذي لا رجعة فيه بين الأقلية العربية والدولة اليهودية.! هل يكون قصدي هو الاحتفاء بالعائد الجديد ليأخذ مكانه في النظام المبني للمجهول؟ أم هـــو استمرار لمحاولة اخراج موديل التعاون المحلي بين الشيوعي والإسلامي إلى نطاقه العام؟ لم أوفق إلى نشر هذه المقالات في صحيفة الحزب الشيوعي (الاتحاد) فهـــم للأسف لم يهضموا بعد التغيرات التي حصلت في العالم، ما زالوا يتحركون بمقتضـــى الماركسية اللينينية التي لا تعترف بالآخر، والمخالف غائب ولم يحضر بعـــد فـــي حياة رفاقنا العرب، وكأن لا بيروسترويكا ولا غلاستنوست ولا انهيار للاتحاد السوفيتي ولا يحزنون.

لعل الأمر لا هذا ولا ذاك، فنحن عربيًّا نعيش صراع البادية في مستواه المادي بعـــيدًا عـــن أخلاق البادية .. وإسلاميًّا نعيش حالة الفرق والنحل والملل من سنة، شـــيعة، خـــوارج، مرجـــئة، قدرية، حركة إسلامية (أ) وأخرى ... (ب) أو حركة

عربية وإسلامية للقوة ... ما زال تاريخ الملل والنحل يحفظ يوم كان الواحد من بين هــذه الفرق المتخاصمة إذا وقع في أيدي أتباع فرقة أخرى، يضطر إلى أن يخفي هويــته وانــتماءه وينتحل اليهودية أو النصرانية لكي ينتسب إليها لينجو من بطش وتنكــيل هــذه الفرقة "الإسلامية" وكل ذلك عملاً بالآية الكريمة : ﴿.. وإن أحد من المشــركين اســتجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ...﴾ (التوبة 6). فنحن عربًا ومســلمين نعيش على جميع مستوياتنا عقلية وذهنية بردوكسالية بشعة بقدر ما هي مخيفة .. مفاهيمنا، عقائدنا، أخلاقنا تحيا تناقضات تنمو وتكبر باستمرار، وكل هذا يتم ضمن تمثيلية من "الحب والصفاء والعناق" ﴿تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ...﴾

وشردت بي الذاكرة بعيدًا في الماضي، تفتش على ما يمكن أن تركن إليه .. أو لعلها تريد أن تمسك بطرفي الخيط الماضي والحاضر، لتقف بكل وضوح على هذا المسلسل من الهزائم ..؟!

كــنا أطفالاً في السادسة والسابعة من أعمارنا من عام 1947 يوم كنا نخرج من المدرســة صــفوفًا نجوب أزقة القرية، ونحن ننشد الأناشيد الوطنية الحماسية حتى نلهب المشاعر ونوقظ الهمم ونحشوها بمشاعر الحماسة .. ومن بين ما كنا ننشد إن لم تخني الذاكرة:

يــا أوروبــا يا أوروبا لا تغالي لا تقولـــــي الفـــــتح طـــــاب
ســــــوف تأتــــيك الليالــــــي نورهـــــا لمــــع الحــــراب

أيها العرب:

جـــردوا سيوفكم واركبوا خيولكم ها هي أوطانكم قسمت بين اللئام

وجـــرد العـــرب ســـيوفهم ومـــن لم يمتلك سيفًا امتشق عصاه، وخرجوا يهتفون للـــنزال، ولكن الأعداء جبنوا وذعروا واختبأوا داخل مدرعاتهم ومن وراء مدافعهم وجبـــنوا عن اللقاء وجهًا لوجه، حتى أن الأرض لم تسعهم، فركبوا طائراتهم تحلق بهم في السماء، وأبحروا ببوارجهم في عرض البحار .. وكما تقول أنشودة صوت العرب في الستينيات: "... فنحن على الأرض الرجال الرجال" .. أو كما قال عنترة ذات يوم :

إذا الأبطـــال فـــرت خوف بأسي تـــرى الأقطـــار باعًـــا أو ذراعا

وتكـررت المعارك، ومنذ ما يزيد عن خمسين عامًا .. والصراعات تتفجر بيننا وبين أعدائنا، ويشحذ كل منا سلاحه، كما قال عمرو بن معدي كرب فارس اليمن:

كـل امـرئ يجـري إلـى يوم الهـيـاج بمـا اسـتعدّا

نحـن نملـك الحجر ولم نستطع أن نطور منه شيئًا وهم يستبدلون أسلحتهم من البندقـية ← المدفـع ← فالمجـنزرة والدبابـة وراجمـة الصواريخ ← فالطائرة فالصـاروخ، ثـم الصاروخ المضاد للصاروخ ثم الذرة ... والفرق بيننا أنهم فعل معرب يلحقهم التغيير وتتغير أحوالهم من حين لآخر ونحن اسم مبني على السكون لا يلحقه التغيير ولا التبديل .. إنه النظام المبني للمجهول ...!!

من بين هذه الأنظمة والتي لها علاقة مباشرة بوجودنا كأقلية: هي لجنة المتابعة العربـية .. أو اللجنة القطرية للسلطات المحلية .. أو الحركات والأحزاب الفاعلة علـى السـاحة .. هذه سوف تكون موضوع كتابنا بعد مقدمة نوضح فيها المنطق الـذي سنسـتعمله كآلـية نستطيع بمقتضاها معالجة أو على الأقل تشخيص بعض الإشكالات التي تعيق حركتنا الاجتماعية والسياسية.

مقدمة

مـــع انطلاقة انتفاضة الأقصى، وتجاوز بعض المسلمات والبديهيات من بعض الشخصـــيات السياسية الانتهازية، وخطورة الوضع وتعقيداته، وإشكاليات المرحلة التي تمر بها الأقلية الفلسطينية التي تعيش في الدولة اليهودية منذ عام 1948، رأيت من واجبي إعادة التأكيد على بعض الثوابت الوطنية التي تجاوزها بعض المزايدين، فرأيـــت من الواجب كذلك، أن ابين الثابت من المتحول في حياتنا. وقد أطلقت على سلســـلة المقـــالات الـــي نشرت في "الميثاق" صحيفة الحركة الإسلامية في الدولة الـــيهودية، تحت عنوان: "المبني والمعرب في دنيا السياسة" وجعلت الأقلية العربية نموذجًا.

ثـــم عالجت في كثير من المقالات التي نشرت في هذه السلسلة الخطاب القومي واسقاطاته ومعوقاته .. وعالجت في المقابل الخطاب الإسلامي وإرهاصاته الداخلية وحاجته إلى منطق متحرك يتجاوز الطرح الإسلامي والعربي الممارس حتى اليوم، وفي رأيي فإن جوهر الخطابين متقارب ولا يختلفان إلا في النقوش الخارجية. وقد تناولت الخطابين مرة في مستوى الماكرو القومي والإسلامي العام، وأخرى ارتدادًا على الذات الشخصية أو المحلية أو في مستوى الميكرو للقضية العربية والإسلامية المحلية.

لقـــد كنت قد نشرت العديد من المقالات في الميثاق" عن الفلسفة القومية والدولة القومية ونشأتها في أوروبا، وهو ما أشغلني على مدى سنتين من الدراسة والكتابة، حيـــث يتم شرح الفلسفة التي تقف من وراء مبدأ القومية ومن ثم الدولة القومية كما ظهرت في أوروبا، وأعرض على ذلك الفكر القومي العربي منذ نشاته كنسخة طبق الأصـــل عن ذلك الفكر، من غير أن يأخذ في حسابه خصوصيات القومية العربية وقيمها وحضارتها والمناخ والبيئة التي نشأت بها. هذا العمل تحت اسم : "المشروع القومي العربي". ومن وجهة نظر موضوعية فهناك مشروعان قوميان متمايزان:

1) المشروع القومي المسيحي والذي بدأ في القرن التاسع عشر .

2) والمشروع القومي الناصري.

ومــن قــبل ذلك كنت قد كتبت عن: "المشروع الشيوعي" ونشر العديد منه في مجلــة "الصراط" ــ الحركة الإسلامية ــ أم الفحم. والمشروع الثالث هو المشروع الإســلامي، كـيف الـنهوض به، عن المعوقات الذاتية والموضوعية. وأسأل الله سبحانه، أن يتيح لي إمكانية إخراج هذه المشاريع الثلاثة والتي يكمل بعضها بعضًا بصورة جدلية سلبًا وإيجابًا.

إن الفرضــية التي تقلقني وتأخذ بمجامع قلبي، وأخشى أن لا أستطيع أن أثبتها، نظــرًا لتعقيدات القضية وإشكالياتها والمتغيرات المتلاحقة التي تدفع بهذه الفرضية وقضــيتها باتجاهات متعاكسة أحيانًا ومتقاربة أحيانًا أخرى، والسؤال الذي يلح في طــرح نفسه كل مرة ويلح كذلك في طلب الجواب: لقد بدأ المشروع القومي فكرًا ومحاولة منذ القرن التاسع عشر لبناء الدولة العربية القومية؛ وحتى اليوم، لم يستطع العــرب إنجــاز هذا المشروع؟ فلماذا لم تقم حتى اليوم الدولة القومية القوية؟ ولقد بدأت موجة الإصلاح الديني منذ عهد الأفغاني والإمام محمد عبده، وشكيب أرسلان وصــاحب المــنار وغــيرهم مــنذ القرن التاسع عشر أيضًا.! لماذا لم تقم الدولة الإسلامية القوية كذلك؟

الفرضــية التي احاول إثبات صحتها تقول: ان الغرب بما فيه أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا تعمل جاهدة ومنذ القرن الثامن عشر، إن لم يكن قبل ذلك، لــتفريغ منطقة الشرق الأوسط، والتي هي في الأساس، المنطقة العربية الإسلامية، مــن عناصــر القــوة وأسبابها والإبقاء عليها ضعيفة مفككة، سواء كان ذلك على الصعيد القومي، في محاولاتهم منع قيام دولة الوحدة العربية القومية القوية وكذلك علــى الصعيد الإسلامي. فهي تمنع بكل حزم قيام دولة إسلامية قوية، بتعبير آخر: إفراغ المنطقة من أسباب القوة وعناصرها حتى تبقى في منطقة نفوذ الغرب.

في هذه الدراسة التي تشتمل على جزء تام، كإطار نظري في تبسيط الأمور في بعــض المواضــيع التــي لها علاقة في الموضوع، كموضوع "الدولة" والمجتمع، والعلــوم السياســية واســاليبها ومــناهجها، بشكل شامل وعام نتناول فيه السياسة اصــطلاحًا، ثــم موضوعًا كما عرّفه اليونانيون والعرب المسلمون وكما هو إنتاج أوروبــي غربــي ومدارسه المختلفة، ثم كلمة الإسلام في هذا الموضوع، بصورة تكمل وتتم موضوع هذا البحث ..

والجــزء الأخــير مــن الإطــار النظري يتناول بعض الأبحاث الإثنية وطرق علاجهــا. والوقوف على بعض ما يكتبه المفكرون اليهود في قضية الأقلية العربية

هــؤلاء الذيــن لهم صلة قوية بمتخذي القرار في إسرائيل ، والوقوف على كيفية معالجــة العقل اليهودي للمشكلة العرقية في إسرائيل. ومن أفضل ما كتب وبشكل موضـــوعي عن الأقلية العربية كتاب: إيان لوستيك الكاتب اليهودي الأمريكي في تحليله للسياسة الإسرائيلية تجاه الأقلية العربية، والتي بين فيها سياسة السيطرة التي تنـــتهجها حكومـــات إســـرائيل بما يخص الأقلية العربية. تلك السياسة المبنية على مبادئ :

1) الـــتجزئة: وهي عملية الفصل والعزل للأقلية العربية عن الأكثرية اليهودية. بحيـــث لا يتم دمج العرب مع اليهود بشكل مباشر في مؤسسات حكومية رسمية أو يهوديـــة مدنـــية. بـــل للعـــرب دوائرهم الخاصة بهم المرتبطة بالدوائر الحكومية الرســـمية. وكذلـــك تطول عملية التجزئة على الصعيد الداخلي العربي على أساس طائفي، بدوي، حضري، رجالي نسائي ...

2) سياســـة الاعتماد، وهو جعل العرب يعتمدون بالكامل على الجانب اليهودي إداريًــا واقتصـــاديًا وفي كل المجالات الأخرى . وهي ذات السياسة التي ينتهجها الغـــرب على مستوى الماكرو العربي بجعله يعتمد في أكثر احتياجاته على الغرب الاستعماري، تعتمده السلطات الإسرائيلية على مستوى الميكرو في علاجها للأقلية العربية.

3) التعييـــن وهـــو عملية اختيار النخبة التي تشكل الطبقة المتنفذة في المجتمع العربـــي بحيـــث يختارون من الأوساط التي تخدم السلطة الإسرائيلية. بتعبير آخر يقـــبلون بتنفيذ السياسة الإسرائيلية الغير مقبولة على غالبية السكان العرب، ويقابلها علـــى مستوى الماكرو العربي، تلك النخب "المثقفة" التي تحاول جاهدة تبيئة الثقافة الغربـــية في بلاد العرب أو بتعبير آخر وضع العرب في القالب الأوروبي الجاهز. وهذه السياسة لا تختلف كثيرًا عن سياسة المستعمر في المستعمرات الخاضعة له.

ثـــم نتعرض للكتابات الأخيرة لمفكرين كبار على المستوى الأكاديمي ، وطرق معالجتهم لقضية الديموغرافية في الدولة الإسرائيلية والتي تعتبر الأقلية الفلسطينية مصدر قلق وهاجس امني على المستوى العام وفي المنظور المتوسط والبعيد. هذا القلـــق الـــذي يضـــع التحدي أمام صانعي القرار في إسرائيل على أعلى مستوياته دراسة وتحليلاًوعلاجً ووقاية لسلامة الدولة اليهودية الصهيونية..

بعـــض الأبحـــاث تـــرى أن إســـرائيل لا يمكـــنها أن تقيم ديمقراطية ليبرالية كالديمقراطـــيات الغربـــية مـــن أمـــثال برفسور سامي سموحة والذي يقترح إقامة

"ديمقراطية إثنية" وهو يجعل من الحالة الإسرائيلية الراهنة موديلاً يتبناه، بينما تفتقر دراساته إلى أصالة البحث وإخراج دراسات جادة تتحلى بروح النقد للسياسة الإسرائيلية من أجل إيجاد صيغة مقبولة، بدل تكريس النموذج الإسرائيلي الذي لا يصمد أمام النقد على الأساس الشخصي الفردي أو المجتمعي، بالمقياس الديمقراطي الغربي. وسنرى أن هناك من يرى في إسرائيل دولة يهودية ديمقراطية ليبرالية. بينما يذهب برفسور يحازقيل درور (وهو من أبرز الأكاديميين في العلوم السياسية في إسرائيل وهو خبير في السياسة الأمنية القومية وقد شغل وظائف استشارية كبيرة للحكومات الإسرائيلية) فهو مع صلته القوية بمتخذي القرار في إسرائيل، فإن الموديل الذي يقترحه هو أخطر هذه النماذج على الوجود العربي في داخل الدولة اليهودية وخارجها موديل الدولة اليهودية الصهيونية.

ويظهر من كل الدراسات للمشكلة الإثنية التي تقوم بها كل مؤسسات الدراسات الاستراتيجية والأكاديمية الإسرائيلية على تنوعها، أنها تكاد تجمع، بل هي تجمع بكل وضوح، سواء كان ذلك من وجهة نظر يسارية أم يمينية، أن الأقلية الفلسطينية التي تعيش في الدولة اليهودية، تحولت إلى هاجس قومي، تجند من أجله العقلية اليهودية خيرة مفكريها واستراتيجييها، لكي تجد لها حلاً يبقي على الصبغة اليهودية الصهيونية للدولة الإسرائيلية وينبغي لهذا الحل ان يأخذ في حساباته:

1) يبقي على الديكور الديمقراطي للدولة في أعين الغالبية من الدول الغربية. حتى لا تتخطى معايير محددة يمكن أن تثير الرأي العام العالمي ضدها، واظهارها بالحركة العنصرية، لا سيما وهي الضحية الأولى في نظر الغرب للنازية والفاشية.

2) أن لا يقف هذا الحل دون سيولتها وانسيابها في المنطقة العربية والإسلامية باعتبارها سوقًا استهلاكية ضخمة أمام الإنتاج العلمي اليهودي والى حد ما الإنتاج الصناعي والرأسمالي اليهودي.

ولما كان المشروع الصهيوني لم يكتمل بعد في نظر العديد من المفكرين الاستراتيجيين إلى جانب العديد من متخذي القرار الإسرائيليين فإن فلسطين، كل فلسطين ينبغي أن تبقى هي نواة الدولة اليهودية الصهيونية، مع العمل على تحقيق المشروع الصهيوني بتمامه. وعلى النواة أن تكون قوية وصلبة ومتماسكة، ووجود الأقلية العربية في داخل هذه الدولة تعرقل ذلك، وتبقى الدولة اليهودية ــ طبعًا من وجهة نظر تلك الأبحاث ــ كمن تحمل في أحشائها مرضًا عضالاً يمكن أن يهدد أمنها ولهذا لا يتحرجون من أن يطلقوا على هذه الأقلية "المشكلة العربية" يستعملون

ذلك في كل أدبياتهم السياسية والثقافية. لقد كانت هذه الأقلية في السابق مشكلة أمنية ينبغي السيطرة عليها وضبطها بقوانين طوارئ استثنائية نظرًا لحالة الحرب بين العرب وإسرائيل. ولما زال هذا العامل بعد عمليات السلام مع مصر والأردن ومنظمة التحرير وتطبيع علاقتهم مع الغالبية العظمى للدول العربية والإسلامية، أصبحت صياغة المشكلة على أساس من الهاجس الأمني صياغة غير واقعية. لكن انتقل خطرها من كونها أمنية من السهل ضبطها بقوانين استثنائية وأحكام عرفية، ولكن كونها مشكلة ديمغرافية فالخطر أصبح أكثر تعقيدًا والعلاج وأساليب تناول المشكلة أصبح أكثر صعوبة.

ولهذا نجد أن السياسة الإسرائيلية، في انتفاضة الأقصى في أسبوعها الأول حيث كانت المدن والقرى العربية في داخل الدولة اليهودية مسرحًا لأحداث دامية استعملت السلطات الإسرائيلية العنف وكأنها تتعامل مع أعداء وليسوا "مواطنين" فسقط ثلاثة عشر شهيدا وكثير من الجرحى.. ولكن ما يلفت انتباه الباحث والدارس أن السياسة الإسرائيلية حاولت ، وما زالت ، توظيف ذلك في المخطط العام، وكأن الأقلية الفلسطينية داخل الدولة اليهودية لها تطلعات انفصالية عن الدولة، ولهذا زادت القضية العربية تعقيدًا من كونها مشكلة أمن ديموغرافي إلى كونها بالإضافة لذلك مشكلة أمنية آنية. وبعث الهاجس الأمني من جديد ومحاولة إحياء أو بعث سياسة السيطرة من جديد. هذه السياسة التي أصبحت في العشرين سنة الأخيرة تبدل من أساليبها اللاإنسانية في معاملتها للعرب، أو بتدقيق أكبر تخزين مشكلة الأقلية العربية إلى ما بعد الانتهاء من قضية الضفة وقطاع غزة والجولان وغيرها ثم طرحها من جديد ومن الممكن أن سياسة السيطرة التي ميزت السياسة الإسرائيلية في الثلاثين سنة الأولى من قيامها، لم تلغ بالكامل بل هي أقرب إلى صيغة: "نسخ لفظًا وبقي حكمًا".

والعقلية اليهودية التي عاشت أقليات في العالم ما يزيد عن ألفي عام وما زالت كذلك فهي غنية جدًّا بهذه التجربة، وهي تعيشها ولم تستطع أن تتخلص منها حتى بعد أن أصبح لديها مجتمع ودولة. فقد ظلت عقلية الأقلية ، والحافز الأمني، تتحكم فيها على الصعيد المحلي الداخلي للأقلية الفلسطينية. حيث يتم تفتيتها إلى طوائف على أساس ديني، وإلى فئات على مستوى قومي ومدني. وهذا الوضع تمارسه السياسة الإسرائيلية مع الأقليات في طول العالم العربي والإسلامي وعرضه، وهي تخترق هذا النسيج منذ عدة قرون باشكال مختلفة.

وقــد رأيــت أن أشير من خلال دراستي هذه إلى معوقات النهضة العربية على الصــعيد القومـــي وكذلك على الصعيد الإسلامي، وما يهمني هو كشف المعوقات الذاتية الداخلية في بنية العقلية الشخصية للإنسان العربي والإسلامي. وبيان أن هذه الذهنـــية لا تستطيع أن تتعامل مع أولويات العمل السياسي فضلاً عن أن تصوغه وتشــكله وتبنـــيه من جديد. بل لا تفرق بين الثابت والمتحول في قضاياها. وكيف يمكن أن يتحول الثابت إلى متحول في ظروف معينة فقد يتحول الهدف إلى وسيلة بعــد تحقيقه، كما تصبح النتائج مقدمات لنتائج أخرى. ولهذا سميت البحث "المبني والمعرب في دنيا السياسة".

والبحث في أساسه جاء على خلفية طلب من قيادة الحركة الإسلامية بشقيها بما فــيهم الشــيخ رائد صلاح (الذي استقال مؤخرًا من رئاسة بلدية أم الفحم) أن أضع تصــورًا، مـــن وجهـــة نظـــر الحركة الإسلامية، لإعادة بناء لجنة المتابعة العليا للجماهــير العربية وصياغتها من جديد. حيث قدّم كل طرف من التيارات القومية والوطنـــية تصـــوراته لهـــذا الغرض. وبعد انطلاقة انتفاضة الأقصى، رأيت من المناسب بل من الواجب، بيان خطورة المزايدة من قبل شخصيات طفيلية معروفة، حـــتى لا يتم استغفال قيادتنا وجماهيرنا والوقوع في براثن التخطيط المبيّت لها. بل يتحـــتم على قيادة الجماهير العربية وضع تخطيط استراتيجي شامل يضع لنا سقفا لمطالبـــنا حـــتى وإن كان البعض منا، يرى نفسه يعيش في الطابق الأرضي لبناء متعدد الطوابق.

القسم الأول

الإطار النظري

الفصل الأول

النظريات السياسية في نطاق حركة التاريخ السياسي

1- الاصطلاح السياسي :

يعرف القاموس الأمريكي علم السياسة[1]: "بأنه العلم الذي يبحث في أصول إدارة الحكـم" وأما قاموس Oxford فيعرف السياسة قريبًا من التعريف السابق "علم وفن إدارة الحكومة والقضايا السياسية ومشاكل الحياة عامة".[2]

وأما قاموس المنجد في اللغة والأعلام فيعرف مادة "ساس" بأنها: ساس الدواب: قـام علـيها وراضها ـ ساس القوم: دبرهم وتولى أمرهم، ساس الأمر: قام به ، ويقـال: "فلان مجرب قد ساس وسيس عليه: "أي أدّب وأُدّب. والسياسة: استصلاح الخلـق بإرشـادهم إلى الطريق المنجي في العاجل والآجل والسياسة هي فن الحكم وإدارة أعمـال الدولـة الداخلية والخارجية .. السياسة المدنية: تدبير المعاش على العموم على سنن العدل والاستقامة."[3]

أما قاموس ليتربيه الفرنسي 1870 فقد عرّف السياسة بأنها "علم حكم الدول".[4]

وعرفه دوفيرجيه وكثيرون:"علم السلطة المنظمة في الجماعات الإنسانية كافة"[5]

وأمـا معجـم ويبر 1962 فقد عرفه: "فن حكم المجتمعات الإنسانية"[6] وقد عرّف القـاموس الأمريكي حسب ما جاء في كتاب القابنجي: "علم السياسة هو أحد العلوم الاجتماعـية الذي يبحث في النظرية والتعليق السياسي، وفي نظم الحكم والإدارة، وهـو علـم أكاديمي يشمل النظرية السياسية ونظم الحكومة والقانون والاتجاهات السياسية وخططها والإدارة العامة والعلاقات الدولية والسياسية الخارجية".[7]

وأما قاموس إبراهيم بن شوشان العبري فيعرف الدولة بأنها الأرض التي سكانها يحكمـون بنظام حكم مركزي دستوري مستقل. وهكذا فإن السياسة في تعريفه هي "أسلوب إدارة الدولة، وكذلك أسلوب إدارة قضايا معينة ويأتي معناها عمل سلطات الدولة في مجال التنظيم والعلاقات مع الدول الأخرى وكذلك أسلوب إدارة جسم أو هيئة جماهيرية وتوجيه نشاطها".[8]

وأمـــا Joseph Dunner فـــي كتابه[9] Hand book of world history فيقول بأن المصطلح Politics جاء من الأصل اليوناني Polis والذي ترجم إلى مصطلح "دولة المديـــنة" City State وقـــد تطـــور مفهوم الـــ ـــ Polis حتى أصبح يعني المجتمع المـــنظم جماعـــة من الناس يعيشون ضمن نظام معين مع تقسيم الوظائف في هذا المجـــتمع المنظم مثل العمال، توفير البضائع، والقيام على الخدمات الدينية وأنواع الفنون والرياضة".

وأما Max weber فقد عرف مصطلح السياسة بأنه "رغبة الإنسان في الحصول علـــى حصـــته من القوة" (Man's aspiration for a share in power) أما ماكيافيلي ومـــاركس فقـــد فهمـــوا السياسة على أنها "النضال من أجل الحصول على القوة، والحصول كذلك على النفوذ والتأثير".[10]

يـــرى البروفســـور هيرسون أن السياسة هي "فن الكفاح من أجل امتلاك قيادة الســـلطة والنفوذ في المجتمع، إنها سلوك معين يستخدم من أجل تأكيد هذه السيطرة أو الهيمـــنة"[11]. ويـــرى أيضًا: "أن شبكة القيم والأفكار، والعقائد، هي قوام الثقافة السياســـية، إنمـــا تعمـــل على أن تطبع في تصميم كل جيل من الأجيال المتعاقبة، إحساسًا قويًا بشرعية الحكومات السياسية السابقة، وبشرعية قراراتها أيضًا"[12].

علم السياسة عند اليونان :

على الرغم من تشكيل أنظمة سياسية، وقيام حكومات وإمبراطوريات كبيرة في بلـــدان الشـــرق الأوسط وفي الصين وبلاد فارس وخاصة في مصر وبلاد ما بين النهريـــن أو بـــلاد الهلال الخصيب، كانت هذه الدول تبسط نفوذها على مساحات جغرافية شاسعة وتتحكم بشعوب كثيرة. وقد بدأت مبكرًا وقبل أن تقوم مثيلاتها في بـــلاد الـــيونان بوقـــت طويل، إلا أن النظرية السياسية تطورت في بلاد اليونان، وأخـــذت صبغة العلم الذي يدرس، وكالعادة فإن العقلية اليونانية التي استطاعت أن تدرس الرياضيات والهندسة في مصر وغيرها من المعارف التي كانت منتشرة في بـــلاد الشـــرق كالحضارة البابلية والآشورية والكلدانية، واستطاعت صياغتها على شـــكل نظريات بينما أبطأ هذا الأمر في بلاد الشرق، كان الشرق يعيشها واليونان يكتبون عنها ، وكما يقولون: "من يعيش السعادة ليس بحاجة إلى أن يكتبها". وهكذا فعل اليونان بالنسبة لموضوع نظام الحكم فقد صاغوا نظريات سياسية وصنفوها من حكومة الملك والأرستقراطية والأولجارخية والديمقراطية وحكومة الطاغية المستبد.

وعند اليونان، فإن الشرط الذي ينبغي أن يسبق كل تفكير سياسي هو إدراك هذا التناقض بين حرية الفرد ومصالحه وبين الدولة. والسياسة هي العمل على التوفيق بيـن هذيـن المركبيـن. تلـك المشاكل التي تتناول أساس سلطان الدولة ومصدر قوانيـنها، وهو مفهوم يعتبر جوهرًا أساسيًّا في فكرة دولة المدينة المستقلة اليونانية Polis أو بترجمـتها الإنجليزية CityState وبتشكيل هذه الدويلات Polis بدأ يتشكل الفكر السياسي.[13]

وقد ارتبطت النظرية السياسية اليونانية ارتباطًا وثيقًا بالمنظومة الأخلاقية أو ما عـرف مـبكرًا باسـم "علم الأخلاق". وهكذا فإن الدولة في عرف الفكر الفلسفي اليونانـي، مـا هي إلا هيئة أخلاقية تسعى لتحقيق الفضيلة والقيم والمثل العليا في المجتمع وأن تقوم العلاقة بين الفرد والدولة بناء على هذه القيم، وبهذا تصبح الدولة آلة من أجل تحقيق الأغراض السياسية التي تقوم على المبادئ الأخلاقية.[14]

وأفلاطـون هـو المفكر اليوناني الوحيد الذي لم يذهب إلى ما ذهب إليه الفكر السياسـي اليوناني، حول سيادة القانون، ومع أنه سار وراء هذه الفكرة في كتابيه: "كريتون" و"القوانين" إلا أنه رفض فكرة سيادة القانون بالذات في كتابيه "الجمهورية" و"السياسـي Politicus" وقـد كـان رفضه هذا نتيجة تحمسه لمنهج أخلاقي مثالي للمجـتمع يسـمو عن أية مجموعة جامدة من القوانين. ولم يكن بحال من الأحوال نتـيجة اعـتقاد بـأن هناك هيئة تشريعية لها سيادة أعلى من القوانين التي يسنها. وكذلـك لم يكن لهذا الرفض صلة بانحراف لدى أفلاطون عن المثل العليا التعليمية للدولة. فقد كان يرى أن على الحكام واجب تعليم المواطنين وفق الأساس الأخلاقي للمجـتمع. كان ، في نظر أفلاطون ، على هؤلاء أن يتلقوا من العلم ما يُمكنهم من فهـم هـذا الأساس الأخلاقي ، والواقع أن أفلاطون تناول مشكلة التعليم من وجهة نظـر الحـاكم أكـثر مـن تناوله من وجهة نظر المواطن.[15] فعلم السياسة أو فن السياسـة، هـو العلم الذي يهدف إلى رفع مستوى الإنسان الاجتماعي عن طريق التعلـيم الجماعي إلى مستوى الاشتراك في المواضيع الروحية للحياة الاجتماعية، عـن طـريق التعليم الجماعي إلى مستوى الاشتراك في المواضيع الروحية للحياة الاجتماعية، تلك المواضيع التي يعبر عنها قانون ذو سيادة.[16]

ومـن أجـل موازنـة المعادلة الثقافية عند المسلمين الذين اهتموا بترجمة كتب فارسـية في موضوع السياسة مثل: "عهد أردشير" فقد قام بعض المسلمين بترجمة بعـض الكتـب التـي نسبت لليونانيين مثل كتاب: "السياسة في تدبير الرئاسة" هذا

الكــتاب المــنحول لأفلاطــون، وقد كان موضوع هذا الكتاب بعيدًا كل البعد عن المفاهيم السياسية لأفلاطون وأرسطو، تلك الكتب التي ترجمت فيما بعد، واهتم بها بشــكل بــارز الفيلســوف أبو نصر الفارابي، واهتم بكتابه "المدينة الفاضلة" أسوة بجمهورية أفلاطون و"بمدينة الدولة" اليونانية". ومع أن الفارابي انتحى منحى آخر حيــن ربــط صــلاح السياسة بصلاح المعتقدات الدينية الفلسفية[17]، في حين جعل أفلاطون قضية تحقيق العدالة هي هدف السياسة، وتناولها من عدة زوايا سواء كان ملكًــا رئيسًــا أو مرؤوسا، فقيرًا أو غنيًّا، وقد رأى أفلاطون أن قضية العدالة التي تــتحقق عــن طــريق "المدينة الفاضلة". ومن هنا انطلق أفلاطون من البحث عن إمكانية تشييد نظام للحكم تتحقق فيه العدالة، مركزًا على جانب الإعداد عن طريق التربية والتعليم، مستعرضًا نظم الحكم التي عرفتها المدن اليونانية، محللاً سياستها تحليلاً نقديًّا مقارنًا.[18]

ويمكن تلخيص علم السياسة عند اليونان: هو العلم الذي يبحث في حياة "المدينة" Polis وكــان يعنــي النظام الاجتماعي والحياة العامة لــ"دولة المدينة" في اليونان، حيــث لم يفرق بين ما هو اجتماعي وما هو سياسي، وقد كان عالم "دولة المدينة" مرادفًا لعالم الإنسانية، والذي اشتمل على الأمور التي تعني الفرد وعلى التنظيمات الاجتماعــية الأخرى . وهكذا يمكن القول إنه كان تنظيمًا سياسيًّا ودينيًّا، وقد كان علــم السياســة بالنســبة لأرسطو يشبه الفلسفة السياسية الذي كان يقسم إلى جزء نظــري، وهــو ما يسمى اليوم علوم الطبيعة وما بعد الطبيعة، والجزء الآخر هو العملــي السياسي الذي يشتمل على النظرية الاقتصادية والأخلاقية، وعلم الأخلاق بمفهومه الضيق كما هو معروف اليوم، ولهذا ليست هناك حياة سعيدة خارج "مدينة الدولة" ومع مرور الزمن تشعب علم السياسة إلى علم السياسة وعلم الاجتماع بكل أنواعهمــا وبقي حتى القرن التاسع عشر يعرف علم السياسة كما يعرف اليوم علم الاجتماع. وقد أصبح قسم Politik يشير إلى الشؤون الداخلية للدولة، كعلم السياسة الــيوم ، وتدريجيًّا مع استقلال العلوم الاجتماعية، تم تفريغ مضمون هذا العلم شيئًا فشيئًا، حتى لم يبق غير النظرية القضائية القانونية للدولة.[19]

علم السياسة عند العرب والمسلمين قديمًا وحديثًا :

لقد عرف التراث العربي الإسلامي ثلاثة أصناف من الفكر السياسي:

1) الخلافة أو الإمامة. 2) الآداب السلطانية ونصائح الملوك. 3) وصنف أقــرب

للفلسفة منه إلى السياسة.

أما الصنف الأول فقد نشأ من خلال النقاش حول أزمة الخلافة وهو موضوع قد تفاقم بعد مقتل عثمان، واستمر قرونًا طويلة كموضوع من موضوعات علم الكلام .. وأما الصنف الثاني وهو ما نقل في الكثير منه عن التراث الفارسي، خاصة بعد انتصـــار الثورة العباسية والتأثير الكبير الذي غدا للعنصر الفارسي على مجريات الأمـــور في أمر الخلافة واتخاذ القرار. وأما الثالث فهو فصول من التراث الفلسفي اليوناني.[20]

وكـــان أردشـــير (أهم ملوك فارس) قد كتب عهدًا لمن بعده يوصي: "اعلموا أن الديـــن والملك توأمان، لا قوام لأحدهما إلا بصاحبه، فالدين أسّ الملك وعماده، ثم صار الملك حارسًا للدين، فلا بد للملك من أسّه ولا بد للدين من حارسه، لأن ما لا حارس له ضاع، وما لا أسّ له فمهدوم" وبهذا أخذت الدولة العباسية.[21]

تعريف ابن رشد لعلم السياسة :

يـــرى ابـــن رشد أن "السياسة" جزء من العلم المدني، وهي جزؤه الثاني، وأما جـــزؤه الأول فهو الأخلاق، وإذا شئنا، قلنا إن علم "الأخلاق" هو الذي يؤسس علم السياسة، فما الذي يؤسس علم الأخلاق نفسه ؟ يرى ابن رشد أنه علم "النفس" ذلك لأن موضوع علم الأخلاق هو الملكات والأفعال الإرادية والعادات جملة، وهذه من مباحـــث علـــم النفس. وعلم النفس فرع من "العلم الطبيعي" لأن النفس ما هي إلا "كمال أول لجسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة"، فالنفس في أكثر أحوالها لا تنفعل ولا تفعل إلا من خلال الجسم. وهكذا فإن الفرح والحزن والشجاعة والغضب، وغيرها مـــن الأحوال النفسية مرتبطة بالجسم ارتباطًا عضويًا. وهي "لا تنفصل عن المادة الطبيعية للحيوان" كما يقول أرسطو.[22] أما ما هو مفارق للمادة من الأمور المتصلة بالـــنفس فتدرسه الفلسفة الأولى، أي ما بعد الطبيعة. وهكذا يرى ابن رشد أن العلم الطبيعـــي يؤســـس علم النفس، وعلم النفس يؤسس علم الأخلاق، وإذا كان هذا من الوضـــوح بشـــيء فكيف يؤسس علم الأخلاق علم السياسة؟[23] وإذا كان المقصود بـــ"السياسة" في رأي كل من أفلاطون وأرسطو هنا هو "تدبير أمور المدينة" فإن المقصـــود هـــنا هـــم أهـــل هذه المدينة، والسعي إلى تحصيل كمالاتها في عيشها المشترك. وإذن، فإن كان "علم الأخلاق" هو علم تدبير نفس الفرد، فإن السياسة هي تدبـــير نفـــوس الجماعة، أما في ما يخص الأساس الابستمولوجي (المعرفي) الذي

يبرر تطبيق ما يخص النفس على المدينة فهو "المبدأ العلمي" الذي يعبر عنه ابن رشد بقوله: "إن الأشياء التي تختلف بالكم، وهي من نوع واحد، لا يكون الواحد منها مناقضًا "للآخر" ويضيف: "إذن فبالضرورة ما يوجب وجود العدل في نفس الفرد سيكون هو بعينه ما يوجبه في المدينة الواحدة".[24]

بعبارة أخرى: المدينة بما أنها جمع من الناس، وبما أن ما يصدق على الفرد يصدق على المجموع لأنهما (الفرد والمجموع) من نوع واحد، هو الإنسان، فإذا ثبت أن العقل هو الذي ينبغي أن يحكم على صعيد الفرد ليحقق التوازن بين قواه النفسية أي بين ميوله ونوازعه، كان ذلك برهانًا على أن العقل (الفيلسوف) هو الذي ينبغي أن يرأس المدينة (وقول أرسطو، الذي يقول به أيضًا ابن رشد، بأن التفاوت بالكم لا ينتج عنه تناقض، لأن التناقض يكون بالكيف ـ هذا الذي كان يعتبر كقاعدة علمية، أثبت العلم الحديث وتجاربه فساد ذلك حيث أثبت العلم أن الكم في لحظة من اللحظات يتحول إلى كيف.[25] وقد ذهب ابن رشد خلف أستاذه أرسطو في علم السياسة بأنه ينبغي أن يُقرأ على ضوء علم النفس البشري.

ويحاول ابن رشد تبيئة المفاهيم السياسية اليونانية في الوسط العربي الإسلامي عن طريق إمكانية أن يحكم خليفة النبي في مقابل "الفيلسوف" ويجتهد الخليفة عن طريق الفقه تحوله وتغيره .. وإذا كان أفلاطون قد تناول موضوع الأخلاق في عدد من محاوراته مثل: "غورغياس" و"فيدون" وخصص "الجمهورية" و"القوانين" للسياسة التي لم تكن لتنفصل عن الأخلاق. وكذلك فعل أرسطو فكتب كتابه المشهور "كتاب الأخلاق إلى نيقوماخوس" بينما كتابه الآخر في "السياسة" وهما يشكلان معًا ما أطلق عليه "العلم المدني". وبينما كان يرى أفلاطون أن الكماليات الإنسانية هي في الجملة أربعة أنواع: فضائل نظرية (عقلية) وفضائل علمية (فكرية)، وفضائل خلقية وصنائع عملية، وأن هذه الكمالات جميعًا إنما هي من أجل النظرية وهي مقدمة لها. على نحو ما تتقدم المقدمات النتائج، وكان يرى أن اكتساب المعرفة يقود إلى الفضيلة فقد أكد أرسطو أن العلوم والمعارف بدورها لا تساعد إلا من كان بطبعه فاضلاً[26]. ولما كان الإنسان الواحد لا يستطيع أن يحصل فضيلة واحدة من هذه الفضائل بالاعتماد على نفسه فقط، من غير مساعدة الآخرين لهذا قيل عن الإنسان: "إنه مدني بطبعه".[27] والإنسان يحتاج إلى معونة الآخرين ليس فقط في الأمور الكمالية، بل في الضرورية أيضًا كالحصول على الطعام والرداء والمسكن.

وإذا كانت النفس تتكون من ثلاث قوى هي: الناطقة (العاقلة) وبها يكون الفكر والتمييز، والغضبية (السبعية) وبها يكون الغضب والشجاعة وما في معناها، والقوة الشهوانية (البهيمية) وبها يكون طلب الغذاء واللذات والشهوات من مأكل ومشرب وملبس ومسكن.[28]

ونسبة مجموعة الفضائل في أجزاء المدينة كنسبة القوى النفسانية في أجزاء النفس فتكون المدينة حكيمة في جزئها النظري الذي يسود جميع أجزائها على النحو الذي يكون فيه الإنسان حكيمًا بجزئه الناطق (العاقل) الذي يسود بواسطته على قواه الأخرى ، المرتبطة بالعقل، وهما الجزء الغضبي والجزء الشهواني، وهما أصل الفضائل الخلقية. ويحصل ذلك بأن يتحرك الإنسان إلى الأشياء التي ينبغي أن يتحرك إليها، بالمقدار الذي يقدره العقل وفي الوقت الذي يعينه. فالإنسان يسمى شجاعًا بالجزء الغضبي من النفس في المكان والزمان وبالمقدار الذي توجبه الحكمة، أي إذا استعمله بالمقدار الذي يمليه العقل. وإلا انقلب إلى جبان أو متهور. وكذلك الشأن في فضيلة العفة وسائر الفضائل. وبالجملة يكون الإنسان فاضلاً بجميع الفضائل العقلية والخلقية، وتكون الرئاسة فيه كرياسة هذه الفضائل بعضها على بعض".[29]

هذا هو العدل الذي أكد عليه أفلاطون في الكتاب الأول من مصنفه هذا وشرحه في الكتاب الرابع، وهو يعرف العدل بأنه ليس أكثر من أن يعمل كل واحد في المدينة العمل الذي هو مهيأ له بطبعه وأن يقوم به بأكمل وجه يستطيع. وهذا يكون في أجزاء المدينة مرتبًا حسب ما تقرر في العلم النظري ويسنّه أهل هذا العلم. وعليه فتكون الرئاسة لأهل العلوم النظرية. وكذلك الشأن في النفس: فالعدل هو أن يفعل كل جزء منها ما عليه أن يفعله، بالقدر الذي يجب وفي الوقت الذي يجب وهذا إنما يحصل بالضرورة في أجزاء النفس إذا قادها سلطان العقل. وهكذا فإن الحال في المدينة كالحال في النفس".[30]

الفارابي ومشروع "المدينة الفاضلة" :

لقد رأى الفارابي أن كل العلوم ينبغي بل هي في الأصل مسخرة لعلم السياسة وقد تأثر كثيرًا بالمفهوم السياسي لكل من أفلاطون وأرسطو، فهو كأرسطو قد ربط السياسة بالأخلاق عندما ذهب في كتابه: "الأخلاق لنيكوماخوس" إلى أن الفرد والدولة يبغيان الخير، وكلما كان الخير أعمّ كان أفضل، ولهذا فإن الخير للدولة

خير وأشمل من الخير للفرد. ونستنتج من هذا أن موضوع السياسة في فلسفة أرسطو ما هو إلا الجانب الاجتماعي للأخلاق".[31]

ولا ادلّ على تغلغل المبدأ الأخلاقي في العامل السياسي، وقيام السياسة على الأخلاق، بل إن السياسة ما هي إلا أداة لتحقيق القيم والأخلاق الفاضلة في المجتمع، وهذه هي رسالة "المدينة الفاضلة" ولهذا فقد شبّه الفارابي نظام المدينة الفاضلة وطبقاتها وفئاتها بأعضاء الجسد، ورئيسها ينبغي أن يكون أكثرها معرفة وأشرفها أخلاقًا. ولهذا ينبغي أن تتوفر في الحاكم صفات وخصال منها:

1) أن يكون تام الأعضاء .

2) أن يكون جيد الفهم والتصور بالطبع، جيد الحفظ لما يفهمه ويدركه.

3) أن يكون ذكيًّا وفطنًا، حسن العبارة ، قوي الحجة والبيان ، محبًّا للتعليم ، صابرًا على تحصيله ورعايته.

4) أن يكون صادقًا محبًّا لأهل الصدق مبغضًا للكذب وأهله، وأن يكون كبير النفس لا يزاول عملاً مشينًا يحط من قيمته.

5) أن يكون محبًّا للعدل والحق وأهله ، مبغضًا للجور والظلم وأهله، ينصف المظلوم حتى من نفسه وأهله .. وأن يكون عدلاً (معتدل المزاج) غير صعب القيادة إذا دعي إلى ما فيه الخير والعدل والحق، صعب الانقياد لأعمال الشر والظلم والبغي.

6) أن يكون قوي العزيمة في أمر المسلمين وقضاياهم جسورًا مقدامًا.

7) أن لا يفرط في تناول الطعام ومعاشرة النساء، وأن يجانب للهو يبتعد عن المجون، ولا يكون محبًا لجمع المال.[32]

فهم المحدثين لموضوع السياسة :

الخطاب السياسي لأبي أعلى المودودي وموقفه من المفهوم السياسي الإسلامي قريب جدًّا من مفهوم الإخوان المسلمين. وقد أكد على مصطلح "الحاكمية" وجعلها هي الميزة للفكرة السياسية الإسلامية ، وعليه تكون الدولة الإسلامية هي الدولة التي تتعلق الحاكمية فيها بالله، عز وجل، فيقرر أن "الحاكمية" بكل معنى من معانيها لله تعالى وحده ، فإنه هو الحاكم الحقيقي في واقع الأمر.[33] والمودودي يميز بين نوعين من الحاكمية :

الحاكمية القانونية والحاكمية السياسية .. فالحاكمية القانونية تتعلق بحق الله في

التشـــريع للـــناس، بينما تتعلق الحاكمية السياسية بتنفيذ الأحكام الإلهية ، ويخلص المـــودودي إلـــى أن الحاكمية القانونية خارجة عن نطاق الفعل الإنساني في حين يمارس البشر الحاكمية التنفيذية نيابة عن الله عز وجل.

ويـــرى لـــؤي صـــافي[34] أن تعريف الدولة في الإسلام يجب أن يتم من خلال مركبين:

1) المبادئ السياسية المنظمة للعلاقات السلطوية ضمن مجتمع سياسي معين.

2) الأجهزة والهيئات المخولة مهمة تنظيم الحياة السياسية ضمن هذا المجتمع.

واعـــتمادًا علـــى ذلك فهو يعرف الدولة بأنها: البنية السلطوية التي توجه الفعل السياسي وتحدده وفق منظومة من المبادئ السياسية المعتمدة.

وهكـــذا بدل التعريف الذي يرى بأن الدولة تقوم على عناصر عرضية كالتقسيم الجغرافي أو التركيب القومي والعرقي، وبناء على تعريف لؤي صافي تتميز الدولة باعـــتمادها على طبيعة الحياة السياسية ونوعية الالتزامات العقدية والقيمية السائدة، وهكذا تنقسم الدول إلى: إسلامية، اشتراكية، ليبرالية وشمولية. ويخلص إلى تعريف الدولة الإسلامية بأنها: البنية السلطوية للأمة التي توجه الفعل السياسي وتحدده وفق مـــنظومة المبادئ السياسية الإسلامية. وهكذا فإن لؤي صافي لم يبتعد جوهريًا عن النظرية السياسية للمودودي إلا من حيث تعميم الصيغة بمصطلحات أكثر عصرية لأنهـــا لـــم تستطع أن تحدد أو توسع المساحة بين الديني الذي ورد فيه نص وبين المدنـــي الذي لم يرد فيه نص، وعليه فإن تفسيره لم يستطع أن يأخذ مدارًا مستقلا في الفضاء الإسلامي، بل ظل أحد توابع النظرية السياسية للمودودي.

أمـــا الفضل شلق فإنه يرى[35] أن السلطة السياسية، الدولة، جاءت كتدبير لوجود الجماعـــة، لقد تطورت السلطة السياسية من مفهوم الخلافة في الفترة الراشدية، إلى دولة ذات مؤسسات ترتبط بفئات اجتماعية ذات مصالح ثابتة .. وقد أصبحت الدولة كيانًا صلبًا، ذا ثقل يجثم فوق المجتمع وتمتعت تدريجيًا باستقلالية، وأمسكت بجميع خيوط السلطة في المجتمع وهيمنت عليه فسيطرت على اقتصاده بحيث كانت تقتطع من فوائضه الاقتصادية، لكنها مع ذلك بقيت بحاجة لتبرير نفسها أمام المجتمع، فهي علـــى الرغم من أهميتها بقيت الأولوية تعطى في المجتمع الإسلامي للجماعة للأمة وأهدافهـــا التاريخـــية. مع أن الدولة ظلت محور نشاط المجتمع والضامن الأساسي لـــبقائه واســـتمراره، ولم تستطع الدولة أن تتحول إلى مطلق نهائي، فبقيت سلطتها محددة بكونها أداة وجود المجتمع ، وهي الوسيلة لتحقيق أهدافـــه وحمايـــة الأمـــة

والجماعة.

وقـد يصلح هذا وصفًا تاريخيًّا لتطور مفهوم الدولة في الإسلام ولكنها بمقتضى فهم شاق لم تستطع أن ترتقي إلى مثالية الدولة المطلقة المطلوبة بذاتها وكأنها تسبق المجـتمع الإنسـاني وتتزل عليه من فوق، وهذه عودة لفكرة المطلق المثالي الذي ينتهي إلى قولبة مفهوم الدولة، بحيث يلائم الإنسان والمجتمع نفسه لنموذج المطلق. والدولـة بـالمفهوم الحديث أو بالتجربة التاريخية تتشكل بمقتضى مفاهيم المجتمع ونفسيته وحالته الاجتماعية ، فالمجتمع النفعي التحصيلي لا بد له من جهاز دولة له ثقـل حتى يستطيع أن يقوم بكامل مهامه نحو المجتمع، بجيش كبير تحركه الوظيفة ومتطلـباتها. وفرق بين هذا المجتمع والمجتمع صاحب الرسالة الذي يتحرك بدافع التضـحية الذاتـية فإن فعله يتمحور بتحقيق رسالته أكثر من تحقيق ربحه، ويمثل مجتمع الرسالة حياة المسلمين في المائة الأولى بعد بعثته صلى الله عليه وسلم، فقد كانت فكرة عطاء وفتح تميزت بها الغالبية العظمى من الأمة، فقد كان يتم الفعل في معظمـه بالأجـر الزهيد الذي هو أقرب إلى التضحيات منه إلى المنفعة الشخصية التي ترسبت في نفوس الأمة بعد ذلك، ولهذا فإن جهاز الحكم في مجتمع كهذا يكون خفيف العبء، بينما عندما تزول روح الفتح والبذل والتضحيات ويركن الناس إلى حياة الدعة والرغد يبدأ الإنسان يتطلع إلى الجني والتحصيل والمنفعة، وهذه معادلة صحيحة كلما خفت روح التضحية في الأمة كلما زاد ثقل جهاز الحكم وعبؤه لأنها عملـية تعويـض تحصـل بين التضحية أو الأجر الزهيد وبين الفعل الوظيفي في المجتمع النفعي.

أما برهان غليون فإنه يرى أن الديمقراطية التي يكون فيها الأمير أميرًا للجماعة ومنتخبًا منها ومعبرًا عنها ومسؤولاً أمامها مباشرة كما جاء في قول أبي بكر أول خلفاء الإسلام : "لقد وليت عليكم ولست بخيركم، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصـيت فلا طاعة لي عليكم (إذ لا طاعة لمخلوق في معصية خالقه) أفتظنون أني أعمـل فـيكم بسنة رسول الله؟ إذن لا أقوم بها (الحكم) إن رسول الله كان يعصم بالوحـي، وكان معه ملك، وإن لي شيطانًا يعتريني، فإذا غضبت فاجتنبوني أن لا أوثـر فـي أشـعاركم وأبشاركم، ألا فراعوني، فإن استقمت فأعينوني وإن زغت فقوموني" فهذه الديمقراطية في نظر برهان غليون، أكثر صلاحية للإسلام حيث إنها تتفق مع مبادئ الشريعة.[36]

ويعرف غليون السياسة المتعارف عليها: "مجموع الممارسات التي يتيحها حقـل

سياسي معين للعناصر المكونة له، طبيعة الأدوار والقيم التي يخلعها من أجل تنظيم هذه الممارسات بما يحقق الأهداف التي يضعها المجتمع لنفسه"[37].

والمقصود بالاجتماع السياسي هو: الفعل السياسي بما هو مبدأ مؤسس لكل اجتماع مدني، والتي تستمد منه كل سياسة بنيتها، غاياتها، ووسائلها، وقيمها الأولى، وهو ما يجعل من حشد عام من الناس تجمعًا ذا معنى، أي متكاملًا ومتضامنًا ومكونًا لوحدة في الوعي والإرادة والشعور والهدف. وبهذا فليس الاجتماع السياسي هو تلك العلاقة التي تنشأ عن ممارسة التضامن والتعاطف والتواطن بين الأفراد المكونين لمجتمع واحد، وإنما هو الفعل المنشئ لعلاقات تتجاوز القرابات الجزئية والطبيعية الموروثة، أي غير المختارة وغير المفكر فيها. ولكنهم يندمجون في وحدة نسميها جماعة وطنية أو أمة بكل المعاني، فإن العقل هو الذي يجعل من الممكن أن تكون السياسة فعلاً واعيًا وقصديًّا وموضوع علم وممارسة يتعلقان ببناء المدينة والمجتمع أو إصلاحهما.[38]

وفي معرض حديثه عن الحركة الإسلامية فإن غليون يرى[39]"أن غياب المفهوم الواضح والصحيح عن الدولة هو الذي يحرمها من فهم مصدر الاستبداد السياسي وإمكانية الرد الفعال عليه، وهذا الذي يجعل نظريتها عن القهر الذي تمارسه الدولة لا تمس في الواقع الدولة ذاتها. ولكنها تطال القائمين عليها، عقيدة ورجالاً وأحزابًا، ولا يتعدى نقدها أفق الوصول إلى السيطرة على هذه الدولة نفسها. واستبدال العقيدة والرجال فيها، دون تغيير لبنيتها وأسلوب عملها وأسس تمفصلها عن المجتمع المدني. إن ما تصبو إليه هو وضع يدها على الدولة دون تغييرها، ولذلك فهي تخاطر بأن لا تنتج تحت ما تطلق عليه اسم الدولة الإسلامية، إلا ما أطلق عليه اسم مقلوب الدولة الوطنية. أي أن تقدم في النهاية لهذه الدولة باسم الاسلام، وسائل النمو والتفوق (أي الدولة) التي أصبحت تنقصها، وتعيد دور استلابها من جديد، وعلى نطاق أوسع أي تعيد بناء الدولة كدولة الحزب أو العصبة الحاكمة، أو بالأحرى كغطاء للعصبية والحزبية. ويتابع برهان غليون فهمه المتميز لعقلية الحركة الإسلامية وأسلوب تفكيرها: "إن التمييز الواضح بين العمل السياسي الذي يراهن على الدولة، وتغيير موازين القوى لتحقيق أهداف عملية محددة، والعمل الديني الذي يقوم على الهداية الروحية لبناء الضمير الذي يعتمد عليه كل إصلاح هو شرط ضروري لفهم آلية عمل الدولة، والمدخل الطبيعي إليها. فبينما تتعامل الحركة الدينية مع الفرد والجماعة من خلال تشجيع العمل التبشيري والاجتماعي الإنساني

والتركيز عليه بشكل رئيسي، ولا تعتبر الدولة مركزًا ضروريًا لمثل هذا العمل، ولا رعاية المصالح غاية له، تقوم السياسة بشكل رئيسي على رعاية المصالح الاجتماعة وتنظيم القوى العملية. وكما أن المراهنة على الدولة لتحقيق الغايات الدينية، أعني التقرب إلى الله، يحوّل الهداية إلى إكراه ويقود لعكس ما يرجى منه. فإن المراهنة على الهداية في تحقيق مصالح الدنيا ورعايتها، يحول السياسة إلى عمل أخلاقي، ويقود إلى إحباطها. وفي الحالتين يكمن الخطأ في استخدام الوسيلة الصحيحة لغير أهدافها وفي غير مكانها.

يقول الدكتور حسين مؤنس كما يقتبسه صاحب كتاب: "الفردية"[40]: الرسول لم ينشئ دولة، بل أنشأ أمة متآخية متعاونة تقوم على أسس عقيدية وقواعد أخلاقية. لم يكن في زمن الرسول هيئة حاكمة، ولا دولة وهيئة تنفيذية، وإنما كان هناك حكم القرآن وسنة الرسول، وقلوب الناس أي ضمائرهم تضمن التنفيذ.. وقد قامت جماعة المسلمين على عقيدة الإسلام وشريعته وقانونه الأخلاقي، وقامت الشورى وأدبها رسول الله، عليه الصلاة والسلام بالأسوة الحسنة.."[41].

وهكذا فإن الرسول بنى أمة الإسلام أولاً، وأقام لها نظامًا متميزًا يناسب وضعها، وثوابت رفيعة، لكنه لم يفرض آلية معينة. فجاء صحابته فأقاموا على ضوء تلك الثوابت دولة تخالف كل المخالفة لهيكلية الدول السابقة والموجودة وحتى اللاحقة من أموية وعباسية وعثمانية.

وقد كانت خلافة أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، مرحلة بين النظام الخالص الصافي وبين الدولة الإمبراطورية، أي أنها نظام أمة، لا تسلّط دولة، بمعنى أن تحكم نفسها وفق نظام رفيع، لا أن تحكمها قوة متسلطة متعجرفة، ولنستمع إلى خطبة عمر، رضي الله عنه، كما يوردها صاحب كتاب "الفردية" عن ابن الأثير: خطب عمر الناس قائلاً: "أيها الناس إني ما أرسل إليكم عمالاً ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، وإنما أرسلهم إليكم ليعلموكم أمر دينكم، فمن فعل فيه شيء سوى ذلك فليرفعه إلي، فوالذي نفس عمر بيده لأقتصنّه منه" فوثب عمرو بن العاص فقال: "يا أمير المؤمنين، أرأيت إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته، فأدب بعض رعيته، إنك لتقتص منه؟ قال: أي والذي نفس عمر بيده، لأقتصنّه منه، وكيف لا اقتصنّه منه، وقد رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقتص من نفسه: ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم،ولا تحمدوهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم".[42]

ويروى عن علي ابن أبي طالب، كرّم الله وجهه، وهو يردّ على الخوارج فيقول: "نعــم إنه لا حكم الا لله، ولكن هؤلاء (الخوارج) يقولون: لا إمرة إلا لله، وإنه لابد للناس من أمير بر أو فاجر يعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع بها الكافر، ويبلغ الله فيه الأجل، ويجمع به الفيء، ويقاتل به العدو، وتؤمن به السبل ويؤخذ به للضعيف من القوي، حتى يستريح بر ويُستراح من فاجر".[43]

ويتفق صاحب كتاب "الفردية" مع الدكتور حسين مؤنس حيث يقول: "أنا لا أقول إن الخلافة ليست من الإسلام، أو الملك يتعارض مع الإسلام، فإن الخلافة أو الملك أو السلطنة وما إلى ذلك، صور شكلية لممارسة تنظيم أمور الأمة، فالإسلام لا ينكر الخلافــة، ولا ينكر كذلك الملك أو الإمارة، فهذه كلها أشكال تنظيمية إذا ارتضتها الأمــة واختارتها لم يكن بها بأس. ولكنها تظل كما قلت تنظيمات شكلية للأمة أن تصوغها كيف تشاء".[44] بكلمات أخرى فإن الخلافة ليست هدفًا لذاته، كما يظن عامة المسلمين وإنما هي آلية تنظم بها الأمة شؤونها وتقيم بواسطتها قيمها ومصالحها.

يــنقل الأستاذ راشد الغنوشي في كتابه: "مقاربات في العلمانية والمجتمع المدني "عــن ابن القيم ما يلي: "السياسة الشرعية مدارها العدل، وإن لم ينص عليه وحي، ذلك أن الله سبحانه، أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل، الذي قامــت به السماوات والأرض، فإذا ظهرت أمارات الحق وأسفر وجهه بأي طريق كــان، فــثم شرع الله ودينه".[45] وقد عرّف ابن الصلاح السياسة أنها: "وضع يكون الناس أقرب فيه إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول، ولا نزل به وحي فأي طريق استخرج بها العدل فهي من الدين".[46]

ولقد أجاد د. خاتمي الرئيس الإيراني، صياغة مشروعه للحكم حين قال: "أعتبر أن المهمــة الأســمى هي في إقامة مجتمع مدني إسلامي في ظل سلطة القانون أي ســلطة الشريعة، بحيث ينقل مركز الثقل والقداسة والسلطة من الحاكم إلى المحكوم ومــن الشــخص إلــى الفكرة، ومن الدولة إلى المجتمع، باعتبار الدولة مجرد أداة بســيطة مــن بين أدوات المجتمع الكثيرة لأداء رسالته، لأن الدولة ليست مخاطبة برســالة القرآن، ولا هي مقدسة، وإنما المقدس كما بينه سماحة الإمام مهدي شمس الدين: الأفراد والجماعات".[47]

ونحــن لا نرى الأفراد والجماعات تدخل ضمن المقدس الذي لا تطاله المساءلة وإنما المقدس هو "حق" الأفراد والجماعات.

وما أحكم قول الإمام علي وهو يوصي عامله أن يحكم بالعدل بين الناس وليــس

بين المسلمين فحسب: "الناس صنفان، إما أخ لك في الدين، أو نظيرك في الإنسانية".[48]

المواطنون في المجتمع الإسلامي هم أصحاب الحق في تحديد مصيرهم والإشراف على إدارة شؤونهم ومحاسبة القائمين على إدارة أمورهم ، فالحكومة في المجتمع المدني خادمة للشعب وليست سيدته، وهي مسؤولة عن أعمالها أمام الناس ويختم د. خاتمي حديثه أمام منظمة المؤتمر الإسلامي: "إن نجاحنا في هذا المسار يقاس بمدى كون السياسة في خدمة الفضيلة".

ويرى الدكتور خاتمي أن المسألة الهامة المطروحة على بساط البحث هي: هل إن أمر الحكومة مفوّض للناس أم لا، حتى ولو كان الدين قد رسم الأطر المناسبة للحكومة؟ يقول خاتمي[49]: "أنا شخصيًّا أعتقد أن الحكومة أمر مفوض للناس، والدين قد رسم القواعد الكلية والضوابط العامة للنظام السياسي. إلا أن تحديد ما يناسب هذه الأمور أو ما لا يناسبها موكول إلى الناس كما أن قيام الحكومة واستمرارها يتبعان إرادة الناس ورغبتهم".

ويرى خاتمي: "أن للحريات جوانب مختلفة وأنا أؤثر الحديث عن الحرية السياسية وهو أمر يقتضي حرية الفكر وحرية التعبير وحرية الاجتماع، وحرية محاسبة الحكومة ومساءلتها. الحرية السياسية تعني أن الناس هم مصدر شرعية الحكومة وأن لهؤلاء الناس الحكم النهائي لها أو عليها".[50]

يقول خاتمي إن فهمنا للدين هو نسبي يرتبط بالزمان والمكان، الشيء الثابت والمقدس هو جوهر الدين، أما فهمنا للدين فأمر بشري ونسبي في الغالب، وقابل للتغيير، جوهر الدين لا يقبل التغيير، بل فهمنا له هو القابل للتحويل والتغيير".[51]

وأما فيما يتعلق بأمر الدولة: "فإن الدين قد حدد الضوابط الأساسية والإطار العام، وأما الحكومة فأمر مرجعه إلى الناس، بل إننا نتصور أنه حتى في زمان المعصوم كانت إرادة الناس ورغبتهم شرطًا لحكومته".[52] ويرى خاتمي أن أساس الحكومة في الإسلام لا يقوم إلا على مبدأ البيعة، البيعة التي تتم من جانبين، أي أنها كانت عقدًا وهذا يبين لنا أن الناس مخولون البت بأمر الحكومة حتى ولو كان المعصوم هو رأس الحكم.[53]

ويجيب خاتمي على معترض قد يقول: أنا مخول من قبل الله بفرض هذا على الناس سواء رغبوا بذلك أم لا . يقول د. خاتمي: "في مواجهة هذا الادعاء يظهر ما بيننا وبين الليبراليين والعلمانيين من قاسم مشترك قوامه، بكل بساطة، أنه لا يمكن

فــرض شــيء على الناس قسرًا، فالإنسان في مجتمع إسلامي إنما هو منفذ لأفكار معيــنة مع ضمان حق الآخرين في إبداء آرائهم وضمان حق الشعب في المساءلة وإذا كــان فــي الغــرب يعرض كل حزب برنامجه ومن ينال الأكثرية ينصاع له الآخرون المخالفون لرأيه .. إلا أن محتوى الحكومة الإسلامية يختلف عن محتوى الحكومــة الليبرالية والعلمانية بلا ريب. فنحن نرى أن الحكم حق للشعب، وسبيل استقراره إنما هو رأي الشعب وخياره، وهذا ينسجم مع الإسلام. فالإسلام برأيي لم يقل بأنه من الممكن لنا إجراء حكم الله بأية طريقة وأي شكل وبأي ثمن كان. لا لم يقل الإسلام بهذا وبناء عليه فنحن لا نعرف بديلاً إنسانيًا للديمقراطية".[54]

ويســتمر خاتمــي: "ولا يخفــى أن قسمًا من تاريخ الإنسان هو تحول معتقداته وتصــوراته فهل يبقى إدراك الإنسان على حال واحدة طوال التاريخ؟ وهل كانت معــتقدات أية أمة وسلوكها الديني على نمط واحد؟ إن كل هذا الاختلاف في الآراء بيــن أتــباع الديانــات وأصحاب الأفكار المختلفة عبر التاريخ، بل كل الاختلافات الأساســية بيــن مذاهــب الدين الواحد، بل أيضًا كل التعارض الفكري بين فئات المذهب الواحد، كلها تؤكد استحالت الادعاء من أي كان بالإحاطة بالحقيقة كاملة .. فمثلاً: أي إسلام نعني حين نتحدث عن الإسلام ؟ إسلام أبي ذر؟ أم إسلام ابن سينا؟ أو إســلام الغزالــي، أم محيي الدين بن عربي؟ إسلام الأشاعرة؟ أم المتصوفة؟ أم إسلام الظاهرية؟ وفي اعتقادي أن التغيير يدرك جل شؤون الوجود الإنساني".[55]

ويــرى د. خاتمــي: "أن المعنى الدقيق لعلم السياسة، هو العلم الذي يبحث عن الدولــة" وهــذا القــول يذكرنا بكلام أرسطو في كتاب السياسة، فلفظة السياسة في اللغــات الأوروبــية مشــتقة مــن اللفظة الدالة على المدينة (Polis) والمدينة هي موضوع علم السياسة برأي أرسطو[56]. ويرجع د. خاتمي إلى تعريف الفارابي لعلم السياسة في كتابه إحصاء العلوم ويعرف الفارابي العلم المدني: "العلم المدني يبحث فــي أصناف الأفعال والسنن الإرادية وعن الملكات والأخلاق والسجايا والشيم التي تحــتها تكون تلك الأفعال والسنن، وعن الغايات التي لأجلها تفعل .. وهذا لا يتأتى إلا برئاســة يمكــن معها تلك الأفعال والسنن والملكات والأخلاق في المدن والأمم ويجــتهد في أن يحفظها عليهم حتى لا تزول، وإن تلك الرئاسة لا تتاتى الا بمهنة وملكة يكون عنها أفعال التمكين فيهم وأفعال حفظ ما مكن فيهم منهم"[57]

السياســة في المصطلح الخاص كما يعرفها صدر الدين القبانجي "تدبير الأمور الاجتماعــية العامــة ذات الصــلة بالحكم والسلطة".[58] وأما علم السياسة فهو "العلم

بظواهـر المجـتمع السياســي" أو العلم بظواهر المجتمع ذي الإدارة المنظمة"[59] ويفــرق بيــن المذهب السياسي وبين علم السياسة، فالعلم السياسي هو عبارة عن معرفة الموجود (القبانجي1997، ص20) بينما المذهب هو عبارة عن معرفة ما ينبغي ان يوجـد (القبانجي، ص20) .. فعلم السياسة يكشف حقيقة الظواهر السياسية ما هي عواملهــا؟ ما هو تاريخ نشوئها؟ أما المذهب السياسي فدورنا أن نضع الأطروحة الأفضل لمجتمع السياسي (القبانجي، ص21).

محاولة تاسيس العقل السياسي على مفهوم اللاشعور السياسي :

حــتى نعطي الجزء النظري حقه من التحقيق لابد أن تشمل دراستنا هذه بشكل واف دراســات بعض الكتاب العرب في هذا الموضوع ومن بين من أكثر في نقده للعقل العربي هو الجابري الذي يرى أن: "السياسة فعل له محدداته وتجلياته، وهو فعــل اجتماعي يعبر عن علاقة قوى بين طرفين، يمارس أحدهما على الآخر نوعًا مــن الســلطة، خاصًــا هي سلطة الحكم. ومحددات الفعل السياسي بوصفه سلطة تمــارس فــي مجــتمع وتجلــياته النظرية والتطبيقية، الاجتماعية الطابع. تشكل بمجموعهــا قــوام مــا ندعوه هنا "العقل السياسي". هو "عقل" لأن محددات الفعل السياسي وتجلياته تخضع جميعًا لمنطق داخلي يحكمها وينظم العلاقات بينها، منطق قوامــه "مــبادئ" وآليات قابلة للوصف والتحليل. وهو "سياسي" لأن وظيفته ليست إنتاج المعرفة بل ممارسة السلطة، سلطة الحكم، أو بيان كيفية ممارستها".[60]

ويــرى الجابري أن العقل السياسي في أية حضارة، يرتبط ضرورة بالنظام، أو الــنظم المعرفــية التي تتحكم بعملية التفكير في هذه الحضارة، ولكن فقط بما هو "عقــل" ولــيس بمــا هو "سياسي"، وهو إذا ارتبط بها، بوصفه كذلك، أي بما هو سياســي، فإنه لا يخضع لها بل يحاول إخضاعها لما يريد تقريره: يمارس السياسة فــيها العقل السياسي. إذن ليس بيانيًا فقط ولاعرفانيًا فقط وليس برهانيًا كذلك، إنه يوظــف مقــولات وآليات مختلفة النظم المعرفية حسب الحاجة، السياسة تقوم على البراغمتــية (اعتبار المنفعة) فهل تنتظر من العقل السياسي أن يناقض موضوعه، الذي منه يستمد هويته.[61]

ويستعمل الجابري في دراسته للعقل السياسي العربي صنفين من المفاهيم :

1) صنف يستعيره من الفكر العلمي الاجتماعي السياسي المعاصر.

2) والآخر يستمده من التراث العربي الإسلامي.

والمزاوجة بين توظيف هذين الصنفين من المفاهيم ليست بالعملية السهلة، وهو يـدرك الأخطـار التي ينطوي عليها. ولذلك فقد حرص، كما يقول، من جهة على تبيـئة الأولـى مع موضوعنا فلم نتقيد حرفيًا بالمضمون الذي تحمله في مجالات استعمالها فـي حقـول الثقافة الغربية، بل على توسيعها لكي تشمل التعبير عن المضامين التي يعرضها علينا موضوعنا كمعطيات خاصة تشكل جانبًا اساسيًا من خصوصيته. وعمل من جهة أخرى على بعث حياة جديدة في المفاهيم القديمة التي اخـتارها مـن تراثنا وذلك بهدف تحريرها من قيود الماضي وربطها باهتمامات الحاضر كما يقول.[62]

مـن المفاهيم الأساسية التي يوظفها الجابري في مشروعه عن "العقل السياسي العربـي" مفهوم "اللاشعور السياسي" ، ومفهوم "اللاشعور" احتل مكانة لا بأس بها فـي الدراسـات المعاصـرة، مـنذ العقد الأول للقرن العشرين. وهي تلك الأفعال والسـلوك التي تصدر عن الإنسان بدون شعور منه بها ـــ وهي غير ردود الفعل الآلـية في كونها هادفة تلبي حاجات معينة وتنزع إلى تحقيق رغبات خاصة. ومع ذلـك فهـي لا تخضع لمراقبة "الأنا". وبما أن الأفعال الإرادية الخاضعة للمراقبة الشـعورية يقال عنها إنها تصدر عن "الشعور"، فإن الأفعال الهادفة التي لا تخضع لمـثل هذه المراقبة قد نسبت إلى منطقة أخرى في الجهاز النفسي، أطلق عليه اسم "اللاشـعور" وقـد أولى عالم النفس الشهير سيغموند فرويد هذا النوع من التحليل النفسـي عـناية فائقـة .. وبعده جاء يونغ ليعطي مفهوم "اللاشعور" أبعادًا أخرى وأطلـق عليه "اللاشعور الجمعي" وهو عبارة عن رواسب دفينة في النفس البشرية ترجع إلى تجارب وخبرات النوع الإنساني يمتد بعضها إلى الماضي السحيق إلى ما قبل نزول آدم على الارض.[63] وما ورثته النفوس البشرية من تجربة الإنسان الأول فـي الجنة (آدم والخطيئة الاولى) وما ورثه الناس كذلك من أصلهم الحيواني ومن الإنسـان البدائـي الأول .. كل ذلك يشكل في نظر يونغ "اللاشعور الجمعي" الذي يتحكم بصورة أو بأخرى في سلوك الفرد وسلوك الجماعة.[64]

ومع أن مفهوم "اللاشعور الجمعي" يبدو وكأنه أصل لمفهوم "اللاشعور السياسي" يؤسسه ويوطده بوصفه أعم منه، فإن ريجيس دوبري Regis Debray قد وظف هذا المفهـوم فـي دراسته "العقل السياسي" ولكنه جعل من "اللاشعور السياسي" يحمل مفهومًا خاصًا ومستقلاً، ذلك لأن "العقل السياسي" في نظر Debray وإن كان يخص الجماعة كاللاشعور الجمعي فإنه يختلف عنه لكونه يخص أساسًا الجماعة المنظمة

كالقبيلة والحزب والأمة. من حيث إنها ذات نشاط سياسي. هذا بينما يتعلق اللاشعور الجمعي عند يونغ بالسلوك الجماعي عمومًا. ومن جهة أخرى فإن الأعراض التي يتمظهر فيها اللاشعور السياسي غير تلك التي يعبر بها اللاشعور الجمعي عن نفسه، فبينما تكتسي تعبيرات هذا الأخير طابعًا سيكلوجيًّا، تتخذ أعراض اللاشعور السياسي طابعًا سياسيًّا أيديولوجيًّا.[65]

فدبريه يطرح مفهوم "اللاشعور السياسي" ويفسره بقوله: "فكما أن الشعور لا يشكل جوهر الحياة النفسية للفرد، فإن المؤسسات والتصورات السياسية لا تؤسس جوهر الحياة السياسية للمجموعات البشرية، فليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم السياسي، بل إن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم ذاك، خاضع هو نفسه لمنظومة منطقية من العلاقات المادية القاهرة. وهذه المنظومة تبقى حاضرة ثابتة عبر مختلف أشكال المؤسسات القانونية أو الفلسفية التي يناظر كل نوع منها بنية اقتصادية معينة. أي لأنها، أي تلك المنظومة المنطقية ليست من نفس طبيعة المؤسسات والناس لا ينتجون هذه العلاقات من خلال الروابط التي يقيمونها بينهم بعضهم مع بعض بـ "حرية" بل إنهم هم أنفسهم نتاج هذه العلاقات التي تتولد فيها ترابطاتهم تلك. وكما هو الحال تمامًا بالنسبة للأفراد، ولكن بصورة أخرى. فإن الجماعات البشرية المنظمة لها شعور نوعي خاص بها. تشكل الديانات وما يقوم مقامها من الأيديولوجيات أكثر أعراضه وضوحًا، لا شعور نطلق عليه ها هنا اسم "اللاشعور السياسي". إن هذا اللاشعور ليس من طبيعة سيكلوجية، إذ لا تتكون قاعدته من التصورات النموذجية (خلافًا لمثل أفلاطون) وليس هو بالأحرى من طبيعة روحية ولا مما ينتمي إلى عالم الغيبيات (على الرغم من شؤم التشابه اللفظي مع اللاشعور الجمعي عند يونغ) إنه لا يتحدد بأشكال رمزية كافية على السطح، بل يتحدد بأشكال ثابتة من التنظيم المادي، ليست الأشكال الرمزية تلك إلا رسومًا لها وبصمات.[66]

ويحاول الجابري الخروج عن روح منطق ديبريه حين يستعير مفهوم "اللاشعور السياسي" فلا يأخذه بكل حمولته، ولا بنفس مضمونه، بل يتصرف فيه بالقدر الذي يفرضه الموضوع الذي يتناوله. والذي يختلف اختلافًا بينًا عن الموضوع الذي جاء ليعالجه في الأصل. ذلك أن دبريه كان يكتب وهو يفكر ويعيش في المجتمع الأوروبي المصنع، حيث أمست العلاقات العشائرية والطائفية لا تحتل في هذا المجتمع أكثر من بقع صغيرة خلف الموقع الذي تحتله العلاقات الاقتصادية

المـــتطورة، علاقات الإنتاج . وبرأي الجابري فإن الحالة العربية بعكس ذلك فهي ذات طابع عشائري وطائفي التي ما زالت تحتل مكاناً جوهريًا في حياتنا السياسية. وهكـــذا إذا كانـــت وظيفة مفهوم "اللاشعور السياسي" عند ديبريه هي إبراز ما هو عشـــائري وديـنـــي في السلوك السياسي في المجتمعات الأوروبية المعاصرة ، فإن وظيفـــته بالنســـبة لـــنا ستكون العكس فهو إبراز ما هو سياسي في السلوك الديني والســـلوك العشائري داخل المجتمع العربي، قديمه وحديثه، ذلك لأن السياسة عندنا بـــدأ ت تمـــارس باسم الدين والقبيلة وما زالت كذلك حتى اليوم. وإذا "فاللاشعور السياســـي" المؤســـس للعقل السياسي العربي، يجب أن لا ينظر إليه فقط على أنه "الديني" و"العشائري" اللذان يوجهان من خلف الفعل السياسي بل لا بد أن ننظر إليه على أنه السياسي الذي يوجِّه من خلف التمذهب الديني والتعصب القبلي.(67)

واذا كـــان ديبريه يقيم التراتب التالي بين ما هو سياسي وما هو أيديولوجي وما هـــو ديني مرتكزًا في ذلك على ما يقدمه له المجتمع الأوروبي فيقول: "إن فهم ما ينتمـــي إلى السياسة يجب التماسه لا في ذاته نفسه بل في الأيديولوجيا، وما ينتمي إلى الأيديولوجيا يجب التماسه في الدين، وفهم ما ينتمي إلى الدين يجب التماسه لا بالديـــن نفســـه بـــل في الفيزياء الاجتماعية (بما في ذلك علاقات القرابة والقبيلة). ويـــرى الجابري أن ذلك لا ينطبق في حالة التجربة الحضارية العربية الإسلامية ، فهـــنا يـــبدو حسب قول الجابري، وكأن الاجتماعي هو الذي يؤسس السياسي، وأن السياســـي هو الذي يؤسس الأيديولوجي وأن هذا الأخير يؤسس الديني (التمذهب) وهكذا فإن ما على السطح هنا هو التمذهب الديني وليس الاختيار السياسي وبالتالي فإن اللاشعور السياسي عندنا لا يتأسس دائمًا على الدين، كما في أوروبا الحاضرة علـــى الأقـــل ، حســـب ديبريه، بل إن التمذهب الديني عندنا هو الذي يطفو على اللاشعور السياسي ويغطيه.(68)

وفـــي أثـــر ديبريه ويونغ يرى الجابري من أن مفهوم "اللاشعور السياسي الذي يحكم الظاهرة السياسية من الداخل تفكيرًا وممارسة، أما عن المرجعية العامة للعقل السياســـي والتـــي تقـــوم له مقام النظام المعرفي بالنسبة للعقل النظري، الفلسفي الكلامي الفقهي، والتي تؤطر اللاشعور السياسي نفسه، وتشكل له نوعًا من "الوطن" داخـــل الـــنفس الجماعية فهو ما يترجم هنا بـــ "المخيال الاجتماعي" Imagination وهـــو مفهوم استعير من علم الاجتماع المعاصر. ومن أبرز ممثلي هذا العلم عالم الاجتماع الفرنسي Pierre Ansart والذي بدوره اعتمد في تعريفه للخيال الاجتماعي

علـــى تعـــريف ماكس وبيير للعقل الاجتماعي، بكونه نشاطًا يحمل معنى يشد إليه الفاعليـــن الاجتماعييـــن فيـــنظمون ســـلوكهم بعضهم إزاء بعض على أساسه .. فالممارســـة الاجتماعـــية بوصفها تنظم شتات تصرف الأفراد وتوجهه نحو أهداف مشـــتركة، تفترض وجود بنية معقدة من القيم وعمليات التعيين والاندماج المحمل بمعان ودلالات، كما يفترض لغة رمزية (شيفرة) اجتماعية ومستضمرة ليست هناك أية ممارسة اجتماعية يمكن إرجاعها فقط إلى عناصرها الفيزيقية والمادية ذلك لأنه لمـــا يشـــكل جوهـــر الممارســـة الاجتماعية أنها تسارع إلى التحقق في شبكة من الدلالات، يتم فيها استيعاب وتجاوز الطابع الجزئي للتصرفات والأفراد واللحظات، ومن هنا أمكن القول، فإن كل مجتمع ينشيء لنفسه مجموعة منظمة من التصورات والتمثلات، أي مخيالاً، من خلاله يعيد المجتمع إنتاج نفسه مخيالاً يقوم بالخصوص، يجعل الجماعة تتصرف بواسطته على نفسها، ويوزع الهويات والأدوار، ويعبر عن الحاجات الجماعية والأهداف المنشودة. والمجتمعات الحديثة، مثلها مثل المجتمعات التي لا تعرف القراءة والكتابة، تنتج هذه المخاييل الاجتماعية، هذه المنظومات من التمـــثلات، ومن خلالها تقوم بعملية التعيين الذاتي، تعين نفسها بنفسها وتثبت على شـــكل رمـــوز معاييرها وقيمها..[69] وبقيام الجماعات البشرية بإنشاء معان ودلالات مخيالية اجتماعية تتمكن من إعطاء معنى لكل ما هو "موجود" لكل ما يمكن أن يقوم فـــيها أو يقـــوم خارجها. وبفضل هذه المعاني والدلالات المخيالية الاجتماعية تقوم الجماعـــات البشـــرية بتدشين العمل التاريخي وتنشيطه .. إن كل مجتمع يقدم نفسه للرؤية لرؤية الآخرين له، من خلال الصورة التي يكونها عن نفسه. فمن خلال هذا الموشـــور يـــرى الآخـــر ويصـــدر عليه حكمًا. سواء كان هذا الآخر "وحشيًا" أم "متحضرًا" "كافرًا" أم "مؤمنًا" وهذه التمثلات والتصورات المخيالية تمارس سلطتها ليس في ميدان التصور فحسب، بل أيضًا في مجال الفعل الاجتماعي الذي تقوم به كل جماعة بشرية قائمة تعرف نفسها من خلال المقارنة مع الآخرين.[70]

ويـــرى الجابـــري ضـــرورة الإســـراع في تبيئة هذه الدراسات وتوظيفها في المواضيع التي تحاول أن تدرس العقل العربي وتكوينه، ويرى الجابري أن مخيالنا الاجتماعـــي العربـــي هو الصرح الخيالي المليء برأسمالنا من المآثر والبطولات وأنـــواع المعاناة، الصرح الذي يسكنه عدد كبير من رموز الماضي: من الشنفرى إلى حاتم الطائي .. حتى أبو زيد الهلالي وصلاح الدين والصالحين وغيرهم .[71]

وعلى تساؤل برتراند بادي (أحد أساتذة علم الاجتماع الفرنسيين المعاصرين) في

كتابه الحديث: "الدولتان/ السلطة والمجتمع في الغرب وفي بلاد الاسلام" لماذا تطورت "الدولة" في أوروبا من دولة "الأمير" (الملك، الإمبراطور) إلى الدولة الحديثة دولة "الحداثة السياسية" دولة القانون والمؤسسات، الدولة التي تستمد شرعيتها من كونها تمثل إرادة الشعب المعبر عنها بواسطة انتخابات حرة وتعمل لخدمة المصلحة العامة .. وبالمقابل لماذا لم تتطور الدولة في بلاد الإسلام خلال القرون الوسطى إلى دولة حديثة من هذا الطراز؟ ثم لماذا فشلت المحاولات التي قامت بها النخب العصرية في بلاد الإسلام من أجل نقل الحداثة السياسية الغربية تلك إلى بلدانها؟ (72)

وحتى يأخذ البحث حظه لا بد من الإشارة إلى تلك المدرسة التي حاولت أن تجعل من علم السياسة علمًا كباقي علوم الطبيعة، وجُل من كتب من هذه المدرسة كان من الأطباء والفيزيائيين والكيميائيين وعلماء الطبيعيات وباختصار علماء ممارسين مثل "فولني" (وهو فيلسوف وكاتب فرنسي (1757-1820) وقد زار الشرق الأدنى بعد أن درس الطب والحقوق وألف كتابًا بعد عودته من رحلة إلى مصر وسوريا وهو العالم الأخلاقي والاجتماعي لزمرة الأيديولوجيين) وكذلك "كابانيس" و"بنيل" (طبيب فرنسي 1745-1826) وقد اختص بدراسة الأمراض العقلية وقد كان له الفضل في إبطال طرق العلاج القاسية التي كان يخضع لها المجانين وله مقالة هامة بهذا الموضوع: "مقالة طبية ـ فلسفية عن الجنون العقلي أو الهوس 1801).

وقد تمثل مشروعهم بالتحديد في رفع "العلوم الأخلاقية والسياسية إلى مرتبة العلوم الفيزيائية والطبيعية، وقد شاركوا بنصيب فعال بوصفهم منظمين ومشرعين ومربين، في الحياة السياسية لذلك الزمان. فقد كان تأثيرهم واضحًا في إرساء قواعد العلم الحديث لا سيما تلك الشعبة التي ابتكروها مثل اكاديمية العلوم الأخلاقية السياسية"(73)

ويقول ديبريه في صدد تعليقه على مشروع هذه النخبة: "وإن علمًا في السياسة إذا كان بالإمكان أن تكون أمور السياسة موضوعًا لعلم، سوف يكون علمًا في اللاعلم، لأن الذي لا يمكن تأسيسه "على العقل" ـ الرأي، الاعتقاد، الإيمان هو الذي تستند إليه السلطة السياسية ـ ويتمثل شرح الأسباب الموجبة لقيام السلطة السياسية أول ما يتمثل في شرح الآراء السائدة (سيكون في وسع علم الأعلام المساهمة في ذلك بفحص النظام التقني لإنتاج الآراء أو الخطب العامة، الخاصة بكل عصر من عصور مجتمع معين". (74)

يقول ريجيس ديبريه: "طويلاً ما أخفت السياسة عني السياسي" وهذا النقد للعقل السياســي، اذ يثبت على نحو مادي دقيق الطبيعة الدينية للوجود الجماعي يكتشف، فــي تطبــيق التنظيم، ثوابت يشكل مجموعها "اللاشعور السياسي" للإنسانية، بكلمة أفضل : حضورها الأبدي".[75]

وهناك بعض المفاهيم السياسية المعاصرة من المفيد أن نذكرها باختصار شديد:

1- يــرى ريمون آرون أن التناقض بين البرنامج والسياسي والمجال السياسي. وهكذا فان السياسة تعني في البرنامج السياسي برنامجا وطريقة عمل أو العمل نفسه ســواء كان ذلك عمل شخص أو جماعة، وفي مشكلة ما أو مجموعة من المشاكل لجماعــة مــا. لكن السياسة في المجال السياسي تعني كل متناسق أو مؤلف حيث يكون لكل من الأفراد والمجموعات أهداف ومصالح وفلسفة خاصة بهم.

2- التــناقض بين المجال والمعرفة السياسية، حيث تعني كلمة سياسة في الوقت نفسه الحقيقة والوعي الذي نشعره.

وأما تعريف ماكس ويبر فهو يحدد المجموعة السياسية، هي التي تمارس العنف المشــروع، فكل تنظيم يهدف إلى استمراريته يضع لنفسه بعض القيود التي تكون مصحوبة باستعمال القوة بهدف المحافظة على وجود النظام.

وأمــا روبــرت دال فــيعرف السياسة بأنها اللجوء إلى القوة في تحديد مفهوم السياسة فهو يرى: "أن أي نظام سياسي مهما كان نوعه هو تعبير عن مجموعة من العلاقات الإنسانية والتي تفترض وجود علاقات قوة وحكومة وسلطة".[76]

وأمــا تاكلوت بارسونز فهو يرى في المعيار الوظيفي للسياسة من أجل تحقيق أهــداف معينة. فلكي تتخذ اية ظاهرة صفة السياسة يكون عليها اللجوء إلى تنظيم، والى تعبئة الموارد الضرورية من أجل تحقيق أهداف مجموعة معينة".[77]

وأما المفهوم الماركسي فإن السياسة لديه تعني البنية الفوقية القانونية والسياسية للدولــة، والتي وجدت مع ظهور الجهاز الحكومي وأخذت استقلاليتها ويتضمن هذا الجهــاز قيادة تحتكر إدارة الدولة وتتمتع بامتيازات معينة، اما الممارسة السياسية فتعنــي الصراع الطبقي الذي يهدف للحصول على أجهزة الدولة والسيطرة عليها، واستخدامها كجهاز قمع لسحق الطبقات الأخرى.[78]

التفسير البيولوجي للسياسة :

إن علم البيولوجيا بين لنا أن وجود هياكل لمجموعات اجتماعية مختلفة ـــ حتى

بين الاصناف الفردية ــ ما هو إلا نتيجة للتداخل بين الحيوان ومحيطه وهكذا تلعب فكـرة الانـتقاء الطبيعـي دورها في تطور المجموعات القوية. إن فكرة الانتقاء الطبيعـي بمقتضـى هذا التحليل تختلف بعض الشيء عن المعنى التقليدي (البقاء للأصـلح) الـذي جـاء بها داروين. مع أن المحصلة النهائية ترى أن ما يقول به Roger أن الانـتقاء الطبيعـي يساعد على نقل أصول قدرات الأفراد إلى الأجيال القادمـة بـدلاً من نقل استعداداتهم المنظور إليها من زاوية مفهوم الصحة والقوة والجمـال أو أي صـفة طبيعية أخرى لا يقدم ولا يؤخر في تمييز مقولة "الانتقاء الطبيعي" و"البقاء للأصلح".(79)

وأمـا Geaffery Pouton وPeter Gill فـيعرفان السياسة بأنها مفهوم نستخدمه كجزء من النماذج والأطر الذهنية، التي تـفسر من خلالها أو تحاول أن تفهم العالم مـن حولـنا وبـناء عليه فإن فهمنا يعتمد على الأقل، على كيفية تعريفنا للسياسة وللنشـاط السياسـي، فليس هناك تعريف صحيح وكامل للسياسة، إذ إن التعريفات العديـدة للمصـطلح تـأخذ فـي عين الاعتبار الغرض الذي من أجله وضع هذا الـتعريف، أو ذاك. فقـد يكون التعريف جاء لكسب التأييد للسياسات الحكومية أو للثوار أو فيما يخص دولاً أخرى.(80)

والسياسـة المثالـية Idealism ومـن أشـهر من تحمس لها الرئيس الأمريكي WidroWilson ومحاولته إقامة نظام جديد للأمن الجماعي CollectiveSecurity بعد أهوال الحرب العالمية الأولى وصياغة وثيقة عالمية آليتها عصبة الأمم league of Nations وكانـت حلـول المثاليـين تعتمد على اعتبار الإنسان خيرًا وكاملاً ولكن مشاكله تأتيه من عدم كفاءة المؤسسات التي تحكمه..

فـي مقـابل المثالية ترى السياسة الواقعية Realism أن التصادم بين الدول من طبـيعة الـدول، ومن أكثر دعاة الواقعية شهرة هو Hans J. Morgenthau ، كان يـرى: "أن أداة العلاقات بين الدول يمكن اختزالها بأنها مجرد تصادم بين المصالح القومـية المتعارضـة ويؤكد ذلك تسابق لا نهاية له من أجل بناء القوة"(81) والواقعية السياسـية بـنظرتها السلبية للإنسان المتمثل في رأي هوبز والذي يمكن اعتبار أن فكـره يصـب فـي نفس خانة الواقعية. وبمقتضى فكر الواقعية فإن جدول أعمال السياسة الدولية مثقل بمواضيع: مثل السلم، والحرب، البقاء، القوة.(82)

يقـول Morgenthau فـي اعقاب حرب 1967 بين العرب وإسرائيل: "السياسة الدولية، مثل جميع السياسات الأخرى، هي صراع على القوة ، ومهما يكن الهـدف

النهائي للسياسة الدولية، فإن القوة هي الهدف الآني لها".[83]

والواقعية ترى أن لا أخلاق ولا قيم تعلو مصلحة الدولة، وأن الأعمال التي يرتكبها الفرد قد تعتبر أعمالاً إجرامية يعاقب عليها أشد العقاب، ولكنها لا تعتبر كذلك إذا ارتكبت من أجل خدمة الدولة. وهكذا فإن الدولة حين تعاقب القتلة بالإعدام والسجن على الصعيد الداخلي للدولة فهي تكافئ القتل المنظم لأعدائها الغرباء بأكاليل الغار.[84]

نشوء الدولة الحديثة :

مع الصراع الدائر بين الملكيات الإقطاعية في القرن السابع عشر والثامن عشر فقد أوجد أيديولوجيوا البرجوازية الناشئة الحقوق الطبيعية للإنسان الفرد من أجل تعزيز قوتهم. وأسسوا كذلك نظرية الدولة وقيامها على أساس من العقد الاجتماعي. وقد اشتهر من بين ممثلي هذا الاتجاه في هولنده هوجو جروطيوس وباروخ شبينوزا في القرن السابع عشر، وكذلك توماس هوبس وجون لوك في إنجلترا في القرن الثامن عشر. ثم جاء جان جاك روسو الذي بشر بمبادئ المساواة الديمقراطية الاجتماعية. وبمقتضى مدرسة الحق الطبيعي فإن الدولة هي ثمرة عقد بين البشر، حيث كان البشر قبل ذلك موجودين في حالة بدائية طبيعية. ولقد ذهب هوبس إلى أن الوضع كان أقرب إلى أن الكل في حرب مع الكل، بينما في رأي لوك وروسو كان وضع حرية وسلام ومساواة، وقد فهم هؤلاء بأن ذلك الوضع ما هو في الحقيقة إلا عقد بين كل الناس على إنشاء الدولة باتفاق يجعل من الجمهور الغير منظم مجتمعًا منظمًا. وقد ميز هؤلاء الفلاسفة بين مرحلتين لنشوء الدولة "المرحلة الأولى" القائمة على "عقد الاتحاد" Pactum Unionis والمرحلة الثانية "عقد الخضوع" Pactum Subiectionis وهو عقد بين الشعب والأمير أو من يقوم مقامه كممثل لنظام الحكم القائم. ولم ير هؤلاء الفلاسفة باستثناء جون لوك، أن الدولة من ناحية تاريخية قد بدأت ذلك بالعقد الاجتماعي، ولكنها فرضية تأسست أو قامت عليها دستورية النظام ومبادئ التنظيم السياسي.[85] وقد كان لأفكار شارل مونتسكييه بما يتعلق بالفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية تأثير كبير على تأكيد الحريات، وكان لها أيضًا تأثير على القوانين التي سنت بعد الثورة الفرنسية والأمريكية، وحسب فلسفة مونتسكييه، فإن تجربة الأجيال تعلمنا أن من يمسك بالسلطة لطالما استغلها بصورة سلبية ، وقد يبالغ في ذلك حتى يصطدم بحاجز أو

مانع يمنعه من ذلك.

ولقد اعتبر كانت Kant أيضاً أن الدولة تقوم على اتفاق وهي ثمرة للعقد الاجتماعي، ليس بكونها حقيقة تاريخية، ولكن كفرضية قانونية لقيام الدولة. وهي التي تدافع وتحمي الأفراد من كل شر، وتساعد على العيش المشترك ضامنة للحرية الفردية. وعلى الرغم بأن الأفراد فقدوا حريتهم الطبيعية في دولة العقد، ولكنهم حصلوها من جديد كحرية منحهم إياها القانون (حرية القانون) أو حرية دولة القانون، التي قيدت الدولة من تجاوز حقوق الأفراد وحسب تعبير كانت، على الدولة أن لا تتجاوز عتبة بيت المواطن. وأما التغييرات التي يمكن أن تحصل في أجهزة إدارة الدولة فينبغي أن تتم على شكل إصلاحات تدريجية وليس عن طريق العنف بالتمرد والثورات. وما دام هناك فصل بين السلطات فيمكن اعتبار أن النظام هو جمهوري،وإلا فهو نظام فردي استبدادي. ويرى كانت أن ما يميز نظام الحكم هو عدد الذين يساهمون في إدارته وهو الذي يقرر إن كانت ملكية، أو أرستقراطية أم ديمقراطية".[86]

وأما هيجل فقد أبطل بشدة فكرة نشوء الدولة بعقد اجتماعي، وهو يرى أن وجود الدولة هو أمر ضروري وحتمي، لأن الدولة هي تجسيد إرادة الله في العالم وليست الدولة وسيلة لغاية ما، وإنما هي غاية وهدف لذاتها، وهي الغاية العليا وقد وضع هيجل ثلاث مراحل لتطور الأخلاق الاجتماعية: العائلة (التي تقوم على علاقات طبيعية مباشرة)، والمجتمع المدني (وهو مجال المصالح الخاصة الاجتماعية والاقتصادية). وأما المرحلة الأخيرة والعليا هي الدولة، والتي هي تجسيد لمصالح عالمية عامة، وقد أيد هيجل النظام الملكي الدستوري، حيث يكون الملك فيه صاحب سلطات رمزية فقط. وأما السلطة التنفيذية الفعلية فقد جعلها بأيدي البيروقراطية .. وقد مزجت نظرية الدولة عند هيجل في داخلها مبادئ "فلسفة التنوير" عقلانية الثورة الفرنسية مع الدولة البروسية المحافظة؟!"[87]

وقد عارض الفوضويون أفكار هيجل بشكل قاطع، هذه الأنارخية anrchy والتي ما هي إلا فردية مطلقة، والتي ترى أن جهاز الدولة يتعارض مع الحقوق والمصالح الفردية. وقد نشر هذه الأفكار في إنجلترا جودوين (1756 ـ 1836) وفي ألمانيا ماكس شتيرنر (1806 ـ 1856). بينما نقد برودون الملكية الخاصة والدولة، وقد رأى أن ليس من حق المجتمع أن يتحكم ويسيطر على الناس وينبغي تحطيم الجهاز القمعي الذي يمسك به المجتمع (كناية عن الدولة) وينبغي أن يحل الجمهور

مكـــان الدولة، أن تقوم الجماعات بإدارة الأمور بشكل تطوعي، في بعض الأحيان كان يدعو برودون لتنظيم اجتماعي مركزي يقوم على اتحاد نقابات مهنية، وقريب مـــن هـــذاه الأفكـــار التي كان يدعو إليها باكونين في روسيا ... وقد تطرفت هذه الاتجاهـــات الفوضـــوية بعـــد منتصـــف القرن التاسع عشر حيث ظهرت مفاهيم السينديكالســـتية Syndicalism القريـــبة من الفوضى، في رؤيتها لجهاز الدولة، هذا التـــيار[88] نادى بإلغاء الدولة كتنظيم، والتي هي تجسيد للمصالح السياسية للجماعات المجتمعية ولهذا ينبغي إبدال ذلك بتنظيم اقتصادي، والذي يقوم على تنظيم النقابات الأهلية حسب الانتماء المهني".[89]

أمـــا المفاهيم التقليدية المحافظة الرومانسية الحديثة والتي ترجع بجذورها لفكر أدمونـــد بـــارك Burk الإنجليزي (1727-1797) وهو يعتبر مؤسس التيار الفكري المحـــافظ الحديـــث، والذي انتفض ضد النظرة العقلانية للدولة التي أرست معالمها حـــركة "التنوير" والثورة الفرنسية، وقد اعتقد Burke أن الدولة لها جذور تاريخية بعـــيدة في الدين والأساطير القديمة. وقد رأى أن الدستور البريطاني، والذي تطور بشكل تدريجي عضوي منذ القدم خلافًا للدستور الفرنسي 1789 الذي تميز بثوريته وعموميته وتصنعه. ومن بين النظريات التي انتشرت في القرن التاسع عشر كانت "الـــنظرية النفعـــية الليبرالـــية" والتي ترجع في بعض جذورها إلى فلسفة "التنوير" وتطـــورت فـــي إنجلترا في القرن 19 على يدي يرمياهو بثهام ، وقد اشتهر بهذه الفلســـفة ، ومن آباء المدرسة النفعية كان جون ستيورات ميل وهو ممثل الليبرالية الشهير. ولقد وضع حدودًا للحريات التي لا ينبغي للدولة التدخل بها، خاصة الحرية الفردية في المجال الاقتصادي.

وأخـــيرًا الـــنظريات السياسية الشمولية مثل النازية والفاشية والتي رأت بالدولة تجـــيدًا للأمـــة وللعـــرق، والتي تقف فوق الأفراد وتتدخل في كل مجالات الحياة الانســـانية. وتعزز مفاهيم "عبادة القوة" وأساليب العنف، ومفاهيم النخب الأكثر قوة والأكـــثر عنفًا ومفاهيم التفوق العرقي .. أما الدولة في الفكر الماركسي فهي جهاز قمعـــي بـــيد الطـــبقة الحاكمـــة ولا بد من العمل على إضعافها حتى يتم استبعادها وغروبها بعد أن يتم زوال الطبقات في المجتمع مع فوز المجتمع الشيوعي.

علم السياسة :

لقد تطور علم السياسة والذي هو في أصله نما وترعرع على دراســـة نظريـــة

الدولة وقد تأثر كثيرًا بتيارين كان لهما تأثير كبير في صياغة الفكر السياسي دولة وعلمًا هما: الفكر اللبرالي والفكر الاشتراكي، وكلاهما رفض الاعتراف بالمبدأ السياسي كعنصر حاسم ومستقل في حياة المجتمع، ولقد رأى كلا التيارين بالعامل الاقتصادي صاحب الدور الأكثر أهمية في حياة الناس. وبهذا اعتبرا النشاط السياسي صاحب دور ثانوي فقط. ولم تكن الدولة في نظر اللبراليين أكثر من حارس ليلي وبهذا اختزلت وظيفة الدولة كثيرًا. بينما رأى التيار الاشتراكي أن جهاز الدولة ليس فقط غير ضروري، بل ينبغي إلغاؤه وتحدث عن أفول الدولة وغروبها بعد زوال الصراع الطبقي التي تعتبر الدولة جهازه القمعي.

وعلم السياسة اليوم فيه ثلاث اتجاهات رئيسية:[90]

1- الاتجاه الأول يربط علم السياسة ويحصره في الدولة وتطور اشكالها وما يتعلق بالظواهر الاجتماعية الأخرى. وهي لا تبحث بهذه الظواهر الإجتماعية الا من حيث علاقتها المباشرة بالدولة، وهذا الاتجاه يعتمد على النظرة القانونية التقليدية للدولة ذات السيادة. وأصحاب هذا الاتجاه لا يعالجون أمر الدول التي لا سيادة لها. وما زال العديد من الدارسين لعلم السياسة يأخذون بهذا الاتجاه في فهمهم لموضوعات علم السياسة.

2- الاتجاه الثاني يرى أن علم السياسة تشمل أبحاثه كل الأمور التي لها علاقة بموضوع السياسة كالدبلوماسية مثلاً. وليس هناك تشابه بمقتضى هذا الاتجاه بين الدولة وبين السياسي. وأساس العلم السياسي بل جوهره هو عزل الفعل السياسي المحدد ودراسته. وهناك بعض تيارات لا تعترف بوجود علم سياسي مستقل، وإنما هو ظاهرة مرافقة، فالمفهوم اللاهوتي للدولة يرى في علم السياسة آلية يمكن توظيفها في المجال الديني والميتافيزيقي. بينما المادية التاريخية ترى فيه كما هي الدولة آلة اقتصادية، وليس لعلم السياسة وجود بذاته.

وكان يرى ماكس ويبر أن السياسة هي فن الصراع لامتلاك القوة. أو للتاثير من أجل تقاسمها. سواء كان الصراع بين الدول أو بين الجماعات المنظمة داخل الدولة. وكل من يعمل في السياسة يتطلع لامتلاك القوة، القوة كوسيلة لأهداف أخرى عقائدية أو أنانية، أو قوة لذاتها حتى يشبع غروره.

ويرى بعض الدارسين أن الهدف من السياسة هو مبدأ السيطرة، أو التأثير.. هناك من رأى السياسة كعلم يحدد الصلاحيات ، الحكم ، القوة ، ومشكلة المصطلح " قوة " يقود إلى إشكالية الحد بين علم السياسة وبين علم الاجتماع السياسي والتي

تمثل "القوة" عنصرًا أساسيًا في مفهومها.

3- وأمـــا الاتجاه الثالث فيرى أن العلوم السياسية ما هي إلا جزء من علم كيفية "اتخاذ القرار" Policy making أو بتعبير ادق العملية السياسية .

طرق وأساليب البحث في علم السياسة :

هنالك عدة اتجاهات ومدارس في أساليب البحث في علم السياسة منها:[91]

1) الاتجـــاه التحليلي الفلسفي: والذي يبحث بالمصطلحات الأساسية لعلم السياسة مثل: الدولة، القانون، القضاء، العدل، صلاحيات وواجبات مساواة.

2) الاتجـــاه الوصفي التصنيفي وهو في أساس عمله يقوم بجمع حقائق تجريبية وتصـــنيفها ثـــم وصـــف المؤسسات والاتجاهات السياسية، وبدل أن يكون التأكيد والأهمية للهياكل الرسمية، والنظريات القانونية، كثرت في المدة الأخيرة الدراسات ذات الطـــابع الوظائفـــي، والتي تعالج مواضيع ومؤسسات غير رسمية، وهكذا فقد اهتم علم السياسة التقليدي كما حصل مع بداية القرن العشرين في مشكلات الماكرو سياسية وإلى جانبها خمس مواضيع أساسية:

* قانونية، وقد اهتمت بهيكلية الدولة ومؤسسات النظام Public law وقد اعتبر ذلك نواة علم السياسة.

* تاريخية، وقد اهتمت بدراسة ظاهرة معينة أو مؤسسة ما أو فكر محدد.

* فلسفية تحليلية تبحث بإشكالية ماهية المواضيع والمفاهيم والمصطلحات.

* العادات والتقاليد البعد القيمي وفاعليته في إنتاج النشاط السياسي.

* الوصفي التصنيفي: وهو يقوم بتصنيف الفكرة والمؤسسة والعملية السياسية.

وأمـــا المـــرحلة الثانية في علم السياسة الحديث هي: مدرسة السلوكية السياسية Political behavior والتـــي انتقدت علم السياسة التقليدي. وهذه المدرسة السلوكية ترمـــي لجعـــل علـــم السياســـة علمًا نقيًا كعلوم الطبيعة وهي تنظر إلى كل العلوم الاجتماعية هي علوم سلوكية وتطمح إلى جعل علم السياسة واحدا منها. وقد أطلق علـــيها البعض تعبير "ميكرو سياسي" وفي رأي هذه المدرسة فإن السلوك السياسي الذي هو تعبير عن الوظائف السياسية التي هي وظائفية شخصية، وتنظيم اجتماعي عـــام. ولا ينبغـــي أن نفهمها إلا على هذا الأساس، فالمؤسسات السياسية، والدولة والأيديولوجيات السياسية ليست المواضيع الوحيدة المطروحة للدراسة. ولهذا يجب النظر إلى السلوك السياسي الفردي والجماعاتي باعتبارها المجال الأساسي للدراسة

والبحث ولهذا دعيت هذه النظرية بـــ"الميكرو السياسي" هذه المدرسة ترفض رفضًا قاطعًـــا النظريات القيمية للبحث ولهذا فهي ترمي لموضوعية علمية، وهي لا تقبل العلم السياسي التقليدي الملاصق والمتداخل مع الثقافة والتقاليد الغربية في مفهومها للسياســـة الديمقراطية. وبهذا فقد يقتصر على معالجته لنمط واحد من أشكال الحكم من غير أن يعالج أنماط حكم أخرى.

وأمـــا المرحلة الثالثة: فهي علم السياسة المعاصر، الذي لا يفرق بشكل واضح بين علم السياسة التقليدي (ماكرو علم السياسة) وبين علم السياسة السلوكي (ميكرو علـــم السياســـة) ولهـــذا ففي الولايات المتحدة توسعت الدراسات لتشمل أيضًا علم السياسة التقليدي وعلم السياسة السلوكي.

مع بداية القرن العشرين انقسم العلم السياسي[92]: النظرية السياسية العامة، قانون الدولة العام، والسياسة (الدبلوماسية) ولكن في عام 1948 أقر خبراء اليونسكو أربعة مجالات لعلم السياسة :

1) النظرية السياسية وتاريخ الفكر السياسي.
2) مؤسسات سياسية.
3) الأحزاب والحركات والرأي العام .
4) العلاقات الدولية.

وقد تطور الموضوع في الولايات المتحدة ودول أخرى وضم الأقسام التالية:

(1) الفلسفة السياسية (2) نظرية الحكم (3) الإدارة العامة (4) العلاقات الدولية.

الفصل الثاني

عودة من تفريع الفروع إلى تأصيل الأصول

الفعـل السياسـي والحالـة النفسية، متغيران متلازمان، تأثيرهما متبادل وهما متغـيران مـتعلقان بمتغـيرات أخرى، لا يستقيم التحليل السياسي بغير النبش في جذورهما، لكي يستطيع توضيح وتتبع الحقائق المؤثرة في هذه المتغيرات ومحاولة معالجـة هـذه المتغيرات وتوظيفها لصالح قضية من القضايا المؤثرة على مجمل الأهداف والغايات الرئيسية التي يسعى الإنسان والمجتمع لتحقيقها على أرض الواقع

محاولة من أجل توظيف التفكيكية كمرحلة ما بعد الفلسفة .

التحلـيل نمـط من التفكير، وآلية يستخدمها العقل الذي أوجدها، من أجل تفكيك القضـايا المركبة إلى عناصرها الأساسية، وإرجاع كل عنصر إلى أصله، ومن ثم دراسة هذه العناصر كل على حدة ومعرفة صلاحية هذه العناصر، وهل تم تركيبها بصورة ونسبة صحيحة؟ وإدراك العناصر الثابتة نسبيًّا من العناصر المتغيرة والتي تـتعلق بمتغير آخر، وهل هذه العناصر ما زالت صالحة للاستعمال؟ أم أن بعضها قـد فسـد استعماله؟ لأن المتغير الذي يستند إليه قد فات وقت صلاحيته وملائمته للظـروف المستجدة؟ ودراسة هذه الظواهر يحتاج إلى صبر لما فيه من مشقة، لأن العناصر التي تدخل في تركيب قضية ما قد تكون ملائمة لظرف دون ظرف ولهذا تعمـل فلسفة التفكيك على تحليلها ثم تجميعها بعد دراسة مستفيضة لتلك العناصر. وقد يكون من المفيد إعادة صياغتها على غير الأسس التي قامت عليها أول مرة، ثم ربـط هذه القضية الخاصة بمنظومة من القضايا الأخرى التي تكون قد درست هي الأخـرى وأعـيد تفكيكها وصياغتها من جديد، ولهذا فإن فلسفة التفكيك لا تعترف بوجـود قضايا متماسكة ثابتة لا يلحقها التغيير أو أنها لا تخضع لمنطق المتحول. ونحـن لسنا مع هؤلاء الذين يفهمون فلسفة التفكيك على أنها فلسفة غرضها الهدم عن طريق النقد السلبي الذي لا يبغي غير تفكيك أشياء هذا العالم وبعثرة أجزائه بل

أشـــلائه فـــي كل اتجاه. وعدم الاهتمام بإعادة سبكها أو صياغتها من جديد ضمن مـــنظومة القضايا الأخرى الفاعلة لكي نحصل على رؤيا شمولية تنظر لهذا العالم بكليـــته، وليس بتفكيك أشيائه بقصد وغرض إعادة صياغتها صياغة أخرى تبعدها عـــن مـــناخ تكونهـــا وإخراجها من بيئتها ووسطها، وإدخالها قسرًا إلى مناخ آخر ونفســـيات تخـــتلف. لأن الوجود والعدم منظومة من القضايا المرتبطة ذات التأثير المتـــبادل، المادة واللامادة، الشيء ونقيضه، جزء من هذه المنظومة، إذا كان لا بد مـــن تحلـــيلها وتفكيكها من أجل صياغتها من جديد على أسس أكثر صحة وأكثر صلاحية.

نحـــن هنا لا نريد أن ندخل في نقاش مع أسئلة الفلسفة التفكيكية الأساسية وتفنيد سؤال هيدجر من جديد: "لماذا كان ثمة وجود ولم يكن عدم"؟ لماذا تمكن الوجود من الصـــيرورة، ولم يتمكن العدم منها؟ وما دام التمكن كان حادثًا بطريقة منطقية فقط، أي أنـــه ليس حدوثًا أنطولوجيًا طبيعيًا موضوعيًا أو نفسيًا؟ إنما هو حدوث منطقي فقط. هذا السؤال الذي وضعه هيدجر بحيث تغدو الإجابة عنه مستحيلة .. ونحن لا نـــرى اســـتحالة الإجابة على تساؤلات هيدجر أو جاك دريدا باعث هذا اللون من الفلسفة حاليًا وإدانة دريدا لمجمل فلسفة الحضور والعقلانية انطلاقًا من مفهوم فلسفة الآخر.(93)

وإذا مـــا نظـــرنا إلى فلسفة الاختلاف على أنها فلسفة الغياب والآخر في مقدار علاقـــتها مع سؤال هيدجر ـــ أمر ممكن، بل يستمد من مقولة أن الفلسفة من عهد أفلاطون وحتى هيجل هي فلسفة الحضور. ونعني بذلك أن الوعي لا يعترف إلا بما يحضر ـــ في الوعي ـــ لديه فيتخذ شكل الدلالة والمعنى والقانون والهوية فيتطابق هكـــذا مـــع مقولاته .. مما يعني أن فكر الإنسان هو مركز الكون. والسؤال الذي تضعه فلسفة الغياب هذه يمكن صياغته كالآتي: كيف يمكن لنا التوصل إلى معرفة شيء ما غير موجود بشكل مطلق، ولا يحمل أي شكل من أشكال الوجود أو العدم وبوســـائل مستمدة من الوجود بشكل مطلق؟ وإذا كانت انطلاقة هيدجر مؤسسة من (عـــدم ـــ الوجـــود) فإن دريدا ينطلق من (عدم ـــ العقل). وهكذا يمكن أن يطرح السؤال: كيف يمكن وصف (عدم) العقل بوسائل عقلية حاضرة؟ أيكون الاختلاف ـــ الآخـــر هنا ـــ هو المحاولة الجادة لمنح العدم "هوية" ما، صفة نستطيع من خلالها (إدراك) كونه عدمًا.

أهي بالتالي محاولة لإنهاء غربة الآخر عنا، رغم (حضوره) الطاغـــي فينـــا

والمعادل لمرتبة حضور الوجود نفسه؟

وكـــل هـــذه الاشـــكاليات التي تثيرها الفلسفة التفكيكية، هي محلولة عندنا نحن المســـلمين، فقد حلها لنا القرآن الكريم وعالجها مفكرو الاسلام، ونحن نحيل دريدا إلى قضية العوالم الممكنة في فكر أبو حامد الغزالي .. وإلى قضية الغيب التي هي جزء من عقيدتنا: ﴿.. والذين يؤمنون بالغيب﴾ (البقرة3)،وقول الحق: ﴿وبالآخرة هم يوقفون﴾ (البقرة 4) ، وإذا كان الموت هو "العدم" في عدم حضوره فإن القرآن الكريم يقرر أن المـــوت موجود، والموت حاضر بصفته خلقًا، والخلق بلغة دريدا هو الحضور هو الوجود. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ هو الذي خلق الموت والحياة ... ﴾ (الملك 2) .

فالموت موجود لأنه خلق ، وهكذا فإن العدم، الآخر والغيب وهو جوهر الفلسفة التفكيكـــية والأســـئلة المســـتحيلة الإجابـــة علـــيها، هي جزء من عقيدتنا. وفلسفة الاخـــتلاف، الغيـــب العدم لا تبتعد كثيرًا عن الشطحات الصوفية، يخيل إليك وأنت تقـــرأ شذرات من أقوال دريدا وهيدجر أنك تقرأ لأبي يزيد البسطامي خاصة وهو يحـــارب ســـلطة العقل المطلقة فهو يرى أن التأسيس الأول للعقل، الفكر، الوعي، الحضور تأسيسًا مسكونًا بالخرافة مختلطًا بالسحر، بل وبكل ما هو غير عقلاني في جوهره لأن العقل / الحضور لم يتكون بعد ولم يحضر بمفهومه المعاصر فإذا كان هذا هو واقع حال العقل في أول تكوينه، فما الذي يمكن أن ترمي إليه محاولة دريدا في تقويض سلطة العقل / الحضور؟ أهي دعوة إلى هدم العقلانية؟ بكل حضورها، ثم البدء من جديد وعلى وفق تاريخ مغاير آخر يدشنه الاختلاف نفسه وهذا المعنى غـــير غريب عن طروحات دريدا، وهي البدء من خلال الحالة الأولى التي سبقت سلطة العقل مبدأً مركزًا، وغاية لعدم كفايته وصلاحه؟ وهذا هو الكفاح المرير التي تخوضه الصوفية من أجل الحصول على الحقيقة المعرفية عن طريق مراكز نفسية أخرى تكون مصدرًا للعلم والمعرفة ورؤية الكون والعقل والآخر؟

وعلى الجملة فإن التفكيكية يمكن اعتبارها فلسفة الخاصة أو خاصة الخاصة كما يقـــول أبو حامد الغزالي عندما يرى أن انكشاف حجب الحقيقة فيما هو وراء العالم المحســـوس لا يـــتأتى عـــن طـــريق النشاط الذهني الذي يستطيع أن يعقل العالم المحسوس بما يستقبله عن طريق الحواس وأما "الآخر" ما وراء المادة فيحتاج إلى آلـــية أخـــرى يمكن أن تطورها فئة ممتازة ومتفوقة من الخاصة من خلالها يمكن رؤية الحقيقة الميتافيزيقية. وبهذا المفهوم يمكن أن نفهم فلسفة التفكيك .. ذلك الآخر الذي يرفض الحضور بواسطة العقل وإنما من خلال مقاربات حدسية، شعورية، لا

تـــتخذ من العقل مركزًا لانطلاقها أبدًا ، الأمر الذي يعني دون لبس، ارتكان تجربة دريـــدا وسكنها إلى الفكر الصوفي بكل أبعادها الغيبية الآخرية المختلفة، وهذه هي حقــيقة الاخـــتلاف حقــيقة دريدا التي يحاول بلوغها رغم رفضه المعلن لمثل هذه التسميات".[94]

يقول دريدا: "إنني أحاول وبدقة أن أضع نفسي عند نقطة بحث لا أعرف بعدها إلـــى أين أنا ذاهب . أرفض مقاربة فكرة اللامركز التي ليست هي تراجيديا ضياع المركز، ولا أعني القول بأنني أعتقد بأن مقاربة فكرية معينة يمكن لضياع المركز فـــيها أن يعني إثباتًا .. أعني أنني لا أستطيع أن أقبل صياغتك الدقيقة بالرغم من أننـــي لا أســـتطيع تقديـــم الـــبديل عنها. وبذلك يتضح أنني لا أعرف إلى أين أنا ذاهـــب".[95]

ألا يعنـــي ذلك محاولة اتحاد دريدا مع "الآخر" مع المختلف، أليست هذه الرغبة فـــي الهرب من الذات العاقلة من أجل الضياع في المجهول، "الآخر". أليس دريدا برغبته تلك وما عبر عنها تتطابق مع شطحات أبي يزيد البسطامي حين يقول: "ثم أشـــرفت علـــى التضـــييع حـــتى ضعت في الضياع ضياعًا، وضعت فضعت عن التضييع بليس في ليس في ضياعه التضييع".[96]

ومـــن يرد أن يتأكد من صوفية دريدا فليرجع إلى أقوال دريدا نفسه كما أوردها الدكتور عبد العزيز عرفة ..[97] ونحن لا نبغي ولا نرغب في تطبيق صوفية التفكيك أو التفكيكـــية العازلـــة للعقل والوعي، وإنما نريد التفكيك العقلاني الهادف الذي لا يبطل العالم الحاضر ولا يضيع ضياعًا في الضياع.

تسييس المعرفة :

لـــيس هناك نظام سياسي يستطيع أن يقرر حركة المجتمع السياسي وفق قوالب نظرية سياسية جاهزة. وكل الأنظمة الشمولية التي حاولت ذلك باءت بفشل ذريع، لأن الفـــرد الواحـــد لا يســـتطيع ان يجسد ويحقق في واقع حياته برنامجًا قام هو بوضـــعه لنفســـه، لأن الإنسان الفرد مثله كمثل المجتمع لا يتحرك في فراغ، بل يـــتحرك ضـــمن ظروف خاصة وعامة قد تختلف فيما بينها، وهذه الظروف غير ثابـــتة، بـــل هـــي دائمـــة التغيير بالإضافة إلى القيود الداخلية والخارجية الكثيرة المتعارضـــة والتـــي تؤثر في خط سير المجتمع وهو يسعى لتحقيق برامج محددة، وبما أن التغيير يلحق الموضوعي والذاتي وكل متعلق بمتغير لابد أن يلحقه التغيير،

وبمقتضـــى هـــذا المنطق فإن البرامج الخاصة والعامة التي يضعها شخص معين لنفســـه أو فـــئة أو جماعـــة علـــى صورة قالب صارم يصعب تحقيقه إذا لم يراع الظروف المتغيرة في حياة الفرد والمجتمع. حتى ذلك القالب النظري الذي يكون قد وضعه شخص ما أو عدد من الأشخاص بدقة آخذًا بعين الاعتبار متغيرات ظرفية عديدة، والدارس له من داخله قد لا يلاحظ تناقضاته بآلية ومقياس العقل وحده، هذه النظرية ذاتها عندما تتعرض للدراسة والتحليل من قبل أشخاص آخرين جاءوا من ظروف أخرى تختلف بيئيًا ونفسيًّا وثقافيًّا فقد يكتشفون تناقضات في بنائها النظري، لـــم يستطع واضعوها التنبؤ بها. وكم تظهر عيوب هذه النظرية في مجال التطبيق لأن واقع الحياة المتحرك من خلال الإنسان والمجتمع الذي يحوي إلى جانب عقله عواطـــف ومشاعر ووجدانات عرضة للتغير كل لحظة، وكل تغير في نفسيه الفرد والمجتمع يلزمه تغيير في النظرية نفسها وملائمتها من جديد للمتغيرات المستجدة. ناهيك عن تفاوت أفراد المجتمع في مدى فهمهم واستيعابهم للمتغيرات من حولهم. وكم يكون الموقف أكثر تعقيدًا وصعوبة في المجتمعات المنقسمة بين طوائف وملل واقليات عرقية .. وبناء على هذا المنطق المتحول نستطيع تفسير كثير من الظواهر الاجتماعـــية والسياسية، وبعض النظريات التي قد تنجح في بلاد معينة. بينما هي نفســـها تفشـــل فـــي بلاد أخرى، فليس هناك إنسان أو مجموعة من الناس تستطيع تفصـــيل نظـــرية سياسية أو اجتماعية مهما كانت محكمة يمكنها أن تستوعب كل الظروف المتغيرة .. لأن الإنسان ذاته عرضة للتغيير باستمرار بتغير المناخ والبيئة الثقافية وإسقاطاتها على سير الحياة التي لا تتوقف، لا من حيث القالب والنص ولا من حيث المعنى والمضمون.

ومهمـــا تنوعت النظريات السياسية وتعددت فلا بد من إرجاعها إلى نمطين من التفكـــير، مهما اختلفت الاجتهادات وتباينت تبعًا لذلك النظريات والتعريفات وكلما بـــالغ القالب النظري في الصرامة من حيث الدقة ومحاولة ضبط الحركات وتحديد الأشـــياء ومعالجة الأمور بتفاصيلها أكثر، كلما ظهرت عيوب النظرية وتناقضاتها الكبيرة في حجمها، السريعة في انعكاساتها وتأثيراتها ومن ثم إسقاطاتها. والنظرية السياسية كلما بالغت في الإحكام والانضباط ودقة التفاصيل وتعيين التفريعات، كلما كانـــت شمولية أكثر واستبدادية، والعكس صحيح، فكلما كانت النظرية أكثر مرونة تحـــتمل التـــنوع فـــي الاجتهادات كلما كانت ديمقراطية أكثر .. وهذا يضعنا أمام مفهومين مختلفين لعلم السياسة :

1) النظرية السياسية الوضعية 2) المنهج الرباني.

النظرية السياسية الوضعية بكل صورها وأشكالها من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال، ومن أكثرها ليبرالية إلى أشدها شمولية، من العقليات اللامنتمية وحتى الأيديولجيات المقننة ، كلها تحاول وضع منهاج سياسي محدد يقوم في أساسه على ضبط حركة الفرد والمجتمع وقولبته وشده بحبال من القوانين والدساتير والصيغ التي ترسم للفرد والمجتمع نمط الحياة السياسية وتقوم على إكراهه لملاءمة حركته العقلية والعاطفية بمقتضى النظرية السياسية والمنهاج السياسي الذي يضعه ويطبقه النظام، فهو نمط يتحكم بتصرفات الفرد ومن ثم المجتمع بموجب الصيغة والمعادلة السياسية التي يتبناها النظام، ويحاول تطبيقها بكل أجهزته القمعية المبثوثة في كل مجالات الحياة وجوانبها. والتي يريد النظام تحويلها إلى تميمة يعلقها الإنسان في رقبته تبيت حيث يبيت، وتصحو معه حين يصحو.

فالمنهج الوضعي هو الذي يضع نظرية لنظام الحكم، ولنوعية الدولة وأجهزتها بالتفصيلات والتفريعات التي لا تترك مساحة كبيرة لحركة الإنسان الذاتية، بل تفرض عليه شكلاً من أشكال الدولة كآلة قمعية تحمل الناس على لون من النظام لا يملك حق الخروج عليه، فيطاله القانون، ومن ثم العقاب. وهذا الوضع في أرقى وأفضل حالاته هو النظام الديمقراطي . وفي النظام الديقراطي فإن شركات الإعلام الكبرى تمارس طغيانًا إعلاميًا قد يشعر الفرد الذي لا ينسجم مع معطيات هذا الإعلام، بأنه قعيد وحبيس يكاد لا يملك وسيلة يعبر بها عن نفسه .. وكذلك الشركات الاقتصادية العملاقة التي تحتكر كل عمل وتطغى على السوق فلا يتحرك أحد بغير وحيها ولا بعيدًا عن عطائها. وكذلك المؤسسات العلمية الضخمة تكاد تحدد لون الثقافة للبشر، فلا يعاندها إلا ضعيف، قذفت به الظروف وأبقته من غير حيلة ولا طاقة، وخير دليل وشاهد على ذلك، أن البشرية اليوم لا تستطيع مراجعة تاريخها وتقويمه وتصويبه بغير إذن من المؤسسة "الديمقراطية اللبرالية" العالمية التي تستحكم بالمعلومات التي لا يجوز مناقشتها، وكل من يجرؤ على القول بما يناقض تلك المعطيات التي حشوا فيها معدة التاريخ وحشدوا لها العواطف والمشاعر، يتعرض للإيذاء بشتى أنواع الأذى، فتنتصب له المحاكم، بل لا تجد دولة في هذا العالم تستطيع أن تستضيف ندوة أو مؤتمرًا يبحث موضوع إعادة مراجعة التاريخ، وبيان صحيحه من باطله. بل لا يجرؤ مؤرخ أن يشكك في الحقائق التي اعتمدها النظام العالمي الجديد، "العالم الحر"، "عالم الديمقراطيات". هل أصبحنا في

عصـــر تســـييس المعـــرفة؟ وليس هناك أخطر على البشرية ومستقبلها من عملية تســـييس المعرفة كما حصل لمؤتمر مراجعة التاريخ الذي كان سيعقد في آذار عام 2001 فـــي بـــيروت،[98] ومع أننا لم نقف على ما يريده مراجعو التاريخ غير ترك الحقائق تكشف نفسها، فتجندت لمنعه دول أوروبا والولايات المتحدة ، كلها راحت تضـــغط على الحكومة اللبنانية لتمنع عقد هذا المؤتمر فوق أراضيها، وهددت في حرمانها من المساعدات الاقتصادية التي هي في أمس الحاجة إليها، ولأول مرة في تاريخ البشر يمنع الناس من أن يبحثوا في المعطيات التاريخية. وإلى جانب القوى الغربـــية فقـــد تجند أربعة عشر أديبًا ومثقفاً عربيًا تبرعوا أن يقدموا البعد الأدبي لخطـــر هذا المؤتمر ومنعه من الانعقاد، من بين هذه الشخصيات "الوطنية" التي لا يتسع لأسمائها العالم العربي على سعته، من بينهم الشاعر المطرود من وطنه السيد محمـــود درويـــش، صـــاحب قصيدة "سجل أنا عربي، ورقم بطاقتي ...."*[1]رقم بطاقتك يجب ان يكون هو رقم قضيتك، التي لم تجد لها خانة في هذا النظام العالمي الجديـــد .. يا دعاة الديمقراطية، اليس هذا استبدادًا وإرهابًا .. بل لقد حاول بعضهم كشف هذا الملف كالمفكر الكبير رجاء جارودي والذي قدم لمحاكمة في بلده وأدين بعشـــرات آلاف الـــدولارات لمجرد أنه قال إن هناك حقائق قد زيفت، وإن التاريخ "الرســـمي" المـــدون تنقصـــه الوثائق والمستندات . حتى إن شاعرًا بحجم أدونيس يضـــطر للتوقيع على تلك العريضة المقدمة للحكومة اللبنانية تطالبها بعدم السماح لمراجعـــي الـــتاريخ مـــن عقد مؤتمرهم في بيروت حتى يحصل على جائزة أدبية مغمسة بالذل والهوان. ومع أن إدوارد سعيد قد اعتذر فيما بعد عن التوقيع على هذه الوثيقة الظالمة، فما زال الأمر يثير الدهشة والاستغراب.

بـــأي مـــنطق يفكر هذا العالم؟ إذا كان هناك ثمة منطق فيما يجري؟ الذي يملك الحقـــائق التاريخية لا يخاف المراجعة، والذي يقوم على الدقة الموضوعية والحياد العلمـــي لا يخشـــى المناقشة والحوار وكذلك المراجعة، وفتح القضايا والملفات من جديد. ولا ندري ماذا حدث لعقل أوروبا، كيف تصد التاريخ عن محاولاته المتكررة لإعـــادة كتابة وقائعه وحوادثه؟ بناء على حقائق ومعطيات قد ظهرت وتكشفت من جديـــد؟ مـــتى كانت هناك ملفات مغلقة أمام البحث والتحري والتحليل؟ ومتى أحكم إغـــلاق القضـــايا أمـــام ســـلطان المعرفة والعلم؟ إلا عندما تسيّس المعرفة. لماذا تصـــادرون إرادة البحـــث وتقصـــي الحقـــائق التاريخـــية أيهـــا التقدميون؟ أيها الديمقراطـــيون؟ يأهل الشمال المتكبر؟ وأنتم ايها العرب الصغار ماذا بقي لكم من

مشـــاعر شعوبكم؟ ماذا بقي لكم من قضايا أمتكم تكتبون عنها؟ إنه تزييف أغلى ما لديـــنا. ونحـــن فـــي العالم العربي والإسلامي قد تم تزييف إرادتنا، مشاعرنا، لقد اســـتطاع العدو اختراق مشاعر الأمة وحشوها بأحاسيس وعواطف كاذبة لا بد من مراجعتها. وليس تاريخ أوروبا من يحتاج إلى مراجعة فقط، بل إن التاريخ العربي والإسلامي بحاجة ماسة إلى مراجعة جريئة، ونحن لا نستبعد أن منظومة المشاعر والعواطـــف المـــتراكمة في وعي أمتنا واللاوعي في تاريخها الحديث وفي بعض تاريخهـــا المتوسط قد تم شحنه بعواطف كاذبة وأحاسيس مزيفة سواء حول قضايا فكـــرية معينة أو حول شخصيات كبيرة. إذا كانت هناك أمور تتم في وضح القرن العشـــرين وتحـــتاج إلـــى تصـــحيح ومراجعة، وقد استطاعت بناء منظومات من الأحاسيس والمشاعر التي قامت حولها سياسات وممارسات مشهورة اعتمدت شبكة من المعلومات التي صبت في قوالب معرفية محكمة الإغلاق، يقف الفكر الإنساني والإرادة البشـــرية عاجزيـــن عن فتح مغلفاته وإعادة قراءتها لئلا يترتب على ذلك ترتيـــب جديد وتبويب جديد لنشيد الحق الأزلي وعدالة السماء. إذا كان هذا وأكثر من هذا يحدث في أشد نهار أوروبا سطوعًا، فما بال حوادث القرون الغابرة، حيث لـــيل الـــتاريخ أكثر ظلامًا وأشد حلكة. وإذا حدث ما حدث في نهار مركز العالم، حيث الكل ينظر إليها ويراقبها، فكيف يكون حال الأطراف والهوامش؟ إذا استغفلت مركزية العالم فما عسى أن يكون حال أطرافه وحواشيه..؟

المنهج السياسي الرباني :

إذا كانـــت النظرية السياسية الوضعية، الوضعية نسبيًّا، فليس هناك حدود فاصلة بين ما هو رباني وما هو إنساني، حيث إن الإنسان ذاته، خلق من خلق الله، والدين بمـــثله وأخلاقياته كان صاحب دور حاسم في صياغة العادات والتقاليد والأعراف عبر التاريخ. فعندما يضع الإنسان نظرية في علم السياسة أو الأخلاق، فهو لم يأت بهـــا من فراغ أو من عدم، كما قد يتخيل بعض السذج، وإنما هي نسيج من أنساق مـــتعددة حاكهـــا التاريخ الإنساني، والتاريخ الإنساني منفعل بأحداثه ووقائعه تأثرًا وتأثـــيرًا بينما تبقى مرجعياتها في الأصل دينية وميتافيزيقية. والمنهج الرباني كما نرى ذلك واضح في الرسالة الخاتمة. فقد سكت الشرع عن تحديد مفهوم أو برنامج سياسي أو اقتصادي للمجتمع، إلا ما كان من خطوط عريضة أو مؤشرات ودلالات تضـــع الإنسان في الحيز الذي وضع فيه، فهو ليس مجتمعًا مثاليًّا نورانيًّا أو عقليًّا

خالصًا. بتعبير آخر، إنه ليس مجتمعًا ملائكيًا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهو كذلــك ليس مجتمعًا حيوانيًا بهيميًا يقوم على الغرائز والنزوات والأهواء، فالإنسان بيــن حــدي الملائكـــي والبهيمي يمكن له أن يجتهد في صياغة نظرية سياسية أو اقتصـــادية يقــيم حــياته بمقتضاها، بحيث لا تخرجه عن نوعه وجنسه. فالنظرية السياســية ينبغـــي أن تتشكل بمقتضى حاجات هذا الإنسان ومعالجة مشاكله وإيجاد الأجوبــة الملائمــة لتساؤلاته ومتطلباته. نظرية سياسية تضبط حركة هذا الإنسان الشخصـــية والاجتماعــية، حتى يبقى هذا المجتمع يتطور في نطاق وحدود الدائرة الإنســانية التـــي رسمها له شرع الله، في حدود إنسانيته، فلا يتجاوزها إلى حيث الانحطـــاط في درك الحيوانية، وأما العلو والارتفاع في تحصيل المثل والقيم العليا فالطـــريق مفتوح أمام الأفراد، حيث لا ينبغي تقنين حد ما لارتقاء المجتمع، يكفي المجـــتمع والأمة أن يعيشا في نطاق الآدمية الراشدة .. وسوف نقف فيما يلي على المساحة الكبيرة الواسعة جدًا، التي تمتد أمام هذا الإنسان وخلفه وعن جانبيه يتحرك فـــيها بحـــرية تامة يتشكل فيها مجتمعًا وثقافة ودولة في محيط نوعه ودائرة جنسه بحيث لا يفقده هذا النشاط والفعل كونه إنسانا يصبو دائمًا إلى تطوير وتحسين دوره وتوسيع نشاطه. وفيما يلي سنحدد مملكة الإنسان كما إرادة شرع الله:

1) أن يـــبقى فـــي دائـــرة كونه مخلوقًا، فلا يتجاوز ذلك فيتعدى على الألوهية، وعـــندما نقول الألوهية، فإنما نعني تلك الدرجة التي لا يستطيع الإنسان تحصيلها وهي خارج امكانياته، وهو ما ليس له بحق، وهذه أمور واضحة لا تلبيس فيها إلا على من فقد عقله، فالعقل البشري يقر إقرارًا قاطعًا، وباليقين التام، أنه لم يخلق هذه الأشـــياء أو بعضًا منها، هذه العوالم التي تحيط به. وما ادعى أحد في الماضي أو الحاضر أنه فعل ذلك. وأبسط قواعد المنطق وأوضحها وأصحها النتيجة التي تقول: كـــل مـــن لـــيس خالقًا فهو مخلوق، حتى إن العدم مخلوق كما أن الوجود مخلوق. والقرآن الكريم يقيم الحجة البالغة في أمر الخلق، فيتحدى هؤلاء الجاحدين الصغار. ﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ... ﴾ (لقمان 11).[99] عندما توصل العلماء إلى ما أطلق عليه طفل الأنبوب" قال الجاحدون الصغار: "خلق العلماء طفلاً" بينما كل ما استخدمه الإنسان في هذا الموضوع هو استخدام ما خلق الله وجمعه والتأليف بين عناصره، بين ما هو موجود. فقد استغل العلماء، وهم خلق الله، ما خلق الله لهم مـــن أدوات وعناصـــر وأســـباب وفي هذا الصدد يرد الله عليهم الرد المحكم حين يتساءل: ﴿ أفرأيـــتم ما تمنون .. أأنتم تخلقونه .. أم نحن الخالقون ﴾ (الواقعة 59) هذا الأنبوب

هــل أوجــد العلماء أشياءه من عدم أو من غير شيء؟ هذا الحيوان المنوي أخلقه العلماء؟ أم هو خلق الله؟

﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾ (النحل 17) هل يستوى في ميزان العقل من يملك القدرة على الخلق كمن يفتقد ذلك.

﴿ أم خلقوا من غير شيء .. أم هم الخالقون ﴾ (الطور 35) .

﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له ﴾ (الحج 73)

﴿ والذين يدعون من دون الله، لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون ﴾ (النحل 20)

ولا نستطيع أن نستوفي جميع الآيات التي تتناول موضوع الخلق، وتتحدى هذا الإنسان أن يأتي بأي شيء من غير ما خلق الله.

2) الغائبية في الخلق :

هــذا النظام المحكم، الذي لا ترى فيه من تفاوت، لا بد وأن يكون له غاية وما خلقــه الله عبــثًا أو هــزلاً: فالماء، والهواء، والفضاء، والتراب، والنور والشمس والقمــر والنجوم، وكل الذي بين السماء والأ رض يتعاون في تقاسم الأدوار من أجل أن ينبت حبة القمح أو الشعير، هذه التينة وتلك الزيتونة، التفاحة والرمانة إلى غــير ذلــك من نبات الأرض وشجرها، جاءت من أجل أن يتغذى عليها الإنسان والطــير والحــيوان، هذه الدورة الحياتية، التي يصبح بها العالم عالمًا كلما اكتشف جديــدا فــي عالم الله، وكلما اكتشف من أسرار الخلق أكثر أصبح أكثر علمًا، فما نفعله لا يتعدى ولا يتجاوز اكتشاف بعض القوانين التي أودعها الله في خلقه. ولهذا يقول الخالق عز وجل:

﴿ ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً ﴾ (آل عمران 191)

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ (المؤمنون 115)

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ﴾ (ص 27)

﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ (الدخان 38)

﴿ ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ (الاحقاف 3)

هذا الحد الأعلى الذي لا ينبغي للإنسان أن يفكر في امتلاكه، فهو يتعدى طاقته وهذا يدل على أن هذا الوجود ما خلق إلا بإرادة وعلم وقصد وغاية، قوانين الحياة تدل على أنه لم يوجد اعتباطًا أو اتفاقًا.

وأمــا الحد الأدنى الذي لا ينبغي لهذا الإنسان أن يهبط إليه أو إلى ما هو دونه فهو: أن لا يتحول هذا الإنسان إلى بهيمة تتحرك بغريزتها وتقوده شهواته ونزواته

من غير ضوابط، يقيم سلطانه على قوة المخلب والناب، ويتخلى عن الموقع الكريم الـــذي أراده له الله، سبحانه : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم عن كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ (الاسراء 70).

هـــل يريد الإنسان مساحة شاسعة أوسع من هذه يتحرك فيها ويقيم فيها وعليها حضارته؟ مساحة تمتد علوًا إلى ما دون الخالق وتهبط إلى ما فوق مجتمع البهيمية والوحشـــية. هـــذه هـــي خانة هذا الإنسان يتحرك فيها على راحته، فإذا تجاوزها انحطاطًـــا كان أضل من البهيمة، وإذا حاول تجاوزها علوًّا ليس بمقدوره فعل ذلك لأنه يصطدم بمنطق المخلوق الذي لا يستطيع بل يستحيل أن يصبح خالقًا، وتصبح كل طاقة يبذلها في هذا الاتجاه تذهب هدرًا وضياعًا ولا طائل من ورائها.

3) لقـــد أبـــدع الخالق، سبحانه أمر هذا الكون، قوانين ونواميس تحفظه وترعاه ومن أراد أن يحل رموزه، فلا بد أن يعلم قوانين هذا العالم أو يكتشفها حتى يعرف كيف ومن أين يخترقها، حتى لا يناطحها كما فعل الإنسان في طفولته "فأوهن قرنه الوعل". وكذلك فإن هذا الخالق العظيم، سبحانه، قد أودع في كل سماء أمرها، ولم يخلق شيئًا منها عبثًا وسدى. ﴿ أيحســـب الإنسان أن يترك سدى ﴾ (القيامة 36) فكما فعل الخالق في أمر السماء والأرض وجعلها تسير بموجب قوانين ونواميس وأوامر، فقد وضـــع لهذا الإنسان شرعه، ومرة أخرى فإن هذا الشرع ما قيد إرادة هذا الإنسان وحريـــته فـــي نطاق نوعه، وإنما ترك له ان يعمل ويمارس نشاطه بحرية فيما لا يـــتجاوز حـــدود الخالق، وبما لا يهبط إلى مستوى البهيمة. فأحل له كل شيء في نطـــاق هـــذه المســـاحة، وحرم عليه كل ما لا يتناسب مع دوره ووظيفته ورسالته ونوعـــه، وحرم عليه أن يطلب حاجته بأسلوب الوحش، حرم الله سبحانه على هذا الإنسان كل ما يضره، وأحل له كل ما ينفعه، حرم عليه قتل النفس إلا بالحق، وهذا حفظًـــا لنوعه، وابتعادًا له عن طبيعة السبع والوحشية الذي يفترس ويقتل ويبطش. وحرم عليه السرقة وهو اغتصاب ما ليس له وهي من طبيعة الوحش أيضًا، وحرم عليه الفاحشة كالزنى حتى لا ينزو على ما ليس له كما يفعل مجتمع البهيمة، وحرم عليه الخمرة وهي غول للعقول، والعقل هو رأسمال هذا الإنسان. وحرم الربا وأكل أمـــوال الـــناس بالـــباطل وهو اعتداء وظلم لغيره. وحرم الكذب لكونه أحد أسلحة الـــباطل والغش والتضليل. وحرم عليه قول الزور، وحرم الغيبية والنميمة والفساد بيـــن الـــناس .. وهذه آفات وأمراض اجتماعية لا يستقيم المجتمع إذا ما تفشت به، وهـــي من بين الأسباب التي تهبط بهذا المجتمع إلى ما دون مجتمع البهائم .. وقد

حـــرم الله على هذا الإنسان، أكل الميتة والدم ولحم الخنزير، والموقوذة والمتردية والنطيحة، وما أكل السبع .. هذه هي الأمور التي حرمها الله علينا، بالله عليك أيها العاقل، لو أتيح لصاحب عقل وحكمة أن يضع دستورًا لأهل بيته من أبنائه وإخوته هؤلاء الذين يعيش بهم ولهم حبًّا وعطفًا ورحمة، هل يدعهم يفعلون ويمارسون شيئًا مـــن هـــذه الآفات والأمراض والعادات السيئة التي تترفع عن بعضها البهيمة؟ هذه الآفـــات إذا ما تفشت في مجتمع أفسدته وأهلكته وأخرجته عن آدميته، وانحطت به إلى ما دون درك الحيوانية والبهيمية. بمعنى آخر أن الله سبحانه ما حرم على هذا الإنسان شيئًا إلا إذا كان هذا الشيء يخرجه عن نوعه وجنسه، عن آدميته. لقد أحل الله لـــنا كـــل مـــا هو في النطاق الذي يحفظ علينا مهمتنا دورنا وخلافتنا في هذه الأرض، أحل لنا كل ما يساعد على أن نبقى بشرًا .

4) وإذا كـــان ما تقدم هو كل نواهيه التي نهانا عن فعلها حفظًا لنوعنا، وأما ما أمر الله تعالى به فهو أن نعترف ونشهد له بالخالقية والربوبية، وأنه المعبود وحده، وأن نقـــر ونشـــهد له بالوحدانية، هذا هو رأس الأمر كله ومن شهد بها شهادة حق كفـــته وما تبقى مما أمر به الله وفرضه فهي وقاية لهذا الإنسان من أن تصيبه تلك الآفـــات والأمراض .. فالصدق، وقول الحق والإخلاص والأمانة وإكرام الوالدين ومســـاعدة المســـاكين والفقـــراء وصلة الأرحام وإغاثة الملهوف وإكرام الضيف، ومعاملـــة الجار بالحسنى، هل في أداء ذلك عبء ثقيل ينوء بحمله الإنسان؟ أم هي مزايا تصقل الإنسان والمجتمع وتعلو به؟ أجل إنها قيود على حرية الإنسان وتكبيل لإرادتـــه ممن ينظرون إليها من أسفل من مجتمع البهيمة مجتمع الذئاب والضباع! وصـــدق الله العظيم وهو يصف حال هؤلاء الذين يرون بذلك قيودًا على حرياتهم وتكبيلاً لإرادتهم، فهم حقًا كما وصفهم خالقهم، سبحانه:

﴿ ولقـــد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بهـــا، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام، بل هم أضل ﴾ (الأعراف 179). وكذلك قال الحق تبارك وتعالى في أمثال هؤلاء الذين يتنكبون طريق الحق : ﴿ ... **والذين كفروا يتمـــتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم** ﴾ (محمد 12). وما من عاقل منصف يفهم الإسلام هذا الفهم ويتركه إلى غيره إلا كان كما وصفه الله، سبحانه، آنفا﴿**أولئك الا كالانعام بل هم أضل سبيلا**﴾ .

5) وإذا كان هذا الذي ذكرناه هو بعض الصفات والأخلاق والقيم التي ينبغي أن يمارسها الإنسان السوي، فهي الأمور التي ينبغي أن يتخلق بها ويمارسها في واقع

حـــياته وهـــو يحاول أن ينظم الأمة والمجتمع، وأن يقيم قواعد نظامه الاجتماعي والسياســـي هـــذه عبادات يمارسها الإنسان لكي تزكو نفسه، وتصفو سرائره. وهو يأتيها طواعية من غير إكراه، فلا بد أن تفرز نظامًا سياسيًّا واقتصاديًّا عادلاً لا ظلم فيه ولا اضطهاد، فإن النظام السياسي والنشاط الاقتصادي وفق المنهج الرباني هو ثمـــرة وإفـــراز لمجموعة القيم وللمنظومة الأخلاقية التي يقوم عليها النظام والبناء الاجتماعي.

6) علاقة النظام السياسي بأفراده هي علاقة يجدها مبدأ الشورى وأسلوب الحوار والجدل والحجة. وهو النظام الذي يضبط حركة المجتمع في نطاق "الخانة الآدمية"، ويقـــيم قواعـــد الحكم وأسس النظام على ما يحفظ مصالح العباد، ويقيم بينهم الحق والعـــدل، فإن رسالة الحكم بمقتضى المنهج الرباني تتحقق بتحقيق العدل بين الناس فأيـــنما وجـــد النظام الذي يحقق العدل فثم شرع الله. ﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصـــلاة وأمـــرهم شـــورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾ (الشورى 38). وكذلك قول الحق، تـــبارك وتعـــالى: ﴿ ... فـــاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ﴾ (آل عمران 159) وكذلـــك ﴿ لا إكـــراه في الدين قد تبين الرشد من الغي، فمن يكفر بالطاغوت، ويؤمن بالله فقد استمســـك بالعروة الوثقى لا انفصام لها .. ﴾ (البقرة 256) وكذلك ﴿ ... أنلزمكموها وأنتم لها كـــارهون ﴾ (هـــود 28). فهذا يعني أن الحكم لا يجوز له بحال من الأحوال استعمال الإكراه، واغتصاب السلطة من الأمة التي هي مصدر السلطات، ومن يحكم لابد أن يحكـــم بتفويض من الأمة، وأن العلاقة بين السلطة والأمة، بين الحاكم والفرد هي علاقـــة حـــوار ومجادلة ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾ (هود 32) .. ﴿ وإن جـــادلوك فقـــل الله أعـــلم بما تعملون﴾ (الحج 68) .. ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قـــوم لـــوط ﴾ (هود 84) .. ﴿ فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفرًا ﴾ (الكهف 34) .. ﴿ وحاجّه قومه قال: أتحاجوني في الله وقـــد هـــدان ﴾ (الأنعام 8) ﴿ ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه أن اتاه الله الملك .. ﴾ (البقرة 258).

هـــذه عيـــنات قلـــيلة من آيات كثيرة في كتاب الله، ترسم العلاقة بين الإنسان والإنســـان .. بيـــن الملك والرعية، بين الحاكم والمحكوم فتجعلها جميعًا في نطاق الحوار والجدل والمحاجّة، وتستبعد الفرعونية المتألهة والتي لسان حالها يقول: ﴿ ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ (غافر 29).

7) الـــتعددية الدينية والفكرية والسياسية: إذا كان الدين عند الله هو الإسلام ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ (آل عمران 19) وكذلك ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه ﴾

(آل عمران 85) ، فإن الدين عند الله واحد وأما المناسك والشرائع فمتعددة، ومختلفة، هناك شريعة ومنسك لكل قوم ولكل أمة كتاب ومنهج، فإن القرآن الكريم يؤكد هذا التوجه، وهذا الفهم: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا، والذي أوحينا إليك، وما وصينا بــه إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ (الشورى 13) وكذلك قول الله، ســبحانه: ﴿ لكــل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا ﴾ (المائدة 48) ..﴿ لكل أمة جعلنا منسكًا هم ناســكوه ﴾ (الحج 67) . والمسلم مأمور أن يعيش مع غيره ممن يخالفونه في العقيدة والفكــر لأن الأرض، هــي أرض الله، والمؤمن مستخلف فيها، بينما الكافر يظن بنفسه أنه صاحب الأرض ومالكها، ولهذا لا يستطيع أن يعيش مع من يخالفه فيقوم بســجنه أو نفــيه أو قــتله بيــنما لا يملك المسلم أن يفعل ذلك فالأرض أرض الله والمعــارض والمخالف أو الآخر هو من مخلوقات الله، فلا يملك الحق أن يخرجه من أرضه، أو يحرمه من أن يأخذ حظه من ميزانية الدولة مثلاً، فالله يقول: ﴿ كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء (المؤمن والكافر) من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورًا ﴾ (الإسراء 20). ولــولا أن التعددية الدينية والثقافية والفكرية، من صلب تعاليم الإسلام، لما استمر وجــود أقلــيات دينية،وغــير دينــية تحت ظل الحكم الإسلامي ما يزيد عن ألف وأربعمائــة عام، ولما ازدهرت ثقافتهم وانتعشت مدنيتهم وحضارتهم خاصة اليهود وكذلــك النصارى الذين يعتبرون انتماءهم الحضاري الإسلامي جزءًا من هويتهم الثقافــية، كمــا يقول بذلك معظم مفكرو النصارى العرب كإدوارد سعيد، وميشيل عفلــق قــبل أن يســلم. وهكذا فقد تعايش المسلمون مع "الآخر" مع "المخالف" دينًا وفكــرًا وثقافــة، وكانــت ظاهرة الاختلاف وحق الاختلاف، وممارسة المخالفين لعقــائدهم وأفكارهم مكفولة في الشريعة، وكذلك في النظام السياسي الإسلامي ... بيــنما حاربــت أوروبا الظاهرة الإسلامية واليهودية بكل قسوة وعنف، ومارست أنــواع الــبطش والارهاب، ولم تترك لهم خيارًا غير الغياب على مستوى العقيدة والفكــر فمــا قبلت منهم بعد سقوط الأندلس إلا تغييبهم تحت التراب أو تمكنهم من الفرار أو الخروج من عقائدهم إكراهًا ليدخلوا في النصرانية إلزامًا. وحتى أوروبا اليوم، على ما بها من حضارة لا تقبل الإسلام دولة مستقلة ذات سيادة.

8) محاربــة الظلم والفساد: فالله سبحانه قد حرم الظلم والفساد بين الناس، حرم الظلم بكل أنواعه وأشكاله، والظالم هو الذي يدعي ما ليس له بحق كما فعل الملك الطاغية الذي جادل نبي الله إبراهيم عليه السلام، وادعى أنه يملك القدرة على قتل هــذا والعفو عن ذاك ، وهو بهذا كأنه يملك حقًا إلهيًا وقدرة كذلك ﴿ ألم تــر إلى الذي

حـــاجّ إبراهـــيم في ربـــه أن آتاه الله الملك، إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت، قال أنا أحيي وأميـــت، قال إبراهيم، فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فبهت الذي كفر، والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ (البقرة 258) ولهذا فإن الموت والحياة جعلهما الله، سبحانه من حقه هو وليس لإنسان أن يزهق روح إنسان ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنـــه من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا، ومن أحياها فكأنما أحيا الـــناس جمـــيعًا ﴾ (المائدة 32) . وهذا فرعون قد اجتاز خانة الآدمية فبغى وظلم ﴿ إن فرعون علا في الأرض، وجعل أهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، إنـــه كان من المفسدين ﴾ (القصص 4) وكذلك اعتدى فرعون في مجال السياسة، فاقتحم حقـــل السيادة، وهو شأن من شؤون الله تعالى، فظلم وبغى، واغتصب أملاك الناس وصادرها لنفسه ظلمًا وعدوانًا ﴿ قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ﴾ (الزخرف 51) وكذلك حال الملك الذي ذكر في سورة الكهف: ﴿ وكان وراءهـــم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا ﴾ (الكهف 79) وقد جعل الله، سبحانه ، الظلم مقدمة للفســـاد والآفات التي تصيب الأمم، وهي من دلائل انهيار الدول، فالله، سبحانه، قد بين لنا ذلك في كثير من المواضع في كتابه العزيز: ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، أولئك هم الخاسرون ﴾ (البقرة 27).

﴿ ... ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴾ (البقرة 205)

﴿ ويسعون في الأرض فسادًا والله لا يحب المفسدين ﴾ (المائدة 64)

﴿ اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ (الأعراف 142)

﴿ وإذا أردنـــا أن نهلك قرية، أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرًا ﴾ (الإسراء 16)

﴿ الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد ﴾ (الفجر 12)

9- العدل :

وقـــد أمـــر الله سبحانه، الناس بالعدل، بينهم وبين أنفسهم، وبينهم وبين الناس، مسلمين أو غير مسلمين، سواء كانوا من جماعتنا وحزبنا وقومنا أم كانوا غير ذلك، فـــالله ســـبحانه قد أمر بالعدل بين الناس جميعًا فقال على لسان نبيه صلى الله عليه وســـلم ﴿ ... وأمرت لأعدل بينكم ﴾ (الشورى 15) وأمرنا كذلك أن نعدل مع المخالفين والمعارضين لمفاهيمنا ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ (المائدة 8) وقد نهى، سبحانه عن اتباع الهوى وهو ضد العـــدل ﴿ ... فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾ (النساء 135) وقد حث كتاب الله المسلمين والناس جميعًا على قول الحق

وشهادة الصدق مع القريب والبعيد، مع من نحب ومن نكره فقال: ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا، ولو كان ذا قربى، وبعهد الله أوفوا .. ﴾ (الأنعام 152) وينبغي إقامة الحكم على أسس العدل والحق ﴿ وإذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ﴾ (النساء 58).

وقد ضرب الله مثلاً للرجل العادل والرجل الباغي الذي لا يقيم العدل فهو كالأبكم الذي لا يسمع ولا يتكلم، ولا يستطيع فعل شيء كما يصف ذلك الحديث الشريف "الساكت عن الحق شيطان أخرس" ﴿ ضرب الله مثلاً رجلين، أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كَلٌ على مولاه، أينما يوجهه لا يأت بخير، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾ (النحل 76) والعدل هو أمر الله الذي ينبغي أن ينفذ ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ (النحل 90) وقوله تعالى ﴿ فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ﴾ (الحجرات 9).

10) المنهج الرباني والنظام السياسي :

إن كل ما سكت عنه الشرع، ولم يرد فيه نص في كتاب الله، فهو متروك لِاجتهاد البشر، يسعون إلى مصالحهم، فأينما تكون مصلحة المسلمين فثم شرع الله. وقد سكت الشرع عن نوع الحكومة الإسلامية: أهي ملكية أم جمهورية؟ أهي خلافة مدى الحياة أم مقيدة بفترة زمنية محددة؟

ولكن الشرع قد بين بما لايدع مجالاً للشك معارضته الشديدة لنظام الطغاة المستبدين المفسدين في الأرض، وبين أن الأمر ينبغي أن يتم بالحوار والتراضي والشورى، ففي منهج الحكم الرباني، فإن السيادة لله ولشرع الله والاستخلاف للأمة، والأمة هي مصدر السلطات، وهي التي تختار مفوضًا يحكم امورها، ويقيم فيها شرع الله ومصلحة المسلمين وغير المسلمين من مواطني الدولة، ولهذا فليس هناك نوع من أنواع الحكم يفرده الإسلام ، فأي نظام حكم يقيم شرع الله ويحقق العدل وقيم المجتمع وأخلاقياته فهو حكم إسلامي وكل حكم يظلم الناس ويفسدهم، فهو نظام طاغية مستبد لا يقبل به الإسلام . وكذلك حال المنهج الاقتصادي، فكل منهج يحقق مصلحة المسلمين ويوفر لهم حاجاتهم ويوفر لهم العيش الكريم فهو مقبول، لكن النظام الاقتصادي في الإسلام يحرم الربا الظالم، ويحرم كذلك أن يكون المال دُولة بين الأغنياء ولا يرضى سياسة الاحتكار لسلع معينة، ويدافع عن الملكية الخاصة ما لم تظلم، فالملكية على سبيل المثال، يمكن أن تكون صالحة، وقد تكون ظالمة فاسدة، فهذا داوود وسليمان وطالوت كانوا ملوكاً، وقد أقاموا العدل وحققوا

العيش الكريم، فهو نظام صالح، وفي المقابل كان فرعون والنمرود، والملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبًا، أنظمة ملكية فاسدة وظالمة، كانت خلافة أبو بكر وعمر وعــثمان وعلـــي خلافة راشدة، ومن بعدها تحولت إلى ملك عضوض، فشتان بين مملكة ومملكة، وكذلك شتان بين خلافة وخلافة.

هــذه عشـــرة أســـس وقواعـــد عامـــة يتحرك بها ومن خلالها النظام السياسي والاقتصـــاد الإسلامي. ويخرج نموذج الحكم الذي يريد في حدود الخانة الإنسانية ليحقق به مصالح العباد.

ملاحظات الجزء الأول من القسم النظري

1 - Webster's new Universal dictionary, Barn's and Noble books 1992، p. 1113

2- The Concise Oxford Ditionary, Clarendon press 1963 .

3 - المنجد في اللغة والأعلام، دار الشرق، بيروت 1986.

4 - صـــدر الديـــن القبانجي: علم السياسة. تجديد من وجهة نظر إسلامية، الشركة العالمية للكتاب - لبنان 1997 ص10.

5 - المصدر السابق، ص 10.

6 - المصدر السابق، ص 10.

7 - المصدر السابق، ص 12

8 - القاموس العبري المركز - ابن شوشان، قرية الكتاب القدس 1991.

9 - Handbook of World history by: Joseph Dunner Peter owen London, 1968, p. 755-56

10 - المصدر السابق، ص56.

11 - سياســات الأفكــار، بروفسور ج. س. هيرسون - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة 1987 ص 12.

12 - المصدر السابق، ص 15.

13 - الـنظرية السياسة عند اليونان - أرنست باركر - الجزء الأول، مؤسسة سجل العرب القاهرة 1966، ص12-13.

14 - المصدر السابق، ص20.

15 - المصدر السابق، ص80.

16 - المصدر السابق، ص81.

17 - الضروري في السياسة ومختصر كتاب السياسة لأفلاطون - نقله عن العبرية الدكتور أحمد شحلان، مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت 1998 ص22.

18 - المصدر السابق، ص23.

19- موسوعة العلوم الاجتماعية - مكتبة العمال - تل أبيب 1967 المجلد الثالث ص262.

20- الضـــرورة في السياسة ومختصر كتاب السياسة لأفلاطون - نقله عن العبرية د. أحمد شحلان، مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت 1998 ص13.

21- عهد أردشير، تحقيق إحسان عباس - دار صادر - بيروت 1967 ص53

22- الضروري في السياسة، مختصر كتاب السياسة لأفلاطون، ص46.

23- الضروري في السياسة، ص47.

24- فقرة 128 الضروري في السياسة ص47.
25- الضرروي في السياسة، ص48.
26- الضروري في السياسة، ص74.
27- الضروري في السياسة، ص74.
28- الضروري في السياسة، ص75، 76.
29- الضروري في السياسة، ص77.
30- الضروري في السياسة، ص77.
31- الفكـــر السياســـي فـــي الإسلام - د. محمد جلال أبو الفتوح شرف ودكتور علي عبد المعطي محمد، دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية، مصر 1987 ص254.
32- الفكر السياسي في الإسلام، د. أبو الفتوح ، ص270.
33- أبو الأعلى المودودي: نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور، جدة، الدار السعودية 1405 هجرية 1985ن ص211.
34- العقيدة والسياسة، لؤي صافي - المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط1، 1996، هيرندن - فرجينيا الولايات المتحدة الأمريكية.
35- الفضل شلق: الأمة والدولة، دار المنتخب العربي ط1 1993 بيروت، ص14.
36- بـــرهان غلـــيون، نقـــد السياسة: "الدولة والدين" المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ط2 1993 ص117.
37- المصدر السابق، 144.
38- المصدر السابق، ص144.
39- المصدر السابق، ص535.
40- الفردية: زيد بن علي الوزير - مركز التراث والبحوث اليمني ط1، 2000، ص100.
41- المصدر السابق، ص105.
42- المصدر السابق، ص105.
43- المصدر السابق، ص106.
44- المصدر السابق، ص107-108.
45- راشـــد الغنوشـــي: مقاربـــات في العلمانية والمجتمع المدني، المركز المغاربي للبحوث والترجمة ط1، 1999، بيروت ص 31.
46- المصدر السابق، ص31.
47- المصدر السابق، ص61.
48- المصدر السابق، ص62.
49- د. محمد خاتمي: مطالعات في الدين والإسلام والعصر - دار الجديد ط2، 1998، ص 84،85.
50- المصدر لسابق، ص87.
51- المصدر السابق، ص97.
52- المصدر السابق، 97.
53- المصدر السابق، ص98.

54- المصدر السابق، ص104.
55- المصدر السابق، ص29.
56- مدينة السياسة د. خاتمي - دار الجديد ط1، 2000، ص23.
57- المصدر السابق، ص21.
58- صـــدر الدين القبانجي: علم السياسة، تجديد من وجهة نظر إسلامية - الشركة العالمية للكتاب - لبنان 1997، ص8.
59- المصدر السابق، ص12.
60- محمــد عــابد الجابــري: العقل السياسي العربي - المركز الثقافي العربي، بيروت / الحمراء 1991، ص7.
61- المصدر السابق، ص8.
62- المصدر السابق، ص8، 9.
63- المصدر السابق، ص10.
64- المصدر السابق، 10.
65- المصدر السابق، ص11.
66- المصدر السابق، ص12.
67- المصدر السابق، ص13.
68- المصدر السابق، ص14.
69- المصدر السابق ص15.
70- المصدر السابق، ص15.
71- المصدر السابق، ص16.
72- المصدر السابق، ص17.
73- ريجيس ديبريه: نقد العقل السياسي ــ دار الآداب ترجمة عفيف دمشقية بيروت 1986، ص129.
74- المصدر السابق، ص183.
75- المصدر السابق، ص496.
76- د. ســويم العــزي، المفاهيم السياسية المعاصرة ــ العالم الثالث ط1، 1987، المركز الثقافي العربي، ص155.
77- المصدر السابق، ص155.
78- المصدر السابق، ص151.
79- Roger D. Masters: The Biological nature of the state in world politices N2 1983 p.163.
80- مقدمة في علم السياسة، ترجمة محمد مصالحة، عمان - الجامعة الأردنية 1997، ص 230: Peter Gill and Geaffery Pouton.
81- المصدر السابق، ص230.
82- المصدر السابق، ص231.
83- المصدر السابق، ص231.

84- المصدر السابق، ص 232.

85- موســوعة العلــوم الاجتماعية ــ باللغة العبرية ــ مكتبة العمال ــ تل أبيب ، 1967، المجلد الثالث، ص210.

86- المصدر السابق، ص211.

87- المصدر السابق، ص211.

88- تــيار ثوري في الحركة العمالية ظهر في أواخر القرن التاسع عشر، والذي رأى عدم الحاجة لقيام أحزاب سياسية عمالية، واعترف فقط بصراع اقتصادي طبقي تقوم به الطبقة العاملة من خلال النقابات المهنية وعن طريق المظاهرات وتنظيم الإضرابات syndicalism.

89- المصدر السابق، ص211.

90- موسوعة العلوم الاجتاعية، ص262.

91- انظر موسوعة العلوم الاجتماعية، ص262 وما بعدها.

92- موسوعة العلوم الاجتماعية، ص266.

93- انظــر عــادل عبد الله: إرادة الاختلاف وسلطة العقل ــ دار الحصاد للنشر والتوزيع، سورية ــ دمشق 1997، ص13.

94- التفكيكية: إرادة الاختلاف وسلطة العقل ــ عادل عبد الله. ص23.

95- الطلــيعة الأدبية ــ مقال التفكيك ــ المركز واللعب ــ ندوة شارك فيها دريدا وهيبوليت مع آخرين ــ عدد 5-6 / 1990

96- عادل عبد الله: التفكيك ــ إرادة الاختلاف وسلطة العقل، ط1، 2000، سورية، دمشق، ص24.

97- عــبد العزيز عرفه ــ التفكيك والاختلاف المرجأ ــ مجلة الفكر العربي المعاصر العدد 48-49؛ انظر كذلك مجلة أفكار عدد 151 نيسان 2001 عمان.

98- انظر صحيفة السبيل عدد 379 ــ 6 / نيسان 2001، ص9 ــ حول موضوع "مراجعو الــتاريخ" التــي تصدر في عمان ــ كان يفترض أن يعقد مؤتمرًا لمراجعة التاريخ من مؤرخين عالميين في 30 آذار من عام 2001 في بيروت. وقد مورست ضغوطات من الدول الغربية على الحكومــة اللبنانــية تحثها على عدم السماح لهذا المؤتمر أن يعقد فوق أراضيها وإلى جانب تلك الــدول الأســتعمارية تقــدم نخــبة من المثقفين العرب (أربعة عشر مثقفا) بعريضة موقعة منهم للحكومــة اللبنانية تحرضها على عدم السماح لهذا المؤتمر بالانعقاد في بيروت من بينهم الشاعر الفلسطيني محمود درويش وإدوارد سعيد وأدونيس.

99- القرآن الكريم .

القسم الثاني

الوجود الإسرائيلي كاستعمار استيطاني

الفصل الأول

الوجود الإسرائيلي كاستعمار استيطاني

قبل البدء بدراسة وضع الأقلية العربية في الدولة اليهودية وتصنيف وضعها السياسي كمشكلة إثنية ، ومن ثم تحديد الخيارات المتاحة أمامها في ظل الديمقراطية الإسرائيلية المشروطة، هل سيستمر وضعها كما كان حتى اليوم تعيش على هامش المجتمع الإسرائيلي سياسيًا واقتصاديًا، أم في الحسبان تطور الدولة اليهودية لتصبح دولة مواطنيها؟ أم احتساب الأقلية العربية كأقلية قومية؟ هل ستستمر الديمقراطية في الموديل المتعارف به حتى اليوم؟ أم تنتقل لتصبح ديمقراطية ليبرالية.

العلاقات اليهودية اليهودية :

من المعروف أن الدراسات الإثنية ، والمجتمعات المنقسمة ، متقدمة جدًا في إسرائيل ، خاصة وهي تحاول توظيف نتائج هذه الدراسات والتفتيش عن نموذج ديمقراطي يلائم طموحاتها ويعالج مشاكلها .. وهل هي دولة يهودية صهيونية، كما يريدها البعض؟ أم دولة إسرائيل ية أنتجتها الحركة الصهيونية، وقد نضجت للاستقلال ضمن بيتها الجديد، بعيدًا عن طموحات الحلم الصهيوني الكبير الذي يبقى الصراع في الشرق الأوسط حيًّا أجيالاً متعاقبة.

ليس هناك شعب يعيش الانقسام والازدواجية في الوظيفة أو الانتماء كما يعيشه الشعب اليهودي سواء في إسرائيل أو في بلاده الأصلية ، فهو يعيش ازدواجية وظيفية بحيث يعمل كعضو في منظمة يهودية ويعمل في دائرة حكومية في البلاد التي يعيش فيها ، فولاؤه مزدوج لعدة مؤسسات. وهو بهذا يعاني من انقسام في وجدانه وضميره، لمن يكون ولاؤه؟ هل يكون للبلد الذي يعيش من خيراته ويمنحه حقوقه كاملة؟ أم لدولة إسرائيل ؟ ولكن بعض الحوادث قد أظهرت أن المواطن اليهودي في الولايات المتحدة أو في أي دولة أخرى إنما ولائه لإسرائيل أولاً وهذا يؤكد تلك الحالات التي قبض فيها على جواسيس يعملون لصالح إسرائيل من

الولايـــات المتحدة الأمريكية. إذن فالمواطن اليهودي الذي يحمل مواطنة مزدوجة هذه الحالة يعوزها البعد الأخلاقي، لمن يكون الولاء؟ للمنظمة اليهودية التي ينتمي إلـــيها أم للوكالة اليهودية العالمية؟ أو الحركة الصهيونية أم الدولة التي تعيش فيها وعلى خيراتها؟ أم لإسرائيل؟

وأمـــا المواطـــن الإســـرائيلي فهو أيضًا موزع بين ولائه للدولة الإسرائيلية أم للحركة الصهيونية، على المستوى العام، فإذا ما نظرنا للعلاقة داخل البيت، برزت تناقضـــات كثـــيرة وعمـــيقة بيـــن اليهود الشرقيين والأشكناز، بين القدامى وبين المهاجرين الجدد، بين العلمانيين وبين المتدينين، والصراعات على المستوى المدني ثم بين الأقلية العربية وبين الأكثرية اليهودية.

إن الصـــراعات الحادة وعمق الانقسامات بين الطوائف اليهودية المتعددة تقض مضاجع المسؤولين ومن الصعب الجسر بينها، والهاجس الأمني الذي تذكيه القيادة السياسية في نفوس مواطنيها والمبالغة في الخطر المتربص بالدولة اليهودية يوظف عـــادة ليساعد في عملية الدمج والانصهار من أجل قيام وتشكيل مجتمع هوموجيني Homogeneous، بـــل إن جل الفكر اليهودي الاستراتيجي المعتمد هو مع استمرار الصراع العربي اليهودي لأسباب عديدة من بينها سببان رئيسيان:

1) عـــدم استكمال المشروع الصهيوني حتى الآن وإتمامه يحتاج إلى إبقاء روح الصـــراع مشـــتعلة، خاصة في ظل ظروف محلية وإقليمية ودولية مواتية ومساندة للسياســـة الإسرائيلية، خاصة مع التفوق الاستراتيجي العسكري، والانحلال العربي العـــام، وحديـــث إســـرائيل عن السلام وتحليل خطابها التفاوضي مع الفلسطينيين خاصـــة والعرب عمومًا، يعكس الضعف والهوان في الموقف العربي، إن الخطاب الإسرائيلي خطاب إذلال ليس للعرب وحدهم، بل للمجتمع الدولي برمته (يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أشار إلى بعض العلامات الصغرى ليوم القيامة ومـــن بيـــنها قوله "أن تلد الأمة ربتها" وهذا ينطبق على الدولة اليهودية، حيث إنها ولـــيدة الأمـــم المـــتحدة، وهي أكثر دولة في العالم تـــذل الأمم المتحدة وتعقـــها) والخطـــاب السياسي إذا أفرغ من بعده الأخلاقي لا يبقى فيه غير ممارسة الوحش والبهيمة.

2) الإبقـــاء على حالة الحرب والصراع مع العرب وتوظيف ذلك كعامل خوف على المصير اليهودي في هذه البلاد، من أجل تذويب الفوارق في المجتمع اليهودي ومحاولـــة صـــهره لإنتاج ثقافة وعادات واحدة، وتقليل فرص الانقسامات في هذا

المجتمع .. وليس هناك أخطر على وحدة الشعب اليهودي من زوال شبح الحرب، وغـياب عنصـر التحدي. فقد أصبح وجود التحدي بأشكاله المختلفة هو جزء من الحـياة الـيهودية في تاريخها الطويل والذهنية والنفسية اليهودية إذا غاب عنصر الـتحدي الخارجـي من وجودها فسوف تستنبته كمشروع تمسك بكل خيوطه وإلا فسـوف يـنمو ما تتحداه من داخلها من أحشائها. وهذا خطر حقيقي تخشاه وتعمل حسـابه، وهذا ما ينبغي أن نفهمه على ضوء "التمرين الفكري" لبروفسور يحازقيل درور فـي مجموعة كتبه الأربعة تحت عنوان "مذكرة لرئيس الحكومة" وسيجيء الحديث عنه في وقته.

ويلاحـظ الباحـث أن المجتمع الإسرائيلي، كلما شعر بالأمن والسلام أكثر كلما تـتفجر الصراعات الداخلية بين الطوائف المختلفة من شرقية وأشكنازية أو خاصة بين المتدينين والعلمانيين، وقد وصل الوضع إلى استعمال العنف فيما بينها. وفجأة عـند تفجـر انتفاضـة الأقصى داخل الأقلية العربية التي تعيش في حدود الدولة الـيهودية، وارتكبت فيه أعمال عنف كثيرة وسقط من الجانب العربي شهداء، فقد تكـتل المجـتمع الإسرائيلي من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار وشحن بعواطف كراهـية ضد الأقلية العربية .. ونحن لا نرى أن القوى المختلفة التي تتجمع على عوامل الكراهية والحقد وإفراغ شحناتها النفسية المكبوتة من أجل قضاياها الخاصة وتفريغها في غير وجهتها وضد طرف آخر، فسوف تبقى عناصر الحقد والكراهية التـي تجمع ، هي نفسها التي تفرق عندما تمر بظروف مختلفة. ولهذا فإن النفسية الـيهودية المشـحونة في بنيتها الداخلية بالشك والريبة من "الآخر" والآخر هنا هو الـ"جوي" (الأجنبي الغريب) تبقى على حالة من التحفز والتوتر المشحون ضد هذا "الآخـر"، فـإذا فقد هذا "الآخر" من حياتها أوجدته على أية صورة كانت، وإلا فقد ينمو "الآخر" من داخلها، وهذا أخطر ما يهددها.

ومـمـا يدعـم ما نذهب إليه أن الخلافات والانشقاقات في مجال الثقافة والتقاليد والأعـراف الاجتماعـية والدينية في داخل المجتمع الإسرائيلي هي أكثر حدة مما تظهر في المجال السياسي. لأن المواقف السياسية تتخذ على ضوء الوضع السياسي الإقليمـي مـع العرب وكذلك الوضع الدولي. وما زال الشعور السائد في الأوساط الإسـرائيلية أن أمـنهم السياسـي ما زال مهددًا، لأن اليهودي في مجالاته الثقافية والدينية يستطيع أن يمارسها بحرية في كل بلاد الدنيا، ومع أن دوره السياسي أيضًا كبير في تلك الدول لكنه يظل دون شعوره في دولته.

كذلــك يلاحــظ الــدارس أن اليهود الشرقيين الذين هاجروا من العراق واليمن ومصــر وشــمال إفريقــيا وغيرها من دول العالم الثالث هم بصفة عامة الطبقات الفقــيرة والمحرومة والتي تعيش في الريف أو بعيدًا عن المركز الذي يملؤه اليهود الأشــكناز لكــن يلاحــظ أن غالبيــتهم (اليهود الشرقيين) تؤيد الأحزاب اليمينية المــتطرفة. وقــد يمكن تفسير هذه الظاهرة، إما لكون اليمين بقي القوة المعارضة طيلة الثلاثين سنة الأولى من حياة الدولة اليهودية، وهذا يعني أن هؤلاء المحرومين والتي لن تسوّى مشاكلهم بسرعة في فترة حكم اليسار، قد اضطروا لأن يلجأوا إلى المعارضة والتي كانت تتمثل باليمين الرديكالي، وقد يكون السبب الآخر هو تعاليم الصــهيونية وأهدافهــا التي تلقوها والتي تسعى إلى تحقيق هذه الأهداف من غير الاكتراث لمعارضة العالم. أو أنها تريد أن تصب وتفرغ حقدها وشعورها بالنقص فــي مواجهة تلك الشعوب التي احتضنتهم مئات السنين، وبالغت في منحهم الحرية والفرص في تشكيل هويتهم الثقافية والدينية. وعادة ما كان الفقراء يؤيدون الأحزاب العمالــية، فلأنهــا أصدق في التعبيرَ عَن أهدافهم وتطلعاتهم. ولكن الأيديولوجيات المعلــنة لليمين بتبني أفكار جيبوتنسكي وحقه التاريخي فيما وراء الأردن هو الذي يدفع الطبقات الفقيرة لتأييده ومنحه ثقتها.

وبالتالي فإن حدة الانقسامات في المجتمع الإسرائيلي تكبر كلما كان الأمر متعلقًا فــي المجــال الدينــي والثقافي والمدني، أكثر منه على الصعيد السياسي، ويمكن تصــنيف المجــتمع الإســرائيلي بأنه مجتمع هيتروجيني Heterogeneous في هذه المجــالات، فحــركة المجــتمع الإسرائيلي مثقلة بتعدد الثقافات والعادات والتقاليد والمعــتقدات بينما تظهر الحركة السياسية للمجتمع الإسرائيلي أكثر توحدًا وسريعة الانفعــال، والسبب على ما يبدو الشعور بتهديد الأمن الفردي والقومي. ولهذا فإن الــنظرية الأمنــية الإسرائيلية تقوم على إذكاء الصراع العربي الإسرائيلي وإطالة أمــده، لأن ذلــك يســاعد على بلورة مجتمع مدني إسرائيل ي متوحد تنصهر فيه الثقافات وتذوب العادات والأعراف والقيم المختلفة.

العلاقات اليهودية – العربية :

وإذا كــان الــيهود الشــرقيون يقيمون في الريف، وغالبيتهم لا تسكن المركز صــاحب الــثقل النوعي في المجال السياسي والاقتصادي والإعلامي، خاصة في العشــرين ســنة الأولى من قيام الدولة، فقد عاش هؤلاء الشرقيون الذين قدموا من

البلاد العربية أو الإفريقية والآسيوية، في المعابر وهي مبان بدائية تم استيعابهم بها ريثما يتم إسكانهم في شقق أكثر إنسانية فيما بعد. وقد برزت نقمتهم على أوضاعهم بتأييدهم شبه الكامل لأحزاب اليمين الرديكالية والتي كانت تشكل المعارضة في النظام الإسرائيلي. فإذا كان هذا هو حال اليهود الشرقيين، فكيف يمكن أن يكون حال العرب الذين حافظوا على بقائهم فوق أرضهم؟ لقد اعتبروا أعداء في بادئ الأمر، يجب الحذر منهم. ولهذا تم عزلهم وحكموا بقانون الطوارئ البريطاني الاستعماري، على أيدي نظام الحكم العسكري وصودرت أكثر أراضيهم وأوقافهم وعوملوا قريبًا من معاملة سكان المستعمرات بأساليب السيطرة والعزل كما سيجيء تفصيلها. ومن الصعب إدراجهم في خانة المواطنين، لأن الدولة تعرف نفسها بأنها دولة اليهود، ولهذا فإن أي يهودي يعيش في أي بقعة من بقاع الأرض يثير اهتمام الدولة اليهودية ومسؤوليتها عنه أكثر من اهتمامها بهؤلاء العرب القاطنين في داخل الدولة اليهودية، والذين هم سكان البلاد الأصليين. وهذا هو التحدي الذي ينتصب أمام الأقلية العربية، هل تستطيع أن تؤثر في هوية الدولة اليهودية ومعادلة المواطنة، ولو كما أرادها الزعيم الصهيوني هرتسل بحيث تكون "دولة اليهود" وليس "الدولة اليهودية"، بحيث يشكل اليهود فيها أكثرية وليس من الضروري في رأي هرتسل أن تكون اللغة العبرية هي لغتها الرسمية. كان يريدها دولة فيها أغلبية يهودية وديمقراطية ليبرالية كنموذج الدولة القومية في أوروبا. بينما عارض دعاة التطرف الصهيوني فكرة هرتسل هذه عن الدولة واستبدلوها بالدولة اليهودية وكان من غلاة هذا التيار المفكر اليهودي أحاد – هعام .. وما زال الشوط في أوله، فإن التصريحات العنصرية تزداد حدة وانتشارًا في أوساط اليمين الإسرائيلي ضد الأقلية العربية ففي عام 2001 سمعنا تصريحات غاية في العنصرية والهمجية كتصريحات زعيم الحزب الديني عوفاديه يوسف، وبعض قادة اليمين والمستوطنين ..

لو تناولنا تركيبة المجتمع الإسرائيلي من جوانب كثيرة فسوف يظهر على أنه مجتمع هيتروجيني واضح Heterogeneous ، وينبغي أن يدرس على ضوء ذلك ومن الحماقة "دراسته" وبتعبير أصح تناوله وكذلك التعامل معه على أنه كتلة واحدة، كما سبق للعرب سياسيين وباحثين وهم يتعاملون مع القضية اليهودية على أنها كرة مغلقة يستحيل اختراقها ولذلك لابد من دحرجتها بكليتها. وعلى الرغم مما ذكر عن نظرة اليهود الموحدة تجاه قضية الأقلية العربية فإن هناك أحزابًا وحركات سياسية متعددة ومختلفة، وهناك اليمين واليسار وعلى سبيل المثال: فاليمين يدعون

أحقيــتهم فيما وراء نهر الأردن، والحركة الصهيونية يمتد حلمها التاريخي ليشمل أجــزاء مــن سوريا والعراق ولبنان، وما زالت تحلم في تحقيق هذا الهدف .. ولو كـــان الطــرف العربي في المفاوضات مع إسرائيل وخاصة الفلسطيني على نفس الكفاءة لطالبوا بإلغاء تمسك الصهيونية أو الحكومة الإسرائيلية بشكل واضح بتحقيق إسرائيل التوراتية، كما طالبت إسرائيل بإلغاء بعض البنود في الميثاق الفلسطيني.

فإنه لا فائدة من كل المفاوضات مع الجانب الإسرائيلي طالما لم تتخل علناً وبشكل واضــح ورسمي عن المشروع الصهيوني، لأنه لا معنى لاستقلال الأردن وسوريا إذا كانت الصهيونية لا تعترف لهم بسيادة على أراضيهم وتعتبر أن هذه الأراضي مـــا هي إلا جزء من المشروع الصهيوني الكبير. بينما حزب العمل وأن كان يرى أحقــية إســـرائيل بذلك. ولكن ميزان القوى للواقع الراهن لا يسمح بالإفصاح عن ذلـــك، والديمقراطية الإسرائيلية ما هي في حقيقتها إلا فن اختيار البدائل بما يتلاءم والظــرف القائم، وهي لا تتعدى ديمقراطية النظام في الوسط اليهودي فليس هناك تربية ديمقراطية بالمعنى المألوف في الديمقراطيات الغربية، والأحزاب اليهودية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار يؤمن بالأيديولوجية الصهيونية بنسب متفاوتة، وقلة صغيرة لا تتجاوز الأشخاص ترى أن المهمة الصهيونية قد أنجزت مشروعها بقيام الدولـــة الـــيهودية وعلـــى الدولة أن تستقل في اتخاذ القرارات التي تراها مناسبة لمستقبلها. وأما الصهيونية كحركة فهي عمل اليهود الذين يسكنون خارج إسرائيل .

من بين من نادى بهذه الفكرة كان الصحفي أوري أفنيري صاحب أسبوعية هعولام هازه (هذا العالم) حيث نشر أفكاره مبكرًا منذ سنوات الستين من القرن الماضي.

قــد يــرى بعــض الدارسين أنه مادام الكل ملتزمًا بالمبادئ الأساسية للمشروع الصـــهيوني ويعمل على تحقيقه ولو بحماس متفاوت، فلماذا لا نقف من ذلك موقفا واحدًا ونضع الجميع في خانة واحدة، وخطأ هذا التوجه أنه ليس علميًا ولا إسلاميًا، فالمشكلة، أية مشكلة، ينبغي تحليلها لعناصرها الأولية، حتى يتم معالجتها، والقضية التـــي لا يملك المرء منطقا محددًا لتفسير ظواهرها، فعليه أن يجتهد في استخراج المـــنطق الملائـــم، بـــدل الاستسلام، لقد استطاع الفكر اليهودي وساسته من تقطيع أوصـــال العالم العربي ببعث الشعور الإثني في هذه الأقليات. ومن قبل ذلك عمل علـــى تفتيت دولة الخلافة ببعثه للفكر القومي. فالأقليات الإثنية وكذلك الطائفية في العالم العربي والإسلامي مرصودة ويتعامل مع كل منها في نطاق خانته التي أعدت لـــه فـــي مراكـــز الـــبحوث والدراســـات العديـــدة الموجودة إلى جانب الجامعات

الإسرائيلية. والعديد من هذه الأقليات العرقية والطائفية تمارس نشاطها وتحركها من خلال الخانة التي أعدت لها في مراكز الدراسات هذه .. وهي على اتصالات مباشرة مع وكلاء ومفوضين إسرائيل يين أو صهيونين. والعقلية اليهودية تتجلى بقدرتها على تكييف نفسها والتأقلم بسرعة من خلال فهم وتحليل الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية للبيئة التي هي بصددها وهي تتعامل مع المعطيات ثقافة وفكرًا من غير أن تنصهر فيه تخترقه كجهاز فاحص يدرس الحالات التي تعرض له، وقد يضع البرامج والفلسفات لغيره يبثها من غير أن يتبناها هو نفسه، مثله في ذلك كمثل جهاز بث، لا يتأثر في المواد التي يبثها.

وتمتاز العقلية اليهودية بأنها لا تمل ولا تتعب وهي تبحث في القضايا المعقدة لكي تجد أو تشكل لها منطقًا خاصًا كآلية يتم اختراق الظاهرة التي تظهر وكأنها متماسكة لا يتأتى للدارس ولوج عالمها الداخلي .. والفرق بينها وبين العقليات الأخرى أن الآخر عندما يشكل منطقا أو فلسفة معينة يعتنقها ويتأثر بها قبل أن يبثها لغيره. ولهذا يذوب الآخر في المجتمعات التي يعيش بها ويتبنى مواقفها وثقافتها بعد جيل أو جيلين أو ثلاثة على أكثر تقدير، بينما الذهنية اليهودية حافظت على هويتها آلاف السنين، هل العنصر اليهودي مخلوق من جينات مختلفة؟ وهذه من مميزات العقلية المتجولة، التي لا تعرف الاستقرار والاستكانة على حالة ووضع معين ..

وعلى العكس من ذلك نرى العقلية العربية الحديثة والتي انقطعت عن جذورها وتعيش عالة على غيرها. ونحن نعني أنها لم تبدأ خطواتها من حيث انتهى البحث في النتائج التي خلص إليها علماء المسلمين، فحتى هذا اليوم قليلون، وقليلون جدًا من فهموا وهضموا النتائج التي توصل إليها علماء السلف، بل لقد انقطعوا عن التراث فهمًا واستيعابًا وبقوا في دائرة الولد الكسول الذي لم يستطع أن يفعل ما يفعله آباؤه. ولكنه يعيش على أسمائهم فقط وليس على تراثهم ومكتسباتهم.

سيطرة الأكثرية في المجتمعات المنقسمة عميقًا ذات الأقليات العرقية المتمايزة :

لقد أشغلت قضية المجتمعات المتكونة من أقليات قومية إثنية، الدارسين كثيرًا وما زالت. وجل هذه الأبحاث كان يهدف لإيجاد حلول لتلك المجتمعات المنقسمة بشكل عميق بين جماعات إثنية متعددة. وهناك العديد من بلدان العالم ممن يعاني من مثل هذه التركيبات، التي تثير الصراعات. وقد استخدمت بعض هذه الأبحاث

والـنظريات كأسـاليب تحليلية لتلك الحالات التي تتعاظم فيها الفوضى الاجتماعية وعـدم الاستقرار السياسي لتلك المجتمعات مع الوجود المستمر والمتعاظم للمشكلة العرقـية التـي يعيشها المجتمع. وكان يرجو بعض هؤلاء الباحثين أن يجدوا في نظـرية السـيطرة "جوابًـا" من أجل استمرار الاستقرار في العلاقات اليهودية ـ العربية في إسرائيل مع غياب التنظيم السياسي العربي.

ومـع أن نظرة "السيطرة" كصيغة تحليلية لتفسير الشذوذ في الاستقرار السياسي لبعض المجتمعات المنقسمة بشكل عميق، على أساس إثني، تبنتها قلة من الباحثين فـي هـذا المجـال، وبقيـت أكثر الدراسات تشير إلى أن الاتحاد بين الجماعتين السياسـيتين المنقسمتين على أساس عرقي هو أكثر احتمالاً لتثبيت دعائم الاستقرار مـن اعتماد نظرية "السيطرة" .. وقد ذهب لمثل هذا التحليل 1958 مايتنغ ناش في دراسـته لمجتمع متعدد الانتماءات في حالة غواتيمالا وعلى هذا فقد خلص إلى أن علـى هؤلاء الذين يبحثون في العلاقات المقارنة للمجتمع المتعدد الانتماءات، فهو يـرى بأن دوافع السيطرة السياسية، والظروف الاجتماعية والثقافية هي المسؤولة عـن تكريس وتخليد استمرارية الانقسام في مثل هذا التركيب السياسي. وقد ذهب باحث آخر هو ليوكوبر أبعد من ذلك فقال: "بإمكانية تغيير علاقات النظام في مثل هذه المجتمعات المنقسمة على أساس إثني، والتي يسيطر فيها جنس على آخر، إلى احـتمالات ضئيلة، بل تكاد تكون مستحيلة أن ينتهي الصراع والانقسام على أساس الـتحكم والسيطرة" وذهب ليوكوبر إلى أن "نظام الاستبداد ربما كان العامل الحاسم الذي يغذي إمكانية التغيير الثوري".[1]

وأمـا بيير فان دن بيرغ فقد استخدم قالبًا من أربعة مربعات متغيرة يتقاطع فيها تغـير مـتجانس وغـير مـتجانس، مـع متغير استبدادي ديمقراطي أنتج فئة من المجـتمعات الاستبدادية الجماعية ـ التي يفسر فيها الاستقرار والمساواة، وملخص نظريـته فـي السـيطرة الاستبدادية تقوم على: "ارتباط القهر السياسي، والاعتماد الاقتصـادي المتـبادل .. بحيـث يوظـف فيها الدين والعبودية والعمل باتفاقات وتعهـدات، وأشـكال أخـرى من الاعتماد الاقتصادي لتعزيز الإخضاع السياسي، والإبقـاء على قوة الفريق الحاكم وأجهزته القمعية". ويرى كذلك فان دن بيرغ أن تظـل الأقلـية تعتمد اقتصاديًا على الأكثرية المستبدة، وهو يشير إلى إقامة مجتمع سـماه (ديمقراطـية الشعب السائد) وهي الأغلبية التي تحكم عن طريق الاستبداد جماعات أخرى"[2]

وأمـــا الجدل الذي أثاره ألفين رابوشكا وكينث شيسل يتمحور حول نتيجة مفادها أن المجـــتمعات المنقسمة عميقًا لا تستطيع أن تتطور كديمقراطيات مستقرة، ولذلك فهـــو يـــرى أن السياسات العرقية غير المعتدلة والتي تقوم على حساب أقليات في المســـتوى الدســـتوري، إضافة إلى مستوى السياسة المتمثل بانتهاج أسلوب قمعي لنشـــاط الأقلـــية السياسي .. وهكذا فإن مبدأ سيطرة الأغلبية هو سبب قيام مجتمع المسيطر باستخدام وسائل غير أخلاقية كالمكائد الانتخابية التي يستخدمها للمحافظة على سيطرته، فيزداد القوي قوة والضعيف ضعفًا.(3)

وقريـــبًا من ذلك ما توصل إليه ميلتوف اسمان وأطلق عليه السيطرة المقننة – كالـــتماثل الـــذي يقـــوم على قناعة، والتكامل التوفيقي. ويرى ميلتوف اسمان أن المجـــتمعات المســـيطرة تســـتخدم بعض الأساليب في إدارة الصراع ضد الأقليات العرقية منها:

1- السيطرة بصورة قطعية على التغيير السياسي والاهتمام بالعامل الاجتماعي في المجتمعات المسيطر عليها.

2- مـــنع دخول أعضاء الجماعة المسيطر عليها إلى المجتمع المسيطر باستخدام أسلوب العزل.

3- احـــتكار حـــرية الحركة لأعضاء الجماعة المسيطرة في المجال السياسي ومجـــال التعلـــيم المتقدم العالي. وكذلك المجال الاقتصادي، واللغة الرسمية وكذلك الأعياد الوطنية، والأبطال الوطنيين، وكل هذا يعزز السيطرة السياسية والاقتصادية والنفسية للجماعة الحاكمة.(4)

ويـــرى ليوكوبر، أن نظام السيطرة، يعتمد بدرجة كبيرة على قوة "القمع"، وفي تحليله لأنظمة المستوطنين البيض في إفريقيا يقرر ليوكوبر أن النظام هناك يستعمل أسلوب "فرق تسد" بين الفئات الأخرى المسيطر عليها

الاستعمار الداخلي :

لقد رأى العديد ممن درسوا وبحثوا في ظاهرة المجتمعات المنقسمة بشكل عميق أن هـــناك علاقة بين الجماعات الكبيرة المسيطرة وبين الجماعات الضعيفة التابعة، يمكـــن أن توصـــف بأنهـــا نوع من الاستعمار الداخلي. ولهذا فإذا اعتمدنا بعض خصائص الاستعمار الخارجي عبر البحار أو الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر نموذجًا فقد أكد هيربرت آدم أن العلاقة بين البيض وغيرهم في جنوب إفريقيا

تقـوم على علاقة شبيهة بالعلاقة التي كانت تربط المستعمر بالبلدان المستعمرة في القـرن التاسـع عشـر. وعلى الرغم من عدم توفر البعد الجغرافي في المستوى الداخلي للاستعمار، فلا بد أن نرى أولاً ما هي مميزات الاستعمار الخارجي، وكيف يمكن حياكة ذلك على المستوى الداخلي، من هذه الخصائص:

1- الاعتماد الاقتصادي للمستعمرات على البلد الإمبريالي.

2- إقامـة حواجز قانونية وإدارية بين المستعمرين المواطنين وغيرهم من أهل المستعمرات.

3- المصـادرة المـنظمة للمنـتجات الأولـية من المستعمرة ونقلها إلى البلدان المستعمرة.

4- نشاط عمال الفبارك (المؤسسات الصناعية) من بين سكان المستعمرات.

5- القيود المفروضة على النشاط السياسي الحر للمواطنين.

6- محاولة فرض قيم وعقائد الدول المستعمِرة، على سكان المستعمرات.

7- تطوير عقلية العبد، لدى الناس المستعمرين.

8- الإبقـاء علـى الأطـر الاجتماعية التقليدية في المستعمرات بين الجماعات المسيطرة والتابعة داخل مجتمعات كثيرة.(5)

وإذا ما قارنا ما يحدث في مجتمعات منقسمة بين مسيطرين وتابعين بهذه الأمثلة التـي تسـتخدم فـي حالة الاستعمار الخارجي لوجدنا أنه في كثير من المجتمعات يقترب التماثل بين الاستعمار الخارجي والداخلي، وعلى سبيل المثال، فإن مقاطعة ويلز، سكوتلنده، أيرلنده، والسود في جنوب أمريكا قبل الحرب العالمية الثانية وفي مدن كبيرة في الولايات المتحدة الأمريكية، في سنوات السبعين من القرن العشرين، وكذلـك سكان الهنود الحمر في الريف البرازيلي كأمثلة على المستعمرات الداخلية لاسـتطاع المرء بصورة معقولة، أن يستمر في تمييز أشكال عديدة من الاستعمار الداخلـي. وعلى كل حال فإن الاستعمار الداخلي، كمصطلح قد أثقل كثيرًا بشحنات تاريخـية وبلاغـية. قـد تعيق استخدام هذا المصطلح كنموذج لدراسة المجتمعات المنقسمة عميقًا.

وقـد تبـنى هارولد وولب مدخلاً آخرًا لاستخدام مصطلح الاستعمار الداخلي، يعتمد على مبادئ التحليل الماركسي اللينيني، وقد اعتمد على علاقات البيض بغير البـيض فـي جـنوب إفريقيا. وعلى الرغم من كل ما قد يقال عن صحة المقولة الماركسـية اللينينية عن مفهوم الاستعمار فإن "التحليل الصريح لنظرية الاستعمار

الداخلـــي مقارنـــة مع مدلولات الاستعمار الخارجي وفقًا لنظرية محددة ومتطورة لإمبريالية ما وراء البحار هو أمر شرعي وصحيح"[6]

وإذا كانـــت العلاقات بين المستعمِر والمستعمَر على الصعيد الخارجي والداخلي يمكن أن نحصرها في ثلاث أساليب تكون مبدأ السيطرة: التجزئة، الاعتماد، التعيين

ويـــرى علمـــاء الأنثروبولوجـــيا والأنثولوجيا أن أقوى خصائص العلاقة بين المستعمر والبلاد المستعمرة تكمن في:

1) محاولة الهيمنة والسيطرة على الشعوب بدرجة كبيرة.

2) مصـــادرة ثـــرواتها الطبيعية ومحاربة تركيز الثروات والممتلكات وتجميعها بـــأيدي الشـــعوب المستعمِرة. وسوف نحاول أن ندرس علاقة السياسة الإسرائيلية بالأقلية العربية على ضوء هذين العاملين.

الأقلية العربية موضع شك وريبة من قبل المؤسسة الإسرائيلية :

يقـــول صاحب كتاب: "العرب في الدولة اليهودية"[7]"كانت العلاقة بين الصهاينة الـــيهود فـــي إسرائيل والأقلية العربية قائمة بشكل يناسب الجماعة الحاكمة. كانت قـــيادة الدولـــة الجديدة (إرائيل) تريد أ تمنع الأقلية العربية من القيام بدور الطابور الخـــامس، أو مـــن التسلل عبر الحدود، حتى تحصل على أكبر جزء من أملاكهم وأراضـــيهم حتى تستغل مصادرة الأراضي العربية لاستيعاب اليهود الجدد، وكبت الاقتصـــاد العربـــي من أجل تطوير الاقتصاد اليهودي حتى يظل الاقتصاد العربي عالـــة علـــى الدولـــة، ومنع الأقلية العربية من أن تصبح عبئًا في ميدان الصراع السياســـي العالمي. لم يرغب ولم يعمل النظام على دمج العرب مع اليهود، وعلى العكس من ذلك فقد عملت السياسة الإسرائيلية بشكل مبرمج وبصورة منهجية على اعتماد سياسة الفصل الجماعي والاجتماعي بين العرب واليهود. وعملت كذلك على مصادرة وانتزاع مصادر القوة ذات الأهمية بالنسبة للأقلية العربية. وتوجيه الأقلية العربـــية بصـــورة منظمة لخدمة مصالح الأكثرية اليهودية. ويقول لوستيك كذلك: "هكذا كانت السياسة الإسرائيلية نحو الأقلية العربية تقرر هدفا واحدا وهو السيطرة علـــى العرب في إسرائيل ، والتحكم بهم بدل طردهم أو استيعابهم أو تمكينهم من التطور".[8]

وهكذا فإن السياسة الإسرائيلية تنظر إلى الأقلية العربية نظرة سيطرة ولا مكان للطموحات العربية في تحقيق مواطنة في دولة ثنائية القومية. وقد برز هذا واضحًا

فـــي افتتاحـــية ـــ الجروزالـــيم بوست حزيران 1976 الموجهة إلى بعض رؤساء السلطات المحلية العربية الذين اقترحوا في اجتماع لهم اعتبار إسرائيل "دولة ثنائية القومية بدلاً من دولة يهودية" وقد نصحت الجروزاليم بوست العرب أن لا يفرطوا فـــي تطلعاتهم أكثر مما يحتمله الواقع. ثم تتفضل الصحيفة "بمنح" العرب الحق في النضـــال مـــن أجـــل تحسين أوضاعهم والمطالبة بالمساواة وبفرص عمل أكثر ـــ وحصـــر هـــذا النضال في هذه المطالب سوف يجند العديد من اليهود للوقوف إلى جانـــب العرب: فإن إسرائيل الآن وستبقى كذلك في المستقبل دولة يهودية بصورة قطعـــية"[9] وتضـــيف الصحيفة في ذات العدد: "فإن اليهود الذين أتقنوا، بشكل ممتاز العـــيش كأقليات منذ سبي بابل، فقد علمته التجربة الطويلة (الشعب اليهودي) درسًا رئيســـيًا .. أن علـــى الأقلـــية تقـــع مسؤولية تطوير حساسية مرهفة تجاه مشاعر الأغلبـــية، وعلى الأقلية أن لا تتجرأ باجتياز (الجرأة هنا تفيد معنى الوقاحة) شكل العلاقات بين الأقلية والأغلبية لا في الحاضر ولا في المستقبل البعيد الغير منظور".

وفـــي حديـــث قريب من هذا الكلام جاء أيضًا تحذير يغآل ألون (رئيس الحزب اليساري الاشتراكي ـــ أحدوت هعفودا ـــ) من طموحات الأقلية العربية التي تعيش تاريخـــيًا وكأنها أقلية قومية ثم يضيف:[10] "إنه من الضروري أن نعلن بصراحة أن إســـرائيل دولـــة يهوديـــة أحادية القومية، وإن كون أقلية عربية تعيش داخل البلد تجعلهـــا دولـــة متعددة القوميات .. إن للعرب دولاً كثيرة وأرضًا واسعة، بينما لا يوجد لليهود غير دولة واحدة .. وعلى الأقلية العربية أن تقوم بخطوات إيجابية من أجـــل الدولة والمجتمع اليهودي، من أجل تخفيف الشك اليهودي حول صدق التوجه لدى غالبية العرب لمؤسسات الدولة" ..

أجـــل إنها دولة واحدة ولكنها قامت على أنقاض الشعب الفلسطيني، وطلب ألون مـــن الأقلية العربية أن تثبت براءتها أمام الأغلبية اليهودية من أنها غير فلسطينية وليســـت مالكـــة لـــلأرض التـــي تواجدت عليها آلاف السنين باستمرار، ثم يأتي د. عزمـــي بشـــارة ـــ صـــاحب المشـــروع القومـــي النهضوي وعضو الكنيست الإسرائيلي، ومستشار النظام السوري ـــ بعد ما يقارب الخمس وأربعين سنة لينفي أن الديمقراطـــية فـــي إســـرائيل ليســـت "ديمقراطـــية السادة" ولا هي ابارتهايد Herrenvolk Democracy[11] بيـــنما ســـوف نـــرى ما تكتبه صحيفة "فصل المقال" (صحيفة عزمي بشارة) في خطابها العربي في مكانه من السياق.

وقد كتب جدعون شبيغل في مقال نظري حول "الأيديولوجية الصهيونية والأقلية العربية" في نشرة اللجنة المركزية لحزب مباي (حزب العمل اليوم) في1967 رافضًا كل تفكير يقول بالليبرالية على النمط الأمريكي كنموذج للعلاقات العربية اليهودية في إسرائيل ".[12]

ومما يعزز سياسة الشك والريبة عند السلطات الإسرائيلية واتهامها لدرجة إخلاص الأقلية العربية لأجهزة الدولة، وإمعانًا في فرض سيطرة تامة على هذه الأقلية ، نجد أن جميع الرجال الذين عينوا كمستشارين لرئيس الحكومة الإسرائيلية للشؤون العربية جندوا لمناصبهم هذه من جهاز البوليس السري وهم: يهوشع بالموت، أوري لوبراني، شموئيل ديفون، حاخام أمير، وشمويل توليدانو كلهم عملوا في جهاز الأمن الإسرائيلي، وهذا يعكس نوعية المعلومات التي يحتاجها رئيس الوزراء عن العرب وكيفية تعامله مع ما اعترف على تسميتها في الأوساط السياسية والأكاديمية الإسرائيلية بالمشكلة العربية (هبعياه هعرفيت). وقد وصف شموئيل ديفون أحد هؤلاء المستشارين توجه رئيس الوزراء بن غوريون للقطاع العربي وكيفية التعامل معه فيقول: "بن غوريون كان دائمًا يذكرنا أننا لا ينبغي أن ننقاد ونستكين لحقيقة وضع أن العرب لم يمارسوا بعد عمليات "تخريب" يجب أن نتطلع لما يمكن أن يقوم به هؤلاء العرب لو توفرت لهم الفرصة".[13] وهذا تمشيًا مع القاعدة التي ترى: أن العربي مدان في الأصل حتى تظهر براءته في قضية محددة واحدة. فيتبرأ من هذه القضية فقط ويبقى مدانًا في باقي القضايا التي لم تحدث بعد وقد لا تحدث أبدًا، ولهذا يطالب قادة الأقلية العربية بشجب كل عملية فدائية كشهادة براءة.

وليس أدل على ما نذهب إليه، من طبيعة التوجه الإسرائيلي في تعامله العنصري مع العرب في الدولة اليهودية مما قاله الحاكم العسكري للمثلث العربي حيث وصف مهمته بصراحة متناهية: "وظيفتي ليست الدفاع، إن هذه مهمة حرس الحدود والقرى الزراعية اليهودية المزروعة على طول الحدود، ولكن وظيفتي هي السيطرة على السكان العرب في المنطقة، مع علمي أن الغالبية الساحقة من بينهم هم مواطنون مخلصون، لا يفتشون عن مشاكل، ولكن هناك جزء من هذه الأقلية غير مخلص ومهما كان قليلاً، فينبغي أن نمارس السيطرة وأسلوب فحصهم ومراقبتهم باستمرار.[14]

وهكذا فإن السياسة الإسرائيلية، منذ البداية تريد أن تبقي العرب خارج التعامل

المباشر للدوائر الحكومية. ولهذا أفردت لهم دوائر خاصة بهم مثل: "دائرة المعارف العربية"، "الدائرة العربية في الهستدروت" (المنظمة العمالية)، "جهاز مستشار رئيس الحكومة العربية" وغيرها وغيرها. وهكذا تفرد دوائر تعالج مشاكل العرب وطلباتهم، بحيث يمنعوا من الدمج في الدوائر العامة ، ولا يخفى ما وراء ذلك من تمييز في الخطاب الموجه لليهود وذاك الموجه للعرب. وعندما حاول يتسحاك رابين (رئيس الحكومة الذي اغتاله المتطرفون اليهود لتوقيعه اتفاقيات سلام مع الأردن والفلسطينيين) التعامل مع هذه القضية (مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية) غيّر المصطلح، الاسم فقط وأبقى على الجهاز فبدل (مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية) إلى منسق بين الوزارات المختلفة في الشؤون العربية مرتبط برئيس الحكومة) . وقد يتطور هذا المنصب ليصبح هناك وزير للشؤون العربية كما كان في عهد كتساف أو كما يشغله اليوم النائب الدرزي صالح طريف كوزير للشؤون العربية. والأمر على هذه الصورة وبتلك الصيغة لا يختلف كثيرًا عن وزير المستعمرات في حكومة جلالته.هناك يعيش المستعمرون وراء البحار، وفي حالتنا نقطن الريف على هامش المجتمع اليهودي.

ولقد كان يغآل آلون رجل (أحدوت هعفودا) الذي أرضعته عربية والحائز على مواطنة بلدية طمرة العربية، أكثر هؤلاء المسؤولين الكبار المتورط في صياغة البرامج والخطط الحكومية تجاه الأقلية العربية. ونرى ذلك واضحًا في برنامجه الذي تقدم به للحكومة الإسرائيلية من أجل مواصلة الإدارة العسكرية المفروضة على العرب إخوانه في الرضاعة!!

1- سيطرة فعالة على السكان العرب وتحركاتهم من أجل منع التنظيم والنشاط العسكري المعادي من قبل مواطني الدولة العرب (ومن يعرف وضع الأقلية العربية وظروفها الخاصة عن قرب يعرف استحالة القيام بأي عمل عسكري ذى بال).

2- من أجل منع أي تنظيم أو تشكيل حركة عربية غير مرغوب فيها.

3- من أجل إيجاد أساس لمنع وردع الأعمال والتنظيمات السياسية المعادية.

4- من أجل توفير نص قانوني لمحاكمة التجمعات "الخيانية" ومعاقبة الخونة (والقصد هنا الحكم العسكري في مقابل المحاكم المدنية).

5- الفصل بين السكان العرب والمستوطنات الجديدة، وبشكل رئيسي بينهم وبين أولئك اليهود الذين هاجروا من دول عربية.

وقد وافق يغآل ألون على إلغاء الحكم العسكري عام 1966 من منطلق تشويه

صورة إسرائيل الديمقراطية، وليس من منطلقات سياسية والتي تبرهن على أن الأقلية العربية مستكينة وجل نشاطها وما تريده هو توفير لقمة العيش والمسكن المتواضع وأن تعيش فوق أرضها بسلام. ولكن كما يقول ألون فإن مهمة الحكم العسكري يقوم بها جهاز المخابرات بشكل أفضل وغير مرئي"[15] (وما عرف بالقوائم السوداء التي كانت تضم المئات والآلاف) حتى تبقى إسرائيل الدولة الديمقراطية الوحيدة في غابة الاستبداد الشرق أوسطي في نظر العالم.

لقد قسم شمعون بيريس (وزير الدفاع ورئيس حكومة إسرائيل السابق ورئيس حزب العمل) الأقلية العربية إلى ثلاث فئات: المذعنين اللامبالين، والمذعنين المعادين، والمعادين بصورة نشطة. ولفظة معادين بصورة نشطة، لا تعني بحال من الأحوال، استعمال هذه الفئة للعنف، وإنما مجرد معارضتها لسياسة الحكومة في سلب أراضي العرب، ومعارضة سياسة التمييز الغاشمة ضد الوسط العربي، ومعارضة رجالاتها الذين تقوم بتعيينهم أوصياء على الوسط العربي ومعارضتهم للنظام الحمائلي، كل ذلك يعتبر نشاطاً ضد الدولة. وبناء على مثل هذه الاعتبارات كان يراهن مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية السيد أوري لوبراني منذ (1960 – 1963) على كون العرب أعداء مستقبليين للدولة بشكل أبدي. وهذا ما أكده في محاضرة له لجمهور يهودي في تل أبيب في نيسان 1961، وكان يؤكد على أن الأقلية العربية هي: "العدو الأبدي المحلوف عليه للدولة" وقد وصف سياسته تجاه العرب كالآتي: "بإحدى اليدين نأخذ ما أعطينا بالأخرى .. نحن نعطيهم جرارات وكهرباء، والتطور ونأخذ مقابل ذلك الأرض (فما تنفع الجرارات) ونقيد حركتهم، نحن نعطيهم مدارس ثانوية، وبعضهم القليل قد يصل إلى الجامعات ولكننا نمنع خريجيهم من الحصول على وظائف".[16] وكان لوبراني ينصح الحكومة قطع الطريق أمام تبلور قادة عرب محليين ولو على مستوى القرية، أو السماح لمنح ترخيص لقيام أحزاب أو حركات عربية. وكان يرى لوبراني أنه كان من الأفضل لو لم يكن هناك طلاب عرب يدرسون في الجامعات .. واشتهر بقوله: "من الأفضل لنا لو بقي العرب حطابين وسقاة ماء حتى يسهل السيطرة عليهم". هذا هو وضع العلاقة بين "المواطنين" العرب والسلطة الإسرائيلية المركزية .. أن تعطي جرارات وتأخذ الأرض حتى يخسر العربي الأموال التي دفعها في شراء الجرارات من غير أن يكون هناك أرض يفلحها!! وتعطي لهؤلاء "المواطنين" في الدولة الديمقراطية فتات الوظائف التافهة لهؤلاء "المذعنين اللامبالين" بتعبير بيرس، وينبغي أن يبقى العرب

جهلــة حــتى يســهل قــيادتهم والســيطرة علــيهم، هذه علاقة دولة ديمقراطية بمواطنيها.؟!!

ولــنقرأ ما هو أخطر بكثير من كل ذلك : في شباط 1975 كتب داني روبنشتين مراسل الشؤون العربية في دافار (صحيفة حزب العمل آنذاك) : "السياسة الرسمية تجــاه العرب الإسرائيليين لم تكن ولن تسمح لهم بأي نشاط من خلال إطار سياسي اجتماعــي أو اقتصــادي عربــي مستقل". وبعد سنة ونصف من ذلك قدم إسرائيل كينيغ (من حزب الوطنيين المتدينين) وكان يشغل منصب حاكم اللواء الشمالي من قبل وزارة الداخلية الإسرائيلية، مذكرة رسمية، اشتهرت بمذكرة كينيغ ونشرت في صــحيفة "عل همشمار" صحيفة حزب اشتراكي يساري "مبام" حول معاملة عرب إســرائيل ، ورغــم إدانة الحكومة علناً لهذا التقرير، إلا أن العديد من المسؤولين الحكوميــن أيــدوا ونفــذ بعضهم توصيات هذه المذكرة، حتى أن رئيس الحكومة الإسرائيلية قد اختار شريك يسرائيل كينيغ في صياغة المذكرة وهو تسفي الدوراني لتعييــنه كمديــر للدائرة العربية في حزب العمل[17]. وتتلخص وثيقة كينيغ بمبادئ محددة لمعالجة المشكلة الديموغرافية السياسية والاقتصادية المزعجة داخل القطاع العربــي. ولهذا يوصي الحكومة أن تحكم السيطرة بشكل تام على الأقلية العربية. ويقــترح كينيج إقامة قوة سياسية جديدة في القطاع العربي تسيطر عليها الحكومة بواســطة "حضــور مســتتر" وينصــح كذلــك "بتبني إجراءات قاسية على جميع المســتويات ضد طلبة الكليات والجامعات .. وكذلك التكثيف المتميز ضد الاقتصاد العربي من أجل تجريدهم من الضمان الاجتماعي والاقتصادي الذي قد يريح الفرد من الضغوط اليومية لتوفير الحاجات الضرورية له ولعائلته حتى لا يبقى لديه وقت يفكر فيه بقضايا شعبه والهموم الوطنية العامة".[18]

ما بين سياسة السيطرة التامة ومطلب دولة لكل مواطنيها بون شاسع :

يخطــئ من يظن أن السياسة الإسرائيلية تسعى لتحسين أوضاع الأقلية العربية، وتحقيق مطلب العرب بتغيير هوية الدولة من دولة يهودية تفرض سياسة السيطرة الــتامة علــى الأقلية العربية إلى أن تصبح دولة كل مواطنيها بما فيهم العرب .. ويخطــئ من يظن كذلك أن الدوائر الحكومية سوف تتوقف عن اعتبار هذه الأقلية مشــكلة ينبغــي الحذر منها وضرورة إيجاد العلاج المناسب لها. وتخطئ تقديرات الساســة الإسرائيليين إذا اعتقدوا أن العرب يهدفون إلى استبدال مواطنتهم. وأكثر

المتطرفيـــن الإســلاميين لن يفكر بذلك، كما أن عضو الكنيست الإسرائيلي السيد عزمـــي بشـــارة لن يقبل أن يستبدل بمواطنته الإسرائيلية المنقوصة منصب رئيس حكومـــة لأية دولة عربية، هذا الكلام ليس رجمًا بالغيب وإنما هو الواقع من غير مزايدات "مرخصة". خاصة في ظل هذا الوضع العربي المذل، نحن سنبقى نناضل من أجل تحسين ظروف معيشتنا وزيادة الأمن والثقة بمستقبلنا فوق أرضنا.

مـــن كـــان يســـمح لنفسه أن يفكر يومًا بأن مؤتمرًا للقادة العرب يعقد في إطار جامعـــة الـــدول العربية، في عمان، يسجل في بروتوكول المؤتمر دعوة إسرائيل لتنضم لعضوية الجامعة العربية..؟ مؤتمر قمة يعقد بغرض رفع المعاناة عن الشعب الفلسطيني ونصرته وإنصافه من إسرائيل وتخفيف المعاناة عن الشعب العراقي من جراء أحكام المقاطعة الدولية ضده.؟

عـــندما طلـــب الزعـــيم الليبي، كما ذكرت وسائل الإعلام، إدراج طلب دعوة إســـرائيل للانضمام لجامعة الدول العربية لبروتوكول المؤتمر لم تكن دعابة، وإن كان هذا الطلب دعابة، فهي دعابة مثقلة بالمعاني الكبيرة والعظيمة وهي لا تخرج عن كونها إما:

1) دعابـــة فهـــي رسالة واضحة إلى شعوب الأمة العربية، بأن هذه مؤتمرات قادتكم، كلها دعابة ومزاح لا تعرف الصدق ولا الجدية، وهذه الدعابة بالذات تقول لـــنا: إذا كـــنا نحـــن العرب غير قادرين على مواجهة إسرائيل بالصراع والعنف لتحقـــيق مطالبـــنا فدعونا نستجدي الحل منها لقضايانا كالمثل المتخاذل الذي يقول: "اليد التي لا تستطيع كسرها ولا ردها قبّلها وادعو عليها بالكسر".

2) أو أن القذافي يريد أن يقول لنا وللمؤتمرين في القمة: لماذا لا تكون إسرائيل عضـــوًا فـــي الجامعة العربية؟ وهناك من بين دول هذه الجامعة من هو أشد حربًا للأماني والتطلعات العربية من إسرائيل؟ هناك دول أعضاء في هذه الجامعة يخجل المـــرء وهو يسمعها تنطق بالعربية، أنظمة مبرمجة برمجة أمريكية بلسان عربي غير فصيح؟!!

3) وإمـــا أن يكون القذافي قد فهم الدور اليهودي ووظيفته عبر التاريخ فيريد أن يقـــول لـــنا، لـــندع العقل اليهودي والروح اليهودية تسكن أو تحتل الكيان العربي، بإمكانـــياته الضخمة، فتستطيع أن تجعل منه كيانا سياسيًا واقتصاديًا وعلميًا ينافس أعتى القوى في العالم، وهكذا ينهض العرب بها (إسرائيل) وتنهض بهم، فنحيا بها وتحيا بنا كما هو الحال مع أوروبا وأمريكا ... تمامًا كما قال سليمان أبو ربيعة أحد

مشـــايخ الـــبدو فـــي النقب عندما التقى مع هرتسل في زيارته للعريش ـــ الزعيم الصـــهيوني الشهير في صيف 1903: "لدي عشرة آلاف رجل مقاتل فإذا قام حلف بينـــنا، قـــوة رجالنا مع العقل والحكمة اليهودية لن تستطيع قوة أن تقف أمامنا".[19] ويـــبقى الواقـــع العربـــي والإســـلامي يبكـــي حسرة وألمًا هؤلاء العرب غائبين وحاضرين.

تصنيف الأقلية العربية كمشكلة إثنية :

معظـــم الدول التي تعاني مجتمعاتها من صراعات على أساس عرقي أو طائفي غالـــبًا ما تكون هذه المجموعات الإثنية، قد هاجرت إلى تلك الدول مع الوقت من أماكـــن أخرى، ومع مرور الوقت يزداد عددها وثقل وزنها في القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية، وهذا يخلق تنافسًا على الموارد العامة سرعان ما قـــد يـــتحول إلى صراعات عندما تطالب هذه الأقليات بزيادة حصتها من المدخول القومـــي .. ولكـــن الأمر هذا يختلف بما يتعلق بالأقلية الفلسطينية التي بقيت تسكن الدولة اليهودية بعد حرب 1948 .. فهنا قد تحولت الأكثرية القومية ـــ سكان البلاد الأصـــليين إلى أقلية بعد عملية تهجير بسبب قوة خارجية، وبذرائع مختلفة، فما هو وضـــع هـــذه الأقلـــية؟ هل هي مجموعة من الطوائف والنحل والحمائل؟ مسيحي، مسلم، درزي، بدوي حضري ... كما تتعامل معها السياسة الإسرائيلية؟ أم هي أقلية قومية خاضعة لمقاييس معينة؟

هنالك بضعة أمثال في التاريخ الحديث والمعاصر قريبة من هذا النموذج :

1) مشكلة العالم الجديد بين المستعمر الأوروبي، بعد اكتشافه لأمريكا فقد استهل حضـــارته بمذابـــح همجية غير أخلاقية وغير إنسانية عن طريق تفريغ البلاد من ســـكانها الأصـــليين، مـــن الهـــنود الحمر، وارتكاب مذابح تصفية لوجود السكان الأصـــليين. علـــى الرغم من البسالة المنقطعة النظير التي أبداها الهنود الحمر في مقاومـــة هذا الغزو الاستيطاني المتوحش، حيث تحول الهنود الحمر إلى أقلية قليلة جـــدًا .. ثم جاءت موجات بشرية من أوروبا أولاً ثم من غيرها من قارات العالم، حتى كونت هذه الأقليات المندمجة كما هو الحال في معظم بلدان أمريكا.

2) الاستعمار الاستيطاني الفرنسي في الجزائر، مع التأكيد أن العنصر الفرنسي ظـــل قلـــيلاً نســـبيًا ومقارنة مع سكان الجزائر العرب المسلمين. خاصة بعد نيل الاستقلال ، وإن ظل هذا الاستيطان كالسرطان في جسم البلاد يذكي نار الانتماءات

العرقية كالأمازيغية وغيرها وبعث الانقسامات فيما بينها.

3) الاســتعمار الاســتيطاني للرجل الأبيض في جنوب افريقيا. وقد حكم الرجل الأبــيض سنين طويلة، والأغلبية السوداء تكافح وتقدم الضحايا بمئات الألوف حتى نالت استقلالها مؤخرًا.

هــذه الحــالات تختلف في جوهر علاقاتها الاجتماعية والسياسية بين مستعمر يســيطر على البلاد وثرواتها ويستنزف مواردها ويقيم علاقات سيطرة على أهلها، وبيــن الــبلاد الأخرى التي يتألف سكانها من أقليات عرقية أو دينية يعترف الحكم المركــزي "حكم الأكثرية" بمواطنة هؤلاء، حتى وإن كان لا يقيم مساواة تامة بين أكثرية وأقلية، ولكنه لا يجحد حقوق مواطنتهم ويبقى الأمر في نطاق المطالبة بنيل المزيد من الحقوق وتحقيق المزيد من المساواة. إلى أي هذه النماذج يقترب نموذج الأقلية العربية؟

وحتى نرى هل تغير شيء في البرنامج السياسي الإسرائيلي تجاه الأقلية العربية أم لا فلابــد أن نقف على تصريحات السياسيين الإسرائيليين الحالية ومقارنتها مع تلــك التــي نقلــنا جزءًا ضئيلاً منها وسوف نكتب المزيد عنها عند تحليل أوضح للسياســة الإســرائيلية المفروضــة على الأقلية العربية في هذا الجزء من الكتاب. وسوف نقرأ قراءة مقارنة توصيات مستشاري رئيس الحكومة للشؤون العربية في الســابق ابــتداءً باقتراحات يغآل آلون وروبنشتين ولوبراني وحتى وثيقة يسرائيل كينــيغ، مقارنة مع توصيات سنوات الألفين وألفين وواحد: والمؤتمرات التي تعقد لبحث الخطر الديمغرافي العربي على الدولة اليهودية.

سياســة واحدة منذ قيام الدولة وحتى اليوم وبنفس الحجج والذرائع: تحت ذريعة "المــناعة والأمن القومي" تتقدم نخبة سياسية وعسكرية بمذكرة للحكومة توصي[20] بترحــيل الفســطينين (الأقلية الفلسطينية في الدولة اليهودية) وفي الوقت نفسه فقد "أوصـــى مسؤول عسكري كبير سابق في إسرائيل بإقامة نظام طوارئ دكتاتوري لعــدة ســنوات لمواجهة "الخطر الديمغرافي" العربي الذي اعتبره من أشد الأخطار على الدولة. ودعا لاتخاذ قرارات بخصوص تحديد النسل". وقد جاءت هذه التوصية منســجمة ومكملة لتوصيات وردت في وثيقة صدرت عن مؤتمر عقد في هرتسليا مؤخــرًا (قــرب تــل أبيب) حضرته شخصيات رئيسية كنتانياهو وبراك (رئيسين ســابقين لمجلس وزراء إسرائيل) وغيرهما بدعوة من "المركز المتعدد المجالات" وحمــل عنوان: "ميزان المناعة والأمن القومي" ــ اتجاهات لسياسة عامة، بمبادرة

مـــن شخصيات بارزة في الأمن والأكاديميا وتم تسليم تلك الوثيقة إلى رئيس الدولة كتســـاف كما كشفت عن ذلك صحيفة هآرتس.." وتدعو توصيات المؤتمر إلى رسم ســـبل مواجهـــة "تكاثر الفلسطينين داخل إسرائيل" وإلى اعتماد أسلوب "ترانسفير" العرب بهدف الحفاظ على الهوية اليهودية للدولة. كما اشتملت التوصيات على عدم الاســـتثمار مـــن جانـــب الدولة في جسر الفجوات بين الفئات القوية والضعيفة في المجتمع، كما أوصت الدراسة باقتراحات عنصرية أخرى منها: اتباع سياسة تشجيع العائلات التي يتراوح عدد أبنائها ما بين 3-4 أولاد من خلال إلغاء المعونات المالية التـــي تقدم حاليًا للعائلات كثيرة الأولاد. وكذلك توزيع السكان اليهود على المناطق "المثيرة للمتاعب" ديمغرافيًّا خاصة في الجليل ومرج ابن عامر والنقب لمنع تواصل غالبية عربية. مع إمكانية تبادل كتل سكانية بين إسرائيل والدولة الفلسطينية العتيدة (؟) علـــى أن يـــتم فـــي المقابل ضم كتل سكانية استيطانية إلى إسرائيل ونقل كتل سكانية عربية إلى فلسطين.

هـــا نحن لسنا في السنوات العشر الأولى أو العشرين والثلاثين الأولى من قيام دولة إسرائيل ، ولكن نحن في عام 2002 ونقرأ مثل هذه التوصيات ليست من حاكم المـــنطقة الشـــمالية أو مـــن مستشـــار رئيس الحكومة للشؤون العربية وإنما من شخصـــيات تقـــرر فـــي السياسة الإسرائيلية من متخذي القرار من شخصيات من الدرجة الأولى وكذلك من اليمين ومن اليسار ..!؟

ولـــنقرأ موقفًا آخر لبروفسور سامي ميخائيل في محاضرة له عن وضع اليهود فـــي العراق قبل تهجيرهم[21] وقد شرح حال يهود العراق وأوضاعهم فقد كانوا أسياد المال في العراق بيدهم وزارة المالية والبنوك والمرافق العامة حتى فروع الصيدلة وغـــيرها وغيرها، بينما هم في إسرائيل يعيشون على هامش المجتمع الإسرائيلي ولا يقـــتربون مـــن المركز .. عندما سئل من أحد الحاضرين عن رأيه في الأقلية الفلســـطينية التي تعيش في حدود الدولة اليهودية، أجاب إجابة تقلق كل من له عقل يفكـــر وأذنان تسمعان وقلب يعي ويعقل، أما آن لقلوب قادة الأقلية العربية أن تتنبه لقضاياها المصيرية حتى تتناولها بكامل التوتر والتحفز، بكامل الصدق والجدية؟ أما آن لكـــم أن تســـمعوا كـــيف ينظر المفكرون اليهود لنا؟ أما آن لكم أن تنتهوا عن مهاراتكم ومزايداتكم؟

أمـــا آن لكـــم أن تولوا قضايا شعبكم جل أوقاتكم وطاقاتكم وأن لا تتناولوها أو تفكروا فيها إلا في أوقاتكم الضائعة، كما هو حاصل حتى الآن ؟؟

أتـــدرون بماذا أجاب برفسور سامي ميخائيل عن سؤال من سأل عن موقفه من الأقلـــية الفلســـطينية؟ قال وهو مهموم: "لو خطر هذا السؤال على بالي في الساعة الثانـــية عشـــر لـــيلاً (موعد نومه) لما استطعت أن أنام تلك الليلة!!! قضية الأقلية العربـــية تقض مضاجع الساسة الإسرائيليين والمفكرين اليهود وقادة الأقلية العربية يلهـــون بها ويبيعونها بثمن بخس من نزواتهم وقضاياهم الشخصية الحقيرة" . وقد شبه سامي ميخائيل هذا إسرائيل وكأنها خاتم في وسطه نواة عربية يكبر خطرها يومـــا بعـــد يـــوم ويحيط بالخاتم أوقيانوس من العرب والمسلمين. والمسلمون في تاريخهم كله لا يقبلون بجسم غريب بينهم، فإما أن يسلم هذا الجسم وإما أن يهزم!!!

وهكـــذا يعـــد مرور ما يزيد عن أربع وخمسين سنة من قيام الدولة اليهودية ما زالـــت السياســـة تجـــاه الأقلـــية العربية هي هي بل إن التوصيات والتصريحات والكـــتابات التي تصدر في سنوات الألفين أكثر قساوة وأشد تطرفًا من التوصيات التـــي صـــدرت عن كل مستشاري رئيس الحكومة للشؤون العربية أو حاكم اللواء الشـــمالي والـــذي يعتـــبر موظفًـــا فـــي وزارة الداخلية لم ترق لخطورة توصيات المؤتمريـــن في هرتسليا عام 2001 ، والذين كان بينهم رئيسا حكومتين إسرائيليتين ســـابقين كنتانياهو وباراك. إنها سياسة واحدة سيطرة تامة، سياسة تستبعد استيعاب العرب كمواطنين في الدولة اليهودية، وهذا الذي يجعلنا نفكر أننا أمام سلطة ظالمة لا تريد لنا أن نعيش كمواطنين فوق أرضنا .. وعلينا أن نعي دورنا جيدًا وما علينا أن نفعلـــه مـــن أجل أن يبقى وجودنا حيًا ومستمرًا أن ندرس أوضاعنا جيدًا حتى نضع حلولاً لمشاكلنا من اجتهادنا نحن ولا نستورد لمشاكلنا حلولاً من عند غيرنا، مـــن عـــند من لم يستطع أن يعالج مشاكله هو ذاته وقديما قالوا: "الجمل من جوفه يجـــتر" .. مـــرة أخـــرى حـــذار من إعطاء الساسة الإسرائيليين المبررات لتنفيذ توصـــياتهم واقتراحاتهم، حذار من الهوس أو أن نـــوظف من حيث لا ندري ضد مصـــالحنا وضـــد وجودنا، فيصدق فينا المثل القائل: "على نفسها جنت براقش" أو قولهم: "في الصيف ضيعت اللبن".

الفصل الثاني

مبادئ رئيسية لسياسة السيطرة المعتمدة للتحكم بالأقلية العربية

تعتمد سياسة السيطرة الإسرائيلية على الأقلية العربية على ثلاثة مبادئ أساسية هي:

1) التجزئة 2) الاعتماد 3) التعيين.

إن بنية المجتمع العربي وتركيبته الاجتماعية والثقافية، خاصة في ظل ظروف معينة كالتي تمر بها الأقلية العربية، سواء على السمتوى المحلي أو الاقليمي وكذلك الدولي، تجعل عملية تجسيد هذه المبادئ تتم بسهولة ويسر ونجاح، ومن ثم تجعل السيطرة عليها تكاد تكون محكمة. وعلينا أن ندرس كل مبدأ من هذه المبادئ وأسلوب استخدامه من قبل السلطات الإسرائيلية على الأقلية العربية، حتى نعلم بالتالي أي نوع من العلاقة تقوم بين السلطات الإسرائيلية وبين مجموع الأقلية العربية.

عامل التجزئة :

إن التقاليد والأعراف الاجتماعية، وكذلك أنماط التفكير التسطيحي والمستوى الثقافي ونوعيته والتي تتحكم بحركة المجتمع في مستوياتها المختلفة، تساعد على خلق نفسية قابلة للتجزئة وكذلك قابلة للعزل، فكيف يكون الحال إذا وجد من يرعاها ويتعهدها كالحكومات الإسرائيلية . بل إن التجزئة التي يتميز بها المجتمع العربي في غياب الروح الجماعية في مستواها القومي أو الديني وافتقاد العقلية التحليلية، تجعل الحياة لهذه الأقلية تتمدد في فضاء يتكيف بمقتضى المناخ التجزيئي، الذي يتحكم بهذه الأقلية لا سيما إذا ما جاء من ماض مليء بالانقسامات المذهبية والعرقية والقبلية، فالفروع تتغذى من الأصول .

وكما أن للمجتمع العربي عوامل موحدة كاللغة والعقيدة والتراث والدين والمستقبل المشترك، ففيه من دواعي الانقسام ما ينبغي أن يثير الاهتمام والقلق. فالنظام الحمائلي والطائفي والديني واللاديني والبدوي والحضري، هذا الوضع وإلى

جانــب عوامل أخرى جعلت المجتمع العربي سريع الاستجابة، بل جردته من كل إمكانيات مقاومة السيطرة اليهودية الفعالة. ومنهج التجزئة التي تتبعه هذه السلطات مـــن أجــل تكريس عوامل التجزئة على الصعيد العربي ـــ العربي ، وكذلك على الصـــعيد العربـــي ـــ الـــيهودي. هـــذا الوضــــع الـــذي يصفه إيفنر كوهين العالم الأنتروبولوجي في دراسة له نشرت عام 1965 ، حيث يقول: "لا يشكل العرب في إسرائيل مجتمعًا متكاملاً موحدًا ، إنهم منقسمون على عدة أصعدة ، وهي تميل إلى التراكم أكثر منها إلى التقاطع مع بعضها البعض، فهناك الانقسام الواسع بين البدو وسكان القرى والمدن والتي تتغذى من ذلك التراث المتشكل حول موضوع البادية والحضر حتى وإن انحصرِ مفهوم البادية وعاداتها، ولكن ما زال تاثيره في المخيال الاجتماعي البدوي.. مضافًا إلى ذلك أن سكان القرى يعيشون في قرى مبعثرةٌ في الأجزاء الوسطى والشمالية من البلاد. وكذلك فليس هناك علاقات اقتصادية مع من يحيطون بهم من اليهود .. بينما سكان الحضر من المدن يعيشون في عدة تجمعات فـــي الناصرة والمدن المختلطة ذات الأغلبية اليهودية مثل عكا وحيفا واللد والرملة ويافا، والأقلية العربية مفتتة كذلك على صعيد ديني فهناك حوالي 77% من العرب مسلمون، وخمسة طوائف مسيحية تمثل 15% و 8% من الدروز (مع أن هذه النسبة غـــير ثابتة فإذا صحت في عام 1965 فهي نسبية ومتغيرة فنسبة هجرة المسيحيين إلـــى خـــارج الـــبلاد أعلى منها عند المسلمين والدروز، وكذلك نسبة الولادة عند المســـيحيين هـــي أدنى منها في قطاع المسلمين والدروز). والعرب موجودون في 150 قـــرية وتجمـــع بـــدوي مـــن الجليل في الشمال وحتى المثلث في الوسط، مع احتياطي كبير من البدو في النقب. ولا يخفى أن هذه التجمعات بحكم الأعراف التي تحكمها وتسيطر على العلاقات بينها فهي منقسمة إلى عشائر وقبائل وحمائل، ففي النقـــب وحـــده هـــناك ما يزيد عن واحد وأربعين وحدة قبلية.[22] وكذلك فإن القرى العربـــية، إمّا أنها تتكون من طوائف متعددة، مسيحية، درزية ومسلمة، وإلى جانب ذلك تتكون من عائلات وحمائل متنافسة وغالبا ما تكون بعلاقة خصومة فيما بينها، ثم هناك الديني والعلماني.

وقد أدى الصراع العربي اليهودي منذ 1947 وإلى 1949 إلى هجرة ما يزيد عن 80% مـــن الشعب الفلسطيني بقياداته السياسية والدينية والاقتصادية، مما ترك أقلية مكشـــوفة مجـــردة مـــن كـــل أشـــكال التســـلح، بما فيها الأطر السياسية والثقافية والاجتماعـــية والاقتصـــادية. وقـــد غـــذى هذا الانقسام ما كان ينقله الإعلام العام

والعربي منه بشكل خاص، عن الاقتتال والصراع بين الأنظمة العربية (رجعية وثورية) وكذلك الصراعات العرقية الداخلية على مستوى الدولة القطرية مما غذى قابلية الانقسام على الصعيد الداخلي. هذا الواقع قد استغلته الحكومات الإسرائيلية أبشع استغلال لزيادة عوامل التفتيت في المجتمع العربي.[23] "وللتأكيد فإن النظام اليهودي قد عمل بعزم وحزم على تعزيز هذا النمط من التجزئة البنيوية داخل الأقلية العربية".

وقد عملت السلطات الإسرائيلية تمشيًا مع هذه الروح، على إتمام حلقة العزل لتشمل ليس فقط فصل العرب عن العرب، بل عملت كذلك على عزل العرب عن اليهود. ففي المدن المختلطة التي كان يسكنها عام 1951 (يافا واللد والرملة وحيفا وعكا) ما يقارب 20170 نسمة من السكان العرب وهذا ما يشكل حوالي 12% من مجمل عدد السكان العرب، والذي تناقص في عام 1976 إلى ما يعادل 9% أي ما يقارب 40,000 نسمة. وبهذا الخصوص يلاحظ إيان لوستيك أنه من المستحيل أن تجد مراكز سكنية عربية ـ يهودية مختلطة. وفي الواقع فإن الارتباطات الاجتماعية من أي نوع بما فيها الزواج هي محدودة جدًّا، بل هي ظاهرة نادرة. وفي دراسة أجريت عام 1975 فإن 16% من بين الطلاب اليهود الذين اجريت معهم المقابلة قالوا: إنه كانت لديهم فرصة الاتصال بالعرب وقد ساعد على عملية العزل هذه تغذية الشكوك والثقافة العدائية من طرف الاعلام العربي واليهودي التي ينشرها في الجمهور. وهكذا فقد ساعدت في أحكام هذا العزل، وأقامت حواجز من الكراهية وعدم الثقة بين الشعبين، وهذا أثر على عدم تطوير أساليب نضال مشتركة بين العرب واليهود، إلا ما كان من لقاءات محدودة بين الشيوعيين العرب والشيوعيين اليهود، أو بعض العرب القلائل الذين انتسبوا لحزب مبام الاشتراكي.

وهكذا فقد جعلت التربية الإعلامية اليهودية، كل عربي في نظر اليهود هو إرهابيًا محتملاً. وفي دراسة أجريت عام 1968 كان هناك 91% من اليهود يعتقدون أنه كان من المفضل لو أن العرب أقل مما هم عليه الآن، بينما 76% من اليهود يرفض أن يؤجر غرفة من بيته لعربي. وفي دراسة لاحقة عام 1976 فإن 71% من اليهود صرحوا بأن العرب لن يصلوا إلى مستوى تقدم اليهود، و 79% اعتقدوا أنه من الأفضل لو كانت نسبة العرب أقل مما هي عليه الآن، بينما هناك 83% من الجمهور اليهودي أعلن أنه لا يثق بالعرب. وقد أكد 87% من اليهود على أن السيطرة على العرب يجب أن تتوسع. وقد رفض 76% من اليهود أن يقبلوا بعربي

مسؤولا عنهم في مكان عملهم. واللغة العبرية تستخدم عبارات عنصرية تحط من قدر العربي: "عمل عربي"، "عربي قذر" "حظنا يكمن في أن العرب أعداؤنا".[(24)]

وهذا يشير إلى أن العزل بين الشعبين والشكوك المتبادلة خاصة من جانب الشعب اليهودي ليس هناك ما يبررها غير التربية الإعلامية المقصودة والبرامج التثقيفية والتعليمية والتي تصور العربي بشكل سلبي وهي لا تستند على شيء في الواقع. لم يصدر من العرب بقياداتهم ولا بجمهورهم ما يبرر هذه النظرة الاتهامية الفوقية، بينما شكوك العرب تقوم على حقائق تصفعهم وتكويهم نارها صباحًا ومساء، من مصادرة أراضيهم وأوقافهم إلى اضطهادهم وملاحقتهم بأجهزة الحكم العسكري أو الأجهزة القمعية الليلية. وهكذا ليسوا سواءً، أدلة العرب في شكوكهم ظاهرة لا تحتاج إلى برهان، وشكوك اليهود في العرب من غير دليل ولا برهان، وذنبهم وخطأهم أن السنين التي مضت على قلتها لم تنسهم بيوتهم التي أخرجوا منها، وأرضهم التي أبعدوا عنها، يمرون منها في المساء وفي الصباح، وهي أمام ناظريهم فلا يستطيعون أن يقبلوا ترابها. هذه المشاعر بين الإنسان وبيته الذي درج فيه، بينه وبين أرضه التي اكل من خيراتها واحتضنته واحتضنت آباءه مئات السنين، ما ذنبه أنه لم يستطع أن يمحوها من ذاكرته؟ وكيف تمحو السنين القليلة والقليلة جدًا الذاكرة الجماعية لشعب؟ هذه هي تهمة العربي الذي يعيش في الدولة اليهودية، أنه لم يستطع أن ينسى بيته وأرضه وأخاه وأباه وأقرباءه الذين شرّدوا في كل بقاع الأرض .. وما ذنبه إذا كان ظالمه لا يسمعه حتى كلمة طيبة واحدة تنسيه آلامه وحسراته؟ أجل إننا نعيش أزمة أخلاقية، وليس فقط أزمة سياسية، أزمة ضمير، على مستوى محلي وعلى مستوى عالمي.

وهكذا فإن الشعور السلبي تجاه العرب في ازدياد مستمر فإن الوضع في دراسة 1968 هي أفضل من الدراسة التي أجريت عام 1976 والتي تبين أن التطرف اليهودي ضد الأقلية العربية في ازدياد مستمر ووضع 1976 أفضل من الإجماع الحاصل اليوم من اليمين واليسار من القاعدة وحتى القمة في مؤتمر هرتسليا 2001 من نتنياهو اليميني المتطرف وحتى باراك قائد حزب العمل. كلهم يقدمون اقتراحات وتوصيات عنصرية لا حدود لها ..

الطلاب العرب في الجامعات الإسرائيلية يشكلون البارومتر الدقيق للمزاج اليهودي. لقد كان الواحد منا قبل عام 1967 يفتش الأسابيع العديدة حتى يجد عائلة يهودية تقبل أن يسكن عندها طالب عربي، هذا ما يعكس الشكوك السلبية في

الأدبيات اليهودية التي تصور العربي على أنه قاتل وإرهابي أو سارق ومتوحش وبدائي.

لا أدري هل هو من سوء حظي أو عكس ذلك، كوني لم أعمل أجيرًا لا في مؤسسات حكومية يهودية ولا في غيرها، غير خمسة أيام بعد أن أنهيت دراستي الثانوية مباشرة في مصحة للأمراض النفسية. ودخلت أشرب فنجان قهوة في مقصف تابع للمؤسسة وإذا بصاحب المقصف ينتقد العرب، كل العرب، ويتهمهم بأنهم سراقون لصوص، لا ينبغي أن يثق المرء بهم. كل ذلك لأن أحدًا من العرب قد اقترض منه ليرتان ولم يرجعهما، وقد مضى على ذلك ما يزيد عن أسبوع. وشربت فنجان القهوة ودخنت سيجارتي (حيث كنت يومها أمارس مرض التدخين)، وبهدوء ورزانة توجهت لذلك الغاضب ودفعت له ثمن فنجان مضافًا إليه ليرتان، فسأل: ما هذا؟ هذا ثمن فنجان القهوة، وهاتان الليرتان ما شأنهما؟ قلت: أنا عربي ومن حق العروبة علي أن أشتري ثمن غضبك على من أحب بليرتين، فهو شيء زهيد، وزهيد جدًّا لما للعروبة عليّ من ديْن. فما كان منه إلا أن قال: آسف أنا أعرف بأن هناك عربًا طيبين، ولكن هناك أيضًا من هم غير ذلك؟ قلت يا ليتك شتمت اشرار العرب، فإن في كل شعب بعضًا من هؤلاء ..!! وتركت عملي يومها .. ومرة أخرى روى لنا أحد الطلاب العرب قصة حدثت له أثناء سفره من قريته إلى القدس ـ عندما دخلت الباص عجوز يهودية، لم يقف لها أحد ليجلسها، فقام ذلك الطالب العربي وأجلسها مكانه .. فالتفتت إلى من في الحافلة وخاطبتهم مستغربة: كأن جميعكم من العرب؟ فأجاب الطالب العربي: يا جدتي الطيبة، بل لعلني أنا العربي الوحيد من بينهم.!!

كانت السياسة الإسرائيلية واضحة في تعاملها مع العرب، فليس من الصعب على الباحث أن يكتشف بيسر وسهولة أنها سياسة تقوم على مبادئ السيطرة وآلياتها كما سبق أن ذكرناها وفي مقدمتها سياسة التجزئة التي استغلتها الحكومات الإسرائيلية ضد الأنماط الثقافية والاجتماعية لدى العرب أبشع استغلال، فقد وضعت الأساليب المنهجية لتكريس عوامل التجزئة عند العرب فتعاملت مع العرب بكونهم كتلة بشرية واحدة فيما يتعلق بعلاقتهم مع اليهود في العلاقات العربية ـ اليهودية، هم سبيكة واحدة ولكن في العلاقات العربية ـ العربية ، تعاملت معهم بسياسة "فرق تسد" كطوائف مسيحية وإسلامية ودرزية وكل قطاع أو فئة من هؤلاء تقسمها إلى حمائل وجماعات متخاصمة ومتنافسة ثم إلى جانب ذلك هناك القطاع الشركسي،

والقـــروي والبدوي. حتى لقد أصبح بعض ضعاف النفوس من بين البدو يظن فعلاً أن هناك قطاعًا "بدويًّا" يختلف عن القطاع العربي.. ثم على صعيد القرية الواحدة أو القبيلة أو غيرها من الوحدات والكيانات الاجتماعية ثم تفتيتها إلى حمائل وعشائر وبطـــون وفخـــوذ ... وغـــير ذلك. ومن بين أشهر عوامل التجزئة الذي استعملته السلطات الإسرائيلية كان مبدأ العزل. وحتى يتم تكريس مبدأ العزل والتجزئة فكان لابد من التقنين والتشريع لبعض هذه الحالات والممارسات لكي تصبح قانونية. فقد عرفت إسرائيل نفسها كدولة يهودية، تعمل على تحقيق الأماني والتطلعات القومية اليهودية، وتخدم كذلك مصالح الشعب اليهودي. وفي الحقيقة فإن الشخصية اليهودية للدولـــة الإسرائيلية واضحة لا تستطيع إخفاءها بكل مساحيق اللبرالية والتعددية أو الديمقراطية .. كل ذلك للمجتمع اليهودي ويستثنى منه العرب. كل التسميات العربية للمواقـــع الجغرافية في فلسطين استبدلت بأسماء يهودية قديمة أو استبدلت بتسميات حديـــثة. وليس هناك وصف يفوق وصف بن غوريون أول رئيس لحكومة إسرائيل ومؤسسها والذي أدلى به أمام لجنة التحقيق التي أرسلتها الأمم المتحدة (وهي لجنة أنجلـــو أمريكية لتدرس أحوال فلسطين عام 1947) يقول ابن غوريون في شهادته: "عندما نقول استقلالاً يهوديًّا، أو دولة يهودية، فنحن نعني بلدًا يهوديًّا، ترابًا يهوديا، نحن نعني عملا يهوديا، بحرا يهوديا، نحن نعني سلامة، امنا، استقلالا تاما يهوديا كأي شعب آخر".[25]

ورغـــم هـــذا الوصف المبالغ فيه، إلى درجة أن يصبح التراب والماء والحجر والشجر يهوديًّا، بينما اليهود أنفسهم ليسوا يهودًا بمقياس واحد محدد. فحتى اليوم ما "زال ســؤال مـــن هو اليهودي؟" معلقا ما زال ينتظر الحسم والقول النهائي. كيف تصبح الطبيعة يهودية قبل أن يوجد اليهودي المعرف تعريفًا مقبولاً حتى على نفسه أولاً قبل أن يقبل على غيره ..

ثـــم دولـــة كهذه ينبغي أن يكون لها حدود معينة ومعترف بها، وليست دولة كل اليهود، بينما اليهود أقليات في شتى أنحاء العالم. هل هي دولة كل العالم؟ فهي إما أن تكـــون دولـــة الشعب الذي يسكن ضمن وفي حدود الجدار الوطني، وإما دولة الصـــهيونية التـــي تسكن كل أطراف الأرض وتمارس نشاطها في طول الأرض وعرضها. كيف يمكن أن تسمح لها نفسها (الدولة اليهودية) ومن ورائها "الشرعية الدولـــية" الـــتدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى فيما يتعلق بمصالح الأقليات الـــيهودية فـــي تلـــك الـــدول؟ وهـــل الشعب اليهودي المتواجد في إسرائيل أحق

بالتعويضـــات المفروضـــة علـــى تلك الدول التي مارست الاضطهاد ضد الشعب الـــيهودي مـــن يهود الولايات المتحدة مثلاً؟ أو يهود بريطانيا؟ أو يهود المغرب؟ ولمـــاذا تعتـــبر إسرائيل في المقابل قضية الأقلية العربية الفلسطينية، المقيمة والتي تســـكن فوق ارضها وفي حدود وطنها، قضية داخلية تهم الحكومة الإسرائيلية فقط ولـــيس لأحد أن يتدخل لصالحها من خارجها، حتى ولو كانت تلك "الأمم النحسة"، حتى ترفع قليلاً من المعاناة الواقعة عليها. أين حقوق الطفل العالمي المتمثل بالطفل الفلســـطيني؟ أين حقوق الإنسان المتمثل بالإنسان الفلسطيني؟ ولكنها تعابير فارغة محشوة بمعان محددة ولا ينبغي أن نفهم هذه التعابير على إطلاقها ، حقوق الإنسان لا تعني أكثر من حقوق "اليهودي" أولاً ثم "الرجل الأبيض" ثانيًا، ثم يتدرج مع باقي الشعوب بتناسب طردي مع قوة الدولة والشعب ووزنه النوعي في السياسة الدولية.

هذه ليست شرعية دولية وإنما غابة يترأس عرشها الذئب الأوروبي والأمريكي الـــذي يلاعـــب أطفاله بالديمقراطية ويسطو على كل ما حوله ليوفر لنفسه ولأبنائه المؤونة التي تزيد عن حاجتهم.

ولهـــذا فمـــبدأ السيطرة يمارس كسياسة عالمية من قبل قوى الاستكبار العالمي بتعبير الإمام الخميني، وكذلك تمارس بمستوى الميكرو في تلك المجتمعات والدول.

قـــبل قيام الدولة اليهودية، كانت الحركة الصهيونية تقوم بتعهد وحماية المصالح الـــيهودية فـــي طول العالم وفي فلسطين بمؤسساتها العديدة مثل: الوكالة اليهودية، الصـــندوق القومـــي اليهودي، الهستدروت (النقابة الغامة للعمال اليهود) وصناديق المرضـــى والمؤسســـات العسكرية الأخرى. وبعد قيام الدولة اليهودية عام 1948 تقاسمت ذلك الدولة اليهودية مع الحركة الصهيونية بتنسيق محدد، فالدولة اليهودية هي يهودية وصهيونية بموجب الأيديولوجية المتبناة، فهناك مؤسسات يهودية داخل إســـرائيل تهتم فقط بالشؤون اليهودية، وهكذا كثير من الخدمات التي لا تريد الدولة تقديمها للأقلية العربية حرجًا أمام نظامها "الديمقراطي" تقدمه عن طريق مؤسسات الحـــركة الصهيونية أو الوكالة اليهودية !! وهكذا تبقى الأقلية العربية معزولة عن المجتمع اليهودي بموجب تشريعات دستورية خاصة بالمؤسسات اليهودية. ويصبح العـــرب"الإســـرائيليون" منقطعيـــن عن المنبع الرئيسي للسلطة العامة في المجتمع الإسرائيلي"[26]

المؤسسات العامة:

1) الحكومـــة الإسرائيلية كسلطة تنفيذية، تقوم برعاية وتنفيذ سياسة الدولة، وفي هـــذه المؤسسات الرئيسية ليس هناك أدنى تأثير عربي على اتخاذ القرارات سواء كان على الصعيد الخارجي أو الداخلي. وكأحد الأدلة على غياب المشاركة العربية فـــي أعمـــال الحكومات الاسرائيلية، عدم حضورها في الجهاز الوظيفي الحكومي بشكل واضح، فمن بين 1860 موظفًا ومسؤولاً مسجلاً في الوزارات الحكومية عام 1976 هناك فقط 26 موظفًا تم تعيينهم من بين العرب، من بينهم 11 موظفًا مسجلين يعملـــون فـــي أجهـــزة المحاكم الشرعية الدينية الإسلامية والدرزية. بينما الـــ 15 الـــباقون يعملـــون ضمن دوائر خاصة تتعامل فقط مع العرب، وهكذا فليس هناك موظفيـــن عـــرب فـــي الأجهزة الحكومية مثل: التربية والتعليم، العمل، الداخلية، الإســـكان، المالـــية، الخارجـــية والدفـــاع، البنـــية التحتية، البيئة، الصحة، العدل، والاتصـــال والمواصـــلات، هي وزارات معدة فقط لتلبية حاجات القطاع اليهودي وتقديم الخدمات له. وإلى جانبها تقوم هناك دوائر مختصة بالعرب يقف على رأس هـــذه الدوائـــر أيضًـــا يهود، وهي تقوم بعقد اتفاقيات مع بعض الوزارات لمعالجة أوضـــاع الأقلـــية العربية حالة حالة. من غير ميزانيات ثابتة أو تخطيط أو برامج طويلـــة المـــدى، والقـــرى التي تملك تخطيطات من هذا النوع قد أنجزت من قبل السلطة العربية المحلية من غير تدخل ودعم حكومي.[27]

ويمكـــن إجمـــال عمل الحكومات الإسرائيلية يسارية أو يمينية بتعهداتها تحقيق أربعة أهداف رئيسية:

1) الاعـــتراف بوحـــدة المصـــير والكفاح من أجل الهجرة اليهودية إلى أرض إسرائيل وتوطيد علاقة الدولة اليهودية بيهود المهجر ورعاية مصالحهم.

2) الحق الأبدي والتاريخي للشعب اليهودي على أرض إسرائيل وجعل الممارسة اليومية تتم من خلال بعث التراث وتجسيده.

3) تشجيع الاستيطان اليهودي الحضري والريفي على كامل الأرض التي تعتبر أرض الوطن.

4) اعتبار حق العودة والهجرة اليهودية مهمة قومية رئيسية للحكومة الاسرائيلية.

5) بينما تترك للوكالة اليهودية وظيفة شراء الأرض العربية في الأردن وسوريا حتى يحين الوسقت المناسب للمطالبة بها بمقتضى السياسة الصهيونية.

ومـــع أن برامج الحكومة لا تنسى أن تزين توجهها القومي المتطرف بعبارات مقتضـــبة وعامـــة وفضفاضـــة، مـــثل تعهد الحكومات الإسرائيلية بشقيها اليمينية واليسارية بدعم عملية تجسير الفجوات بين الأقليات وبين القطاع اليهودي وعبارات واعـــدة بدمـــج هذه الأقليات بالحياة العامة للدولة .. ولكن الواقع يدفع إلى مواقف استقطابية بين العرب واليهود، بدعم من سياسة الحكومة.

وعلـــى الرغم من مثل هذه الإعلانات الدعائية، فقد استمرت في الحقيقة سياسة العـــزل شـــبه التامة للحياة العربية في الدولة اليهودية، وبقيت تحكم من قبل مكتب مستشـــار رئـــيس الحكومة للشؤون العربية. هذا الجهاز الذي سبق أن أوضحنا أن رجالاتـــه جمـــيعًا اختيروا من الجهاز السري الإسرائيلي . وهذه الدوائر المختصة بالعـــرب هـــي التي تزود الوكالات الحكومية وغير الحكومية في القطاع اليهودي بمعلومـــات خاصة عن الأفراد والجماعات ونشاطاتها وعن التطورات الجارية في القطـــاع العربي (ليتم تحديد نوع تعامل الحكومة مع هؤلاء الأفراد أو الجماعات). وهذا يبين أن الحكومة تتعامل مع القطاعين العربي واليهودي من خلال عملية عزل تامـــة. وإذا كـــان هذا يتم في سنوات الخمسين والستين والسبعين وحتى منتصف التسعينيات من القرن الماضي، فإن القرن الحادي والعشرين يشهد تغيير المصطلح والإبقـــاء على الجهاز كما كان. أصبح هناك بدل مستشار رئيس الحكومة، الوزير المسؤول عن ملف العرب!!!؟ وكقاعدة رئيسية فإن المواطنين العرب لا يختلطون مـــع المواطنين اليهود في المكاتب العامة .. والدوائر التي تعمل في القطاع العربي وكذلـــك المســـؤولون اليهود في هذه الدوائر، والذين يقررون مصير العرب ليسوا معروفيـــن للشارع اليهودي. فإن جميع هذه الأسماء اليهودية التي تقرر في الحياة العامـــة العربية من خلال تلك الدوائر المخصصة للعرب والتي تدير شؤونهم ليسوا معروفين إطلاقاً للمواطن اليهودي. هذه الدوائر التي تدير شؤون العرب، ما هي في حقيقـــتها إلا حواجز تعزل العرب عن الاتصال المباشر مع الحكومة على المستوى الرســـمي ومـــع الجمهور اليهودي على المستوى الشعبي حتى لا يتعرف الجمهور الـــيهودي عـــن المشاكل العربية مباشرة إلا من خلال النسخة والصيغة الحكومية المعدلـــة. لهـــذه الشخصيات اليهودية التي تقف في رأس هذه الدوائر يقدم العرب طلـــباتهم وشكاويهم، وتلك الشخصيات هي التي تقبل أو ترفض الطلبات. ولا يوجد هناك أية فرصة "للعرب" للاستئناف على هذه القرارات".(28)

وزارة الدفاع وجيش الدفاع الاسرائيلي :

إن نمــط الفصــل والعزل ما بين اليهود والعرب على الصعيد المدني ينسحب بشــكل أكثر حدة بما يتعلق بالعسكرية الاسرائيلية. وبما أن جيش الدفاع الإسرائيلي يشــكل المؤسسة الأكبر والأهم في الدولة اليهودية، فالإنفاق العسكري قد يصل إلى 40% مــن مجمــل الإنفــاق العــام. ولا يقل بحال عن 1/3 ميزانية الحكومة. هذه المؤسســة العسكرية محرمة على العرب باستثناء الدروز والشركس، وهي مؤسسة تقوم برعاية مهام أخرى إلى جانب قضايا الأمن والدفاع للحكومة الإسرائيلية، فهي أكــبر مدرسة لعملية دمج اليهود وصهرهم، وتقريب مفاهيمهم وعاداتهم وطبائعهم، إلى جانب شحن نفسياتهم بالعداء للعرب. والعسكرية تكاد تكون أهم الطرق في تسلم الأفــراد مناصـــب حاسمة في جهاز الدولة. ويعمل كذلك على خلق إحساس قومي يهودي، إلى جانب اكتساب مهارات فائقة في المجال التقني والإداري.

هــذه المؤسسة لا يستطيع العربي أن يقربها، فجميع العرب فيما عدا الدروز لا يخدمــون فــي الجــيش الإسرائيلي، ويمكن استثناء بعض الأفراد من البدو الذين يخدمــون فــي كتائب حرس الحدود كقوة كشفية استطلاعية، وقد سمحت الحكومة بشــكل محدود للمسيحيين بالتطوع للخدمة العسكرية، فيما لا يسمح للمسلمين حتى بالــتطوع. وإذا كان الدروز الذين يشكلون ما يقارب 9% من مجموع السكان غير اليهود، فقد أجبروا على الخدمة منذ عام 1956 ، وهم يعملون ضمن وحدة عسكرية تعرف بوحدة الأقليات تمشيًا مع سياسة العزل والفصل.

وعلــى الرغم من مئات الضحايا التي قدمها الدروز العرب دفاعًا عن إسرائيل إلا أنهــم مــا زالوا يعملون في وحدة "للأقليات" فهم لا يسمح لهم بالانخراط ضمن المؤسســة العسكرية بحرية كاملة وبعضوية تامة، وتظل حتى قيادات هذه الوحدات هــي بيد الضباط اليهود. وليست هناك وحدات مختلطة باستثناء حرس الحدود.(29) ولكــن كل ذلك لم يعط الدروز حق المساواة، بل ظلوا يعانون من تمييز ومن سلب للأراضــي كغــيرهم وهم يقعون أيضًا في دائرة العزلة. فإن قرية كقرية بيت جن الدرزية والتي قدمت أعلى نسبة من القتلى في حروب إسرائيل لم تجاريها في ذلك أية مستوطنة يهودية، ومع ذلك تضطر لخوض نضال قاس ودام من أجل المحافظة علــى أراضــيها من المصادرة أو حتى تحصل على الميزانيات والدعم الحكومي الضرروي.

نقابة العمال العامة (الهستدروت):

هذه المؤسسة أقيمت منذ عام 1920 من أجل تنظيم العمال اليهود. وقد استطاعت أن تحصـــل على قرار عام 1935 بمعاقبة كل من يستخدم عمالاً عربًا بالطرد من المـــنظمة الصـــهيونية .. وهـــذا يعنـــي أن العرب كانوا قبل قيام الدولة اليهودية يضطرون للعمل في المصانع والمؤسسات اليهودية !!؟ وأما بعد قيام الدولة وإمعانًا فـــي سياسة الفصل والعزل فقد أقيم ما يسمى"الدائرة العربية في الهستدروت". فمن بيـــن ألف شركة ومصنع خاضع لملكية الهستدروت لن تجد مصنعًا واحدًا أقيم في قرية عربية. وبعد خمسة عشر عامًا من انضمام أعضاء عرب للهستدروت أي في عـــام 1975 لـــم يكن في اللجنة التنفيذية التي تضم 168 عضوًا غير خمسة أعضاء عـــرب كما أنه لم يكن أي عربي في اللجنة المركزية للهستدروت المكونة من 18 عضـــوًا . مع هذا فإن هناك دائرة "عربية" مسؤولة عن العرب ضمن نقابة العمال الهستدروت. فإن كل هذا: "يعكس الشخصية الأساسية للهستدروت كمؤسسة يهودية ـــ صـــهيونية وعـــامل مشارك في تجزئة المجتمع الإسرائيلي بين اليهود والعرب وكذلـــك الحال مع صناديق المرضى المنبثقة عن الهستدروت فهي أيضًا تقيم دوائر خاصة للعرب."[30]

المؤسسات القومية :

وهـــي المؤسسات التي ترعى المصالح اليهودية المحض، ولا دخل للعرب بها، ومـــن بيـــنها: الوكالة اليهودية، الصندوق القومي اليهودي (كيرن كيمت ليسرائيل) وكذلـــك المـــنظمة الصهيونية العالمية. وهذه المؤسسات قد أنيط بها تقديم كثير من الخدمات للمجتمع اليهودي ابتداء بتوفير الأرض والأموال لليهود من أجل استعمار الأرض المصـــادرة مـــن العرب وأملاك الغائبين من اللاجئين الفلسطينيين، وهي تصـــرف آلاف الملاييـــن مـــن الدولارات من أجل توفير الدعم المادي والمعنوي للمســـتوطنين اليهود. وإن كثيرًا من المساعدات التي لا تريد الحكومات الإسرائيلية أن تجعل نصيبًا للعرب فيها، تقوم بتقديمها تلك المؤسسات القومية كالوكالة اليهودية والصـــندوق القومي اليهودي. هذه المؤسسات هي التي كانت تقوم بشراء الأراضي ورعايـــتها منذ أواخر العهد العثماني والانتداب البريطاني. خاصة الوكالة اليهودية التـــي تأسســـت عـــام 1910 وهـــي التـــي أنيط بها أن تقوم بمثل هذه المهام من الاستثمارات من أجل تطوير المستوطنات اليهودية، فعلى سبيل المثال فإن ميزانية

الوكالـــة الـــيهودية فـــي موضوع التطوير 1972 ـ 1973 كانت 465 مليون دولار بالمقارنـــة مـــع ميزانـــية التطوير لحكومة إسرائيل لنفس ألسنة 72 ـ 73 هي 604 مليون دولار وفي الحقيقة ففي حالات كثيرة تفوق ميزانية التطوير للوكالة اليهودية ميزانية التطوير الحكومية.[31]

والوكالـــة الـــيهودية لها حضور كبير جدًّا في تكوين بنية الاقتصاد الإسرائيلي، معـــنى هذا الكلام ان كل القطاع الاقتصادي الخاضع للوكالة اليهودية والتي تمتلك جـــزءًا مـــنه لـــن يكون هناك حق للعرب في المطالبة بحصة منه. ومن بين هذه الشـــركات التـــي تمـــتلكها الوكالة اليهودية أو تمتلك غالبية أسهمها: شركة راسكو وتعتـــبر مـــن أكـــبر شركات البناء في الدولة[32]. وشركة تطوير أراضي إسرائيل المحـــدودة، ويكفي أن تعلم أن الوكالة اليهودية تمتلك 1/3 شركة المياه الإسرائيلية "مكـــوروت" وتمـــتلك كذلك 25% من شركة عميدار للبناء والتي تدير وتدعم مئات آلاف الوحـــدات الســـكنية. ولها أيضًا أسهم هامة في ملكية خطوط الشحن القومية (تصـــيم) الأسطول البحري التجاري. والوكالة اليهودية تمتلك أوسع صحيفة باللغة الإنجليزية في إسرائيل وهي Jerusalem Post .

والـــدارس لكيفية دعم الوكالة اليهودية لعملها الهائل في تفسير السبب الذي من أجلـــه ســـمح لها أن تبقى على وجودها الذاتي المستقل، فإن ذلك يشير إلى مغزى شخصـــيتها كمؤسسة مستقلة تعمل على استمرار التجزئة اليهودية العربية للمجتمع الإسرائيلي، إلى جانب العمل على إنجاز المشروع الصهيوني الذي لم يكتمل بعد.

وهكـــذا فـــإن هذه المؤسسات القومية غير الحكومية، ولكونها منظمات يهودية صـــهيونية فإنهـــا تخـــدم القطاع اليهودي فقط، وبواسطة هذه المؤسسات تستطيع الحكومة الإسرائيلية أن تجد الذريعة السياسية للالتفاف حول الأقلية العربية في عدم إيفائهـــا بالالـــتزامات المادية الداعمة لها، والإبقاء على هذه الازدواجية في إدارة شـــؤون الـــبلاد يعفي الحكومات الإسرائيلية من المساءلة عن عدم تقديم الميزانيات المطلوبة للوسط العربي. بينما الوكالة اليهودية والصندوق القومي اليهودي منتدبان للعمل فقط لصالح السكان اليهود. ولحصر مصادر الثروة لصالح القطاع اليهودي. وهـــذا الـــذي جعل بعض ساسة إسرائيل التفكير في معاقبة العرب عن طريق نقل مخصصـــات الضـــمان الاجتماعـــي للعـــائلات كثـــيرة الأولاد من أيدي الحكومة الإســـرائيلية إلى أيدي الوكالة اليهودية وبهذا يحرم العرب من ذلك.[33] وقد فكر في ذلك ابن غوريون نفسه أول رئيس حكومة إسرائيلي عندما قال: "... بما أن اليهود

وحدهم الذين يحتاجون إلى مثل هذه المحفزات (الزيادة الطبيعية) فإن الحكومة غير قـادرة على التعامل مع المشكلة، ويجب أن تحول لعمل الوكالة اليهودية أو منظمة يهوديـة خاصة معنية، وما لم تزدد نسبة المواليد عند اليهود فإنه من المشكوك فيه أن تحافظ الدولة اليهودية على بنائها وخصوصيتها اليهودية.[34]

وقـد أوضح الكاتب موشيه كيرن (محرر الشؤون العربية في صحيفة هآرتس) سياسة العزل والتجزئة هذه في مقال له نشر في هآرتس 1954 "... الأقلية العربية فـي إسـرائيل إنهـا نقيض جماعة الضغط ـ فالحكومة وكذلك الوكالة اليهوددية، الهسـتدروت والجـيش، إضافة إلى السلطات التنفيذية، وفئة الموظفين في الدرجة الوسطى وباقي المؤسسات، وكل العوامل الأخرى والتي تشكل معًا شخصية دولتنا هي جميعًا يهودية وتكافح بالطبع أولاً وأخيرًا لإنجاز أهداف الصهيونية".[35]

هـذا الـتوجه كان بعيد قيام الدولة اليهودية، فهل تغير منه شيء إذا قورن بما تنشـره الوثائق والدراسات الأكاديمية والمؤتمرات التي عقدت في مطلع عام 2001 والتـي تضم قادة القرار الإسرائيلي في مستواه القومي من نتنياهو وحتى براك كما سنرى في حينه.

فالأحـزاب اليهودية الصهيونية حتى سنوات السبعين لم تكن تقبل في عضويتها عـربًا، ومـا زال تصريح عضو الكنيست سيف الدين الزعبي من القوائم العربية المرتبطة بحزب العمل محفورًا في ذاكرتنا يوم صرح لصحيفة المتدينين الوطنيين (هموديع) 1965 "لو احتفظت بالأراضي التي اشتريتها للدولة اليهودية قبل وبعد قيام الدولـة، لنفسي لكنت اليوم من اغنى اغنياء الشرق الأوسط . ومع هذا فإن حزب "العمل" يرفض منحي عضويته".

وحـتى فـي الأحزاب نفسها كانت هناك دوائر عربية إلى جانب هذه الأحزاب إمعانًا في العزل والفصل، وهي ترتبط بذيل تلك الأحزاب ، من غير أن يسمح لها بالمشاركة الفعلية .. وفي القضايا المصيرية اليهودية ما زال الصوت العربي غير حاسم، فإن القضايا الخاصة بالمستوطنات في الأراضي الفلسطينية أو الخروج من هضـبة الجولان أو أي قضايا خطيرة أخرى فإن الصوت العربي يفقد قيمته، فهي تحـتاج إلى حسم عن طريق أغلبية يهودية. هذه هي ميزة الديمقراطية الإسرائيلية، صـوت العربي لا يزن في الكنيست أو في صندوق الاقتراع الجماهيري الصوت اليهودي .. فنحن كما يظهر لسنا أكثر من عامل مساعد أو مركب استثنائي.

التجزئة على الصعيد العربي - العربي :

أمـــا المؤسســـات العربـــية فغيابها الفعال يمنع المرء أصلاً من بذل جهد ضائع لدراستها، فهي تنظيمات قليلة الفاعلية والتأثير، وعمرها أقصر من الوقت المبذول لدراســتها .. ولكـــن علينا أن ندرس غياب التنظيمات العربية الفاعلة على مستوى قطـــري، من زاوية كونها نمطاً من التجزئة القانونية الذي يتجاوز الفصل والعزل الـــيهودي العربي، إلى العمل على تجزئة المجتمع العربي ذاته[36]، سواء كان داخل القرية الواحدة أو بين القرى العربية بعضها مع بعض.فهي تأخذ أشكالاً كثيرة منها:

1) محاولـــة عـــزل القرى العربية بعضها عن بعض جغرافيًا عن طريق فصل مناطق النفوذ للبلدات العربية بحيث تصبح غير مترابطة ومتواصلة، من هنا تحاط في كثير من الأحيان بسياج من المستوطنات اليهودية التي تكاد تخنقها وتمنع تمدد هذه البلدات فضلاً عن استرخائها، وهي تقوم على أرض كانت قد سلبتها من القرى العربـــية بشـــتى الوسائل. لعل ذلك يرجع إلى هاجس أمني يقلق المسؤولين من أن يجيء يوم تطالب فيه الأقلية العربية بنوع من الحكم الذاتي، فلابد من تقطيع أوصال هذا المجتمع.

2) خلـــق وبعث مشاعر متمايزة بين القطاعات العديدة، بدوي، حضري، مسلم، مسيحي، درزي يضيف أسباب إضافية لاستمرار وتعزيز النفسية المغايرة والأمزجة الانفصـــالية، وهذه تقود إلى زرع واستنبات ذهنيات لا تفكر بمصطلحات وقضايا كبـــيرة ومهمـــة، بـــل تـــبقى هابطة متدنية لا تفكر إلا في حدود الذات، والحمولة والعشيرة والمذهب والطائفية.

3) القـــرية التي تشمل طوائف متعددة، تكرس السياسة الحكومية في بعث الفرقة بيـــن هـــذه الطوائف، بشحن نفسية هذه الطوائف بالشكوك المتبادلة وانعدام الثقة، وإثـــارة أشـــكال من الفتن والأحقاد، وبهذا تقيم حاجزًا نفسيًا يمنع التعاون المشترك وبناء خطط وبرامج واضحة مستقبلية بغرض توفير أرضية للعمل المشترك.

4) اســـتمرار سياسة التفتيت وممارستها بمنهجية ثابتة، حتى تصبح عادة وعرفًا وتتشـــكل بـــناء علـــى ذلـــك نفسية فردية وجماعية لديها قابلية التفتيت والتجزئة والانعزالية، ولا ترتفع في قضاياها أكثر من توفير حاجاتها اليومية القريبة .. فإذا كـــان الحديـــث عـــن القطـــاع الإسلامي، انقسم إلى إسلام تقليدي وإسلام حركي، والإســـلام الحركـــي إلى (حركة أ + حركة ب + حركة جـــ ...) وكذلك الإسلام

الصـــوفي إلى طرق وزوايا ودراويش وغير ذلك، وكل طريق أو كل حركة تقوم بـــتقوقع ذاتـــي فتقـــيم من أسلوب عملها جدارًا يعزلها عن غيرها، وهي منفصلة ومنعزلة ... وهكذا. وإذا ما انتقلنا إلى الزاوية القومية وجدناها لا تختلف كثيرًا لا فـــي طروحاتها ولا في التكوثر الكلامي. وما يميزها أنها تحمل كسابقاتها نفسيات انشـــطارية تـــتأثر كثـــيرًا بعوامـــل الجرف والتعرية التي تعمل في كيانها بشكل متواصـــل. وحـــتى المبنى الحمائلي والعشائري قد لحق بموضة التقسيم والتجزؤ، فتفتتـــت العائلات الكبيرة. وفي مقابل ذلك عملت السياسات الإسرائيلية على تجميع العـــائلات الصـــغيرة لكـــي تدير صراعًا بين العائلات صاحبة التاريخ الطويل في الهيمنة، وبين حمائل صغيرة تتجمع لكي تملك قوة تنافس ... وهكذا وهذه السياسة الإســـرائيلية المتبعة مع الأقليات المختلفة في الوطن العربي، حيث تبعثها وتجندها بعـــد شحنها بنفسيات انعزالية تحمل روح الانفصالية عن الكيان الواحد للأمة، هذه هـــي السياســـة المتبعة على مستوى الدولة القطرية فتعمل فيها تفتيتاً وتجزئة وهي نفس السياسة التفتيتية التي تتبعها السلطات الإسرائيلية على مستوى القرية العربية والمدينة وكذلك القبيلة.

هـــذا المركب السلبي في السياسة الإسرائيلية تجاه العرب في التفتيت والتجزئة يقابلـــه فـــي المجتمع اليهودي، توجه آخر يختلف، حيث تحاول السلطات بأساليب كثـــيرة واعتماد برامج منهجية مدروسة لكي تقرب بين المشاعر وتحاول أن تخلق حاســـة اجتماعية وضميرًا اجتماعيًّا وقيمًا مشتركة بين المهاجرين اليهود من شتى بقاع الأرض، وتحاول أن تخرجهم في مجتمع واحد بتقاليد وأعراف متقاربة. وهذا الـــذي يؤكد الفرضية التي ترى أن علاقة السلطات الإسرائيلية بالأقلية العربية هي قريبة من علاقة المستعمِر بالمستعمَر. وبهذا تكون السياسة الإسرائيلية تجاه الأقلية العربـــية قد حافظت على استمرار الموروث الاستعماري الإنجليزي .. وقد لاحظ ذلك إيان لوستيك في بحثة القيم عن العرب في الدولة اليهودية[37] "إن أحد الاتجاهات الأكـــثر دلالـــة في القرية العربية الإسرائيلية منذ 1948 هي إعادة تنشيط العداوات والخصـــومات العشـــائرية، وهـــذا يشمل عملية تجميع الحمائل الصغيرة، وتشجيع انفصـــال مجموعات من العائلات الكبيرة وتفتتها. وهذا الاتجاه قد تم تشخيصه في بحثيـــن لنيل شهادة الدكتوراة : واحد علم الأنثروبولوجيا ــ علم الإنسان ــ والثاني فـــي العلـــوم السياسية. فقد دافع افنر كوهين عن الرأي القائل إن القرية العربية قد توقفـــت مـــنذ الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين على أن تكوّن مجموعة

سياسية. وإذا كان الاستعمار البريطاني قد درج على تعيين مخاتير من العشائر والحمائل الكبيرة، فإن السياسة الإسرائيلية قد شحنت النفوس بدوافع الصراع المستمر داخل القرية ذاتها على أساس عائلي مرة وحزبي مرة أخرى، وطائفي ومذهبي في مرة ثالثة.[38]

وأما الباحث الثاني فهو صبحي أبو غوش في أطروحته: (السياسة في القرية العربية في إسرائيل) فقد أكد على السياسات الإسرائيلية المعتمدة من أجل تنشيط الخصومة بين الحمائل، وازدياد دعم السلطات للحمائل الصغيرة والعمل على تجميعها وتكتيلها لكي تستطيع أن تنافس وتصارع العائلات والتجمعات الكبيرة، وكذلك العمل على تفتيت العائلات الكبيرة".[39] وهكذا تشعر الأقليات على مستوى الماكرو Macro في الدولة القطرية بحاجة إلى الدعم الإسرائيلي والاستعماري وكذلك الحال على صعيد القرية العربية، حيث تدعم الحمائل الصغيرة والتي كان لها وجود خامل في الماضي، فتشعر بالأيادي "البيض" لهذه السياسة في دعمها وتقوية شوكتها، وهي في ذلك تجسد المبدأ الاستعماري الذي ينادي : "فرق تسد".

وقد كانت السلطات الإسرائيلية العسكرية تمنع أي تجمع عربي من الممكن أن يقوم ، بدعوى أن هذا قد تكون له أهداف ومقاصد سياسية. وهكذا كان يمنع العرب حتى من الانتظام في نادي رياضي، كما حصل عندما حاول بعض الطلاب العرب عام 1964 إقامة نادي رياضي فاجتمعوا لهذا الغرض في قرية كفر قرع، ولكن رد الحاكم العسكري هو اعتقال خمسة من منظمي المؤتمر في الليلة التي سبقت انعقاده. وعندما قرر الباقون الاستمرار بعقد المؤتمر، ما كان من السلطات العسكرية إلا أن أعلنت عن قرية كفر قرع، قرية مغلقة، واعتقلت أكثر من أربعين عربيًا حاولوا دخول القرية.[40] وقد كان رد المتحدث بلسان الإدارة العسكرية أنها لا تعارض تاسيس نواد رياضية في القرى العربية، ولكنه يخشى أن تخدم هذه النوادي القطرية إقامة إطار واسع يمكن استخدامه كإطار تنظيمي للقيام بنشاط سياسي قومي".[41]

كان الجليل وما زال مصدر قلق للسلطات الإسرائيلية، ولهذا جرت مصادرة للأراضي العربية بشكل واسع، وجرى كذلك بناء مستوطنات كثيرة حول القرى العربية لمنعها من التمدد والنمو بشكل طبيعي. وهذا بن غوريون يبدي مخاوفه بشكل متطرف فيقول: "... إنه نتيجة لتمركز العرب في الجليل فإنهم يملكون الحق في طلب الانضمام إلى لبنان".[42]

وكل هذا لا يعني غير محاولة منع العرب من التجمع لتسهيل السيطرة عليهم

ومنعهم من التفكير بنشاط سياسي، فهي عملة حرام أن تدخل السوق العربية .. وقد يقــول قائل: ولكنهم سمحوا بقيام تنظيمات عربية لاحقاً. وبهذا الخصوص لا ينبغي أن ننسى ما تحدثت به وثيقة كينيج حاكم لواء الشمال في توصياته للحكومة، وهي السماح بقيام أحزاب وتنظيمات عربية شرط أن يكون لليهود"حضور مستتر"، وهكذا قامت الحركة التقدمية من المحامي محمد ميعاري وبيليد اليهودي،وقد خاضا الحملة الانتخابـــية وانتخـــبا كعضوي كنيست وهكذا ... فالحزب الشيوعي حزب يهودي عربي، وكذلك الحزب الوطني الذي قام مؤخرًا بقيادة عزمي بشارة فهو حزب من حيـــث برنامجه ودستوره يضم يهودًا وعربًا..وأما الحزب العربي الديمقراطي فإن مؤسسه ورئيسه كان عضوًا في حزب العمل قبل أن يقيم حزبه هذا..!!

التبعية كأحد عناصر السيطرة الاستعمارية :

إن الوضـــع الاقتصـــادي والثقافي السائد في الوسط العربي الفلسطيني في زمن الانـــتداب البريطانـــي كان إلى حد بعيد يعتمد على المساعدات الخارجية، وكانت الغالبـــية العظمـــى من الشعب العربي الفلسطيني تعيش بمستوى سد الرمق، وحتى نـــتعرف على الوضع الاقتصادي للأقلية العربية الفلسطينية التي تعيش في إسرائيل مقارنـــة مـــع الوضـــع الاقتصادي لليهود. من الجميل وكذلك من المفيد أن نعطي صـــورة عن وضع الشعب الفلسطيني قبل تهجيره عام 1948 حتى نرى مدى تأثير الضائقة الاقتصادية والمستوى المعيشي المتدني للأقلية العربية.

لقد تحسن وضع الشعب الفلسطيني قليلاً إبان الحرب العالمية الثانية ، حيث شكل الجـــيش البريطاني سوقاً استهلاكية لمنتوجات العرب الفلسطينين، والوضع العام قد أثر بشكل إيجابي إلى حد ما في تشجيع عمل العرب خارج قراهم، وتركوا الأرض بورًا، وقد أكدّ هنري روزنفيلد وهو أنثروبولوج (عالم سلاسلات) أنه خلال الحرب العالمية الثانية كان 42% من الفلاحين الفلسطينيين يعملون خارج قراهم. ولا ينبغي أن ننســـى أن هناك إقطاعيات لبعض العائلات الفلسطينية المتنفذة في العهد التركي واســـتمرت علـــى وضعها زمن الانتداب البريطاني، حيث إن بعض هذه العائلات كانت تمتلك أراضي بضعة قرى أو ما درج على تسميته "خرب" ، الأمر الذي جعل تحسين الأرض ورعايتها وتعهدها أكثر صعوبة. فكلما كان يجد الفلاح عملاً خارج الأرض كان يتركها ويرحل إلى حيث عمله .. ففي عام 1944 كان هناك 69% من الشعب يعيشون في قرى أقل من 3000 نسمة وكانت أساليب الزراعة بدائية وتتركز

في زراعة الحبوب. وفي عام 1941 فإن 35% من الإنتاج الزراعي الفلسطيني يباع في الأسواق اليهودية. وحتى نهاية الانتداب الريطاني بقي الوسط العربي الفلسطيني يفتقر لقيام صناعات باستثناء بعض الورش الصغيرة. وكانت الصناعة التي سميت كبيرة هي شركات (السجائر، والنسيج والصابون) وبعض شركات التسويق كالاستيراد والتصدير، وهذا بحد ذاته لا يعتبر تقدمًا يذكر.[43] وقد عانت البلدات الفلسطينية من غياب البنية التحتية، فالشوارع لم توجد الا بشكل بدائي وقليلة جدًا. وقد افتقد الوسط العربي كذلك لوجود مدارس مهنية أو مراكز تدريب سواء تجارية أو زراعية. وكذلك لم تكن هناك هيئات تنسيق للإشراف على التطور الاقتصادي الفلسطيني. والحركة العمالية رغم تنشيطها أثناء فترة الحرب العالمية الثانية فهي ما زالت في طور الطفولة. وقد تقلصت بعد انتهاء الحرب، وانتشرت البطالة. وفي عموم فلسطين لم تكن هناك أكثر من أربع صحف عربية يومية استمرت في الصدور إلى ما بعد الحرب، والتوزيع كان يشكو من بدائية، وكانت هذه الصحف تقتصر على سكان المدن، ونادرًا ما كانت تصل إلى القرية، مع أن الغالبية العظمى من الشعب الفلسطيني كانت تعيش في الريف. ووضع التعليم في القرى الفلسطينية كان متدنيًا جدًا، وكان يعتمد في معظمه على دعم سلطات الانتداب وإلى جانب ذلك كانت تنشط المدارس الأهلية للإرساليات المسيحية. وأما الهيئات السياسية فلم تتعد: المجلس الإسلامي الأعلى . بعض الأحزاب السياسية الخاوية من التوجه الأيديولوجي والبرامج السياسية والاقتصادية والتي ترتكز في معظمها على الولاء للعشيرة والحمولة، كالفتوة والنجادة، والحسيني والنشاشيبي وعبد الهادي وجرار .. وغيرها من العائلات الأرستقراطية المتنفذة. إلى جانب الكنائس المسيحية التي كانت منظمة بصورة كهنوتية كاملة وقياداتها تعيش في المدن. ولهذا يمكن القول إن النشاط الحزبي والتنظيمي لم يستطع أن يدخل القرية العربية، وبقيت الأمور تدار من خلال العائلة والحمولة. وهذا يعني أن 70% من الشعب الفلسطيني والذين هم سكان القرى كانوا خارج أي تنظيم سياسي.

وفي مقابل هذا الوضع للشعب الفلسطيني فقد دأبت الحركة الصهيونية على خلق بنية تحتية اقتصادية وسياسية واجتماعية قبيل قيام الدولة الاسرائيلية، بينما كان العمل العربي يفتقر لكل عمل مخطط ومبرمج فقد كان عفويًا وارتجاليًا وكان يأتي كرد فعل وهو بهذا كان مسبوقًا دائمًا ولا يعرف روح المبادرة. شأنه في ذلك شأن الوضع العربي العام فيما يعرف بالعالم العربي. وقد عملت المؤسسات الصهيونية

مـــن الوكالـــة اليهودية والصندوق القومي اليهودي، والهستدروت كذراع عمالي، والهاجانـــاة كذراع عسكري بمقتضى سياسة مبرمجة ومتطورة لخلق واقع يهودي مستقل، صاحب قدرة على النمو المتواصل وعلى استيعاب المهاجرين بأعداد كبيرة وتوفـــير الراحة الآمنة لهم. ولهذا كان القطاع الزراعي في الوسط اليهودي متطور بشـــكل يفـــوق أضعاف أضعافه في الوسط العربي وكذلك القطاع الصناعي الذي اعـــتمد على العمل اليهودي، برأس مال يهودي مستخدمًا الخبرة والسوق اليهودية. ولهذا لم يكن يتأثر من جراء المقاطعة العربية والإضرابات أو العقوبات الاقتصادية العربية. ومع حلول عام 1947 كان الوضع اليهودي مهيأ لقيام دولة بكل مؤسساتها وأجهزتها.

في عام 1947 كان لدى المستوطنات اليهودية أكثر من 75 مليون جنيه فلسطيني (ما يعادل الجنيه الاسترليني) برأس مال إنتاجي ثابت قدره 124.1 جنيه فلسطيني. مـــن رأس مـــال الشركات المساهمة لكل شخص. وقد بلغ الدخل القومي للاقتصاد الـــيهودي عام 1944 مبلغ 73.4 مليون جنيه فلسطيني مقارنة مع دخل 49.6 مليون جنيه في القطاع العربي الفلسطيني مع الأخذ بعين الاعتبار أن عدد السكان العرب فـــي فلســـطين عام 1942 كان يشكل أكثر من ضعف عدد السكان اليهود. وقد بلغ الـــناتج الصـــناعي اليهودي خمسة أضعاف نظيره الفلسطيني العربي[44]. ويكفي أن نشير إلى أن مؤسسة كهرباء فلسطين التي كانت تزود تقريبًا الطاقة الكهربائية لكل فلســـطين كانـــت ملكًا للوكالة اليهودية، ففي سنوات 1923 وحتى 1943 فقد ارتفع استهلاك الطاقة الكهربائية في المصانع والورش اليهودية من قوة 1400 حصان إلى قـــوة 58300 حصـــان. ويكفي أن نعرف أن شركة سوليل بونيه، وهي شركة بناء تابعـــة لنقابة العمال اليهودية العامة (الهستدروت) تأست عام 1920 قامت بتدريب آلاف العمـــال اليهود على العمل الماهر في البناء وسرعان ما أصبحت أكبر شركة بناء ومقاولات في الشرق الأوسط!! فبين 1940 ــ1945 نفذت هذه الشركة ما قيمته أكثر من عشرة ملايين جنيه فلسطيني، كما أقامت مشاريع صناعية يهودية أساسية فـــي مياديـــن تقطيع الماس، وأعمال التعدين والصناعات الكيماوية وتصنيع الغذاء والنسيج.

وإلـــى جانب ذلك قامت شركة تنوفا للتسويق المضمون لمجمل الإنتاج الزراعي اليهودي وهي شركة عملاقة تابعة للهستدروت (نقابة العمال اليهود). وقد بلغ مجمل ما يستغله اليهود من الأراضي الفلسطينية في الأربعينيات من القرن العشرين معدل

8.3% مــن مجمــل أراضي فلسطين. وكانت هذه النسبة تنتج ما قيمته 29.8% من مجمــل الإنــتاج الزراعي الفلسطيني[45]. وكذلك أقامت الهستدروت شركة همشبير المركــزي كتعاونــية لتســويق وشــراء البضائع الجافة وكذلك الحبوب من وإلى المستوطنات التعاونية الجماعية اليهودية.

وأي باحــث للوضــع السياســي والاقتصادي بكل أذرعه الصناعية والزراعية والتجارية مضافاً للآلة العسكرية التي كانت تحمي وتؤمن هذه الحياة يرى بغير شك أنــه أمــام دولة حديثة منظمة أحسن تنظيم. بينما القطاع العربي كان يعيش حياة الارتجال والعفوية وعدم التخطيط والبرمجة على كل الأصعدة.

كــان الوســط العربــي آنــذاك يشكو افتقاره للمؤسسات بأنواعها وعلى جميع الأصــعدة الاجتماعــية والثقافــية والعسكرية. ومنذ ذلك الوقت والصراع العربي اليهودي غير متكافئ.

كــان اليهود يعتمدون على أنفسهم وعلى رأس المال اليهودي المتدفق من يهود العــالم بيــنما اعــتمد الفلســطينيون على إنتاجهم الضحل وما يوفره لهم الانتداب البريطاني من احتياجاتهم.

فيما كان ينعم القطاع اليهودي بخدمات راقية ابتداء بالطرقات والسكك الحديدية وخطــوط الكهــرباء والتلفون، والقوى العاملة الماهرة، وتوفير مياه الأنابيب وقيام قــاعدة صناعية، في مقابل ذلك كان القطاع العربي يفتقر لكل هذه الخدمات خاصة في الريف. فقبل عام 1949 استمرت القرى العربية تعيش حياة بدائية حتى العشرين سنة الأولى من قيام الدولة اليهودية، كانت لا تعرف الكهرباء ومياه الشرب. كانت تعــتمد على تجميع مياه المطر في آبار يحفرها الأهالي بشكل فردي وخاص. فإذا كان هذا هو حال ووضع الشعب الفلسطيني فقرًا وحاجة وعوزًا على كل الأصعدة، قــبل قيام الدولة اليهودية، فما بالك عساه أن يكون وضع الأقلية العربية التي بقيت في إسرائيل بعد حرب 1948 خاصة مع مصادرة معظم أراضيها التي كانت تشكل مصــدر رزقها الوحيد تقريبًا؟ ولهذا فإن الوضع الذي خلفه رحيل الغالبية العظمى للشعب الفلسطيني وغياب القيادات التقليدية في كل المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية (حتى على قلتها) بعد أن تم تهجيرها، وبقاء أقلية تحتاج لكل شيء، ومعزولة على كل المستويات، وعزلاء من كل الوسائل، خاصة بعد مصادرة أكثر أرضها، فهي قد كانت وما زالت تعتمد بالكلية على الوسط اليهودي.

وسوف نرى السياسة المنهجية المدروسة المتبعة من قبل السلطات الإسرائيليــة

مع الأقلية العربية. هل تقوم على أساس من التبعية المطلقة والاعتماد على القطاع اليهودي أم تستطيع أن تستقل وتعتمد على النفس، أم أن الوضع ما زال يراوح مكانه بعد ما يزيد عن نصف قرن.

التوزيعات المهنية اليهودية والعربية فئات مختارة

نوع المهنة	السنة	اليهود %	العرب%
موظفون .. إداريون وكتبة	1963	16.9	2
	1964	17.2	2.7
	1965	17.9	1.8
	1966	17.4	2.6
	1967	17.5	3.1
	1968	17.8	3.3
	1969	18.4	35
	1970	18.8	3.5
إداريون ومدراء	1972	3.3	0.9
	1973	3.5	0.7
	1974	3.6	0.4
	1975	35	0.4
	1976	4.3	0.4
	1977	48	04
أكادميون وعلميون	1972	6.2	0.6
	1973	6.2	0.7
	1974	6.8	1.2
	1975	7.3	1
	1976	7.5	2
	1977	7.7	0.9

وهذا التوزيع يدل على أن الوظائف البسيطة بما فيها معلمي المدارس العربية وهو القطاع الذي يكاد يكون وحيدًا لاستيعاب موظفين عرب وبعض الوظائف القليلة جدًّا في الدوائر المخصصة للعرب وهؤلاء الموظفين العرب يعينون حسب

رغـبة السـلطات الإسرائيلية وتعاون هؤلاء العرب مع هذه السلطات. وفي المدة الأخيرة عندما يكون بحاجة من حيث القانون لاختيار موظف عن طريق المناقصة فغالـبًا مـا تخـتار هذه اللجنة الرجل الذي ترضى عنه السطات الإسرائيلية، فهي منافسات مفصلة وكما يقال مخيطة مسبقًا. وكما سبق أن ذكرنا فليس هناك موظفون عرب يختارون ليشغلوا وظائف عامة على مستوى الوزارات وإنما هم في المحيط العربي فقط.

ويلاحـظ مـن الكشوفات التي عرضناها أن نسبة زيادة الوظائف في المجتمع اليهودي تأتـي متناسقة مع الزيادة الطبيعية، فليس هناك قفزات من سنة لأخرى أو هبوط حاد مما يعكس جدية الكشف ومطابقته للواقع، بينما الوضع عند العرب غير مسـتقر ولا يعكس الواقع. فهذه القفزات تؤكد أن المسح للوضع الأكاديمي والعلمي غـير جاد. فلا يعقل أن تنخفض النسبة بهذا الشكل الحاد أو ترتفع بشكل مضاعف خلال سنة واحدة فبين 1973 ـ 1974 تقفز النسبة إلى الضعف تقريبًا بينما تنخفض عـام 1975 عن السنة التي قبلها ثم تقفز في السنة التي تليها 1976 إلى الضعف ثم تعـود لتـنخفض عـام 1977 إلـى أكـثر من النصف، وهذا يبرهن على أن هذه الإحصـاءات التي تنشر حتى في أبحاث جدية كهذه التي ينشرها إيان لوستيك، قد تصور بدقة الوضع في الجانب اليهودي، ولكنها تحتاج إلى تفسير وتبرير بما يتعلق فـي الوسط العربي، فقد تكون مرتبطة بمناسبات محددة كالسنين التي يحصل فيها انـتخابات عامة في إسرائيل، فيزداد عدد الموظفين العرب بسخاء من أجل مساندة الأحزاب اليهودية المتنافسة مثلاً.

ولنأخذ مثلا قطاع البناء والاعمال الشاقة كيف تنعكس النسب فيرتفع عدد العرب كما نرى:

نوع المهنة	السنة	اليهود %	العرب%
أعمال بناء وأعمال شاقة	1970	7.1	20.2
	1971	7.4	23.2
	1972	7.7	26.6
	1973	7.1	25
	1974	6.6	22.6
	1975	6.5	24.2
	1976	6.2	22.1

نوع المهنة	السنة	اليهود %	العرب%
	1977	5.7	22.9

وهكـــذا يتبيـــن كيف يمكن أن يصنف العمل العربي ضمن الأعمال الشاقة في الدولة. ونرى الارتفاع والهبوط النسبي في القطاع العربي إلى أن النسبة المنخفضة مـــن ســـنة إلـــى أخرى تعوض عن طريق الأيدي العاملة من المناطق الفلسطينية المحتلة أو عن طريق عمال أجانب. وهي كذلك في هبوط دائم في القطاع اليهودي لأن الأعمـــال الشـــاقة هي من نصيب بعض اليهود الشرقيين أو المهاجرين الجدد. حيـــث أصـــبح العرب "المواطنون" في الدولة اليهودية يتوسطون الحالة بين اليهود الشـــرقيين وبيـــن الفلسطينيين من المناطق المحتلة. وحتى نستكمل الصورة لنأخذ العمـــل الزراعي، والعمل في الغابات وصيد الأسماك والعمل الزراعي يضم أيضًا هؤلاء العرب الذين يعملون في الأراضي اليهودية وليس صحيحًا ما يمكن أن تمثله هـــذه الدراســـة الميدانـــية وكـــأن العرب لديهم مصادر رزق مستقلة من الزراعة والأعمال الحرة الأخرى.

نوع المهنة	السنة	اليهود %	العرب%
الزراعة والغابات وصيد السمك	1970	7.4	22.8
	1971	7	22.4
	1972	6.8	19.1
	1973	6.2	19.2
	1974	5.8	13.8
	1975	5.4	16.1
	1976	5.5	15.7
	1977	5.2	16.7

ومرة أخرى فإن انخفاض نسبة العاملين في الزراعة وهذا القطاع من العمل في الوســـط العربي يدل على تعاظم نسبة العاملين الفلسطينيين والتايلنديين وغيرهم في قطـــاع الـــزراعة لـــيس عند اليهود فقط، بل لقد أصبحت مئات العائلات تعمل في الزراعة لدى العرب الفلسطينيين سكان إسرائيل أنفسهم.

فإن نسبة الذين يعتاشون جزئيًا من الزراعة في القرى العربية نفسها متدنية جدًا وبشكل ملحوظ، حتى تلك القرى التي لديها بعض الأراضي الزراعية لا تزيد نسبة الذيـــن يشـــكل الدخل الزراعي الجزئي مصدر رزق لهم أكثر من 15% من سكان

القرية نفسها .. ونعني بالدخل الجزئي أن قسمًا من العائلة يعمل في زراعة الأرض والقسم الآخر يعمل في فروع أخرى في القطاع اليهودي، حتى يكسبوا ما يمكنهم من الحياة والعيش. فقلما تجد عائلة لا يعمل بعض أبنائها في القطاع اليهودي بشكل من الأشكال.

وقد كان سبب القلق العربي هو تقنين مبادئ التبعية العربية اقتصاديًا للمجتمع اليهودي. فعلى سبيل المثال نرى التزام الهستدروت والمؤسسات القومية اليهودية المستمر بمبدأ المحافظة على "العمل اليهودي" فحتى سنوات الستين الأولى من القرن الماضي ظلت الهستدروت مسؤولة عن كل العمل في إسرائيل، وبناء عليه فكانت تسعى جاهدة بشتى الوسائل والسبل مرة عن طريق استصدار القوانين وأخرى عن طريق الطرد التعسفي للعمال العرب، طالما هناك بطالة في القطاع اليهودي. ولهذا كان يلجأ العمال العرب الذين يضطرون للعمل عند اليهود لنيل موافقة الهستدروت. ولكن الهستدروت لم تتخل عن كفاحها ضد العمل العربي الرخيص غير المنظم، خاصة في فترة ما بعد قيام الدولة، ولهذا نرى امتناع الهستدروت عن فتح مكاتب لها في الوسط العربي، وقد كانت تقيم الحواجز على الطرقات لتمنع تسرب العمال العرب إلى المجتمع اليهودي. وقد انتهى هذا الوضع لأن العمال اليهود لم يعد لهم حاجة في غالبيتهم بالعمل اليدوي الشاق.

وقد كان يساعد الهستدروت في ذلك التزامات المؤسسات القومية اليهودية مثل الصندوق القومي اليهودي والوكالة اليهودية، الذي التزم بمبدأ العمل اليهودي وتوظيف اليهود فقط في أراضي الصندوق القومي اليهودي، وكذلك الوكالة اليهودية التزمت بتشغيل اليهود فقط في المشاريع التابعة لها. وهكذا فقد أغلقت نسبة كبيرة من المهن والعمل بأنواعه خاصة في القطاع العام أمام العرب وجاء ذلك نتيجة لإجراءات المؤسسات الإسرائيلية المقننة، ومن أجل إبقاء عنصر التبعية قائمًا. فقد ظلت المناطق العربية خالية تقريبًا من المشاريع التي يمكن أن تستقطب العمال العرب، حتى الأرض وهي تكاد تكون المصدر الوحيد للمعيشة في الوسط العربي خاصة في السنوات الأولى لقيام الدولة، ظلت متخلفة وتستغل بطرق بدائية فعلى سبيل المثال نرى في عام 1975 وحتى 1976 كان 43.3% من الأراضي الزراعية اليهودية تحت الري بينما 7.6% من الأراضي التي بقيت بأيدي العرب بعد المصادرة الكبيرة كانت تروى بالمياه.[(46)]

وحتى نرى أن هناك سياسة ضد الإنتاج الزراعي العربي يكفي أن نعلم أنه في

عـام 1952 ـ 1953 كانـت الإنتاجية الإجمالية للعامل العربي الواحد في الزراعة تشـكل 30% مـن الإنتاجـية الإجمالية للعامل الواحد في الزراعة اليهودية، وقد انخفضـت فـي عام 1962 ـ 1963 إلى 20% وكذلك استمر هذا الهبوط ففي عام 1975 ـ 1976 كانت الإنتاجية الإجمالية للمزارع العربي حوالي 16% من الإنتاجية للعامل اليهودي الزراعي. وقد هبطت مع نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشـرين بشـكل حاد وخطير حيث إن كثيرًا من الأراضي الزراعية العربية لا تستغل نظرًا لغلاء وارتفاع المصروفات مثل الاسمدة، والأدوية الكيمياوية لمكافحة الأمراض وارتفاع سعر المياه، وآلات الفلاحة والحراثة وكذلك الأيدي العاملة بينما تسـويق الإنتاج الزراعي العربي فوق صعوبته يباع بشكل رخيص بحيث خسارته تفـوق ارباحه. ولهذا فكثيرون هم الذين هجروا أرضهم وتركوها بورًا لقلة حيلتهم وارتفـاع مصروفات الزراعة، فكل الأدوات الزراعية في ارتفاع مستمر وصندوق الخيار ـ على سبيل المثال ـ لم يرتفع منذ خمس سنوات. ولا يستبعد أن يكون هذا تخطيطًا بشعًا بقدر ما هو قذر، حتى ييأس العرب من الأرض ويضطروا لبيعها .. ولا ننسـى أن هناك أنواعًا من الزراعة المربحة يمنع العرب من زراعتها بموجب قوانيـن وزارة الزراعة، خاصة تلك المواد الغذائية ذات السعر الغالي. في يوم من الأيام وحتى منتصف الثمانينيات كان يمنع العربي من زراعة البندورة، واليوم يمنع من زراعة البطاطا والتبغ وغير ذلك.[47]

إن الـتخلف العام للزراعة العربية وفروع الإنتاج الزراعي غير المربحة نسبيًا المسموح بزراعتها، تشكل عوامل هامة في اضطرار مالكي الأرض العربية قبول عـروض الصـندوق القومي اليهودي لشراء أراضيهم . وفي الحقيقة قد يكون أهم عـامل مـنفرد فـي ركود الزراعة العربية، هو انتقال نسبة كبيرة من الأراضي الزراعـية العربية إلى الملكية اليهودية قبل وبعد عام 1948. وهذا ناتج عن الجهود المكـثفة والحثيـثة للصندوق القومي اليهودي التي لم تتوقف لتوسيع مساحة ملكية الأرض اليهودية. فقد ازدادت ملكية الأرض اليهودية ما بين عامي 1948 ـ 1977 مـن 942000 دونم إلى 2650000 دونم وقد حصل الصندوق القومي اليهودي على هذه الأرض ما بين عامي 1948- 1953 ولهذا فقد انخفضت مساحة الأرض العربية عام 1973 بـ 149,000 دونم عما كانت عليه عام 1953 وهذا يعني أن نسبة 28% قد خسرها العرب خلال عشرين سنة.[48] لقد عمل النظام على الاهتمام الشديد لجسر الفجـوة الاجتماعـية والاقتصـادية والثقافـية داخل المجتمع اليهودي على جميع

المستويات وكذلك لتقريب ودمج الأعراف والثقافات المتباينة، بينما نجد أن الحكومة بحـــرمانها العـــرب من دعمها تساعد في زيادة الفجوة بين اليهود والعرب. وعلى الرغم من ذلك فإن السياسات الحكومية تعمل بشكل مميز ضد الاقتصاد العربي. كم مرة استوردت الحكومة منتوجات زراعية من الخارج لكي تضرب الإنتاج العربي. وهـــي تقوم بمحاولات مدروسة لمنع مراكز القوة العربية من الانتعاش والازدهار بـــالجهد الذاتي لكي تبقى علاقة اعتماد العرب على اليهود قائمة. ليس هذا فقط، بل إن السياســـة الإســـرائيلية تعمـــل علـــى أن يبقى اعتماد العرب على العرب الذين يخدمون مصالح اليهود موجودة وقائمة.[49]

لقـــد عملت مجموعة كبيرة من الوكالات الحكومية على تنفيذ سياسات الحكومة الإســـرائيلية بشـــأن الارض، فمستشار رئيس الوزراء للشؤون العربية، كان يشغل أيضًـــا منصـــب رئيس لجنة وزارية للأراضي العربية وبصفته وبمنصبه كان يقدم المعلومـــات والمســـاعدة للوكـــالات الحكومـــية وغير الحكومية المختلفة والمعنية بتحصـــيل الأرض العربية واستيطانها من قبل اليهود. بل هناك موظف خاص في مكتب مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية، يختص بأمور الأراضي.[50]

وقد أصدر الكنيست (البرلمان) عام 1950 قانون أملاك الغائب في محاولة لتنظيم القوانيـــن والإجراءات العديدة والواسعة المستخدمة لتحديد ولإدارة الأملاك العربية المهجورة. وهذا القانون عرف بمصطلح الغائب، وأخذ بالحسبان نقل حقوق الملكية مـــن أي شخص يتناسب مع ذلك التعريف إلى القيّم على أملاك الغائبين، كما مكن هذا القانون القيّم من بيع الأملاك المهجورة لسلطة التطوير. التي يمكن أن تنتقل منها إلـــى المستوطنات والمؤسسات اليهودية (الكيبوتسات والصندوق القومي اليهودي، وســـلطة أراضي إسرائيل) .. ونسبة كبيرة من هذه الأراضي كانت تخص العرب الذيـــن أصـــبحوا بعد عام 1948 سكاناً شرعيين في دولة إسرائيل، لكنهم بمقتضى قـــانون الغائبيـــن، نظـــر إليهم كحاضرين غائبين ــ نفكديم نوحاخيم ــ وهكذا تم مصادرة أراضي تخص سكانا شرعيين في الدولة اليهودية .. بل لم تبق لهم الدولة مـــن أراضيهم مترًا واحدًا . وكل ذنبهم أنهم هجروا قراهم أثناء الحرب إلى القرى المجاورة التي ما زالت موجودة ضمن إسرائيل حتى اليوم.[51]

وقد أحسن موشيه كيرن ــ محرر الشؤون العربية في صحيفة هآرتس ــ حين قال من عام 1955 في وصف عمليات تملك الأراضي العربية الجارفة في السنوات الأولـــى لقيام الدولة اليهودية، إنها سرقة بالجملة في زي شرعي. فقد سلبت مئات

الآف الدونمات من الأقلية العربية. ولن يتوقف عن الاستغراب والدهشة كل طالب تاريخ في المستقبل للطريقة التي صودرت بها الأرض العربية".[52]

معدل نفقات ميزانية التطوير الحكومي الخمسية

السنوات	نفقات اليهود والعرب بملايين الليرات	نفقات القطاع العربي بملايين الليرات	النفقات العربية بالنسبة للتطوير الاجمالي
62/61 – 58/57	350.34	0.71	0.2
67/66 – 63/62	579.06	8.80	1.5
72/71 – 68/67	894.26	11.72	1.3

ومــن هــنا يتضح أن هناك سياسة مبرمجة تعدها حكومات إسرائيل تتركز في جعــل الأقلية العربية عالة على المجتمع اليهودي في كل شيء، من رغيف العيش، وحــتى أبســط الخدمــات، حتى لا تستطيع في يوم من الأيام التأثير على القرار السياســي الاســرائيلي. ولما كان أكبر عامل وأهمه في حياة العرب وفي استمرار وجودهم هو عنصر الأرض ، فقد رأينا كيف تتعامل الدولة مع هذه القضية، بحيث تعمل باستمرار على تضييق رقعة الأرض العربية عن طريق مصادرتها وحيازتها بشــتى الوســائل وهكذا يتم حصر العرب في مساحات صغيرة ضيقة تضغط على وجودهم وتحد من نموهم وتكاثرهم.. ثم إن سياسة العزل والفصل التي تحدثنا عنها فيما سبق كأحد أهم العناصر في سياسة السيطرة تعمل علي إبقاء العربي في دائرة التبعية لليهودي.

التعيين كاحد عناصر السيطرة :

هــذه هــي الوســيلة الثالثة التي استخدمتها السلطة الإسرائيلية لتقوية وتعزيز ســيطرتها على الأقلية العربية، وهي وسيلة في ظل المجتمع المجزء المنقسم على أســاس طائفي، أو مذهبي، بدوي، حضري، وبين الحمائل والعشائر المختلفة داخل المجتمع الواحد سواء كان على مستوى القبيلة أو مجموعة من القبائل أو في القرية أو المدينة .. بالإضافة إلى كون المجتمع العربي الفلسطيني في إسرائيل مجزأً فهو أيضًــا يعانــي مــن العوز والعالة والتبعية لاقتصادية في كل شيء. في ظل هذه الخصــائص والأوضــاع الممــيزة للأقلية العربية يسهل اختراقها بوسيلة استعمال

أسلوب الانتماء والتعيين. هذا الأسلوب الذي يؤثر بشكل سلبي على مجمل العلاقات التي سبق وصفها، بل يزيد في تكريسها واستمراريتها.

إن البنـــية الاجتماعية للأقلية العربية القائمة في إطار الحمولة كعنصر مهم في عملية التجزئة، وتعزيز علاقة التبعية. فقد نجح أسلوب التعيين كاستراتجية لاختراق مجـــتمع القـــرية العربية، وبصفتها وحدة مجزأة فإن الحمائل الكبيرة والتي تحتوي على سلالة متسلسلة من التبعية الطويلة بما فيه الكفاية من الآباء عبر الأبناء، وعبر آباء العائلة الممتدة إلى كبار العائلة، فإن المبنى العائلي يساعد على عملية التعيين، بحيـــث يتم تعيين عدد صغير من الأفراد ذوي المناصب المتنفذة في الحمولة، عن طـــريق السلطة المركزية في الدولة يمكن أن يزود النظام بمدخل فعال لكل الأعداد الكبـــيرة مـــن الـــتجمعات العربية. ويقول أبو غوش في دراسته لقرية عربية في المثلـــث، اهـــتمام الحكم العسكري باستمرار الإبقاء على وحدة المبنى الحمائلي في المجـــتمع العربي، وتحت قيادة زعمائها التقليديين، فهم أكثر العناصر المتعاونة مع الســـلطة المركزية، سواء كان ذلك في زمن الأتراك أو البريطانيين أو اليهود.وقد كـــان الحكـــم العســـكري يرى أنه من الأسهل جدًّا السيطرة على النشاط السياسي والســـلوكي لعـــدة آلاف في القبيلة والحمولة بتعيين بعض الزعماء وكبار السن في مناصب معينة.[53]

ولهذا فإن سياسة وأسلوب التعيين جعل من الجهاز الحكومي يسيطر على وضع الأقلـــية العربـــية بشـــكل فعال وبيسر وسهولة. لكن ظلت علاقة الحكومة بالأقلية العربـــية وكأنهـــا نظام أجنبي يحكمها وهو منفصل عن الشعب وليس هناك علاقة مباشرة بين الحكم المركزي المنتخب لأجهزة الدولة وبين العرب كما يقول يوسف واســـتكس بأن العلاقة تقوم بين الحكم المركزي والأقلية العربية عن طريق وسطاء لا يتمتعون بالشعور بالمسؤولية العامة[54] ولهذا فإن الدوائر التي كانت تحكم العرب تشكل عازلاً عن أية علاقة مباشرة بين المواطن العربي والحكم المركزي المنتخب. وقـــد كان يقف على رأس هذه الدوائر المختصة بالعرب رجال يهود لهم خبرة في الـــتعامل مع المجتمع العربي منذ فترة الانتداب، إن لم يكن قبل ذلك، وكمثال حي على ذلك أول مستشار لرئيس الوزراء للشؤون العربية وهو يهوشع بالمون قد عمل قـــبل الدولـــة فـــي وحدات المخابرات المرتبطة بالدائرة السياسية للوكالة اليهودية. وهـــؤلاء المســـؤولون كانوا على معرفة بالأمزجة الاجتماعية والسياسية التقليدية لعرب فلسطين، وكان لهم علاقات شخصية مع العديد من زعماء العشائر وأصحاب

المقامـــات الدينـــية والعربية وكم من رواية تحكي عن عدد كبير من بعض ضباط جيش الإنقاذ العربي كان من بين اليهود.[55]

وقــد كـــان هناك تعاون مشترك بتقديم المعلومات عن العرب بين الدوائر التي كانـــت تحكم العرب من قبل الحكم المركزي، وقد كان الحكم العسكري وغيره من الهيـــئات تـــوزع المكافآت على المتعاونين معها ابتداء بالفوز بمقعد في الكنيست، وحتى أتفه أنواع الحماية السياسية من بين الخدمات التي كانت تقدمها هذه الأجهزة للمتعاونيـــن معهـــا: "الـــتعهد بمحو الشائعات المتراكمة في الملفات المحفوظة لكل مواطن عربي، والتي ينظر إليها وكأنها أعمال عدائية ضد الدولة. أو توفير الآليات الزراعـــية بنصـــف السعر، أو ترتيب نقل سريع لمريض إلى المستشفى في مدينة يهودية. أو الموافقة على طلب دخول قريب إلى إسرائيل من إحدى الدول العربية، والذي فر قبل عام 1948. أو بالسماح بزواج عربي من إسرائيل بامرأة من الضفة، ومـــنحهم تصاريح، أو توظيف معلم تحقيقاً لرغبة المتعاون، أو أية وظيفة صغيرة فـــي اي مكتـــب كان. أو اختيار أعضاء المجالس المحلية المعينين، حيث يتم ذلك بالـــتعاون مـــع الحكم العسكري، ومكتب مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية (وزيـــر المســـتعمرات) وممـــثل وزارة الشـــرطة، والدوائر العربية في الوزارات كالزراعة والمعارف والهستدروت .. كل طلب على المستوى الشخصي لابد أن يتم مـــن خـــلال هؤلاء المتعاونين ومن خلال هذه الدوائر .. كما أن عناصر حكومية مختلفة تقيم علاقات السيد بالعبد مع الحمائل المتنافسة في القرية نفسها، وهكذا يمكن للعشـــيرة الواحدة أن تتلقى دعمًا ووعودًا من ممثلي الدائرة العربية لحزب العمل، بيـــنما خصـــمها (حمـــائل أخرى في القرية) تتلقى دعمًا ووعودًا من ممثلي مكتب مستشـــار رئـــيس الحكومة للشؤون العربية، أو الدائرة العربية لوزارة الداخلية أو الدائرة العربية في الهستدروت.[56]

وقـــد وصـــف مسؤول عن مركز المعلومات في الفرع العربي المجاور مباشرة لمكتب مستشار رئيس الحكومة عام 1974 في القدس عمله كالآتي: "في فترة سابقة كـــان مكتبـــنا مـــن ناحـــية رســـمية في وزارة المعارف، ومن ثم نقلنا إلى مكتب المستشار، رغم اننا الآن رسميًا نتبع وزارة الإعلام. رغم هذه التغييرات التنظيمية إلا أن مهمتنا بقيت واحدة هي ذاتها تتمثل بتزويد توليدانو (مستشار رئيس الحكومة للشـــؤون العربـــية) بالمعلومات عما يدور بالضبط في القرى المختلفة. إننا نرعى العديـــد مـــن النشـــاطات فـــي القطاع العربي، مثل محاضرات، ندوات، زيارات،

مؤتمرات وبرامج اجتماعية ومساعدات أخرى. ولدينا جهاز كبير يتكون من الأصدقاء العرب الذين يفهمون ماذا يجري في قراهم ومجتمعاتهم وينقلون الينا هذه المعلومات"[57] ويستمر مسؤول مركز المعلومات في الفرع العربي ويؤكد: "أنا شخصيًا أجتمع مع توليدانو (المستشار) مرة في كل أسبوع لبحث التطورات والأحداث الجارية في القطاع العربي، كما أن مكتبنا يقوم بتزويد الدائرة العربية للهستدروت (نقابة العمال الإسرائيليين) بالمعلومات اللازمة. وكذلك نقوم بتزويد كل الدوائر العربية في الوزارات المختلفة بهذه المعلومات"[58]

وكانت علاقة هؤلاء المعينين المتعاونين من قبل السلطات الإسرائيلية في الوسط العربي محط نقمة وكراهية واحتقار المواطنين العرب، سواء كان ذلك على مستوى عضو الكنيست (البرلمان) العربي المرتبط بقوائم عربية تابعة لحزب العمل والتي كان يدعمها الحكم العسكري أم على مستوى موظف صغير كمعلم مدرسة. ولهذا فقد كانت هذه الشخصيات تحارب المصالح العربية الحيوية، كما حصل من موقف أعضاء الكنيست العرب المرتبطين بحزب العمل أثناء النقاش الحاد لاتخاذ قرار في الكنيست يلغي جهاز الحكم العسكري المفروض على العرب والذي تقدم بهذا المشروع هو اليمين المعارض بزعامة بيجن في 1963.11.10 وقد هزم هذا المشروع بأكثرية صوت واحد (57 في مقابل 56) وقد أفشل مشروع القرار هذا من قبل عضوي كنيست من هؤلاء العرب الذي كان يدعمهم الحكم العسكري. وتتكرر نفس العملية بعد سنتين تقريبًا ويفشله كذلك هؤلاء النواب العرب المرتبطون مع حزب العمل.

بقي علينا أن نعلم هل استمرت هذه الأساليب تجاه الأقلية العربية في الخمس عشر سنة الأخيرة . هذا ما سوف نقف عليه من خلال عرضنا لمشكلة "الأقلية العربية" كما تعيش في اذهان المسؤولين الإسرائيليين أو كما تتضح من الدراسات الأكاديمية التي تعالج هذه المشكلة وتقدم نتائج أبحاثها لمتخذي القرار.

إذا كان ما يميز سياسة الاستعمار مع شعوب المستعمرات هو إحكام السيطرة على هذه الشعوب عن طريق: التجزئة، والتبعية والتعيين التي تتبعها البلدان المستعمرة مع المستعمرات حسب ما توصل إليها العديد ممن يبحثون وممن بحثوا أساليب الاستعمار ففي عرضنا السابق قد رأينا نصيب هذه السياسة من برامج وخطط السياسة الإسرائيلية المطبقة والمتبعة مع الأقلية العربية .. إنها في بعض أمورها أعتى من تصرفات المستعمر مع المستعمرات.

الفصل الثالث

سياسة الأماني والوعود تتوسط مرحلتي السيطرة التامة وإشكالية الخطر الديمغرافي

بعد إبرام اتفاقية السلام مع جمهورية مصر العربية والمفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية والتطبيع مع العديد من الدول العربية في الخليج العربي والشمال الافريقي، كثرت الوعود لمنح المساواة وتحسين أوضاع الأقلية العربية بوصفها جسرًا للسلام والتفاهم مع العالم العربي التي تعبر عليه هذه العلاقات.. ولكن في حقيقة الأمر فقد أظهرت بعض الدراسات أن الأقلية[59] العربية سوف تتضرر من هذا السلام، فسوف ينافسها الإخوة العرب من وراء الحدود لقمة عيشها ومحل عملها، وسوف تدفع إلى الخطوط الخلفية على هوامش الشرق الأوسط، لأن الأيدي العاملة الفلسطينية والتايلندية والصينية والأردنية ومن ثم السورية، والتي أجرتها متدنية جدًا ستحتل سوق العمل، وبتخطيط من السياسة الإسرائيلية حتى تضطر الأقلية العربية إلى الهجرة وتقلل بذلك من الخطر الديمغرافي الذي يقلق الدولة اليهودية، ويقض مضاجع المسؤولين والمفكرين اليهود".

وسوف نعتمد في تحليل السياسة الإسرائيلية على بعض المنشورات من قبل مراكز أبحاث بعضها أقيم بتمويل يهودي مثل جمعية "سيكوي" التي تحاول ان ترصد الخطوات الحكومية في تنفيذ سياستها التي تعلن عنها بما يتعلق بالوسط العربي والتوصيات في مجال استيعاب موظفين عرب وإلى مبدأ المساواة،وتعد في نهاية السنة تقريرًا حول هذا الموضوع، وهي وإن أعلنت عن نفسها أنها هيئة مستقلة إلا أنها تظل شبه حكومية لأن تمويلها من هيئات وصناديق يهودية متنوعة، والمثل العبري يقول: "صاحب المائة هو صاحب الرأي" بمعنى الذي يدفع هو الذي يقرر. وكذلك لمنشورات اللجنة القطرية للسلطات العربية أو لجنة المتابعة العربية

وغيرها من الدراسات، مثل تقرير مراقب الدولة.

ويذكر الكتاب الذي صدر عن مؤتمر التعليم العربي الثالث في شفاعمرو والذي نشر عام 1991 فيما يتعلق بالتعليم الجامعي، أن من بين 4000 طلب التحاق وانتساب للجامعات الإسرائيلية كل سنة لا يقبل أكثر من 1100 طلب ويرفض ما يقارب 2900 طلب .. فمن بين الذين ينجحون في امتحانات شهادة البجروت (الثانوية) يتقدم منهم فقط 60%بطلب الالتحاق بالتعليم الجامعي، ويقبل من بينهم فقط 27.5% طالب ويتكلم التقرير عن نسبة الرسوب لدى الطلاب العرب فقد وصل في جامعة حيفا إلى50% وفي التخنيون45% و 44% في الجامعة العبرية في القدس ..

وأما تكاليف التعليم الجامعي فهي إلى جانب كونها عالية لا تعطى المنح الضرورية والكافية للطالب العربي كما هو الحال عند الطالب اليهودي، فإن أكثر ما يحصل عليه الطالب العربي هو 500 دولار، بينما تكاليف السنة الدراسية من 5000 إلى 6000 دولار، بينما يحصل الطالب اليهودي على منح ضخمة ومتعددة ومن صناديق كثيرة بحجة الخدمة العسكرية. يقول بروفسور ماجد الحاج في كلمته أمام المؤتمر (60) متهمًا سياسة الحكومة الإسرائيلية بأنها تستهدف تجهيل العرب، ووزارة المعارف الإسرائيلية تدير سياسة "تمييز مقصودة، وكذلك الحال مع كل الوزارات، بما فيها وزارة المعارف فإنها تتبع سياسة الوعود الكاذبة التي تتبخر بعد كل انتخابات" ويؤكد بروفسور الحاج أن 42% من الخريجين العرب من جامعة حيفا لا يجدون عملاً وهم إما عاطلون عن العمل أو أنهم يضطرون للعمل في أمور لا تمت بصلة إلى موضوع دراستهم" وأضاف: "في الجامعات الإسرائيلية يعمل 5100 محاضر عدد العرب منهم عشرة فقط (10 محاضرين فقط) وضرب كذلك مثلاً على التمييز في وزارة المعارف: "إن نسبة الطلاب العرب في المدارس الإسرائيلية هي 20% من مجموع طلاب المدارس العامة ولكن من بين 980 موظفاً في وزارة المعارف لا يوجد سوى 30 موظفاً من المفتشين. ومع أن البلاد تقسم إلى ستة ألوية، فإن لواء الشمال هو أكبر هذه الألوية، حيث إن 60% من بين الطلاب هم من العرب. ولكن مدير اللواء ونائبه وكذلك الوظائف الإدارية الأساسية ليست من بين العرب" وضرب مثلاً على استهتار الحكومات الإسرائيلية بوعودها: "ففي وزارة السيد أهود أولمرت وزير شؤون الأقليات، ليس في مكتبة موظف عربي واحدا".

وقد شرح بيان صحفي وزعته على الصحافة في 26.10.91 "اللجنة القطرية للسلطات المحلية العربية" في أثناء تواجدها في خيمة الاحتجاج التي نصبت مقابل

مبـــنى رئيس الحكومة عام 1991 جاء فيه ما يلي: "لا يعقل أنه بعد مرور ما يزيد عن ثلاثة وأربعين سنة منذ قيام الدولة وما زال التعليم في الوسط العربي يعاني من نقــص فـــي الأبنــية بما يقدر بـــ 1240 غرفة تدريس إضافة إلى ما تحتاجه هذه المـــدارس مـــن غرف إضافية تسد حاجة الزيادة الطبيعية. لا يعقل ان يبقى جهاز الموظفيـــن فـــي المدارس العربية يعمل فقط ب 60% من عدد المعلمين المطلوبين الذيـــن يعملـــون فـــي القطاع اليهودي. وكذلك فمن بين الــ 40,000 ساعة تعليمية إضافية التي زودت وزارة المعارف المدارس أن يحصل العرب على 3200 ساعة فقط، بينما وضع المدارس العربية على ما هو عليه. وتدني التحصيل في المدارس العربية مقارنة مع التحصيل في المدارس اليهودية. أين هي المساواة ؟ بل أين هي نوايـــا الحكومة عندما تمنح 600 وظيفة لأخصائيين نفسانيين يعملون في المدارس، فـــلا يكـــون من نصيب المدارس العربية التي تبلغ 20% من مجموع الطلاب في الدولـــة إلا 6 وظـــائف. وكذلـــك فمـــن بين 115 وظيفة لضباط الدوام المنتظم في الســـلطات المحلـــية يعطى العرب منها فقط عشرة وظائف بينما يبلغ التسرب في المدارس العربية 50%".

ســـوف نقـــف قليلاً مع قرارات الحكومات الإسرائيلية والشعارات الجميلة التي تطلقهـــا مـــن أجـــل تحقيق المساواة بين اليهود والعرب. إنها نفس الشعارات التي يســـمعها العرب في معركة مفاوضاتهم الدبلوماسية مع إسرائيل عن تحقيق السلام إنها وعود وشعارات ينام على رنينها العرب من غير "تهليل" وسوف ننقل حرفيًا ما جاء في تقرير "سيكوي" لعام 1993 في الصفحة 7 ، 8: "لقد عين بروفسور شمعون شـــطريت وزيـــر التخطيط والاقتصاد في كانون ثاني من عام 1993 طاقم وظيفته العمـــل علـــى استيعاب موظفين عرب في أجهزة الدولة. وفي مقابل ذلك فقد عُين أيضًـــا مديـــر مكتب رئيس الحكومة (يتسحاك رابين آنذاك) ممثل مستخدمي الدولة مئـــير جـــباي لـــيقف على رأس لجنة مهمتها استيعاب موظفين أكاديميين من بين العـــرب يعملـــون في جهاز الدولة. ولكن مع نهاية السنة الثانية لقيام هذه اللجان لم يـــتقدم عملهـــا خطوة واحدة. وعلينا أن نذكر أنه منذ عام 1976 اتخذ قرار مماثل لاســـتيعاب جامعييـــن عـــرب في الدوائر الحكومية، وأقيمت لجنة كوبرسكي لهذا الغـــرض فقد عهد إليها القيام بهذه المهمة في حينه ولكن في تقرير لها عام 1989 يظهـــر أنه لم يتقدم العمل خطوة واحدة في اتجاه تشغيل موظفين عرب في دوائر حكومية. من أجل ذلك فقد اتخذت الحكومة قرارًا رقم (1240) عام 1990 لاستيعاب

مائــة وظــيفة عربية في كل عام. وفي عام 1991 أقيمت لجنة أخرى لمتابعة هذا الموضوع برئاسة ممثل مستخدمي الدولة مئير جباي وهي أيضًا توصلت لقرارات مشــابهة لقرار اللجان السابقة. ولكن الأمر كذلك لم يتقدم حتى ولو خطوة واحدة". وتختم "سيكوي" ملاحظاتها بما يلي: "لقد علمتنا التجارب فيما مضى أنه لن يحصل أي تقــدم في تحقيق وتنفيذ قرارات الحكومة، حتى يأخذ كل وزير الأمر إلى يديه ويلتزم شخصيًا باستيعاب عدد من الموظفين العرب في وزارته .. وقد تعلمنا أيضًا أن الوزير أي وزير عندما يرغب في استيعاب موظفين عرب يجد الوسيلة لذلك"[61]

وهكذا تقوم اللجنة في أعقاب اللجنة ومع كل لجنة جديدة دراسة للوضع من جديد ووعود واقتراحات جديدة وقضية المساواة كسحجت (تصفيق) الغوارنة في العرس "لــورا يا شباب لورا" (إلى الوراء يا شباب إلى الوراء). ويتحدث تقرير "سيكوي" (جمعــية تكافؤ الفرص" في تقريرها 1993 صفحة 10، 11 فتقول: "لم يحصل تقدم في استيعاب موظفين عرب في الأجهزة الحكومية .. ومن غير المقبول حتى اليوم تعييــن موظفين عرب في مكاتب الدولة التي تعالج قضايا كل المواطنين بما فيهم الــيهود. لكــن قد يحصل أن يوظف عربي في وظيفة تخدم الجمهور العربي فقط. (طبعًا يتم ذلك إذا فقد من يقوم بها من بين اليهود الذين يتكلمون العربية، أو إذا كان هذا العربي مرضيًا عنه). ويستمر تقرير "سيكوي" 93 بأن وزارة الداخلية اشترطت بــزيادة دعمها للمجالس العربية برفع مستوى الجباية الذاتية وبمقدار نسبة الجباية تقدم الوزارة دعمها.

ولمــا كان 50% من المواطنين العرب يعيشون تحت خط الفقر، فكيف يمكن أن تــرتفع جباية ضريبة السكن من هؤلاء الذين لا يقدرون على شيء؟ من أين تأتي الجــباية الذاتية في قرى ليس فيها موارد اقتصادية، بل تعيش معتمدة على القطاع الــيهودي؟ وحــتى تلحق السلحفاة بالعداء الشهير اخيليس تتم المساواة بين اليهود والعرب في دولة اليهود.

ومــن المفارقــات العجيبة أن التقرير السنوي لمراقب الدولة لعام 1992 لقضية المساواة بين المواطنين اليهود وغيرهم فيذكر الملاحظة الآتية: "إن دولة إسرائيل، دولة ديمقراطية تعتبر مبدأ المساواة من القيم التي تقوم عليها مفاهيمها الاجتماعية، ممــا يفــرض على الحكومة أن تبذل قصارى جهدها لتطبيق هذا المبدأ على جميع مواطنـــي الدولـــة أفرادًا وقطاعات من كافة فئات المجتمع الإسرائيلي ..." ويستمر الــتقرير "إن الأمــر لا يــتعلق بإسداء الخير لهذا القطاع أو ذاك، بل بمبدأ أساسي

رفعـــناه شعارًا وأرسينا عليه دعائم مجتمعنا بحيث يشكل ذلك تطبيق خدمة مباشرة لمصلحة دولة إسرائيل فانعدام الاندماج يعني الاستقطاب".[62]

لا ندري ما الذي منع تقرير مراقب الدولة أن يذكر الأقلية العربية بالاسم، لعله كـــان يعني قطاعات المجتمع اليهودية من يهود روسيا ويهود الفلاشا (الإثيوبيون)، ثـــم أين كان مراقب الدولة قبل 44 عامًا على قيام الدولة، إن كان يعني ضمناً من بيـــن مـــا يعني القطاع العربي .. ثم ها قد استجابت الحكومة الإسرائيلية من نفس الســـنة لـــنداء مراقب الدولة ــ وهو الذي ترتعد فرائص الحكومة الإسرائيلية أمام تقريره ــ عندما طلب أن تبذل "قصارى جهدها" لتحقيق مبدأ المساواة والذي تحدث عـــنه القرار على أنه قيمة اجتماعية أساسية وعليا للمجتمع الإسرائيلي فمن بين 50 جلســـة التي عقدتها الحكومة الإسرائيلية تلك السنة وكذلك السنة التي بعدها ما يزيد عـــن 50 جلسة (فالحكومة الإسرائيلية لديها جلسة أسبوعية) لم تجد الوقت ولم تجد الحافـــز أن تبحث مبدأ المساواة لا في جلسة خاصة ولا في بضع جلسة كما يشير إلى ذلك تقرير سيكوي (93 ص4) ويكفي الحكومة أن تقيم لجنة من أجل تحقيق هذا المبدأ العظيم في المجتمع الإسرائيلي، ولعلّ الحكومة الإسرائيلية توصي تلك اللجان التـــي تقـــيمها مـــن أجل هذا الغرض من وقت لآخر، "ابحثوا كل الأمور الا مبدأ المساواة".!!!!

يقول رئيس الحكومة في حفل افتتاح شارع في قرية سالم في الأول من حزيران عـــام 1993: "إن الحكومة التي أترأسها أخذت على عاتقها جسر الهوة التي تعمقت بين القطاع العربي واليهودي على مدى 45 سنة".[63]

كمـــا أخذ على عاتقه إرجاع الجولان لسوريا ولكن اليهود المتطرفين لم يمهلوه ليحقق أيًّا من وعوده هذه فقتل غيلة.

وهـــذا وزير المعارف يؤكد أنه في خلال ثلاث سنوات القادمة (من سنة 1992) ســـوف يساوي بين المعايير المستخدمة في الوسطين العربي واليهودي سواء كان ذلـــك فـــي المبانـــي أو الوظائف والساعات الإضافية أو المناهج ... والتزمت كل الـــوزارات بجسر الهوة ما بين الوسطين العربي واليهودي ابتداء من مكتب رئيس الـــوزراء، ووزارة التربـــية، والتعلـــيم، والبيئة، والداخلية والمواصلات والإسكان وغيرها.

وإذا كانت هذه الشعارات التي قد تعهدت بتنفيذها الحكومات الاسرائيلية قد وقعت هذه الاتفاقية من قبل حكومة اليمين برئاسة شامير منذ عام 1991 مع اللجنة القطرية

للسلطات المحلية العربية في خيمة الاحتجاج التي أقيمت مقابل مبنى رئيس الحكومة عام 1991 ولكن حتى عام 1993 لم ينفذ منها شيء (انظر سيكوي 93).

لا أدري كـــيف يمكـــن أن يتساوى المعتدي والمعتدى عليه؟ مادامت الحكومات الإسرائيلية تعمل بكل الأساليب على مصادرة الأرض العربية وحرمان العربي من كثـــير من الحقوق، بينما يصادر كل ذلك لصالح المواطن اليهودي ..؟ كيف ستتم المساواة؟ وفي أي الحقول؟

وإذا كانـــت المـــنحة المقدمة من وزارة الداخلية للمواطن اليهودي تساوي ثلاثة أضعاف ما تقدمه لنظيره العربي فما بال التقارير تهمل ما يحصل عليه اليهودي من خدمـــات كثير من الوزارات الأخرى التي لا تقدم للعربي أية خدمات تذكر مضافًا إلـــى ذلـــك ما تقدمه الوكالات اليهودية والصهيونية العاملة في إسرائيل والتي تقدم خدمات جليلة لهذا المجتمع، فأين وكيف تحصل المساواة؟!!

فـــإذا كـــان رئيس الحكومة رابين هو الذي التزم وتعهد بتحقيق مبدأ المساواة لم يســـتطع أن يستوعب موظفًا عربيًا واحدًا في مكتبه الحكومي في القدس طيلة فترة حكمـــه (انظـــر سيكوي 93 ص20). مرة أخرى سنحصل على المساواة عندما تلحق السلحفاة البطيئة بالعداء اليوناني السريع اخيليس.

يكفـــي أن نعلـــم أن مـــن بيـــن 5000 أكاديمي يعملون كمحاضرين في مختلف الجامعـــات الإســـرائيلية فإن أقل من عشرين عربيًا قبلوا ومعظمهم يستوعبون في أقســـام اللغة العربية وأقسام الشرق الأوسط (سيكوي 93 ص29). وقد رأينا فيما سبق الـــتقرير الذي قدمه بروفسور ماجد الحاج المحاضر في جامعة حيفا لمؤتمر التعليم العربي الثالث أن هناك فقط عشرة محاضرين عرب من بين 5100 محاضر وكان ذلـــك في عام 1991 فلا يعقل أن ينخفض العدد إلى 5000 كما ذكرت سيكوي 93" وكذلك فإن الرقم "أقل من عشرين" مبالغ فيه .

وحتى قسم المياه فإن مخصصات الفرد اليهودي تفوق مخصصات الفرد العربي بمـــا يعادل ثلاثة أضعاف تقريبًا. فإن ما يحتاجه الفرد في الوسط اليهودي في حده الأدنى هو ما يزيد عن 80 كوب للسنة (استعمال بيتي فقط) فإن المواطن العربي لا يستهلك في الحد الأقصى أكثر من 35 كوب للسنة (استعمال بيتي).

يحلـــو لكثـــير من المفكرين اليهود أن يحاولوا بشتى الطرق ومختلف الأساليب وأحـــيانًا عن طريق ترويض بعض المعاني والمصطلحات لكي تستوعب إسرائيل كدولة ديمقراطية من غير شروط، ونحن نؤكد أن انتقال السلطة في الدولة اليهودية

يتم بالعملية الديمقراطية، ولكنها ديمقراطية منقوصة عندما يكون الحديث عن الأقلية العربية. ولهذا فنحن نطلق عليها ديمقراطية الأكثرية اليهودية .. ومن بين تلك المصطلحات "ديمقراطية مناطقية" أو "ديمقراطية محلية" Territorial Democracy.

يقول دانيال إيلازار Daniel Elazar[64]"أن إسرائيل قد منحت الأقليات بما فيهم العرب والدروز (هذه التفرقة للكاتب نفسه) حكمًا ذاتيًّا عن طريق إقامة سلطات محلية تدير شؤون هذه الأقليات باستقلالية تامة في مجال التربية والتعليم والأمور الدينية، وهي تستطيع أن تسن القوانين لمواطنيها وبهذه الطريقة تحكم الأقليات نفسها. وإلى جانب السلطات المحلية هناك المجالس الدينية (وهي موجودة في المجتمع اليهودي فقط).

لا أدري ما يفيد كلام من هذا القبيل ففي كل الأنظمة الديمقراطية وشبه الديمقراطية هناك حكم مركزي وإلى جانبه حكم محلي، ومتى كان الحكم المحلي حكمًا ذاتيًّا خاصة إذا كان على موديل الحكم المحلي الإسرائيلي الذي ما زال في معظمه يسير حسب قانون الانتداب البريطاني في تعلقه شبه الكامل بالحكومة المركزية وتأثير وزارة الداخلية كبير جدًّا في إدارة السلطة المحلية. فالسلطة المحلية لا تستطيع من الناحية القانونية أن تعتمد موظفًا واحدًا من درجة معينة فما فوق والتي تحتاج إلى إعلان مناقصة من غير تدخل وزارة الداخلية وبعض المؤسسات الأخرى. وعادة ما يختار الشخص المرضي عنه من قبل السلطات اليهودية، فمدير مدرسة أو مدير قسم من أقسام المجلس المحلي أو بعض الوظائف الأخرى الأقل أهمية، عادة ما تنشط بعض الأجهزة الأمنية في تجنيد أعضاء لجنة المناقصة لتاييد الشخص الذي تريده. وأما قوله بأن السلطة المحلية تستطيع أن تسن القوانين التي ترتئيها وتريدها فهذا قول فيه مبالغة فإن الأمور التي يتم فيها سن "قانون مساعد"، وليس قانونًا بحد ذاته وإنما "قانون مساعد" في أمور محدودة جدًّا لا تتعدى بعض الأمور الإدارية للسلطة المحلية وحتى هذا "القانون المساعد" لا يصبح قانونيًّا من غير موافقة وزارة الداخلية.

وإن فيما سبق من هذا البحث الرد الشافي على المغالطات التي يحاول تسويقها هذا الكتاب .. إن المسؤولين الإسرائيليين أنفسهم لا يستطيعون نفي الظلم والتمييز الممارس ضد الأقلية العربية، وقد رأينا سياسة السيطرة المحكمة، التي يحكم بها العرب من قبل باحث يهودي أمريكي وكذلك اعتمدنا مصادر البحث كلها أو معظمها من الأبحاث التي صدرت وتصدر في إسرائيل . نحن نعيش سياسة التبعية

الاقتصادية والعزل والفصل والتعيين التي هي من مميزات علاقة المستعمر بالمستعمر .. حتى إن الساسة الإسرائيليين قد تراجعوا عن سياسة "الوعود الكاذبة" عن الدمج والمساواة في الفترة التي يمكن ان نطلق عليها فترة المفاوضات المباشرة وغير المباشرة مع العرب، فترة أحلام السلام، وأما اليوم في القرن الحادي والعشرين فإن الأبحاث والتوصيات من المفكرين اليهود تكاد تجمع في حديثها عن الخطر الديمغرافي للأقلية العربية وهذا يعني ما تخفيه السياسة الإسرائيلية لنا أكبر مما تفصح عنه . بل نكاد نلحظ أن هناك رموزًا وطنية ودينية يمكن أن تستغل بدراية منها أو غير دراية في تنفيذ مخططات رهيبة ضد شعبها ..

وسوف نرى هذا السخاء الديمقراطي الذي يقدمه دانيال إيلازار للأقليات في إسرائيل على ضوء دراسة قدمها الدكتور راسم خمايسة[65] "للجنة القطرية للسلطات المحلية نشرت في شباط 1992: "من المفروض أن المخططات الهيكلية ينبغي لها أن توجه وتساعد تطوير القرى والمدن بالشكل الصحيح، بعيدًا عن العفوية والارتجالية. وعن طريق التخطيط الهيكلي يتم تطوير القرى والمدن. ولكن سياسة الحكومة تمنع الامتداد العمراني للعرب، فإن 48% من هذه المخططات الهيكلية للقرى العربية هي في مرحلة الدراسة قبل التصديق عليها من قبل السلطات الإسرائيلية المختصة، وأما الباقي فما زال في مراحل متفاوتة من الدراسة. وقبل سنوات الثمانينيات من القرن الماضي لم يكن لمعظم القرى العربية مخططات هيكلية مصادق عليها. وقد ساهم هذا الوضع في إعاقة عملية تطوير القرى العربية، كشبكة الطرق والمجاري والمياه وتصريف المياه وكذلك المناطق الصناعية على قلتها بل ندرتها. وهذا من بين الأسباب المهمة التي أعاقت عمل السلطات المحلية للمبادرة بالقيام بمشاريع حيوية وهذا بدوره قلص من إمكانية زيادة دخلها الذاتي. ومع أن القانون يلزم الهيئات التابعة لوزارة الداخلية والتي تقوم بدراسة الخرائط الهيكلية والمصادقة عليها فإن عليها إنجاز العمل ضمن الوقت المعقول. إلا أن الواقع يقول إن هذه الهيئات القانونية لم تقم بواجبها .

وتتابع دراسة د. راسم شرح سياسة الحكومات الإسرائيلية وتقاعسها عن القيام بواجبها تجاه الأقلية العربية خاصة بكل ما يتعلق في المساعدة على بناء مصانع وورشات عمل صغيرة ومشاغل في البلدان العربية. وهذا أجبر65% من المواطنين العرب على الأقل في العمل خارج قراهم في المستوطنات والمدن اليهودية، ففي إحصائية رسمية تبين أن 74.8% من القوى العاملة في مدينة سخنين يعملون خارج

مدينتهم. وتصل هذه النسبة في مدينة شفاعمرو مثلاً إلى 75.8 وفي مدينة طمرة إلى 66.8% ولا تقل النسبة في باقي القرى والمدن العربية عن ذلك.[66] بل في بعض هذه القـرى قـد تـرتفع إلى ما هو أكثر من 80% .. وتستمر الدراسة في شرح وبيان التميـيز ضـد العـرب بما يتعلق بالميزانيات الحكومية المقدمة للسلطات المحلية العربية: "إن الفرق كبير، ويتسع باستمرار ـ ففي عام 1982 كانت النسبة بين المنح التـي تعطى للسلطات المحلية العربية بالمقارنة مع ما تعطى لنظيراتها اليهوديات هـي ثلاثـة اضعاف. وفي عام 1990 كانت منحة وزارة الداخلية للمواطن العربي تعـادل 127 شـاقل (كـل دولار يساوي 4.2 شاقل) مقارنة ب 399 شاقل منحتها للمواطن اليهودي أي ما يعادل ثلاثة أضعاف[67]. ويخلص الدكتور راسم للقول: "إن السـلطات المحلية العربية تعاني من صعوبات ومشاكل خاصة بعلاقاتها مع الحكم نظـرًا لوجودهـا ضمن أقلية يميز ضدها، بهدف منع وعرقلة تطورها. ولذلك فإن المشاكل والصعوبات الخاصة نتيجة للانتماء القومي زادت من عدم توفر إمكانيات الحكم المحلي لتطوير البلدة العربية، وازدادت الفجوة بين السلطات المحلية العربية واليهودية[68]. والكادر الوظيفي في السلطات المحلية اليهودية يعادل أربعة أضعاف مثـيلاتها العربـيات. وهذا يؤثر على نجاعة العمل البلدي .. تقول دراسة الدكتور راسـم في بيان التمييز والظلم اللاحق بالمواطنين العرب فتشير إلى أن المعطيات المتوفرة بين أيدينا إلى أنه فقط 8% من الدخل الذاتي[69] للسلطات المحلية العربية عام 1989 يجـبى مـن النشاطات الاقتصادية (حوانيت، مكاتب، بنوك، ورش صغيرة، صيدليات ...) بينما ترتفع هذه النسبة في الوسط اليهودي فتصل إلى 52% (وهذا لا يشمل 25 مدينة يهودية تعتبر غنية وذات اقتصاد قوي من ناحية الموارد الذاتية ولا تحـتاج إلى دعم حكومي) وهكذا فان 92% من دخل السلطات المحلية العربية يأتي مـن ضـريبة السكن. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار المستوى المعيشي المتدني في الوسـط العربي، حيث يصل إلى أن 50% من العرب هم دون خط الفقر أمكننا أن نقف على مدى المشاكل والصعوبـات التي تجابه السلطة المحلية العربية في تقديم الخدمات الضرورية لمواطنيها.

وقـد أوضحت نتائج فحص أجرته "الشركة الاقتصادية التابعة لمركز السلطات المحلية العام في إسرائيل" وهي يهودية حيث تكشف عن الدخل الذاتي للفرد العربي فـي السـلطات المحلـية العربية عام 1990 بالمقارنة مع دخل الفرد في السلطات الـيهودية فالعربي معدل دخله 103 شاقل بينما للفرد اليهودي تصل 462 شاقل وفي

مثل هذا الوضع فإن ضريبة السكن في الوسط العربي واليهودي على المتر المربع للبيت هي واحدة في غالبية المدن والقرى. فكيف يتساوى في الدفع من لا يتساوى في الدخل؟ هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أن اليهودي يحصل على تسهيلات ومساعدات إضافية من صناديق يهودية وصهيونية تعمل داخل إسرائيل لصالح اليهود فقط.

وكثيرًا ما تتشدق السلطات الإسرائيلية بأن العرب معفون من الخدمة العسكرية وهم يربحون ثلاث سنوات أكثر من اليهودي الذي يقضيها في الخدمة العسكرية ولكن هذا فيه مغالطات كثيرة، فهذه السنوات الثلاث ليست اختزال من حياة اليهودي مع أن ما يقارب 30% من الشعب اليهودي لا يخدم في الجيش (كالمتدينين الأرثودوكس وبعض الحالات الأخرى) . ولكن الجندية مدرسة تكسب العديد من المهارات في فنون كثيرة وهي حرمان للعرب أكثر منها هبة ومنحة في ظل ظروف الصراع اليهودي الفلسطيني والعربي ولولا العامل الأخلاقي والسياسي كما ذكرنا في مكان آخر من هذا البحث لكان هذا قصاصًا وعقابًا لا يقبل. ومع ذلك فان الجندي يحصل على تسهيلات لا مثيل لها فالأحياء السكنية التي تقوم وزارة الإسكان لإعدادها للجنود المسرحين قد يقضي العربي أكثر من نصف حياته من غير أن يحصل على بعضها. فهذه الأحياء توفر فيها الشوارع والمجاري والمياه والكهرباء قبل أن تسكن، بينما يكدح العربي السنوات الطويلة حتى يستطيع أن يوفر بعض هذه الأمور.

وسوف نرى فيما يلي تقديم اقتراحات وتوصيات اللجان التي أقامتها الحكومات الإسرائيلية المعاقبة من أجل مساواة العرب ودمجهم في مرافق الدولة، وحسب تقرير جمعية "سيكوي" لعام 2001 نرى: "يعمل 2800 من الموظفين العرب والذين يشكلون 89.5% من مجموع العاملين العرب في خمس وزارات حكومية فقط. يعمل من بينهم 1925 (أي 61.5% من مجموع العاملين العرب في أجهزة الدولة) في وزارة الصحة، والتي تضم المستشفيات الحكومية حيث الممرضون والأطباء العرب وقد بلغ عدد الموظفين في جهاز الدولة لنفس العام 58115 عامل أي نسبة الموظفين العرب 4.5% من مجموع موظفي الدولة ومن بين هذا العدد أيضًا المئات العديدة موظفين في المساجد من مؤذنين وأئمة وكذلك الحال مع الكنائس وأماكن العبادة للدروز. وبعد ذلك يتضح مما جاء في تقرير "سيكوي 2001"[70] "يعتبر التمثيل العربي في باقي الوزارات الحكومية هامشيًا أو معدومًا. ففي وزارة البنى

التحتـــية القومية لا يعمل ولا موظف عربي واحد. وكذلك في وزارتي الاتصالات والأمن الداخلي لا يعمل غير عربي واحد .. ويعمل العرب في وظائف مؤقتة، وفي وظـــائف محلـــية وخصوصًا في مناطق سكن الجمهور العربي في الشمال أو في وظـــائف لا يستطيع أن يشغلها سوى العرب. وما زال تمثيل المواطنين في مكاتب الوزارات الرئيسية في القدس معدومًا".

ملاحظات القسم الثاني

الوجود الإسرائيلي كاستعمار استيطاني

1- Arab in the Jewish State: Israel Control of national minority, Univ. of Texas press 1980 - الترجمة العربية وكالة عرفة - القدس، ص62.
2- إيان لوستيك، ص62.
3- المصدر السابق، ص62.
4- المصدر السابق،ص63.
5- المصدر السابق، ص65.
6- المصدر السابق، ص66.
7- المصدر السابق، ص56.
8- المصدر السابق، ص56.
9- Jerusalem Post, June 1976
10- إيان لوستيك، ص57.
11- انظر مقال لعزمي بشارة في كتاب يضم مجموعة مقالات تحت اسم: قراءة في الانقسام اليهودي ـ العربي في إسرائيل ـ مكتبة من أجل الديمقراطية ـ إسرائيل 2000، ص40 بالعبرية.
12- إيان لوستيك، ص58.
13- المصدر السابق، ص58.
14- المصدر السابق، ص59.
15- المصدر السابق، ص59.
16- المصدر السابق، ص60.
17 - المصدر السابق، ص60.
18- المصدر السابق، ص61.
19- Israel and the Arab word, Aharon Cohen, London 1970, p. 36, 46
20- انظر "فصل المقال" الجمعة 30-3-2001 عدد 234 ص الأولى، الناصرة.
21- محاضرة برفسور سامي ميخائيل في كيبوتس كفار بلوم ـ شمالي إسرائيل بثته القناة الثانية في التلفزيون الإسرائيلي ظهر يوم الخميس 12.7.2001 .
22- إيان لوستيك، ص73، 74.

23- المصدر السابق، ص75.
24- المصدر السابق، ص76.
25- المصدر السابق، 79.
26- المصدر السابق، ص81.
27- المصدر السابق، ص81.
28- المصدر السابق، ص82، 83.
29- المصدر السابق، ص84.
30- المصدر السابق، ص87.
31- المصدر السابق، ص92.
32- راسكو شركة بناء نشيطة في كل ميادين الإعمار كمتعهد عام: فهي تبني ضواح مستقلة ومراكز سكنية، من شقق حضرية ومراكز تسويق وفنادق وميادين صناعية، ولها حصتها في تحضير شقق للأزواج الشابة، مكاتب حكومية. ولها حصة في ملكية تطوير الأراضي.
33- لوستيك، ص98.
34- المصدر السابق، ص98.
35- المصدر السابق، ص104.
36- المصدر السابق، ص106.
37- المصدر السابق، ص106.
38- المصدر السابق، ص106.
39- المصدر السابق، ص107.
40- المصدر السابق، ص116.
41- المصدر السابق، ص116.
42- المصدر السابق، ص118.
43- المصدر السابق، ص138.
44- المصدر السابق، ص140.
45- المصدر السابق، ص141.
46- المصدر السابق، ص152.
47- المصدر السابق، ص153.
48- المصدر السابق، ص154.
49- المصدر السابق، ص156.
50- المصدر السابق، ص158.
51- المصدر السابق، ص 160.
52- المصدر السابق، ص162.
53- المصدر السابق، ص185.
54- المصدر السابق، ص189.

55- المصدر السابق، 188.
56- المصدر السابق، ص191.
57- المصدر السابق، ص205.
58- المصدر السابق، ص205.
59- انظر Arab in Israel in the aftermath of peace making : Prof. Amiram Gonen and Dr. Rassem Khamaisi, 1993, The Floersheimer Institute for policy studies, Jerusalem.
60- "التعليم والأقلية العربية في إسرائيل قضايا ومطالب" وهو التقرير الذي صدر عن مؤتمر التعليم العربي الثالث – مطبعة الكرمة – حيفا 1991، ص242.
61- "سيكوي" أيلول 1993 ص8 (جمعية رفع تكافؤ الفرص) النشرة العبرية.
62- كما جاء في اقتباس "سيكوي" في نشرتها لعام 1993.
63- المصدر السابق في المقدمة.
64- انظر صفحة 32 وما بعدها وكذلك صفحة 34 من كتاب: Danial Elazar: Local Government in Israel, The Jerusalem Center for Public Affairs. 1992University of America U.S.A
65- د. راسم خمايسة محاضر في قسم الجغرافيا في جامعة حيفا ويدير مركز تخطيط استراتيجي للسلطات المحلية العربية ويقوم من حين لآخر بإعداد خرائط هيكلية للبلدات العربية وكذلك للسلطة الفلسطينية في منطقة القدس. ويقوم اليوم بتكليف من الحركة الإسلامية بمسح شامل للأوقاف في فلسطين، وله أبحاث كثيرة في هذا المجال.
66- المصدر السابق، ص17.
67- المصدر السابق، ص18.
68- المصدر السابق، ص18.
69- المصدر السابق، ص21.
70- سيكوي 6.5.2001 ص21.

القسم الثالث

الدولة الإسرائيلية من منظار يهودي

الفصل الأول

الدولة الإسرائيلية من منظار يهودي

من يقرأ عن فلسفة الدولة القومية "الإنسانية" التي كتب عنها بعض الفلاسفة ومن بينهم الفيلسوف اليهودي هيس ورؤيته لدولة قومية يهودية تقوم، ويقارن بين تصميم الدولة القومية فلسفيًّا وعلى الورق ، وبين من يراها ويعيش واقع الدولة، الظروف التي نشأت بها، والأرض التي قامت عليها، ومعاملتها لأصحاب الأرض، والأحكام التي تنتهجها، لا بد أن يقف على الفرق بين الكتابة من أجل حشد المشاعر والتأثير على القلوب والعقول ومن ثم تسويق الفكرة وكسب الأنصار لها وبين عنف وبطش بناة الدولة في واقع الأمر. إنه الفرق بين منطق الكلمة وجمال وقعها والفكرة التي تعرضها وبين رصاص البندقية التي لا تفرق بين طفل وشيخ وامرأة .!!

وحتى زعيم الحركة الصهيونية وباعثها ثيودور هرتسل، عندما تصور وعمل على إقامة "دولة اليهود" كان يحمل في مخيلته دولة ليبرالية على مثال الدولة القومية الأوروبية. كان يرى دولة فيها أكثرية من اليهود تنتهج النظام الديمقراطي الليبرالي، ليس بالضرورة أن تكون لغتها الرسمية هي العبرية .. ولكن الجنود على الأرض كان لديهم تصور آخر ومفاهيم أخرى وهي التي رسمت في أرض الواقع الدولة اليهودية، التي تطرد سكان البلاد من أرضهم وتقتلعهم من وطنهم وتشردهم في كل بقاع الأرض . أقاموا الدولة اليهودية التي تميز مواطنيها اليهود عن الأقلية التي بقيت تعيش على أرضها من بين الفلسطينيين .. كتب فلاسفتهم وسياسيوهم عن دولة ديمقراطية إنسانية وأقاموها دولة تظلم وتستبدُّ بغيرها. أما الكلمات والأفكار الجميلة فظلت محبوسة في بطون المعاجم والكتب، لا يلتفت إليها إلا طالب التاريخ.

عندما تناول الرئيس الأمريكي جون كندي قضية اللاجئين الفلسطينيين، بجدية وبعث برسائل إلى زعماء الشرق الأوسط، يحثهم فيها أن يبعثوا له بتصوراتهم لحل القضية الفلسطينية، وخاصة قضية اللاجئين التي كانت قرارات الأمم المتحدة في هذا الشأن واضحة بينة تنتظر شجاعًا قويًّا أن يخرجها إلى حيز التنفيذ. فجرب جون

كـندي أن يكون ذلك "الشجاع" فقد رد جمال عبد الناصر ومن بين رده جملة تقول وهـو يبحـث أسباب وحيثيات المشكلة: "لقد أعطى من لا يملك (بريطانيا) لمن لا يسـتحق" ولكن الظروف كانت أقوى ممن يحاول الخروج عن "التلم" لكن قبل ذلك كانـت "الأمم النحسة" قد عالجت ظلمًا بظلم أبشع، ماذا جناه الفلسطينيون مع اليهود مـن أجل أن يدفعوا فتورة ظلم أوروبا النازية لليهود؟ نحن لسنا حلفاء للنازية ولا شـركاء لهـا، بـل نحن العرب لم نكن أفضل من اليهود في نظر الفلسفة النازية، والبلاد العربية التي وصلها الاحتلال النازي في شمال إفريقيا قد ذاقت الأمرين من بطش الوحش النازي .. أن يتقاسم الألمان والفلسطينيون دية ضحايا النازية ن دون الـناس فهـو غبـن وجور وظلم، بل هو اللامعقول. أن يدفع الألمان المال ويدفع الفلسـطينيون الأرض، تلـك والله قسمة ضيزى. وهكذا تحل الأمم النحسة مشكلة بإيجـاد مشكلة أعقد، ترفع ظلمًا عن اليهود بايقاع ظلم على الفلسطينيين، والمظلوم الذي يمارس الظلم على غيره أشد وقعًا على النفس من الظالم المستبد.

لـو فـر الـيهود مـن ظلم النازية وملاحقة أوروبا لوجدوا في العالم العربي والإسـلامي متسـعًا وحمايـة، لأن هذا هو تارخنا عشناه وعاشه اليهود معنا أمنا وسـلامًا ، ثقافة وحضارة، وانتعاشًا وازدهارًا .. أما أن يتحول اليهود حربًا على الأمانـي والطموحات العربية، فهذا ما لم نجد له مسوغًا ومبررًا في خانات العقل والمـنطق والعاطفة؟ وهذا السؤال طرح من قبل وما زال يلح في الطرح وينتظر الجواب. لماذا ينقلب اليهود على العرب والمسلمين؟ لماذا يحارب اليهود العرب إلى جانب ظالميهم ومضطهديهم؟ أين العنصر الأخلاقي في هذا الصراع؟ وأنا بدوري أطـرح هـذه الأسـئلة مسبقًا كمدخل لهذا الجزء من البحث "الدولة الإسرائيلية من مـنظار يهودي" أنا أبعث هذه الأسئلة من جديد، لأن المفكرين اليهود يكثرون من الكتابة عن رسالة اليهودية في العالم، هم عقلية العالم!! هم روح الإنسانية!! هم نور الأمم!! هم ضمير الشعوب ؟!!

نحـن غـير عاجزين عن حل هذا السؤال ولسنا عاجزين عن فك رموزه ولكنا نكلكـم إلـى عقولكم والى ضمائركم لكي تراجعوا حساباتكم، نحن ندعوكم لقراءة تاريخكم من جديد، وندعوكم كذلك أن تخلوا بين الناس وبين كتابة تاريخهم وقراءته كما يشاؤون وإذا كنتم كما تذكرون نور الأمم وروحها، فلا ينبغي أن تعطلوا عقول "الآخرين" ولا سجن أرواحهم، ولا حبس النور عنهم، وأخرجوا ضمائر الناس من جحيم العذاب.

هوية الدولة اليهودية:

عندما طلب الفيلسوف مارتين بوبر اليهودي من صديقه الفيلسوف اليهودي الألماني هيرمان كوهن في سنوات العشرين من القرن العشرين، تأييد الحركة الصهيونية وحاول إقناعه بذلك، رفض كوهن هذا الطلب بغضب وفزع "هل يريد اليهود التخلي عن مهمتهم بين الأمم كي يكونوا فقط سعداء؟ هل يريد اليهود فعلاً إنشاء ألبانيا جديدة في الشرق الأوسط"[1]

وخلال وبعد الحرب العالمية الثانية كان الجمهور اليهودي، يتمنى لو كان له ألبانيا تخصه .. رغم ما تعرض له اليهود على يد النازي فإن المقولة التي تجعل لليهود مهمة في هذا العالم، كما قال هيرمان كوهن، لم تتوقف. وكان بعض اليهود يظنون أن ذلك هو قدر اليهود أن يكونوا كذلك: ضرورة أن يكون اليهود ويستمروا في أن يؤدوا مهمة "الضوء بين الأغيار" و"الشعب المختار" وما زال هذا التفكير مهيمنا على العقلية اليهودية منذ ما يزيد عن مائتي عام، بل منذ ان كان لهم تاريخ يكتب.

وظل هذا النداء يلاحق اليهود حتى بعد قيام دولة إسرائيل من بعض قادتهم الروحيين ومن زعماء الدولة: "هل نقنع في الواقع بمجرد دولة أخرى من طراز ألبانيا؟"[2] ومع أن قائدًا بحجم ابن غوريون من الزعماء البراغماتيين كانوا يسخرون من مبادئ "الشعب المختار" وفلسفة "الشعب الذي يضيء الطريق للأمم" في مقابل أن لا يكون له حيز مميز على شكل دولة. لكن مثقفا علمانيًا مثل غيرشوم شولم قال ذات مرة: "إذا كانت إسرائيل كبقية الدول والشعوب الأخرى، فإنها ستكف عن الوجود في القرن القادم".[3]

يرى يهوشواع أن الحديث عن "الشعب المختار" و"الضوء بين الأمم" ما جاءت إلا كنتيجة اندماج الدين بالقومية عند اليهود . وإذا كان هناك خاصية إنسانية كونية لليهودية فهي مشروطة، ومع أنها نظريًا متاحة لكل البشر، شريطة أن يتخلوا عن هويتهم الدينية والقومية معًا. ومع أنها كونية متحيزة ولكنها تعاني من خلل، ولتقويض تحيزها ونواقصها، وضع الشعب اليهودي على عاتقه مهمة ورسالة تجاه العالم كله، العالم المرفوض بدرجة معينة، وكأن لسان حال اليهود يقول: "سأكون ضوءًا بين الشعوب لأنني لا أملك القدرة ولا الإرادة على قبول الجميع" ويرى اليهود أنه مقابل هذه المهمة التي يؤديها اليهود تجاه الإنسانية فهم لذلك مشتتون في

العالم بما عرف بالقاموس اليهودي "الدياسبورا" Diaspora وقدموا ثمنًا باهظًا مقابل ذلــك ويقــول بعض اليهود: "كنا على استعداد لإعادة كل جوائز نوبل التي حصلنا علــيها مقابل إحياء مليون طفل فقدوا"[4] ولهذا فإن الصهيونية البرغماتية المتمثلة في الزعامة الصهيونية قد تنازلت عن أوهام "أمة لا تشبه غيرها" أو "الشعب النموذجي" أو "الــتوقف عن أن نكون ضوء ونور الأمم" مقابل حياة السلام والأمن في أرض كباقي الشعوب.

نحــن لا نســتهين من جانبنا بالعقلية اليهودية، ودورها في الحضارة الإنسانية وكذلــك لا نقلل من دور العقلية اليهودية في صياغة الفكر البشري، ولكننا نود أن نتعرف كيف يمكن أن تحتكر لنفسها فقط كونها "نور البشرية" أو الضياء الذي لولاه لعم الظلام الأرض؟ كيف تحترق لتضيء حياة البشر؟ وهي تملك القوة الاقتصادية الأولى في هذا العالم؟ كيف تحترق وهي تملك أقوى قوة إعلامية في الأرض؟ كيف تحترق لتضيء الحياة للناس وهي منذ ما يزيد عن مائتي عام تتحكم باقتصاد العالم وسياسته؟ فكونها "النور بين الأمم" و"النموذج المختار" فاليهودية لم تقدم ذلك مجانًا للبشرية فهي مقابل ذلك قد حصلت على إمبراطورية عالمية غير معلنة، ما كان لها أن تحصــل علــى هذه الهيمنة كشعب صغير، هذه الهيمنة الاقتصادية والإعلامية والسياسية في العالم!!!

توظيف الصراع العربي – اليهودي من أجل بلورة هوية الدولة اليهودية :

عندما يتكلم يهوشواع عن "هندسة الهوية" يوحي من غير شك ومن غير أن يذكر ذلــك إلى عملية تكلف صياغة وصناعة "الهوية"، فمعظم الأمم تصوغ هويتها من غــير تكلف، بل كثير منها ما تأتيها "الهوية" عبر التاريخ، فتصوغها الأحداث من غــير أن تقــيم مصــانع تكريــر المجتمعات وقولبة الشعوب والأمم أو استحداث مختبرات لإخراج هوية بهذا الشكل أو ذاك!!

نحــن لا ننكر دور الفكر وتأثيره في بناء المجتمعات وتطورها وتحسين أدائها وبلورة آليات يستعين بها المجتمع أو الشعب أو الأمة لتحقيق غاياتها ولكن المجتمع والأمــة تخلق وعيها ومن ثم فكرها فيتفاعل معها وينفعل بها. وفرق مثلاً: بين أن يــتحول الصــراع من وسيلة لحفظ مصالح المجتمع والأمة، ودفع الشر عنها وعن مصــالحها، وبين أن يصبح عاملاً من عوامل صياغة المجتمع ويتحول إلى بوتقة ومختــبر يخرج لنا إنسانًا ومن ثم مجتمعًا يجمعه الخوف من الآخرين والحقد على

الغـــير. وهندســـة مجتمع من هذا النوع، لابد أن يسكب فيه عوامل الغضب والشك والارتـــياب مـــن الآخر، وأن تتشكل أعصابه فتجري فيها نار الحقد والحسد على الغـــير. وهكـــذا فنحن أمام نموذج من نار ولسنا أمام أمة يسعى نورها بين يديها، تهدي نفسها ومن ثم تهدي غيرها.

يقـــول يهوشواع: "الصراع العربي ـــ الإسرائيلي جوهريا، هو العمود الأساس الـــذي بنيت حوله الهوية الإسرائيلية على مدار ما يزيد على مائة وعشرين عامًا. ومـــنذ اليوم الأول الذي وطأت فيه أقدام أول اليهود أرض إسرائيل (فلسطين) جابه الصـــراع على شرعية وجوده في الأرض القديمة ـــ الجديدة (؟؟) وتحولت غريزة القـــتال مـــن أجل البقاء لديه إلى أعمق التجارب وأكثرها تثبيتا، وأدت بالتالي إلى إحساس بالقرابة والأخوة بين يهود من مشارب وعادات وأصول وطبقات اجتماعية شتى".[5]

ويستمر يهوشواع: "وحتى وقتنا الحاضر، يولد وقوع أحد الأعمال الإرهابية من طـــراز مـــا حـــدث مؤخـــرًا في تل أبيب أو نتانيا موجة عارمة من التضامن بين العلمانـــي المـــتحلل القاطـــن فـــي أحياء تل أبيب الراقية، والأرثوذكسي اليهودي الانعزالـــي في غيتوهات بني براك وميئا شعاريم، أو اليهودي الشرقي القاطن في إحـــدى مـــدن التطوير البعيدة والمهملة ... (قرى الحدود) هناك اختلاف في الرأي بقـــدر مـــا يتسع الخيال، ورغم ذلك، نشعر أن الخطر الذي يحوم فوق رؤوسنا، لا يمـــيز بيـــن الخلافـــات الأيديولوجية، ويرغمنا على التوحد، وعلى مساعدة بعضنا الـــبعض فـــي سبيل البقاء ... إن القدرة المذهلة، خلال خمسين أو ستين عامًا على خلـــق توحـــيدية للهويـــة الإسرائيلية، يشترك فيها يهود من أصول شديدة التنوع، وثقافـــات متعارضـــة،ولغات مـــتعددة، وقناعات دينية مختلفة ، هذه القدرة تستمد جذورهـــا بصفة قطعية وحصرًا من هذا الخطر المشترك الذي يهدد سلامة الجميع ... فـــي المائة سنة الأخيرة لم يقتل أكثر من خمسة عشر أو عشرين يهوديًا بأيدي يهود مع وجود خلافات سياسة وأيديولوجية كثيرة، لا يرجع قلة هذا العدد إلى ندرة المتطرفيـــن والراديكالييـــن بيننا، أو إلى تجذر مبدأ التسامح والقيم الديمقراطية في وجداناتنا، بل، في المقام الأول، يرجع إلى وجود خطر خارجي يوحدنا ... وقد قال بعـــض العـــرب الحكماء قبل سنوات، لو عرضت الدول العربية في الأيام الأولى ســـلامًا متواضعًا على اليهود، لربما نجح هذا السلام في تفكيك الدولة اليهودية من حيث فشلت جميع الحروب ضدها ... سيتآكل هذا العمود المركزي لتضامن الهوية

الإسـرائيلية تدريجيًا مع تقدم عملية السلام .. وسوف يفتقد المجتمع اليهودي وهج الـروح الطلائعـية الاسـتيطانية في الأماكن قليلة السكان مشحونـة بالهاجـس الأمنـي ...".[6]

مـا يثير الدهشة والاشمئزاز هو اعتبار الغالبية العظمى من اليهود بأن الهجرة إلـى فلسطين واستيطانها شبيهة بعملية اكتشاف العالم الجديد واستيطان الأوروبيين تلـك الـبلاد بعد تفريغ سكانها الأصليين من الهنود الحمر، ويحلو لهم كذلك تشبيه الفلسطينيين بالهنود الحمر، من غير أن يحسبوا حسابًا لمئات السنين وتطور الإنسان فيها، بين اكتشاف أمريكا وظروف العالم يومها وبين اكتشاف كولومبوس اليهودي لفلسطين في القرن العشرين .. إذ كان كولومبوس أوروبا قد اكتشف ثم استعمر فإن الكولومـبوس اليهودي لم يغامر في اكتشاف فلسطين وإنما قد غامر في اغتصابها فقط. ولهذا لا مكان لاستعمال مصطلح إسرائيل ـ القديمة ـ الجديدة.

وملاحظـة أخرى في اعتماد البوتقة" والصراع مع العرب كعامل مساعد لإيجاد وصياغة مجتمع متوحد من شتات اليهود .. ونحن نسأل: ما ذنب تلك الشعوب التي تستعدونها وتديرون الصراع معها لا لشيء إلا لكي تقيموا مجتمعًا متوحد المشاعر؟ أين العامل الأخلاقي في ذلك؟ ما ذنب الألاف العديدة التي قتلت وتقتل على الجانب الآخـر؟ ما ذنب الأطفال والنساء والرجال الذين يستعملون كوقود من أجل صهر المجتمع الإسرائيلي؟ ما ذنبهم يقتلون ويشردون ويطردون من بيوتهم؟ أبهذا الطريق تضيئون للبشر حياتهم؟ أجل إنها تضحيات "جسام" سيذكرها التاريخ ...

يـرى بروفسـور درور[7] أن الدولة اليهودية ذات خصوصيات مميزة، فطبيعة الشـعب اليهودي ليس من السهل فهمها بالتعابير والمصطلحات المقبولة عند غير اليهود، كالانتماء القومي أو الديني، فالمجتمع اليهودي أو اليهودية ليست قومية فقط وليسـت دينـية فحسب وإنما هي مزيج من الاثنين. وإذا كانت اليهودية ذات طابع دينـي وقومـي فإن الدولة الإسرائيلية ذات طابع ثنائي أيضًا فهي دولة صهيونية ويهوديـة وديمقراطـية، بمعنى دولة لها أهداف تقوم على أسس وقواعد .. وهناك وجهـات نظـر مخـتلفة بين الصهيونيين التقليديين وبين تيار الصهيونية الجديدة وهؤلاء أصحاب رؤيا ما بعد الصهيونية.

هـناك مـن يـرى أن إسرائيل كدولة ما هي في الحقيقة إلا أداة لتحقيق أهداف وغايـات الصهيونية العالمية، ولهذا فدور الدولة ضروري لتجسيد تطلعات الحركة الصـهينية. وبهـذا فإن الصهيونية فوق الدولة وكل استثمار يتم في تحسين جهاز

الدولـــة ورفع مستوى أدائها ما هو في حقيقة الأمر إلا لكي تتمكن من تحقيق الحلم الصهيوني .. ولهذا يرى برفسور درور من الضروري بناء الدولة بشكل يسمح لها بمواصلة تطبيق وتحقيق أهداف الثورة الصهيونية. ويرى درور أن الدولة اليهودية علـــى العكس من رؤيا هرتسل لها بكونها "دولة اليهود" فهي حتى اليوم تعاني من عدة إشكاليات ومن مميزاتها:

1- عدم وجود حدود واضحة معترف بها ومتفق عليها.

2- إنهـــا كدولة أمنية يتطلب منها الحذر الدائم والتحفز المستمر لمواجهة الخطر العربي في المستقبل المنظور.

3- إيجاد صيغ أو معادلة تستوعب علاقة الدولة ← المجتمع ← الفرد وملاءمة ذلك لقيم وأهداف الصهيونية من جهة وظروف الدولة من جهة أخرى ..

ويضع برفسور درور سؤالاً رئيسيًّا يحاول أن يجيب عليه : هل في قدرة الشعب اليهودي إقامة دولة؟ هل هو مؤهل ليقيم دولة؟

للإجابـــة علـــى هذا السؤال يرى درور أن الدولة اليهودية القديمة لم تستطع أن تســـتمر طويلاً ، لأن موقع البلاد الجغرافي يجعلها عرضة لتدخل أمم كبيرة وقوية تسعى لإخضاعها لمناطق نفوذها. إلى جانب هذا العامل الخارجي الموضوعي هناك عوامل داخلية وهي السياسية منها:[8]

*خصوصية الثقافة اليهودية تجعل إقامة دولة يهودية من الصعوبة بمكان حيث إن الشـــعب اليهودي يتميز بتقديم وتفضيل المبادئ الأخلاقية على احتياجات "منطق الدولـــة" (كما حدث للحرب الأهلية حول القيم والمبادئ بينما كانت القدس محاصرة من قبل العدو)..

*عـــدم توظيف التاريخ للاحتياجات السياسية هو مميز إضافي للشعب اليهودي وهذا يضيف صعوبات على طريق قيام الدولة.

لا نـــدري مـــاذا تعنـــي إذن نظـــرية "أرض الميعاد"؟ وكيف لم يوظف التاريخ للاحتياجات السياسية، سواء كان التاريخ القديم أو الحديث؟

*كذلـــك ينقص الثقافة اليهودية التقاليد الرومانية السياسية والتي تعتبر الأساس للدولة الحديثة. فالمجتمع الإسرائيلي ودولته الصغيرة في حجمها وفي عدد سنوات إقامتها، يجعل الشعب الإسرائيلي يعاني من فقدان التجربة في تقاليد الحكم، أو التزام الطاعـــة الاجتماعية وكذلك شعور الانتماء للدولة. مع أن الدولة اليهودية قامت من يومهـــا الأول علـــى بـــناء ديمقراطـــي ولكـــنها ديمقراطية تنقصها البنية التحتية

للديمقراطـية (وهـي التربـية والـثقافة الديمقراطية) التي تحتاج إلى زمن طويل لاكتسابها.

ويرى درور أن الشعب اليهودي لم يبرهن بعد على حب التضحية من أجل قيام واسـتمرارية الدولة، خاصة في ظل الهجرة اليهودية المضادة التي تنم عن غياب وفقدان شعور المواطنة والانتماء للأرض.

مـا هي الصيغة التي تلائم النموذج الاسرائيلي؟ هل من الممكن أن يكون هناك تشابه بين الموديل الإسرائيلي وبين النموذج الصيني الذي يعرف بأنه مجتمع ثقافي Culturism. ولكـن بمـا أن الدولة في مفهومها الذي اكتسبته في التاريخ الحديث مـرافقة لمصطلح القومية فقد عرفت بالدولة القومية. بينما طبيعة الشعب اليهودي، كما تقدم بكونه مقدم خدمات لمصطلح القومية في معناه التقليدي. وهذا يضع أسئلة كثـيرة أمـام إسـرائيل كدولة الشعب اليهودي .. هل يمكن اعتبار إسرائيل دولة القاطنين فيها بما في ذلك نسبة عالية من غير اليهود؟

هل هي دولة كل الشعب اليهودي الموجود في إسرائيل وفي الشتات؟ مع الفارق أن يهود المهجر أكثر بكثير من الذين يسكنون في داخل اسرائيل.[9]

هناك ثلاثة تعريفات رئيسية أو مواقف متناقضة للهوية اليهودية ومن ثم من قيام الدولة اليهودية.

1- الـيهود "الحـريديم" الأرثوذوكس، وهم اللاصهيونيين والذين يعتبرون قيام الدولـة انتقاصـًا من حقيقة هوية الشعب اليهودي، الذي لن يتم خلاصه بغير قدوم المسيح المنتظر.

2- الموقـف المتديـن ـ حـزب المتدينيـن الوطنين ـ الذي يعتبر أن الدولة اليهودية تمثل عاملاً مساعدًا لمجيء المسيح.

3- الصهيونيون اللامتدينون، منقسمون أيضًا بما يتعلق بموقفها من الدولة مع أن غالبيـتها تطـورت مع تطور النظرة الأوروبية للدولة القومية، والذين وجدوا في الشعب اليهودي شعبًا ككل الشعوب ولا ينقصه إلا قيام دولة له كغيره من الشعوب. لكـن هـذه الدولة الإسرائيلية يفهمها القائمون عليها بغير ما يفهمها الصهيونيون. فالقـائمون علـى الدولـة الإسـرائيلية يرونها هدفًا رئيسيًا ومركز من الصهيونية وتجسـيدًا لبعض أهداف الحركة الصهيونية، ولكنها سقف علوي، وبين تلك النظرة التـي لا ترى في جهاز الدولة غير أداة في أيدي الصهيونيين. وهكذا تتحول الدولة إلى أداة أو تعبير عن قيم أعلى من الدولة .. وبهذا يكون اعتبار مصداقية قراراتها

بملائمة هذه القرارات لأهداف الدولة التي من أجلها قامت؟ وبمقتضى هذا الفهم لدولة إسرائيل تكون قراراتها التي لا تتفق مع القيم التي قامت من أجلها، هي قرارات غير شرعية، على الرغم من قانونية هذه القرارات بالمفهوم الفني للمصطلح.[10]

وإذا كانت الأيديولوجية الجماعية التي قامت عليها الدولة هي أيديولوجية الصهيونية. أصبحت الصهيونية بمثابة هدف بل مقياس ومعيار لنشاط الحكم في إسرائيل . ولهذا نرى النظام في إسرائيل يحاول إنتاج دولة ذات طبيعة قيمية أو ذات رسالة والتي تقوم على قوانين لعبة متفق عليها من نوع ديمقراطية الدولة ذات الرسالة والتي تقوم على أساس ومن أجل تطوير وإنجاز الغاية. والسؤال الذي يطرح: إلى أي مدى نرى بأن نظام الحكم كجسم ملزم بتقديم خدمات لمواطنيه يمكن أن يفعل ذلك إذا تعارض ذلك مع تطبيق وتنفيذ مشاريع ومبادئ الصهيونية؟ هذا الوضع الصعب تظهر إشكالياته أكثر عندما يتعلق الأمر بجهاز القضاء في إسرائيل. هل جهاز القضاء هو أكثر تقييدًا لنشاط الحكم، أم هو أداة عمل بيد الكومة من أجل تحقيق رسالة ما بعد القضاء؟ ولهذا فإن الأمر على هذه الصورة لا يتم إلا إذا أصبح مواطني إسرائيل يرون مصلحتهم الذاتية متطابقة مع أهداف الصهيونية. وبهذا تصبح مهمة تقديم الخدمات لا تتعارض مع تحقيق أهداف الصهيونية.[11]

وحجر الزاوية في هذه المذكرة (مذكرة برفسور درور لرئيس حكومة إسرائيل) هو كيفية رؤية الدولة من وجهة نظر صهيونية؟ وهل بناء الدولة هو هدف لذاته؟ أم هو تحقيق مبدأ صهيوني مركزي من أجل أن تكون أداة في يد الصهيونية لتحقيق باقي أهداف الصهيونية؟ وبما أن الصهيونية في الأساس هي حركة ثورية، وما زالت بعيدة عن تحقيق ذاتها بالكامل، وعليه ينبغي للنظام في إسرائيل أن يتحول إلى نظام حكم رسالته استمرار الثورة الصهيونية. ولما كانت المشكلة الأساسية لكل ثورة هو في كيفية بناء جهاز حكم وإدارة تساعد في استمرار تطوير وتحسين رسالة الثورة. والتاريخ يعلمنا أن ثورات كثيرة حصلت فيها ردة وألغت بالتالي كل ما حصلته تلك الثورات. وهذا ما يجعل الحاجة ملحة لبناء دولة إسرائيل على صورة تجعلها قادرة باستمرار على تطوير وتحسين أدائها من أجل تحقيق أهداف الثورة الصهيونية، عن طريق ملائمة الوسائل والآليات والتحديات للظروف المتغيرة، لكن من غير أدنى تفريط في المبادئ الأساسية للصهيونية".[12]

تناول القضية بشكل أكثر عمقًا يكرس له برفسور درور" المذكرة الثالثة " لرئيس

الحكومـــة الإســـرائيلية ـــ ولكن في هذه المذكرة يناقش ويعرض مفهوم الدولة كمؤسسة رسالتها تحقيق أهداف الصهيونية.

ونمـــوذج الثورات: الفرنسية والروسية والصينية وكيفية بناء جهاز الحكم بحيث يســـتمر في تحقيق رسالة الثورة، ما هو إلا مثال يمكن أن نتعلم منه الشيء الكثير. ومـــا بين عمل الدولة ووظيفتها وبين جهاز الثورة وغايتها إشكاليات كثيرة ينبغي إيجـــاد الحلول الملائمة لها. ولهذا يجب في نظر برفسور درور التغلب على بعض المـــيول الطبيعـــية في السياسة والبيروقراطية وكذلك الجمهور من أجل أن تستمر الدولـــة الإسرائيلية في تحقيق غايات الصهيونية. وبهذه الخصوصيات تتميز الدولة الإسرائيلية عن الديمقراطيات الغربية.[13] فإذا كانت الدولة في الديمقراطيات الغربية هـــي جهـــاز قمـــع في يد الطبقة الحاكمة كما ترى الماركسية، أو هي آلية لتحقيق وتحصيل ولو الحد الأدنى من الحقوق الشخصية وتوفير شيء من الرفاه الاجتماعي للمواطنين فإن الدولة الإسرائيلية كجهاز اداري ومواطنين أداة لتحقيق أهداف الثورة الصهيونية. والإشكالية التي يريد برفسور درور من الدولة التغلب عليها هي فطرية وطبيعـــية في الإنسان، وكذلك في جهاز الدولة. فالثورة حتى يستمر وهجها تحتاج إلـــى جماعات طلائعية مضحية مشحونة بمبادئ أيديولوجية، وهي تتحرك بالعمل التطوعـــي أكثر من أن تحرك برسمية وظيفة الدولة وهذا ما جعل المؤرخين الجدد فـــي إســـرائيل يناقشـــون وضع ما بعد الصهيونية بينما أصحاب فكرة الصهيونية الجديـــدة، هـــم الذيـــن ما زالوا ينظرون إلى الدولة وكأنها جهاز ثوري ومن بينهم برفسور درور نفسه .. والمجال الفضائي الذي تتحرك فيه الثورة بجماعاتها الثورية تخـــتلف اخـــتلافًا واضحًا عن الفضاء الذي تتحرك الدولة من خلاله. الدولة جسم قانونـــي يحدها العرف الدولي، ومجموعة القوانين على المستوى المحلي والإقليمي والدولـــي وهـــي تتحرك في هذا المجال، وتحد من حركتها الجماعات المتباينة في مصـــالحها التي تؤلف التوليفة الاجتماعية. والتجربة السوفياتية دليل قاطع على أن الدولـــة التـــي أريـــد لهـــا أن تكون جهاز قمع بيد طبقة البروليتاريا، انقلبت على البروليتاريا نفسها وأقامت جهاز قمع لمن يتعرض لجهاز الدولة ذاته .. وليس هناك حلول سحرية لا في جعبة درور ولا غيره يمكن أن يغير طبائع الأشياء. ومن أجل ذلـــك يرى درور أن تهميش هذا البعد (الثوري) في بناء مؤسسات الدولة بمصطلح "الرســـمي الحكومي" كما تحقق في إسرائيل كان من بين الأخطاء الخطيرة والمهمة التي رافقت قيام الدولة اليهودية وحتى يومنا هذا.[14]

ويرى برفسور درور في مذكرته لرئيس حكومات إسرائيل "أنه من الضروري والمهم أن نفهم تركيبة الهوية الخاصة لدولة إسرائيل .. فهناك حتى اليوم لا يوجد اتفاق داخلي بين اليهود على الحدود الصحيحة لدولة إسرائيل .. وهذه المسألة انقسمت حولها الآراء منذ الحشمونائيين، وهي كذلك في نقاش أيديولوجي حاد حتى اليوم".[15]

والصهيونية الجديدة ممثلة بفكر برفسور درور تحاول حل الإشكال المعقد بين طبيعة الدولة والثورة، وإن كان لا يذكر ذلك بشكل واضح، بل إنه يسوق ما أسماه "تمرينًا عقليًّا" في منطقة يطلق عليها التفكير الباطل اللامفكر فيه، وهو "رؤية الدولة كعود ثقاب مهمتها إشعال ثورة روحية" وبهذا وعلى الرغم من معارضة درور العلنية لفكرة تغليب الثورة على الدولة في تفكير الصهيونية الجديدة. إلا أنه ليس من العسير استنتاج ذلك .. أما المثال الغريب الذي ياتي به درور ليؤكد على الوظيفة المزدوجة للدولة الإسرائيلية كأداة وهدف من خلال عرض ما يسميه "تمرين عقلي" الذي ينتمي للأفكار الباطلة بالتأكيد (التأكيد لدرور ذاته) والتي هي (التمرين العقلي) حسب التقاليد اليهودية كرموز أو إشارة سرية، للأذكياء الموهوبين الحق في التعامل معه فقط. ويعتمد برفسور درور على من يقرأ مذكرته أن لا يخرج بنتيجة ضارة. يقول: "لو أن قادمًا من كوكب آخر جلس يقرأ تاريخ البشرية وتاريخ الشعب اليهودي وتأمل في الحاضر من خلال مرآة كبير بعيدة المدى على التطور الروحي للجنس البشري، من غير اهتمام في حياة الأفراد القصيرة أو هذا الجيل أو ذاك من المحتمل أن يصل إلى نتيجة مفادها: أن رسالة الشعب اليهودي هي في إنتاج نظريات وأفكار روحانية مهمة للجنس البشري مرة بعد مرة، على حساب التضحية باستقلاله السياسي. وهكذا من وجهة نظر المفكر القادم من كوكب آخر فإنه يعطي ترخيصًا لانهيار الدولة اليهودية عندما يحدث ذلك زلزالاً يتسبب مرة أخرى في إنتاج فكري وروحي كبير في العالم، كالذي قدمه الشعب اليهودي بعد خراب الهيكل الأول والثاني. ولهذا فهو يفضل إمكانية ثورة روحية جديدة على قيام دولة يهودية عادية كدول الأجانب تلك، والتي ينقصها بعد روحاني عالمي. ولهذا في نظرته من خارج الكرة الأرضية كان المراقب من كوكب آخر يرى في قيام دولة إسرائيل مرحلة تستخدم فيها كعود ثقاب الذي يشعل إنتاجًا روحيًّا جديدًا على حساب احتراقه هو نفسه".[16]

يقول برفسور درور: "الفكرة المذكورة أعلاه باطلة من وجهة نظر صهيونية

ومحرمة كتفكير على متخذي القرار" ودرور نفسه يعلن أنه يرفض مطلب الضيف من الكوكب الآخر . من الناحية الشعورية يقول درور أنا مؤيد للصهيونية، ولا إنظر إليها من خارجها، كما فعل ويفعل القادم الجديد من كوكب آخر. ويؤكد درور ليس من الضروري إنتاج ثورة روحية يهودية كبيرة عن طريق انهيار الدولة الإسرائيلية، ولكن على العكس من ذلك فإن على الدولة اليهودية أن تتحول إلى مصنع روحاني للشعب اليهودي وللعالم أجمع. ووجود الدولة هو شرط لإنتاج كبير جديد من جانب الشعب اليهودي. ولكن إذا كان لنا أن نشكر القادم الجديد من العالم الآخر لأنه حدد السؤال الآتي بصورة أكبر: دولة يهودية من أجل ماذا ؟ وعلينا يقول برفسور درور "أن نرى الدولة الإسرائيلية كآلية لإنتاج روحاني عالمي كقيمة عليا".[17]

وعبثاً يحاول برفسور درور أن "يمسك بطيختين بيد واحدة" إما الثورة الصهيونية وإما الدولة الإسرائيلية، ويظهر أن برفسور درور لم يطلع على المحادثة التي تمت بين الفيلسوف مارتن بوبر اليهودي وبين نظيره الفيلسوف اليهودي الألماني هريمان كوهن والذي ورد ذكرها في مكان آخر من هذا الفصل. ومحاولة برفسور درور إيجاد دولة يهودية ذات طابع ثوري عن طريق جعل الدولة حركة صهيونية تعمل على تحقيق باقي أهداف الثورة الصهيونية سوف تصطدم بالتالي بالكيان المؤسساتي للدولة.

من أجل ذلك تعمل داخل إسرائيل منظمات صهيونية ويهودية مستقلة عن الدولة وتحاول أن تقيد عمل الدولة، ليس فقط مراقبتها وإنما تقييد خطواتها .. ومن هذا المنطلق يمكن أن نفهم تلكؤ الحكومات الإسرائيلية في اتخاذ القرارات الحاسمة في مفاوضات السلام، أمام العالم تظهر بمظهر الدولة وفي حقيقتها تعاني من ازدواجية الرأسين، ولابد للدولة اليهودية أن تقرر في النهاية أن تختار إما أن تكون دولة تتقيد بالأعراف الدولية أو أن تتحول إلى تنظيمات ثورية صهيونية، وهذا خيار ليس من السهل تجاوزه .. مرة أخرى لا أدري كيف تفكر الدبلوماسية العربية؟ ما دورها؟ ماذا تعرف عن الفكر اليهودي؟ وعلاقة اليهودي الإسرائيلي باليهودي الصهيوني .؟ أجل لقد نسيت أنهم ينظرون إليهم كسبيكة واحدة!!

على السياسي العربي أن يعرف من هو شريكه Partner ؟هل هو إسرائيلي يمثل دولة تعرف ما هي حدودها؟ أم هو صهيوني لم يستكمل بعد كل أهدافه من الاحتلال؟ لو أن هناك جهودًا عربية تبذل لأحرجت الدبلوماسية الإسرائيلية بشكل

كبير، خاصة عندما تظهر حقيقتها أنها تمثل تطلعات يهود العالم الصهيونية وتحقيق أهدافهـم وأحلامهم إلى جانب مصالح دولة اسرائيل؟ كان على السياسة العربية أن تضغط بهذا الاتجاه وهو أن يكون شريكها المفاوض الإسرائيلي فقط وأن تضع حدًّا لازدواجية اليهودية الإسرائيلية واليهودية الصهيونية .. اليهودية الصهيونية لم تنته أطماعها في العالم العربي بعد .. وكم كان الموقف الفلسطيني قاصرًا عندما رضي بأن يحذف بعض الأمور من الميثاق الفلسطيني بغير أن يطالب بالمثل من الحكومة الإسـرائيلية بفـك ارتـباطها مع الصهيونية .. والآن مع وجود من يفكر فيما بعد الصهيونية من بين اليهود، ينبغي أن يقوى هذا التيار وأن يكون العرب الفلسطينيين فـي داخـل إسـرائيل جـزءًا من هذا الاتجاه وتقوية هذا المعسكر الذي يرى في المحصلة النهائية أن تصبح الدولة كما أرادها هرتسل "دولة اليهود" دولة ديمقراطية لبرالـية مـع أغلبية يهودية على نمط الدولة القومية الأوروبية. دولة حيادية بكل أجهـزتها أي أن تكون مثلاً وزارة التربية والتعليم حيادية.. فالنتيجة التي تخلص إلـيها روث جفيزون Ruth Gavison: "لا تستطيع إسرائيل أن تستمر لفترة طويلة كدولـة يهوديـة ديمقراطية إذا لم تأخذ على عاتقها مسؤولية تطوير هوية يهودية للعلمانيين الذين لا يؤيدون الطقوس اليهودية، ولتعزيز المركب الديمقراطي الإنساني في هوية اليهود المتدينين. والدولة اليهودية التي تقترحها روث جفيزون تشمل "دولة الـيهود" كما فهمها هرتسل وكذلك "دولة يهودية" وبهذا تصبح إسرائيل متميزة ولا يوجد مثيل لها في العالم. دولة ذات طابع ثقافي مدني يهودي.[18]

وتحاول روث جفيزون أن تجد معادلة تدمج فيها المصطلح والواقع والعدل حتى تتغلب على التوتر القائم بين اليهودية والديمقراطية. من ناحية القانون الدولي هناك شـرعية لقـيام دولة فيها الحق للشعب اليهودي لتقرير مصيره. والمعارضون لهذا الطـرح يقولون، ليس من الواضح أن يكون هناك حق تقرير المصير لشعب معين فـي أرض محددة إذا كان الثمن الذي سيدفعه آخرون والذين هم لا ينتسبون لذلك الشـعب نفسه ثمنًا باهظًا[19] (كحال الشعب الفلسطيني في هذه الحالة) والكل يعلم أن هـذا الشـرط ليس سهلاً بما يتعلق بالشعب اليهودي وكم كان الأمر أكثر صعوبة عـندما بدأت الحركة الصهيونية عملها، أو عند تصريح بلفور عام 1917 أو حتى عـند قـيام الدولة اليهودية أو قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة عام 1947" وتسـتمر جفيزون : "الكل يعرف أن اليهود كانوا أقلية صغيرة جدًّا بالنسبة للشعب الأصلي الذي كان يسكن البلاد، وهم الفلسطينيون"[20] وعلى الرغم من كل ذلك تبقى

نقطة الانطلاق عند جفيزون أن إسرائيل كدولة يهودية وديمقراطية هي منطقية من ناحية مصطلحها وشرعية من ناحية أخلاقية.

لقد انقسم الباحثون الاسرائيليون بين من يرى أنه لا سبيل لقيام دولة تكون يهودية وفي نفس الوقت تحب الإنسان ويتوفر فيها عنصر العدل والمساواة. وهناك من يذهب خطوة أخرى في هذا الاتجاه فلا يرى إمكانية قيام دولة يهودية دينية متنورة وعادلة وأيضًا ديمقراطية.[20]

وبعض الباحثين يقول بصعوبة قيام دولة يهودية (دينية) على حساب شعب آخر وتكون مقبولة على كثير من الأوساط العلمية السياسية، بأن تلتزم بالحياد المطلق بما يتعلق بتعريف مفهوم ومعيار الحسن، والثقافة والدين لمواطنيها وإلى جانب هذا الفهم للديمقراطية اللبرالية هناك تيار ديمقراطي لبرالي قوي يرى أن ليس هناك مصداقية لوجود "ديمقراطية لبرالية حيادية" وعلى الرغم من ذلك فكرة "الحيادية" تظل مركبًا أساسيًا ومركزيًا عند قسم كبير من الفكر الديمقراطي اللبرالي الغربي[21] والدولة بهذا المفهوم ليس لها معنى وظيفي غير خدمة ورفاهية مواطنيها بمقتضى مبدأ الاحترام والمساواة. ولهذا ليس للدولة موقف محدد من مواضيع: الدين واللغة والثقافة، وكم بالحري إذا كان مواطنوها لا ينتمون إلى ثقافة واحدة ودين واحد. ولهذا فإن الدولة الديمقراطية اللبرالية في مفهومها الحيادي، مضطرة وملزمة لخصخصة كل ميزة وكل هوية غير مدنية لمواطنيها .. وفي إسرائيل هناك بعض اللبراليين من يعتقدون أن مبدأ الخصخصة أو (الفصل) ضروري فيما يتعلق بالديانة اليهودية، ولكن ديمقراطية لبرالية حيادية كاملة تلزم خصخصة الهوية القومية اليهودية كذلك. وبناء على ذلك فإن جفيزون ترى أنه لا يمكن بكل المفاهيم لدولة يهودية أن تكون ديمقراطية لبرالية وحيادية.[22] وهذا هو النموذج الذي كان يرى فيه هرتسل "دولة اليهود"، دولة ذات غالبية يهودية، ومن الطبيعي كذلك أن تكون غالبية يهودية في جهاز الحكم وبين متخذي القرار، ودولة كهذه من غير الضروري من ناحية مبدئية أن تكون دول يهودية. ومن هذا الفهم ثار الجدل الساخن بين أحاد هعام وبين هرتسل في تعريف الدولة اليهودية. فقد نشر أحاد هعام نقدًا لاذعًا على صيغة "دولة اليهود"، وادعى أن هرتسل قد وصف دولة أوروبية لبرالية متنورة، والتي من غير المفهوم كيف يمكن أن تتميز بيهوديتها فيما عدا أن فيها أغلبية يهودية. ففي "دولة اليهود" لم يقل هرتسل بأي لغة يتكلمون؟ ولكنه كان لا يتوقع أن يتكلموا العبرية. في دولة هرتسل الحيادية تقضي أن يدعو اليهودي صديقه وجاره المسلم

ليشاركه في مناسباته الخاصة من غير تلك العقد التي قد تثور من جراء قيام "دولة يهودية" على أرضه (فلسطين).

العلاقات المتبادلة بين الدولة والمجتمع والفرد في الدولة اليهودية :

هـناك تأثير لفظي وثقافي على مفاهيم هذه المصطلحات، فالبلدان الغربية تميل إلـى جعل "الدولة" في مواجهة "المجتمع" والمجتمع في مواجهة "الفرد" بينما تجعل الـثقافة الصينية من هذه المصطلحات أقطابًا أو محاور، ولكن كل واحد منها يعتمد فـي وجوده على الآخر، ويندمج كذلك الواحد في الآخر. في المقابل فإن مصطلح "الدولة" في الثقافة الألمانية والفرنسية له فهم واضح ودور فعال في صياغة الأمور. أما في الأدبيات السياسية الإنجليزية والأمريكية فليس هناك مفهوم لمصطلح "الدولة" وفـي مكانه هناك مصطلح "نظام الحكم". وأما في إسرائيل فيكثرون من البحث في العـاب لفظية على منوال الأنجلو ـ أمريكية، حيث لا تعير كبير اهتمام لمصطلح "الدولة" وتضع هذه المركبات الثلاثة "الدولة" و"المجتمع" و"الفرد" الواحد في مواجهة الآخـر ويصـعب التجسير بينها. ومع ما لمصطلح "الدولة" في إسرائيل من أهمية خاصـة فينبغي أن تكون العلاقة بين هذه المركبات الثلاثة علاقة اندماج أكثر منها علاقة مواجهة[23] حتى تلائم احتياجات الشعب اليهودي مع أهداف الصهيونية ..

من أجل ذلك فأن فلسفة الدولة في المفهوم الإسرائيلي بحاجة أن تعبر وتستجيب لمشـاكل الفـرد والمجـتمع بالشكل الذي يتلائم مع أهداف الصهيونية، الصهيونية كأيديولوجـيا جماعية والتي تعمل في الأصل من أجل مصير الشعب اليهودي. ولا ينبغـي للفلسفة السياسية في إسرائيل أن تتطرف في تناول مشكلة الفرد والمجتمع بحيـث يصـبح الفرد هو محور كل شيء وبهذا تختزل وظيفة الدولة إلى مستوى ضيق جدًا.[24]

يميز برفسور درور بين الدولة "الضعيفة" التي لا تستطيع توجيه الفرد والمجتمع نحو مثل وقيم نموذجية، بل تخضع لإرادة المجتمع وتقتفي أثر الرأي العام، من أجل ذلـك تكثر هذه الدول من استطلاعات الرأي، كمصدر لسلطتها وشرعية قراراتها. مـن جهة أخرى نرى أن الدولة "القوية" هي التي تقود الفرد والمجتمع وتحاول أن تدخـل فـي إدراكه ومفاهيمه القيم التي تريد، وإسرائيل من هذا النوع. وعليه فإن الدولـة "القوية" هي التي تساعد على بلورة رأي عام، وفي حالة الدولة الإسرائيلية لكي تساعد على تحقيق مبادئ وأهداف الصهيونية".[25]

أهلية الشعب اليهودي لبناء دولة – منطق الدولة ،

مـن المعـروف أن الشعب اليهودي لم ينجح بإقامة دولة مستقلة لفترات طويلة مستمرة. ويرى درور أن هناك ثلاثة تفسيرات لهذه الظاهرة:[26]

1) دمج ما بين عامل الاتفاق والمصادفة وبين ظروف تاريخية خاصة والتي لا تـتكرر، فإن كان التاريخ لا يعيد نفسه ولا يكررها فليس هناك ما نتعلمه كثيرًا أو يمكن أن يفيدنا في الحالات الحاضرة والحوادث الواقعة.

2) وأمـا التفسـير الثانـي فهو جغرافي استراتيجي في أساسه، وبمقتضى هذا التفسير فإن المكان الجغرافي للدولة اليهودية لا يساعد شعبًا صغيرًا على المحافظة على استقلاله مدة طويلة أمام شعوب كبيرة لديها مطامع في المنطقة. هذه الفرضية تعـتمد علـى تحلـيلات تاريخية، وتفيد في فهم المشاكل الأساسية في فهم الأمن السياسي لدولة إسرائيل.

3) العامل الثالث يكمن في طبيعة وخصائص الشعب اليهودي نفسه. ويعتبر هو السـبب الرئيسـي إلـى جانب العوامل الخارجية التي ذكرناها، وهذا التفسير يثير سؤالين مهمين:

1- هل باستطاعتنا الوقوف على خصائص وميزات الشعب اليهودي في فترات تاريخـية سابقة والتي قد يكون من بينها خصائص تدل على غياب مؤهلات محددة لبناء دولة لدى اليهود؟

2- وهـل هـناك إمكانـية لفرضية تقول إن هذه الخصائص ما زال يحتفظ بها الشعب اليهودي وتعتبر معوقات تمنع قيامه ببناء الدول؟

هناك عدة فرضيات لتفسير طبيعة ومميزات الشعب اليهودي في المجال الثقافي والأدبي. وليس في مجال تركيبه الجيني. هذه الميزات والخصائص التي تعيق إقامة دولـة كالصراعات والحروب الداخلية بين طبقات وفئات الشعب اليهودي المختلفة. يـرى برفسور درور أن هناك خاصية واحدة يمتاز بها الشعب اليهودي عن غيره من الشعوب والتي لا تساعده على الاحتفاظ بالدولة لفترة طويلة. هذه الخاصية هي القـيم والأخلاق اليهودية التي تبني أعرافًا وقيمًا متفوقة ومقدمة في الحياة اليهودية على احتياجات بناء الدولة. هذه الخاصية التي يتحلى بها الشعب اليهودي هي التي حافظت على تماسكه عبر تاريخه الطويل ومنعته من أن يذوب وينصهر في غيره مـن الشـعوب، لمدة تزيد عن ألفي عام وهو في غربة وشتات. هذه الظاهرة تكاد تكون وحيدة في نوعها، وبينها وبين دواعي إقامة دولة في عالم الواقع يوجد توتـر

وتعارض يصل إلى حد التناقض".[27]

إن إقامـــة دولة في العالم الدنيوي يلزمه بالضرورة بناء ما يمكن أن نطلق عليه (مـــنطق الدولة) وبمقتضاه تكون مصلحة الدولة هي القيمة العليا في معاملاتها ولا تقـــيدها مـــبادئ أخلاقـــية عادية. في الدولة اليهودية لا تتم الأمور بهذا الشكل أو المـــنطق، إنما تتقدم القواعد الأخلاقية والقيمية على القضايا السياسية، وقد تبلورت هـــذه الظاهـــرة بشـــكل تنظيمـــي قوي، وكان تأثير العامل الأخلاقي على سلوك وتصرفات الحكومة واضحًا. فقوة النبي كانت فوق قوة السياسي وكذلك العلاقة بين الكهانـــة (أو المؤسسة الدينية) وبين المملكة. ولهذا نرى "أن التناقض بين الأخلاق الـــيهودية كعـــادات وأعراف وقيم عليا والتي تقف بحزم وبدرجة كافية ضد الحكام الذيـــن يحـــاولون توفـــير احتياجات بناء الدولة، وهذه من بين الأسباب التي تجعل الشعب اليهودي غير مؤهل لبناء دولة لفترات طويلة.

لكن التوراة تحدثنا أن الشعب اليهودي قد أدار ظهره لتعاليم أنبيائه مما أدى إلى غضب الرب على هذا الشعب واستباح حرمته وسبيه وتشتيته!!!!

"وهـــذا الذي جعل دولة إسرائيل (أخلاقياتها) تحظى بتقدير الكثيرين بتصرفاتها الأخلاقية وكذلك تتعرض للنقد الشديد من داخلها ومن الولايات المتحدة بالذات كلما تصرفت أو خرجت على ضوابط الأخلاق اليهودية، حتى وهي تمارس "كدولة" ما قـــد يمارســـه غيرها من الدول بشكل طبيعي. هذا النقد القيمي والأخلاقي يرى أن على إسرائيل أن تتصرف حسب قواعد وأسس أخلاقية كمبدأ وأساس بصورة قطعية بـــل وأحيانا مع إضافة : "أن دولة إسرائيل الغير أخلاقية لا تستطيع أن تستمر، أو أنها لا ينبغي أن تقوم أصلاً".[28]

ويـــبقى الســـؤال : هل على إسرائيل أن تعطي الأفضلية والأولوية لاحتياجات وجودها وللتمهيد لمبادئ الصهيونية على حساب المبدأ الأخلاقي؟

برفسور درور يقرر أن وجود إسرائيل واستمرارها وتحسين أوضاع الصهيونية هـــي بمـــثابة القـــيم العليا .. إن المنطق الصهيوني كقيمة عليا مفضل ومقدم على المـــبادئ الأخلاقـــية والتـــي هـــي بطبيعة الحال جزء من تقاليد الشعب اليهودي والصـــهيونية بشـــرط أن لا تقـــوم بعمل يمكن أن يوصف بالإجرامية. فالأفضلية والأولوية هي في قيام وتحسين أداء الدولة اليهودية والصهيونية. ولا ينبغي أن نقيم وزنًـــا لهؤلاء الذين يرون أن لا وجود للدولة اليهودية بغير العامل الأخلاقي، هذا وهـــم لا وجـــود لـــه في الواقع. وليس لنا خيار إلا أن نقف مع احتياجات الوجود

السياسي ونضعها في سلم أولوياتنا وفوق المبادئ الأخلاقية".[29] وعلى الرغم من أن بروفسور درور قد أوضح أنه يكتب من داخل الكيان الصهيوني، فهذا يعني أنه لا يملـك ملكـة النقد الذاتي وإلا فكيف يفسر وقوف الولايات المتحدة الأمريكية إلى جانب السياسة الإسرائيلية أكثر من وقوف بعض اليهود؟ كيف يفسر انسحاب الوفد الأمريكي من مؤتمر ديربن عندما حاول كل العالم باستثناء دول غرب أوروبا إدانة الصهيونية في ممارساتها العنصرية ؟ كيف يفسر موقف الإدارة الأمريكية وخاصة بوش (الابن) من الجرائم التي يرتكبها الجيش الإسرائيلي ضد الفلسطينيين؟ وكيف يفسر درور اعتبار دولة إسرائيل قيمة عليا وهو يريدها أداة صهيونية.؟

ويرى برفسور درور أن غير اليهود قد ضحوا أكثر بكثير مما ضحى اليهود من أجل دولهم وشعوبهم. ويعتمد على إحصائية لبرفسور باروخ كيمرليند حيث تكشف: أن تضـحيات الشـعب اليهودي من أجل قيام دولته كانت قليلة قياسًا مع تضحيات شعوب أخرى، فنسبة الذين سقطوا من اليهود قتلى من أجل قيام دولة إسرائيل منذ عـام 1947 هـو تقريـبًا 0.6% من مجموع متوسط السكان. ومقارنة مع ما فقدته فرنسـا، علـى سبيل المثال من أجل استعادة حريتها وسيادتها في الحرب العالمية الثانـية وحدها هو 7.7% من مجموع سكان فرنسا وقد بلغ نسبة من قتل في روسيا ويوغوسلافيا في الحرب العالمية الثانية وحدها هو 10% من مجموع السكان، بينما سـقط فـي الحرب الأهلية في الولايات المتحدة الأمريكية ما لا يقل عن 2% من مجموع السكان.[30]

ولهـذا يقترح درور خطوات في مجال الأمن القومي اليهودي، بل هو يرى أن على إسرائيل أن تكون وتبقى "دولة أمن" ويرى من أجل ذلك:

1) الحاجـة الملحة والضرورية لأنظمة طوارئ عسكرية في حالة وقوع أعمال عـنف فـي المؤخـرة المدنية أو في حالة تمرد عناصر معادية في داخل إسرائيل نفسها.

2) الاسـتزادة مـن جعل إسرائيل دولة أمن عن طريق اقتطاع نسبة كبيرة من الدخـل القومـي لقضـايا الأمن، وتقوية الخدمة الاحتياطية، والصبر على تحمل ضربات موجعة من الخسائر بالحروب وغيرها.

3) المشـاكل الـناجمة عن معايشة عرب ويهود في داخل الدولة، فكلما زادت الأعمال والمشاعر العدائية للدولة، يجب تقوية وسائل الردع.

4) إصابة قيم الدولة وتراكم الأمور الاجتماعية ، وكثرة الهزات النفسية العنيفـة

الغير مريحة من جراء الحروب وأعمال العنف وعمليات الاستنزاف الداخلية ينبغي أن تجابه بصلابة وحزم وردع مناسب.

5) العمـل بـيقظة من أجل التحكم بجمهور معاد، حتى وإن كان رد فعلها غير مـبال، ولكنها موجودة في مراحل مواجهة وعصيان وليست الانتفاضة الأخيرة إلا حالة من حالاتها.[31]

وإن واقـع الحـال لسياسة البطش والإرهاب التي تمارسها الدولة اليهودية وما فعلته في حروبها مع الفلسطينيين والعرب رد بليغ على ما ذكره برفسور درور من ميزات وخصائص الشعب اليهودي وسوف يأتي ردنا على كل ذلك بآيتين كريمتين من كتاب الله في المحصلة النهائية لهذا البحث.

وسـوف نـنقل باختصار عوامل ازدهار وانهيار الدولة الإسرائيلية كما يراها برفسـور يحازقيل درور في مقالة له نشرتها مجلة "اتجاهات جديدة" (والتي تعنى بالشؤون اليهودية والصهيونية) وذلك من منطلق ما لكتابات هذا العالم من تأثير في أوساط متخذي القرار في إسرائيل.[32]

إن أحد أعقد المواضيع في فهم التاريخ هي ظاهرة ازدهار الشعوب والحضارات وغـروبها، وقد حار في هذه القضية خيرة المفكرين والمؤرخين من أمثال: ادوارد جيـبون، أوسـكار شـفرنجلر، وآرنولد توينبي. وهي في الأصل مهمة لواصفي السياسـة الذيـن يخططـون لنسيج المستقبل، إن معرفة ذلك تعتبر شرطًا لإمكانية توجيه التاريخ من أجل زيادة عوامل الازدهار وتجنب عوامل الانحطاط والانهيار. مـن أجـل ذلك كان يرى توينبي ضرورة التفكير بالأمور الاستراتيجية، من بين هـؤلاء الذيـن لديهم القدرة العالية على التفكير والدراسة والبحث أن يبتعدوا عن الانشـغال فـي القضـايا الوقتـية الجارية وأن ينشغلوا في كل ما يمكن أن يبعث الانتعاش والازدهار في الأمة.[33]

يـرى درور أن كل دراسة أو بحث يتناول قضايا حاسمة ومصيرية لأمم يحتاج إلـى غطـاء من القيم الأساسية للمجتمع التي تشير إلى ما هو "سلبي" أو "إيجابي" والتي تعمل كالبوصلة في توجيه جريان التاريخ. ويضرب مثالاً على تلك التيارات والتوجهات التي ترغب في إبعاد الطابع اليهودي الصهيوني عن الدولة الإسرائيلية، هذا التوجه لمن يرفع شعار: "دولة كل مواطنيها" يعتبر انتعاشًا وازدهارًا ولكن من وجهة نظر يهودية صهيونية هو بمثابة انهيار وأفول للدولة اليهودية. ولهذا يحاول درور في هذا المقال أن يؤكد ويبرهن على أن شخصية الدولة كيهودية صهيونيـة،

وديمقراطية وتعددية هي حالة من الازدهار.

يضع درور صورة لما يمكن أن يحدث من ازدهار لإسرائيل في الخمسين سنة القادمة اعتمادًا على تحليل الظروف المنطقية (الإقليمية) والعالمية والتي قد تؤثر بشكل سلبي أو إيجابي على قوة أو ضعف الدولة اليهودية. واحتمال حصول ما يسميه "الانكسار التاريخي" إذا حصلت هجرة ملايين من يهود الولايات المتحدة الأمريكية. ولهذا يعدد سبعة عوامل مؤثرة محيطة وإقليمية، كما أنه يضع ثلاثة عشر مؤشرًا على ازدهار الدولة أو انحطاطها ويتناولها بالتحليل نقطة نقطة. والعوامل الخارجية هي:

1) العولمة Globality: هذا العامل له تأثير كبير في وضع قيود على الدول خاصة فيما يتعلق بالمسألة الاقتصادية، وكذلك في مجالات أخرى، من بينها البعد الثقافي. والعولمة هي التي تملي الخطة الاقتصادية التي على إسرائيل أن تتبناها. وانعكاساتها على المجتمع كاتساع الفجوة في الدخل بين فئات المجتمع، ووضع البطالة، هذا مع إمكانية الازدهار الاقتصادي بسبب قدراتها على الاندماج بالعولمة خاصة مع تفوقها العلمي والتقني والمعرفي. ويبقى أمر تطوير وتحسين قيمها كالعدل الاجتماعي وكيفية اجتهادها في هذا المجال ... كيف يمكن الانفتاح على ثقافة ما بعد الحداثة في ضوء العولمة وتأثير ذلك على تقوية طابع إسرائيل اليهودي الصهيوني.[34]

2) التحولات في مصطلحات البعد والتوسع: يرافق العولمة تغيير في مفاهيم البعد الجغرافي، والاتساع الذي تعمل به شبكة الانترنت. ولهذا تأثير كبير على إسرائيل وفي معظمها إيجابية، لأن مستقبل الاقتصاد الإسرائيلي غير مرتبط بالتجارة والتواصل مع الدول العربية، ولكن ينبغي أن لا ننسى إمكانية أن يكون للبعد والاتساع انعكاسات أمنية سلبية، لأن العدو يستطيع أن يؤثر عن بعد وبطرق متقدمة ومتطورة فيما يعرف بـ"حرب المعلومات".

3) التقدم نحو اقتصاد يقوم أساسًا على العلم والمعرفة وتقديم الخدمات في هذا المجال. وعليه تستطيع إسرائيل أن تعوض قلة مواردها الطبيعية عن طريق توفير موارد علمية، وتبقى خطورة ذلك تكمن في أن توفير الموارد العلمية تحتاج دائمًا إلى وفرة "المتفوقين جدًّا" وعليهم تتنافس الدول. الاقتصاد المعرفي يحتاج إلى عدد قليل من العمال نسبيًّا. والأمر الثالث أن الاقتصاد المعرفي يوسع الفجوة بين القلة التي تندمج بها والكثرة من الشعب التي لا يمكن لهذا الاقتصاد أن يستوعبها.

4) مـــا بعــد الحداثـــة وحالة القبيلة أو الأصولية: هناك تحد كبير وصعب أمام ازدهار إسرائيل كدولة يهودية ـــ صهيونية يتمثل في ثقافة ما بعد الحداثة حيث إنها تنتشـــر بسرعة في العالم المتقدم وكذلك في أوساط يهودية في إسرائيل، وأكثر ما يهمــنا أن نلفــت إلــيه الانتباه هو مبدأ "سيادة الشخصي" والذي يعتبر جوهر ثقافة العلمنة، والأهمية تنصب على الفرد وتحقيق ذاتيته كشخص. هذه الفلسفة قد غزت أوســاطًا فـــي إســـرائيل . هذا الفكر يشتمل على تناقض داخلي بما يتعلق بمسيرة إســـرائيل كدولة يهودية صهيونية. والميل لما بعد الحداثة تقترن به ظاهرة معاكسة للمــيل نحو مفهوم "القبيلة" ونحو "الأصولية" وهي غالبًا ما ترتبط بالتطرف القومي والعرقـــي، والاعتقاد بالمفاهيم الماضوية كرد فعل لخيبة الأمل النفسية من الحداثة، وهذا الوضع لم يسلم منه المجتمع اليهودي ولا المجتمعات الإسلامية.

5) شرق أوسط متطور ولكنه غير مستقر:

مســيرة الــتقدم لــن تــتوقف في دول الشرق الأوسط في المجالين الصناعي والاجتماعي وذلك بنسب متفاوتة بين دوله ، وسوف تنمو القدرة العسكرية، وسوف يســخن الصراع حول ماهية الإسلام، والانتماء الإسلامي في المجتمعات العربية، وكذلــك مشـــاكل التمدين والانتقال من حياة الريف والقرية إلى حياة المدينة . هذه الصـــراعات فـــي مـــثل هذه المجالات قد تسبب جمودًا للوضع من جهة وأزمات اجتماعـــية سياســـية خطيرة من جهة أخرى. ولهذا يرى برفسور درور أن الشرق الأوســـط لـــن يستقر في الفترة التي يبحث فيها (50 عامًا القادمة) وانعكاسات ذلك بأعمـــال عدوانية ضد إسرائيل، وحالة الحرب والسلام غير مستقرة، والانتقال من وضـــع إلـــى نقيضه يتم بسرعة ... هذا الوضع قد يعود بالفائدة على إسرائيل إذا اســـتطاعت أن تســـتغل ذلك عن طريق مساعدة دولة عربية تكون في وضع حرج فتجني من وراء ذلك فوائد كثيرة (وليس المثال الموريتاني والقطري ببعيد). ويرى برفسور درور أن ليس في ظاهرة الأصولية، بحد ذاتها، شيء سلبي، وهي ظاهرة حديـــثة كما يظهر من كتابات S.N.Eisenstadt في مؤلفه[35] (وهو محاضر كبير في علـــم الاجـــتماع السياسي) وسلبية الأصولية في رأي درور هو باستعمالها العنف والإرهاب في فرض آرائها ومعتقداتها على الآخرين.[36]

6) تغييرات في الاستراتيجية الجغرافية : (جيواستراتيجي)

هـــنالك من يرى أن العالم يخطو نحو سلام عالمي، وهناك آخرين يعتقدون أن مواجهـــات هـــنا وهناك لابد أن تحدث. وهناك من يرى أن العالم ينقسم إلى دول

تعيش باستقرار ورفاهية، وأخرى تعيش في فوضى .. هناك من يرى أن الولايات المتحدة الأمريكية ستستمر في كونها قوة عالمية مركزية مع وجود بعض مراكز القوى التي ستصبح ذات تأثير عالمي كغرب أوروبا والصين (درور 90).

وبما يتعلق بإسرائيل، عليها أن لا تسترخي وكأن العالم في المستقبل المنظور مقبل على مرحلة نهاية الحروب. وعلى إسرائيل أن تستمر في وضع المتحفز والمتوتر وتعمل على تجديد قيمها الصهيونية واليهودية، وأن تبقى يدها على المؤشر الأمني.

7) القفزة المعلوماتية والقيم الثقافية، هذا التحدي هل تستطيع أن تقدم إسرائيل ثقافة ومعلومات نوعية للإنسانية.

وفي مقابل هذه الأمور الخارجية يضع درور ثلاثة عشر وصية أو فرضية لمستقبل إسرائيل، وبتحليل برفسور درور أن مؤرخًا في المستقبل يكتب تاريخ إسرائيل فسوف يكتب صيغة من صيغتين:

الصيغة الأولى: للأسف الشديد فقد فشلت إسرائيل في تطوير كفاءاتها الفكرية وتحسين قواها السياسية المطلوبة لتدخل ناجح في الظروف التاريخية المعقدة التي أحاطت بها، لمنع انهيار وغروب الدولة اليهودية، مع العلم أن بالإمكان تفادي وقوع كارثة جديدة للشعب اليهودي .. من جهة أخرى قد يكتب المؤرخ في المستقبل صيغة ثانية تتحدث عن نجاح إسرائيل.

الفرضيات الثلاث عشرة :

1) المشكلة الديمغرافية :

* على الحكومة الإسرائيلية أن تتناول هذا الموضوع بكامل الجدية والخطورة وأن يبقى يحتل جدول أعمال الحكومة الداخلي.

* النظر إلى زيادة الهجرة كأمر مصيري واستراتيجية سياسية في مواجهة الخطر الديمغرافي بالإضافة إلى مفهومها القيمي.

* العمل على هجرة ما لا يقل عن مليون يهودي من بلاد الرفاه الاجتماعي حتى عام 2050 (القصد الإبقاء على الطابع الشكنازي للدولة في الصراع الديمغرافي الداخلي بين اليهود).

* منع أية هجرة عربية لإسرائيل بشكل قاطع وحازم.

* تقليل عدد العمال الأجانب بشكل ملحوظ خاصة الذين يسكنون بشكل دائم في إسرائيل.

* العمـل بشـكل جـذري علـى تهويد اليهود المشكوك في يهوديتهم من بين المهاجرين وكذلك تهويد أبناء العمال الأجانب والذين أصبحوا مقيمين دائمين بشرط أن لا يكونوا مسلمين (هذه هي رسالة اليهود الكونية؟).

* تحديـد وتقلـيل مخصصـات المساعدات الحكومية ودعمها للعائلات كثيرة الأولاد . لأن زيادة الولادة يقلل من نسبة اليهود من مجموع سكان الدولة.

* منح حق الانتخاب لليهود الإسرائيليين خارج الدولة (لتحييد الصوت العربي والتقليل من أهميته في تأثيره على صنع القرار في إسرائيل) (درور 104).

2) الهوية الذاتية والتمسك بالقيم[37] :

* إعادة بناء وتعليم "الوعي اليهودي" مع إضافة تعليم "اليهودية والصهيونية" في المدارس اليهودية بما يلائم الصغار في القرن الواحد والعشرين.

* ظهور القادة السياسيين بمظاهر التربية اليهودية والصهيونية.

* علـى البرامج التلفزيونية أن تهتم بشكل جدي بالهوية اليهودية وقيمة الدولة بكونها يهودية صهيونية.

* تنشيط وتشجيع كتابات طوباوية حول اليهودية والصهيونية لدولة إسرائيل.

* تشـجيع الإبداع والإنتاج التعددي بكل ما يتعلق بجوهر اليهودية والصهيونية ومفاهيمهما في القرن 21.

3) الاندمـاج بالشـعب الـيهودي (المقصود الشعب اليهودي خارج إسرائيل) : (درور 105).

* إدخال تعليم "الشعب اليهودي" لبرامج التعليم في المدارس الثانوية.

* استغلال وسائل الإعلام لنشر ثقافة أكثر يهودية.

* تأسيس "قرية الشعب اليهودي" في القدس.

* تحويل الوكالة اليهودية لأرض إسرائيل لوكالة الشعب اليهودي.

* إقامة لجنة الشعب اليهودي الاستشارية لجانب رئيس الحكومة، وكذلك لجانب الكنيست لتعطي توصيات في مواضيع يهودية (درور 105).

4) الهجرة إلى إسرائيل والهجرة المضادة : العمل على تكثيف الهجرة لإسرائيل مـن الـبلدان الغربية، حتى ولو أدى الأمر لمواجهة مع رؤساء الجاليات اليهودية (كذلك لتقوية وتعزيز العنصر الاشكنازي في الدولة).

5) الاستعداد للتضحية من أجل القيم الأصلية.

6) السلام والأمن :

* إقامة نظرية أمن جديدة.

* تقوية السياسة الموجهة لكل الدول الإسلامية.

* الاستعداد لانتهاز الفرص من خلال افتعال الأزمات بين الشعوب العربية والإسلامية (درور 105).

7) الأقليات: (درور 106)

* العمل على الوصول إلى المساواة في مستوى المعيشة المادية ولمنع تمييز اجتماعي.

* منح استقلال ثقافي للأقلية العربية .. مع المحافظة على أن تبقى الثقافة الأساسية لإسرائيل يهودية ــ صهيونية.

* مواجهة مع كل محاولة يمكن أن تقلل أو تنتقص من الطابع الأساسي للدولة كيهودية ــ صهيونية.

8) الثقافة والمجتمع : (درور 106)

* تشجيع الإنتاج الاجتماعي ويشمل على بعث وبناء الحركة الكيبوتسية من جديد ــ الروح الطلائعية، حركة التجمعات المجتمعية.

* رفع المستوى التعليمي والثقافي لكل المواطنين عن طريق بناء جهاز التعليم من جديد وأن نخطو نحو مجتمع يتعلم.

* الاستمرار في خدمة عسكرية إجبارية أو خدمة وطنية مع تعزيز دور هؤلاء في الاندماج في المجتمع.

* التفعيل الفوري "لمجلس الوحدة" والتي قررت الحكومة إقامته في المدة الأخيرة حسب توصية "لجنة القمة" وذلك بدعم ومساعدة الهيئات المدنية التي تعمل في تقديم هذا الموضوع كتنشيط "البوتقة" التي تصهر المجتمع الاسرائيلي.

* توسيع التعليم للكبار وتشغيلهم في أوقات فراغهم عن طريق برامج تثقيفية تصل إلى كل بيت في إسرائيل.

* تضييق الفجوة بين المركز والأطراف ــ بين المدينة والريف.

* وضع حد للفجوة في الدخل، بحيث ترفع الحد الأدنى للأجرة من جهة، ومن جهة أخرى فرض ضرائب عالية على أصحاب الدخل المرتفع.

9) العلوم والتكنولوجيا :

* وضع سياسة تعليمية وتقنية واضحة المعالم ولإقامة مراكز علمية جديدة.

* زيادة مخصصات دعم البحث العلمي والتطوير في مجالات كانت مهملة (مع العلـم أن إسرائيل تنفق على البحث العلمي من مجمل الدخل القومي العام ما يزيد عن 4.5% وهي أعلى نسبة في العالم).

* البحـث من جديد في سياسة الخصخصة بما يتعلق ببعض المؤسسات العلمية الخاصة.

* تحسـين وتطوير الأداء التعليمي في المدارس الحكومية ـ والحكومية الدينية عن طريق تحقيق توصيات لجنة "هراري".

* إدخال موضوعات علمية وتقنية في جهاز التعليم خارج التعليم الحكومي.

* إدخال مستجدات في مجال علم التقنيات في مكاتب الإعلام والأخبار كما هو الحال في B.B.C .

10) الاقتصاد ـ العمل ـ والموارد البشرية :

* زيادة الاستثمار في "المتفوقين" لاستغلال كامل القدرة الموجودة فيهم.

* التقلـيل مـن العمال الأجانب الموجودين بشكل دائم في إسرائيل واستبدالهم بإسرائيليين.

* تحسين حركة القوى العاملة بتوفير شبكة مواصلات مريحة.

* انـتهاج سياسـة صناعية مرنة عن طريق تشجيع مصانع توفر فرص عمل شرط أن تكون مربحة وذات فائدة اقتصادية في فترة زمنية معقولة.

11) توسع أفقي في البنية التحتية والبيئية:

* إقامة سلطة تخطيط في مكتب رئيس الحكومة، كما قد تقرر من قبل، شريطة أن يكون تخطيطًا بعيد المدى.

* الإسـراع بتنفيذ مبادئ جديدة في سياسة البناء مع توفير شروط حياة أفضل وتكثيف الإسكان والإسراع بعملية التمدين.

* خطة عملية لتطوير الجنوب (النقب) وتطوير مدينة بئر السبع بحيث تضاهي المدن الساحلية، واعتماد خطة لتسكين البدو.

* تخطـيط استراتيجي لمشاكل المجاري والمياه والطاقة والمحافظة على البيئة وتحسينها أمام مشاريع حيوية.

* تعزيز وتقوية وضع "أراضي الشعب اليهودي" وتمييزهم عن أراضي الدولة التي ينبغي توزيعها بالمساواة وعلى جميع المواطنين.

* العمــل على توفير قيم إنسانية في عمل إسرائيل في الهيئات الدولية، خاصة الأمم المتحدة وفتح قسم في وزارة الخارجية لتطوير رؤيا إنسانية شاملة وما تقدمه إسرائيل في هذا المجال (بيع شعارات أخلاقية ..!!).

* العمل على دخول إسرائيل إلى هيئات عالمية ما زالت بعيدة عنها حتى اليوم مثل: "المنظمة للعمل المشترك" والتطوير الاقتصادي العام في باريس.

* إقامة مركز مهمته، التركيز على ما يمكن أن تقدمه اليهودية من أجل تطوير القيم الإنسانية المستقبلية ويكون مقره القدس وتوفير وتجنيد أفضل المفكرين اليهود من الداخل ومن المهجر للعمل فيه (!!!؟)

* يجب التأكيد على تحسين العلاقات مع الاتحاد الأوروبي وحلف الناتو.

* انــتهاز الفرص ومنح أفضلية لتطوير العلاقات مع الدول الإسلامية (بغرض انتهاز الفرص المتاحة للوقيعة بينها).

12) نظام الحكم :

* دراســـة مجددة لأسلوب الحكم في إسرائيل، وإقامة لجنة شعبية فنية بتركيبة تبعث على الثقة فيها، لتدرس بناء نظام الحكم من جديد. البدائل تطرح للبحث على الجمهــور، مــع المحافظــة علــى المنطق الداخلي للبدائل، ولو عن طريق طرح الموضوع في انتخابات عامة.

* هــذه اللجنة تبحث في طريقة انتخاب رئيس الحكومة، مباشرة أو عن طريق البرلمان، الانتقال إلى انتخابات حكم رئاسي حسب النموذج الفرنسي، لإقامة محكمة دستورية وتغيير قواعد الانتخابات العامة لكي يختزل عدد الأحزاب.

* ســن وتشــريع القانون الاساسي لأسرائيل، فيه تكون إسرائيل دولة يهودية صــهيونية للشعب اليهودي، ودولة ديمقراطية لكل مواطنيها (شعارات دعائية لأنها تتعارض بشكل قاطع مع التوصيات والفرضيات الأولى).

* العمل على رفع مستوى فهم الجمهور لمشاكل نظام الحكم وفلسفة الدولة، لأن الــرأي العام المحلي المتفهم والواعي حيوي لتعزيز مفاهيم الديمقراطية عن طريق وسائل أعلام مهنية وجدية.

* نقلــة نوعــية جديدة في "تعليم المواطنة" في المدارس الثانوية وإقامة دروس ودورات لطلاب المعاهد العليا والجامعات تدرس التعددية في دولة اسرائيل.

* بــذل جهــود لتحســين أداء الطاقم السياسي، كإقامة: "كلية للعلوم السياسية القومية" لتأهيل متخذي القرار ويتلقى فيهــا السياسيــون استكمــالات تتلائــم مــع

شخصياتهم والأدوار المنوطة بهم.

ويختتم البرفسور درور توصياته هذه بذكره اجتماعًا على مستوى قومي لبحث أمور هامة فيقول: "اتيحت لي الفرصة حضور اجتماع لبحث موضوع قومي على درجة عالية من الاهمية، اشترك فيه أصحاب القرار السياسي الكبار، وقد تبلور جوهر مطلبهم على: "التوقف عن الكلام والبدء بالعمل" ومع معقولية هذا المطلب لأننا نتكلم أكثر مما نفعل، ولكن هناك حلقة مركزية مفقودة، وعندما سألت بهدوء: "وماذا عن التفكير؟ لقد كان السكوت والصمت هو الجواب ولكنه صمت في نفوس تغلي من شدة الغضب." (درور ص108).

ويرى درور أنه على الرغم من توفر بعض المفكرين لكن بحوثهم تنصب على القضايا الوقتية الجارية، وهو يحاول رسم سياسة مستقبلية بعيدة المدى.

وإن من يقرأ الخطاب اليهودي قراءة تحليلية متمهلة يرى:

1- القضية الديمغرافية بكلمة أخرى وجود الأقلية العربية الفلسطينية هي هاجس أمني ينام المفكرون السياسيون وصناع القرار ويصحون على ناقوسه، ولن يتورعوا عن اتباع سياسة غير إنسانية لتهجير هذه الأقلية ، بينما قادة هذه الأقلية يعيشون المزايدات التي لا تخدم غير مخططات السياسة الإسرائيلية تجاههم.

2- التشديد على جعل اليهودية والصهيونية أيديولوجية يعتنقها المجتمع الإسرائيلي وهذا معناه المزيد من الصراع مع العالم العربي، لأن الصهيونية لم تستكمل بعد أهدافها وتوسعها.

3- عدم إضاعة أية فرصة تمكنهم من إثارة الفتن بين الدول العربية والإسلامية والأقليات التي تسكن فيها سواء كانت طائفية أو عرقية.

4- التشديد على الإنتاج العلمي والتفوق المعرفي كمصادر ثروة يهودية.

هل بالإمكان ديمقراطية يهودية ؟

كيف يمكن الحديث عن "ديمقراطية يهودية" إذا كان اليهود أنفسهم لم يتفقوا حتى اليوم على تعريف واحد واضح لقضية "من هو اليهودي؟ إذا كان الأمر كذلك فكيف يستساغ طرح مثل هذه الاسئلة، أو الحديث عن ديمقراطية الدولة اليهودية. إن هناك قضية اليهودي المعلقة التي تنتظر إجابة واضحة وواحدة متفقًا عليها حتى بين اليهود أنفسهم. هل هو "شعب الله المختار"؟ ولأي أهداف اختير؟ هل هو نور البشرية وروحها؟ فلماذا تسكن ناحية واحدة من نواحي الأرض؟ وهذا التساؤل الذي

اعـــترض عليه كثير من المفكرين اليهود لكن العديد منهم، ممن يعتقدون أن لليهود رســـالة لـــم يرضــــوا أن يحتشدوا في بلد واحد فقط، كما يقول ذلك هريمان كوهن وغيره ، وما التمرين العقلي الذهني الذي طرحه برفسور درور إلا اعتقاد من هذا القبـــيل، ولكـــن علــــى اســـتحياء. لكننا نسأل لماذا الصهيوينة؟ ألا تتسع اليهودية كمصـــطلح ديني أو قومي لكل من يرى بنفسه أنه يهودي؟ لماذا هذا الإصرار على الصهيونية؟ لعل اليهودية تريد من مصطلح الصهيونية أن يتحمل كل أخطاء اليهود واقـــترافاتهم، من قتل وتدمير وإيذاء للشعوب، كما هو الحال مع الشعب الفلسطيني واللبنانـــي والعربـــي بشكل عام!!! فتمتص الصهيونية غضب الإنسانية، كما حدث عندما اعتبرت الأمم المتحدة الصهيونية حركة عنصرية في فترة من فترات صحوة الأمـــم المتحدة، مثل الصهيونية واليهودية في ذلك مثل الطائرة التي تطلق بالونات حرارية تجذب إليها القذيفة أو الصاروخ، لكي تنجو الطائرة.

تتحدث وثيقة إعلان الدولة اليهودية، أن للعرب مواطني الدولة الحق في العيش بســـلام مقابل أن تدمجهم في كل مؤسسات الدولة على قاعدة مقبولة من المساواة. وقد وفّى العرب بالشروط التي أرادتها الدولة هذه في غالبيتهم الساحقة، إلا ما كان مـــن أمر الأفراد والذي لا يخلو أي مجتمع من المجتمعات من ظواهر كهذه ، ومن ضمن هذه المجتمعات المجتمع اليهودي. فإذا كانت الأقلية العربية قد أوفت بالجزء الخاص بها في القيام بالمعادلة التي وضعتها الدولة بنفسها : السلام مقابل المساواة، لكـــن للأســـف فـــإن الدولة لم تف بشيء من تعهداتها.[38] الأفراد الجماعات البدائية المـــتخلفون، المتطرفون، المخربون الارهابيون يفون بتعهداتهم والتزاماتهم والدولة الديمقراطـــية الـــتعددية المستنيرة، ممثلة نور الأمم وروحها لم تستطع أن تفي ولو ببعض التزاماتها وتعهداتها؟!!!

علـــى مـــر الأيـــام، وخاصـــة في السنوات الثلاثين الأولى للدولة، كان العرب يـــنهمكون فـــي الانـــتخابات البرلمانية ويشاركون على قدم وساق ولكنهم ينتخبون أعضاء الكنيست المرتبطون بحزب العمل (مباي سابقًا) وهم (هؤلاء النواب العرب) كـــانوا أطـــوع للـــبرنامج الحكومي من أعضاء حزب العمل أنفسهم، وكانوا أكثر اهـــتمامًا بقضايا الحكم العسكري من الحكم العسكري نفسه .. وإذا استثنينا النواب الشـــيوعيين، فلـــم يكن للعرب، في الحقيقة ، ممثلين في الكنيست. ولكن مؤسسات الدولـــة مـــن وزراء وغيرها لم تستوعب موظفًا واحدًا من بين العرب، إلا هؤلاء "المستشارين" العرب المعينين بشكل شخصي من قبل بعض الوزراء. ونحن نربأ أن

نســمي هــؤلاء "المستشارين" ما هي وظيفتهم بالتحديد؟ يخدمون في كل شيء إلا الاستشارة، وكذلك في كل الشركات الاقتصادية، سواء كانت حكومية أو هستدروتية (نقابية) أو شركات خاصة لم تستوعب عربًا لا على المستوى المهني ولا الإداري. فــي كل اللجان الحكومية والجماهيرية على أشكالها ليس هناك أعضاء عرب، ليس هناك صحفي عربي يعمل في الصحافة العبرية ، بثقل الصحفي والمقال العربي في الصحافة العبرية قليل بل نادر .. علينا أن نستثني المستشفيات التي تستوعب أطباء عــربًا وممرضين، لكن التمثيل العربي في المستشفيات لا يرقى إلى درجة الإدارة فــي هذه المستشفيات أو أن يصبح الطبيب العربي، مهما كانت مهارته، إلى رئيس قسم. فوزارة العدل نفسها ليس فيها عربي واحد . ومن بين الألفين موظف حكومي التي تظهر اسماؤهم في سجل الحكومة السنوي ليس هناك عرب .[39]

وكل اللجان التي تقيمها الحكومة لوضع خطة لتحسين أوضاع العرب، لم تستطع أن تتقدم خطوة واحدة إلا أنها جميعًا تصل إلى قناعة، أن هناك تمييزًا ، هناك ظلم هناك اضطهاد ولكن حتى اليوم، عجز العقل اليهودي المبرمج والمخطط عن وضع خطة يحسن فيها أوضاع العرب .. فما زال 50% من السكان العرب يعيشون تحت خط الفقر، بينما في الوسط اليهودي لا يتجاوز 8%.

كــان الجــيل الذي أسس الدولة، يعطي للدولة القيمة العليا في كل شيء وعلى الــرغم مــن ان الدولة، بحد ذاتها ما هي إلا أداة لتقديم الخدمات لمواطنيها، ولكن رؤيــة الدولــة لزمن طويل كقيمة عليا واعتبارها فوق الجميع، كما ترى جفيزون خطورتهــا أنهــا لا تعنــي غير الفاشية.[40] هذا الفهم مغاير ومخالف لرأي برفسور درور فــي تقديــره للدولــة. والســؤال المطروح أمام الجيل الجديد من المفكرين والمؤرخين اليهود: هل على الجيل الثاني والثالث لقيام الدولة وجوب اعتبار الدولة قــيمة علــيا لذاتها، وتقف في سلم أولوياته؟ أم أن القيمة العليا ينبغي أن تنتقل إلى الإنســان إلــى المواطن؟ يرى هؤلاء أن مجرد انخفاض نفقات الدفاع ــ على أثر معــاهدات السلام مع بعض الدول العربية ــ وزيادة ميزانية التعليم تعني أن هناك توجهًــا جديدًا أمام الحكومات الإسرائيلية. في المقابل نرى برفسور درور وأرنون ســوفير وغــيرهم يعــتقدون أن علــى المجتمع اليهودي مسؤولية اعتبار الدولة والصــهيونية قيمة عليا في حياته، وينبغي أن تظل ميزانيات الدفاع كبيرة تستجيب للمتطلــبات المتغــيرة، واستمرار شعار الدولة قيمة عليا في حياة المجتمع اليهودي تعني أن الأقلية العربية ستبقى تعيش في دولة الشعب اليهودي.[41]

وتعلمــنا التجارب أن استقرار الدولة الديمقراطية مشروط في العلاقات المتبادلة بين مبدأين رئيسيين:

1) قوة الدولة من أجل فرض هيبة القانون والنظام.

2) نشر ثقافة مدنية مشتركة لكل مواطنيها.

والدولــة القويــة بحد ذاتها، ليست ضمانة لتحسين وتقديم ثقافة مدنية مشتركة، ولكــن فـــي المقابل فإن غياب ثقافة مدنية مشتركة لكل المواطنين يمكن أن يقوّض أسس الدولة من داخلها حتى مع كونها قوية (والنظام السوفييتي أكبر دليل).

ويمكــن اعتــبار برفســور سامي سموحة أقرب إلى منهج التقليديين في تناوله للمشكلة الاثنية، فهو يحاول أن يكرس الموديل القائم في إسرائيل من خلال نموذج يطلــق علــيه "الديمقراطــية الإثنية" وعلى الرغم من الإضافات التي أعطاها لبناء تركيــبة المجــتمعات الإثنــية، فهو يميز بين جماعات جغرافية متعددة بين هؤلاء أصــحاب الوطن (كحال الفلسطينيين) وبين الجماعات المهاجرة كما هو حاصل في الولايات المتحدة الأمريكية. وفي "الديمقراطية الإثنية" فإن ديمقراطية الأغلبية سوف تشــعر العرب كأقلية بالظلم والاضطهاد وبالنسبة للعرب فـ"ديمقراطية الأغلبية" لا تعنــي غــير دكتاتورية الأغلبية، وهي طبيعة المجتمع "ثنائي القومية". ولهذا يرى ســموحة أن على إسرائيل بناء موديل التصالح والمشاركة وهو النموذج الذي تبنته الحكومــات الإســرائيلية داخل قطاعات الشعب اليهودي: من المتدينين، الطائفية، العقائديــة والأيديولوجــيات المخــتلفة . وهــو مــا يراه كذلك برفسور آيزنشتاط Eisenstadt مــن قســم العلوم الاجتماعية في الجامعة العبرية (قسم علم الاجتماع السياســي). وفي كل النماذج والاقتراحات المعروضة، فإن الأقلية العربية ما زالت خــارج أنظمــة تقسيم القوى والموارد المالية، لأن العرب ما زالوا ضحية لسياسة "كوديــم كــول يهوديم" "اليهود أولاً" هذه السياسة التي تطورت حتى سيطر اليهود بشكــل واضح على كل موارد المجتمع الإسرائيلي.[42]

نموذج "التصالح والمشاركة" الذي تبنيه الحكومات الإسرائيلية على نطاق يهودي يهودي من الصعب تبنيه على المستوى اليهودي العربي، لأن العربي ما زال يعيش حــياة الــتجزئة والتبعية في كثير من المجالات. ويرى رؤوبين يفتح إيل (من قسم الجغرافيا في جامعة بن غوريون ــ بئر السبع) أن إسرائيل كمجتمع ثنائي القومية، والتــي تشتمل على جماعتين أصحاب وطن، هذا الوضع يمنع سيطرة عرقية لفترة طويلــة وإمكانــية استمرارها مع استقرار سياسي ونظام ديمقراطي، ويميل رؤبين

يفتح إيل إلى أن نموذج "التصالح والمشاركة" الذي يبدو له أكثر منطقيًا، لأنه يساعد على تجزئة القوى واستقلال ذاتي في مجال التربية والتعليم وعزل إقليمي معين بين العــرب واليهود تمنح إسرائيل كدولة وضعًا يعيش فيه العرب واليهود بسلام لفترة زمنية أطول".[43]

وعيب هذه النماذج أنها إنشائية، تصف ما هو قائم مع زيادات طفيفة في بعض أطــراف الــنموذج الممارس فعلاً وتلفيقه بمصطلحات أكاديمية، بينما في حقيقتها نمــاذج ممارســة أو إنشــائية خاوية من المضامين التي يمكن استنساخها ومن ثم تطبــيقها. الموديــل الإسرائيلي يمثل القدرة على حياة أو ممارسة ديمقراطية إثنية كــنموذج خــاص للديمقراطــية في المجتمعات المنقسمة وهي ديمقراطية الأغلبية واحــتواء الأقلية ليس بأساليب ديمقراطية أو حسب نموذج "المصالحة والمشاركة" وإنما بمقتضى أساليب السيطرة.

كما أن سامي سموحة لم ينكر أن في النموذج الذي يقترحه "الديمقراطية الإثنية" تســود فــيه جماعــات الأغلبية، وهي مؤسسة بحيث تحافظ على إدارة ديمقراطية وكنتــيجة لذلك هناك تناقض بين مبدأين في تنظيم الدولة: الصراع على شكل أفقي للجمهور (مثل اللغة، الرموز الوطنية كالعلم والنشيد والأعياد الرسمية للدولة) ومن جهــة أخرى على حقوق وواجبات الفرد، وعلى ماهية الحقوق الجماعية الممنوحة للأقلــية، وعلى انفتاح قطاع الإنتاج في الدولة أمام الأقلية. كيف يتم ذلك؟ وفي أي مجــال انفتح قطاع الإنتاج في الدولة أمام العرب؟ بل ليذكر لنا هؤلاء "الإنشائيين" مجالاً واحدًا من هذه المواضيع الإنشائية التي يغرقوننا بها؟ وقطاع "الإنتاج" أيضًا؟ كــيف ونحن سوق استهلاكية تسكن الأطراف والهوامش؟ في "الديمقراطية الإثنية" الأقلية مظلومة في كل المجالات، ولكن يرى سموحة فسحة أمل أمامها في إمكانية استغلال الوسائل الديمقراطية الموجودة تحت تصرفها من أجل النضال والمساومة للحصــول على شروط حياة أفضل، ويبقى العامل الحاسم يتمثل في كيفية استطاعة الأقلية الحصول على ظروف أفضل بالطرق الديمقراطية المقبولة على الأكثرية.[44]

عزمي بشارة والمجتمع المدني الإسرائيلي وتعدد الخطابات :

على الرغم من كل ما قيل حتى الآن، وما لم يقل فهو أكثر، فإن عضو الكنيست العربــي الدكــتور عزمــي بشــارة يرى أنه من الصعب تصنيف إسرائيل كدولة ابارتهــاتد أو "ديمقراطية السادة" لأن الديمقراطية الإسرائيلية ، في نظره ليست من

نصيب جماعة ديمغرافية واحدة فقط، ويؤكد، دكتور بشارة أن العرب ليسوا خارج دائــرة الديمقراطــية الإسرائيلية ، على الرغم من كونها ديمقراطية اليهود.[45] فمن الناحية الرسمية، يقول الدكتور عزمي بشارة : "يتمتع العرب بحقوق فردية متساوية مــع اليهود، أما عندما يتعلق الأمر بالحقوق القومية فإن هذه الديمقراطية تنظر إلى مواطنيها العرب كأعداء، كما حصل في عام 1976 ..."[46] يذكر د. عزمي بشارة أن تعبير سامي سموحة "ديمقراطية إثنية" كان مسبوقًا من قبل من كان يشغل عميد كلية الحقــوق في الجامعة العبرية في القدس برفسور كلود كلاين، والذي كان أول من طــرح حكمًــا ذاتــيًّا للأقلية الفلسطينية في إسرائيل، فإن المطالبة بالحكم الذاتي لم تصــدر بدايــة عن العرب، ولكن اقتراح كلاين لم يكن بدافع حصول العرب على المساواة، لكنه على العكس من ذلك جاء ليضع عائقًا أمام النضال العربي من أجل الحصــول علــى المساواة. واقتراح الحكم الذاتي بهذا المعنى، جاء من وجهة نظر صهيونية استراتيجية بعيدة النظرة، فالإدارة الذاتية ليست بديلاً لفكرة المساواة، كما يريدها دعاة الصهيونية ضمن مفهوم جديد لتعريف الدولة اليهودية ..

الحكــم الذاتــي بالمفهوم الصهيوني هو خطوة أولية في برنامج منهجي لتهجير الأقلية الفلسطينية، فالأقلية العربية التي تعيش تبعية واعتمادًا على الإنتاج اليهودي في كل شيء، فلا هي تملك عنصر الأرض الذي كان لها، وليس فيها أسس اقتصاد يمكــن أن يــنهض بمتطلبات الحكم الذاتي، إلا أن تحول قضيتنا إلى الأمم المتحدة وتقــيم "دولاً مانحــة" من جديد وتتبنى الجامعة العربية ودول الخليج العربي قضية دعمــنا اقتصاديًّا!!! .. ونحن نرى نموذج السلطة الفلسطينية أمامنا ماثلاً، "فلا دعم عربي ولا خليجي ولا يحزنون". وينبغي لنا نحن الأقلية العربية أن لا نكتفي بموقف "الكــيّس" الذي يتعلم من تجاربه هو نفسه، بل ينبغي أن نرتقي إلى وضع "الأكيس" الــذي يــتعلم من تجارب غيره. فإن وضع السلطة والشعب الفلسطيني فيما يسمى مناطق الحكم الذاتي تدمي قلوب الجبابرة، ولا ينبغي أن نقع في خطأ كهذا، بل على المســتوى الأخلاقــي والسياسي وفي كل الأعراف والمعايير فإن حقنا نحن الأقلية الفلســطينية هو في عنق الدولة اليهودية، ونحن سنبقى نطالب بحقنا أن نعيش فوق أرضنا بكرامة الإنسان، نعيش الظلم الإسرائيلي واضطهاد الحكومات الإسرائيلية لنا فوق أرضنا وفي أحضان وطننا أفضل لنا ألف مرة ومرة من أن تنحني قامتنا وهي تستجدي فتات أمراء الخليج، نحن بالذي نحصله من بين فكي الحكومات الإسرائيلية أغــنى ألــف مرة بالكرامة والشهامة والمروءة من أن نجثوا تحت أقدام تلك الدمى

التــي تــتحرك بمقتضى برمجة أمريكية .. لا يستوى وضعان: وضع من يصارع اســياد العــالم في نظامه الجديد ليحصل على حقوقه قائمًا، ووضع ذليل لا يعرف القامة المنتصبة عند خدم هذا النظام العالمي الجديد.

والدكتور عزمي بشارة يرغب لو أن هناك مجتمعًا ودولة إسرائيلية موجودة وأن تكون الإسرائيلية بديلة لليهودية والصهيونية حتى يكون في هذه "الإسرائيلية" مكاناً للأقلــية العربــية كطرف في تكوين معادلاتها، وهذا مطلب يقره الكثير من العرب وهو يجد له صدى بين المفكرين اليهود . ولهذا يلجأ عزمي بشارة إلي عروبته لأن الإســرائيلية التــي يريدها غير موجودة فضلاً عن أن تجعل له مكانا في داخلها. فالمجــتمع الإسرائيلي اليوم يمر بمخاض أشبه بالنقاش الحاد بين من يريد الانتماء للمجــتمع الإســرائيلي الأكــثر إسرائيلية وبين هؤلاء الذين ينادون بإسرائيل أكثر يهوديــة أكــثر صهيونية . هذا الاستقطاب في المجتمع الإسرائيلي لا يترك للعرب مجــالات كثــيرة للاختــيار ، ولهــذا يختار الدكتور عزمي بشارة الخيار العربي الفلســطيني في غياب الخيار الإسرائيلي الذي يقبل العربي في التركيبة الاجتماعية الإسرائيلية.

يقول عزمي بشارة أنا لست من مؤيدي سياسة الانتماء أو الهوية السياسية، ليس هــناك أبغض على قلبي من الانتماء لهوية سياسية، لأنه لا يقوم على قيم بل على انــتماء .. وبمــا أن الإنسان يعيش في جماعات ومفتاح التحديث للشعوب وكذلك للجماعــات في العالم الثالث هو القومية، كما كان وما زال الوضع في أوروبا ... حــتى ولو تنازلنا عن انتمائنا القومي فلن نصبح سويديين أو سويسريين. وبما أن الإسرائيليين لا يقترحون علينا إسرائيلية "مدنية" وبما أن الأقلية العربية كذلك تعيش علــى هــامش القومــية فــي العالم العربي، وذلك على هامش القومية (الوطنية) الفلسطينية، ومن غير بديل لهوية أكثر تطورًا وعالمية Universality، فلن يبقى لنا خــيار غير الانتماء الفلسطيني والعربي، لو أن مجتمعًا مدنيًا للأمة الإسرائيلية في الإمكان كما هو الحال مع الأمة الفرنسية لأصبح أمام الدكتور عزمي خيار مجتمع إســرائيلي مدني أما وقد فقد ذلك فلا أقل من أن ينتمي لهوية سياسية ولتكن القومية العربــية، حتى ولو كان هذا الانتماء لهوية سياسية بغيضة إلى قلبه، وضع كهذا لا يجعلنا نعيش الحداثة فضلاً عن أن نعيش عصر ما بعد الحداثة وإنما يرجعنا إلى ما قــبل الحداثة"[47]. ويرى د. عزمي بشارة أن ترتبط الأقلية العربية وأن تأخذ دورها في الصراع الداخلي في المجتمع اليهودي في قضية فصل الدين عن الدولة، وعــن

هذا الطريق ينتقل العرب من الهامش إلى المركز في العمل السياسي الإسرائيلي".

وهكـذا يبقى الموقف الشخصي للمفكر العربي والسياسي العربي يفضل الموقف القومي وهو المقدم على الهدف والمصلحة الجماعية سواء كانت وطنية أو قومية .. فالعلمانـي العربي يحالف الشيطان من أجل أن يكسب معركة العلمنة ضد الدين، ولـيس همّ بشارة فصل الدين عن الدولة في المجتمع والدولة اليهودية بقدر ما هو هـاجس التخلص من الدين في المجتمع العربي وبتعبير أصدق من الإسلام وتأثيره علـى المجتمع العربي. وكذلك الحال مع اليساري العربي، يخوض معارك اليسار لينتصر بدوره على جزئه الآخر بينما لو خضنا نضالاً من أجل مصالحنا العربية، فجعلـنا مصـلحة الأقلية العربية هي سقف نضالنا بدل أن نجعل العلمنة هي سقف نضالنا، العلمنة وغيرها هي بحاجة إلى وطن إلى مجتمع إلى هوية وطنية وقومية وإنسـانية تركن إليها ثم تطالب بتغيير تلك المفاهيم وتناضل من أجل ما تراه حقًا، أما أن تفعل ذلك وهي لا تملك شيئًا فهذه تسلية وهزل في تناول قضايا الأمة .. ثم هـناك يمين علماني يهودي متطرف ينادي صباح مساء بوجوب تهجيرنا، وهناك يسـار علمانـي يقـتل أطفالنا ويحرمنا من حقوقنا .. فكيف نخوض معهم نضالاً مشـتركاً ونسـتعدي علينا أعداء كثيرين لا لشيء إلا من أجل قضايا غيرنا .. فإن كانـت مصـلحة العلمانية فوق مصالح العروبة والأقلية العربية، فلنتمتع بقليل من الشـجاعة ونعلـنها .. أو كما سبق أن قلنا في أكثر من موضع في هذا البحث، إن مشـكلة العرب في تاريخهم الحديث، أن مصطلحاتهم وتعابيرهم تمارس الزنى عن طـريق حملها من المعاني ما ليس منها، نعلنها جمهورية ونمارسها ملكية، ونعلنها ديمقراطـية وتعدديـة ونمارسـها استبدادًا وحزبًا واحدًا، ونعلنها قومية ونحشوها بـالمواقف الشخصية الضيقة. لو رفعنا لواء قضايانا مجردة عن الهوى والنزوات الفـئوية والفردية وصبرنا في نضالنا لوقف إلى جانبنا بعض اليمين وبعض اليسار حتى وان كان من منطلق مصالحهم.

هـذا هـو الخطاب العربي ويتبعه الخطاب الإسلامي في الكثير من جوانبه منذ القـرن التاسـع عشـر وحتى اليوم، خطاب غير صادق وكذلك فهو غير جاد ولا مخلـص ويتضح من خطاب عزمي بشارة الأكاديمي العربي أن انتماءه القومي قد جاء لغياب البديل "الإسرائيلي المدني". أو الأكثر تطورًا "العالمي" Universal، فقد بدأ ماركسيًّا فلما اندثرت الماركسية، تحول إلى القومية العربية مرة بنسختها الناصرية ومرة بحلتها البعثية وأخرى بعباءتها القطرية، وأحيانا يريدها قومية عربية بفحوى

ماركسية .. ويظهر أنه لم يكلف نفسه عناء قراءة كتاب مؤسس حزب البعث السيد الأستاذ ميشيل عفلق "في سبيل البعث" ولا كتابات برفسور إدوارد سعيد وغيرهم، لقد كتب ميشيل عفلق : لقد درست القومية العربية فوجدتها في الإسلام، أو قول إدوارد سعيد : أنا عربي ولكني مسلم حضاريًا .. وإن كنت أعتقد اعتقادًا آخر، ثم تراه (عزمي بشاره) ينزع إلى نوع من الهوية "العالمية" تمامًا كما انتهى الأمر مع شبلي الشميل، وفرح أنطون في رؤيتهم "شيوعية الوطن". وهكذا يظهر أن المشروع النهضوي القومي "للتجمع الوطني" يعاني من مفاهيم متعارضة وخطابات متعددة الأوجه. فالوجه الأكاديمي الذي يخاطب فيه المجتمع الإسرائيلي وهو عضو في معهد "فان لير" ويتمنى لو أتيحت له فرصة لعضوية مجتمع مدني إسرائيلي وهذا ينسجم مع انتمائه للحزب الشيوعي سابقًا، وفي خطابه الأوسع، يتمنى لو كانت هناك هوية "عالمية" في حين أن خطابه الفلسطيني والعربي متعدد اللهجات أيضًا الفلسطينية والسورية والخليجية. ولهذا فليس انتماؤه للعروبة بقيمها التاريخية وتراثها الحضاري انتماء جديًا فاعلاً وتلقائيًا وإنما انتخابي وانتقائي لعدم توفر بديل آخر كما كتب في المصادر التي ذكرناها. وتعاطفه مع النماذج القومية بقدر محاربة هذه النماذج لرسالة الإسلام الحضارية.

ويظهر عدم جدية طرح د. عزمى بشارة والكثير من القوميين العرب من وصفه بأن السياسة الإسرائيلية التى طردت الشعب الفلسطينى من وطنه وصادرت أرضه وتمارس التمييز العنصرى بكل المجالات ضد الأقلية العربية أصحاب الأرض الأصليين وهل تفعل ذلك من قتل وسلب وتمييز فهى فى نظر عزمى بشارة تظل ديموقراطية ولا يمكن وصفها بدولة الأبادتهايد أو الحكم العنصرى أو " ديموقراطية السادة والعبيد . كل ممارسات إسرائيل تبقى فى نطاق المعقول الديمقراطى ولكن بمجرد رفع الحصانة البرلمانية عن السيد عزمى بشارة تثور ثائرته . وتصبح هذه أو ينبغى لها ان تصبح قضية الشعب الفلسطينى ، بل قضية العالم العربى ــ كما يظهر من البرامج التى تذاع فى الفضائيات العربية .. أن تقتل شعباً كاملاً تظل دولة ديموقراطية وليست أبادتهايد ولكن رفع الصحانة عن عزمى بشارة يجعل منها ابادتهايد ، يجعل منها دولة عنصرية إن هذا الخطاب القومى لا يصدر إلاّ عندما يصغر التاريخ .

الديمقراطية الإثنية في مقابل عيوب الديمقراطية الليبرالية :

علينا أن نميز بين "ديمقراطية إثنية" و"ديمقراطية السادة" التي تخلو من حقوق ديمقراطية للجماعات غير الحاكمة. وهذا نظام غير ديمقراطي متطرف، نادر وغير مستقر، وهو يعارض الأعراف الدولية والرأي العام العالمي .. ويرى برفسور سموحة أن الديمقراطية والسيطرة الإثنية عندما تستوعب ثم تفهم وكأنها مصطلحان موجودان على مستوى واحد، فهذا يعني أن هناك ما لا نهاية له من الملاحق والمتنوعات. وعلى سبيل المثال بعد حل القضية الفلسطينية يمكن أن تلغي كل القيود المفروضة على الأقلية العربية ويمكن استيعابهم في الجيش والاعتراف بهم كأقلية قومية (وليس إثنية فقط) والذي ينعم بمؤسسات مستقلة ذاتية، وتمشيًا مع مبادئ وطبيعة الديمقراطية الإثنية المعمول فيها في إسرائيل يمكن تحقيق بعض التسهيلات والمصالح على طريق المساواة، من غير أن يشعر اليهود أنهم مهددون، ويمكن ذلك بالاعتماد على أن الديمقراطية متجذرة في إسرائيل وكذلك السيطرة اليهودية في الدولة عميقة وقوية. وبهذه الثقة يمكن أن يصبح اليهود أكثر مرونة، وليمنحوا العرب تنازلات من غير أن يعرضوا طبيعة الدولة اليهودية الديمقراطية للخطر."[48]

ويضيف سموحة، أن الأقلية العربية تملك أحاسيس واقعية عن قوة اليهود الزائدة وتصميمهم الصارم أن لا خيار أمام العرب أفضل من أن يعيشوا كأقلية في إسرائيل. ولهذا يرى سموحة ان موديل "الديمقراطية الإثنية" يكشف ضعف الموقف الصهيوني والتي تتجنب التناقض الجوهري حتى على المستوى النظري والواقعي، بين طبيعة الدولة الديمقراطية وبين كونها يهودية وصهيونية، وهذا يضع تحديًا أيضًا أمام موقف ما بعد الصهيونية Post Zionism للدولة، وهذا الوضع يصبح أكثر حرجًا مع تقدم عملية السلام.[49]

وإذا كان سموحة يعرف الديمقراطية الليبرالية التي يكون فيها الانتماء العرقي هو موضوعًا شخصيًّا، والدولة لا تتدخل في الموضع الإثني، كما هو الحال في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تتكون أمة واحدة بهوية واحدة ولغة واحدة كذلك، والتي فيها الكل يذوب فيها (الدولة) مع المحافظة على ثقافة وعادات كل جماعة ولكن الجميع يتوحدون باللغة والرموز الوطنية الواحدة، من علم ونشيد وأعياد وطنية .... وغيرها. ثم يميّز بين هذه الديمقراطية الليبرالية وبين "الديمقراطية الإثنية" كدولة والتي فيها الدولة تكون أداة في يد جماعة إثنية واحدة تخدمها وتقدم

مصـــالحها. والديمقراطـــية الإثنية هي تسمية خاصة بالديمقراطية في المجتمعات المنقسمة، وهي تعرف كدولة ذات نظام يعترف بالحقوق السياسية والمدنية للأفراد، وحقـــوق جماعـــية للأقليات، ولكن ما يميزها أن واحدة من تلك الأقليات هي التي توجـــه وكذلـــك تســـيطر على الدولة .. يقول برفسور سموحة : في الديمقراطيات الإثنية تظلم الأقليات مع إمكان هذه الأقليات أن تستعمل وسائل الديمقراطية المتاحة والمـــتوفرة لديها لكي تناضل لنيل حقوقها كما هو حاصل في موديل: شمال أيرلندة مـــن 1922 وحـــتى 1972 ثم ماليزيا، اسطونيا، لاطفيا وكذلك إسرائيل . وإسرائيل تعـــرف بأنها ديمقراطية غير ليبرالية، لكونها دولة يهودية، والتي فيها لا يستطيع العرب واليهود الاندماج أو الانصهار في مجتمع واحد، وليس هناك فصل بين الدين والقومية، وهي دولة يهودية، لأن اللغة العبرية هي لغتها الرسمية، وأيام الراحة هي يهوديـــة والـــرموز الوطنية يهودية، وقانون "العودة" هذا يعطي الحق لليهود فقط، والقضاء يعطي الحق والأولوية لليهودية وللتراث اليهودي، ودولة الشعب اليهودي لأن لهـــا علاقـــة مع يهود المهجر وعلاقة مع الوكالة اليهودية، والصندوق القومي اليهودي وسياسة الأراضي، وقانون الكنيست، والتي يخولها أن تمنع حق المشاركة فـــي انـــتخابات الكنيست من كل حزب لا يعترف بكون إسرائيل هي دولة الشعب اليهودي.

ولكـــن برفســـور بنيامين نويبرغر لا يقبل تعريف سموحة للديمقراطية اللبرالية بيـــنما يعترف فريد زخاريا في مقاله المنشور بـــ Foreign affairs "ظهور وانتشار الديمقراطـــية غير اللبرالية" والديمقراطية اللبرالية هي التي تمارس انتخابات حرة ومعقولـــة، فـــيها ســـلطة القانون، نظام حكمها مقيد، والقوى السياسية لا مركزية، وهناك فصل بين السلطات، والحقوق الشخصية التي هي لب الديمقراطية وجوهرها مصانة.[50]

ويرى نوينبرغر، وهو يخالف الكثيرين، عندما يرى أنه ليس هناك من ضرورة للفصل بين الدولة والدين، لكي تسمى الدولة ديمقراطية ليبرالية، فليس هناك فصل بيـــن الدين والدولة في بريطانيا ولا في السويد، النرويج، فنلندة، الدنمارك، ألمانيا، النمســـا وبلجيكا وكلهم ديمقراطيات ليبرالية، وهناك علاقة بين الدين والقومية في اليونان وأيرلندة وإيطاليا، وفي رأي نوينبرغر هناك مفهوم واحد للديمقراطية، هي الديمقراطـــية الغربية اللبرالية والمعرفة بـــ"الديمقراطية القومية" ولكن هناك أنواع للديمقراطـــية اللبرالـــية مـــثل ديمقراطـــية رئاســـية، وديمقراطية برلمانية وكذلك

الديمقراطـــية الدستورية مثل سويسرا وبلجيكا، كندا، هولندة فهي أيضًا ديمقراطيات ليبرالية متوفرة كل الشروط المطلوبة المكونة للديمقراطية اللبرالية.[51]

فـــي موديـــل "الديمقراطية الاثنية" يتحفظ برفسور سموحة ويرى أن العرب لا يتمتعون بحقوق شخصية كاملة، أو يمكنهم الحصول عليها. إذا كان ما يقول سموحة صحيحًا يقول نوينبرغر فليس هناك ديمقراطية في إسرائيل وهي ديمقراطية ناقصة ويصر سامي سموحة على أن "طابع الديمقراطية الإسرائيلي الإثني" متنكر ليس فقط في انتقاص حقوق العرب كمواطنين عاديين بل في إمكانية حصولهم على المواطنة الجيدة أو الحصول على الاستحقاقات الملازمة لذلك.

ويـــرى نوينـــبرغر أن هناك نماذج كثيرة تعرف نفسها أنها ديمقراطية، ولكنها ليســـت ديمقراطـــية بالمعنى الكامل للكلمة: لا "الديمقراطية الإثنية" (التي يقترحها ســـموحة) ولا ديمقراطـــية إسلامية، ولا يهودية، ولا صهيونية كما يقترح يسرائيل الـــداد ولا ديمقراطية إفريقية، ولا شعبية ولا قومية، وفي أفضل أحوالها يمكن أن نطلق عليها: ديمقراطية جزئية أو ديمقراطية مع بعض العيوب.

يرى نوينبرغر أن هناك أربعة عيوب في الديمقراطية الإسرائيلية.[52]

1) غياب دستور ليبرالي، ووجود قانون طوارئ غير ليبرالي، كقانون الصحف مـــن زمن الانتداب البريطاني، وكذلك موضوع الحريات الشخصية ليس له غطاء دســـتوري، ولـــيس فـــي القوانين الأساسية ضمان لذلك ولا مجموعة قوانين دولة إسرائيل.

2) العيـــب الثاني في مجال الدين والدولة، وقانون الأحوال الشخصية، فمن غير المعقـــول أن لا يكون هناك أمل في زواج مدني، ولا يقبل في الديمقراطية اللبرالية أنـــواع زواج باطلة وغير شرعية، ولا يعقل في الديمقراطية اللبرالية وجود قوائم سوداء لمواطنين لمواقفهم السياسية، ولا يعقل أن لا يتساوى المجددون بالمحافظين. وهذه الأمور يمكن إصلاحها كما حدث في إيطاليا واليونان، وأسبانيا وأيرلندا.

3) التحكم والسيطرة الإسرائيلية على المناطق (الضفة والقطاع) الفلسطينية.

4) في موضوع الأقلية العربية، ينبغي التفريق بين العناصر التي يمكن أن تؤثر فـــي تغيـــير طابع الديمقراطية اللبرالية للدولة، وبين الأمور التي يمكن أن نعتبرها عيوبًا في هذه الديمقراطية .. ويوضح نوينبرغر الأمر فيعتبر أن ديمقراطية الدولة الـــيهودية ليســـت خروجًا على الموديل اللبرالي، كما أن هناك ديمقراطيات غربية تعـــرف كدولـــة قومـــية. ولهـــذا فلـــيس هناك من حرج في تسمية إسرائيل "دولة

ديمقراطــية يهوديــة" بشــرط أن لا يقصد باليهودية "دولة دينية". كيف يتم ذلك؟ والــيهودية فــي الأساس هي دين واكتسبت بعدًا قوميًا في العقود الأخيرة من غير إجمــاع في هذا الأمر أيضًا، فليس كل البيت اليهودي يقول بهذه المقولة. ولا يرى نويــبرغر انتقاصًا من ديمقراطية الدولة اليهودية وهي تسن قانون "العودة" لليهود فقط وتمنع هذا الحق عن الفلسطينيين الذين هجرتهم إسرائيل بالقوة .. وهذا ما يراه برفســور آساكشــر بما يتعلق بقانون "العودة" حيث يعتبره "تمييز مصحح" لصالح الشعب اليهودي.[53] وحتى العلاقة التي تربط الدولة مع يهود العالم ليس فيها خروج عــن الموديــل الديمقراطي اللبرالي .. هذه العيوب الكبيرة التي يعددها نوينبرغر هناك عيوب أقل منها أثرًا وينادي بتصليحها منها:

1- هــناك نقص في الديمقراطية الإسرائيلية فيما يخص الأراضي القومية التي يمــنع بــيعها للعربــي، ويحظر على العربي السكن بها، هذا العيب لا يقره العقل وينبغي إبطال هذا الحيف.

2- كمــا أن قانون تأسيس الكنيست بصيغته الموجودة والتي تمنع أي حزب أو حركة من المشاركة في العمل البرلماني إذا لم تعترف مسبقاً بأن إسرائيل هي دولة الشعب اليهودي، فيه إجحاف لا مبرر له وغير معقول.

3- في الماضي كانت تعطي الدولة مخصصات للذين أنهوا الخدمة العسكرية من الــيهود وكذلــك للذيــن لم يؤدوا الخدمة العسكرية من اليهود ولم يمنع منها غير العــرب. حــتى أبطلتها حكومة رابين ــ بيرس ولم يحدث أي خلل بذلك للنواحي الأمنية للدولة.

4- كما أن هناك عيبًا في الديمقراطية الإسرائيلية، ما بقيت الوكالة اليهودية تهتم بتسكين اليهود فقط.

5- وكذلــك التمييز في العمل ضد العرب وعدم استيعابهم في جهاز الدولة عيب ينبغي للديمقراطية الإسرائيلية التخلص منه.

6- وعلى الديمقراطية الإسرائيلية أن تصلح نفسها بإعطاء العرب إدارة ذاتية في شؤون التربية والتعليم وفي مجال الدين. والسماح لهم بإقامة جامعة عربية تسيطر على التعليم العربي .. وهذه أمور يمكن التغلب عليها ومعالجتها بشكل يرفع الحرج عن كون إسرائيل دولة ديمقراطية ليبرالية.

ويستثني نويبرغر الأمور الأمنية، كالعمل في المصانع الحربية، وعضوية لجان الأمن والخارجية في الكنيست، وكذلك الخدمة العسكرية .. إلخ وهذه أمور يمكن أن

تتغلب عليها الديمقراطية الإسرائيلية مع حلول السلام. وبهذا ينبغي تحقيق ما يمكن أن نطلــق عليه وحدة وتماسك الديمقراطية وتكاملها للأقلية العربية. وهذا لا يعني الاندمــاج في أمة واحدة، وليس هناك خلاف بين الانتجراتسيا Integration والحكم الذاتـــي .. وهـــذا بعيد عما يطلق عليه "الديمقراطية الإثنية" التي ينادي بها سامي سموحة.[54]

الأمة قبل الدولة :

هذا الشعار يلتقي عليه بعض كبار المفكرين اليهود مثل برفسور يحازقيل درور وسامي سموحة وأرنون سوفير وغيرهم وكما أن درور لا يطيق النموذج الأمريكي (دولـــة كـــل مواطنيها كنموذج الولايات المتحدة) فإن سامي سموحة يقول بصريح العـــبارة "إسرائيل ليست دولة غربية، وليست أمة غربية، وليست كذلك ديمقراطية غربية، إنما نظامها هو "يهودي ديمقراطي لا يشبه أي نظام ديمقراطي غربي ممن نعرف وهو يميز بين نوعين من الديمقراطية الغربية:

1) ديمقراطـــية ليبرالية كنموذج الولايات المتحدة الأمريكية التي تجعل المواطن وحقـــوق المواطن هي مثلها الأعلى ، وهناك لا تمنح حقوق لجماعات إثنية قومية، هـــناك أمـــة واحـــدة تقوم على المواطنة ومن الناحية النظرية كل المواطنين هناك سواســـية، في المجتمع الأمريكي يتم انصهار كبير بين الأقليات على الرغم من أن هناك أقليات تحافظ على هويتها الإثنية".[55]

2) والشكل الآخر للديمقراطية هو الدولة ثنائية القومية، كما هو الحال في بلجيكا وكندا، والدولة هنا لا تعترف فقط بالحقوق الشخصية وإنما تعترف أيضًا في حقوق الأقلـــيات الإثنية، وحقوق الجماعات، فلكل جماعة مؤسساتها الخاصة بها. والدولة تضـــع وتوفر الميزانية لهذه الجماعات الإثنية وكل منها يحافظ على هويته الخاصة وعلى مؤسساته المنفصلة.

ويـــرد برفســـور ســـموحة علـــى انـــتقادات نويبرغر حول عدم إمكانية وجود "ديمقراطـــية إثنية" (الموديل الذي يقترحه سموحة)، حيث يرى سموحة أن العيوب التي ذكرها نويبرغر في الديمقراطية الإسرائيلية كبيرة ومتسعة جدًا وكثيرة بحيث لا يصـــح أن نطلـــق علـــيها "ديمقراطية ليبرالية" مع وجود مثل هذه العيوب التي يذكـــرها نويـــبرغر، والفرق بين "الديمقراطية الإثنية" التي يقترحها سموحة وتلك اللبرالية التي يقترحها نويبرغر مع عيوبها يتمحور في وظيفة الدولة في "اللبرالية"

تشـــكل حقـــوق المواطن أساسها وجوهرها. وكذلك في الديمقراطية اللبرالية ثنائية القومـــية، فـــإن جهاز الدولة في كليهما حيادي في الصراع، وكذلك بالانقسام بين أغلبـــية وأقلـــية.. بينما في الديمقراطية الإثنية فإن الدولة ليست حيادية، هي جهاز سيطرة بأيدي الأغلبية وهذا فرق جوهري.[56]

دولـــة إسرائيل تعلن بوضوح أنها أداة في خدمة الصهيونية وتعمل على تحقيق أهدافها، من أجل تجميع المهاجرين ولصهرهم في مجتمع يهودي، ولإقامة دولة كل مؤسساتها يهودية، وقيمها يهودية .. في الديمقراطية اللبرالية هناك مساواة تامة بين المواطنيـــن. فـــي الديمقراطية الإثنية ليس هناك ادعاء كهذا ليس هناك مساواة بين المواطنيـــن هناك سيطرة الأغلبية Dominant هي التي تقر الميزانية ورموز الدولة وأعيادها الوطنية ومناسباتها وما إلى ذلك، وعلى الرغم مما ذكرناه، هذا الذي يفعله المـــثقفون الـــيهود فـــي دولـــة إسرائيل، هذا ما تفعله العلوم الاجتماعية، يظهرون ويعرضـــون إسرائيل كأنها نموذج ليبرالي غربي في كل شيء، ولكن الواقع يقول بأنكم مخطئون، فإسرائيل ليست ديمقراطية ليبرالية، ليس فيها زواج مدني، لا يمكن الاندماج بحرية تامة. الهوية اليهودية الدينية والهوية العربية الإسلامية هي هويات جوهرية، ليس هناك شعب إسرائيلي، ولم تقصد الصهيونية بحال من الأحوال إقامة شـــعب إسرائيلي في أرض إسرائيل (فلسطين) هناك شعب يهودي وأقلية فلسطينية والذي هو جزء من الشعب الفلسطيني والأمة العربية.[57]

دولة إسرائيل والصهيونية تعارضان نموذج الدولة ثنائية القومية، والذي بموجبه يعطي مساواة لأقليتين قوميتين، يهود وعرب، اليهود الذين يشكلون 84% من سكان الدولـــة يريدون لهذه الدولة أن تحقق نزعتهم القومية، تعطيهم الأفضلية والأولوية، ليس فقط كمهاجرين بمقتضى قانون "العودة" وإنما الأفضلية كذلك في الحياة اليومية للمواطن في "العلم والنشيد، الأعياد اللغة، التقويم السنوي وذكرى مناسبات إسرائيل كلهـــا يهوديـــة" وكما تقول السياسة الإسرائيلية في واقع الحال "كودم كول يهوديم" "اليهود أولاً" في كل شيء، في الجامعة وفي المستشفى وفي الخدمات الأخرى.

ويحـــاول ســـموحة حـــل الاشكالات التي تنتج من موديل "الديمقراطية الإثنية" إشـــكالية وجود مستوطنين، أصحاب حق الاقتراع مع كونهم لا يعيشون في حدود الســـيادة لدولـــة إســـرائيل، وكذلك تفسير القوة الهائلة والتأثير الكبير الذي يمارسه المتدينون على الدولة اليهودية. ولهذا لا يهم إن كنت تسكن خارج الخط الأخضر أم داخله، إن كنت تسكن نيويورك أم تل أبيب، لأن الدولة هي أداة في أيدي الأمة. في

الديمقراطـــية اللبرالية من العسير تفسير ذلك وعلاجه بينما في الديمقراطية الإثنية، فإن ذلك مفهوم ضمنا، في الديمقراطية الإثنية هناك مبدآن متعارضان: هناك حقوق مواطنة، حقوق سياسة ممنوحة لكل المواطنين من غير فرق ولكن في المقابل هناك مـــبدأ السيطرة (Dominant) وعندما تعلن إسرائيل أنها دولة غير ديمقراطية، فإن الـــتعارض بيـــن مـــبدأ حقـــوق المواطنة ومبدأ السيطرة.يزولان، ويصبح اليهود يحكمـــون، الـــيهود يعملـــون ما بدا لهم.[58] في الديمقراطية الإثنية، الأغلبية لا تثق بالأقلـــية، ولا يحـــق لهـــذه الأقلية أن تشارك في الحكومة من داخلها. وحين أعلن اليميـــن الإســـرائيلي أنـــه ليس لحكومة رابين شرعية لأنها تعتمد على دعم الأقلية وتفـــتقد الأغلبـــية الـــيهودية ، ومع أني لا أوافق على ذلك (القول لسموحة) إلا أن الجمهـــور العريض يشتري هذه السياسة، وعلى ذلك فعندما تكون الدولة قائمة من أجل الأكثرية وليس لدى الأكثرية أغلبية في قضية تاريخية مهمة (والمعنى أكثرية يهوديـــة) تثور إشكالية حول المصداقية والشرعية .. ومن أجل التغلب على الفجوة المتســـعة بيـــن الأقلية العربية والأكثرية اليهودية، يقترح سموحة على الديمقراطية الإثنية أن تكون "إثنية مستنيرة" تمييزًا لها عن الإثنية "الغير مستنيرة" هذه التزيينات اللفظية الإنشائية لا تحل إشكالاً ولا ترفع تمييزًا .. وما هو الفرق ديمقراطية إثنية مستنيرة أو غير مستنيرة وبين أي حكم مستبد أو طاغية.

ويـــرى ســـموحة أن ديمقراطية ليبرالية لا تعطي أولوية للأغلبية اليهودية، فإن الغالبـــية العظمـــى مـــن اليهود سوف لا تجد طعمًا للحياة في إسرائيل، لأن اليهود يـــريدون دولة يهودية ديمقراطية، وقد حصلوا على تصريح عالمي بذلك، تصريح بلفـــور منذ عام 1917، وقرار الأمم المتحدة عام 1947 بتقسيم فلسطين إلى دولتين يهوديـــة وفلسطينية .. واليهود مصرون على إقامة "ديمقراطية إثنية" ولديهم القوة للمحافظة عليها، وما دام العالم يعيش عصر القوميات، وعندما يتحول العالم ليعيش في عصر ما بعد القوميات تتغير عندها قواعد اللعبة .. لقد ذهب اليهود إلى أوسلو من أجل أن يعيشوا في دولة يهودية، وحتى يستطيعوا الفصل بين الشعبين وليعيشوا في دولة يهودية ديمقراطية. من أجل ذلك يتنازل الشعب اليهودي عن بعض أرضه الغالـــية جـــدًا فقط من أجل ان يحافظ على دولة يهودية ديمقراطية، أو كما أسماها سموحة: "ديمقراطية إثنية".[59]

مـــن خـــلال هـــذه الرحلة في الفكر اليهودي في تفسيره للديمقراطية ونماذجها وللأمـــور وأســـلوب علاجها، يظهر لنا جليًا أن ليس هناك فروق بين اليهود وغير

اليهود كما أكد ذلك برفسور درور ، وسواء اختلفنا معه أو عارضناه فيبقى أن هناك منطقًا يهوديًّا لا بد من أن يتعلمه الإنسان حتى ينفذ إلى جوهر تفكيرهم ويستوعب خطاباتهم .. فالأرض بهذا المنطق غالية على اليهود رخيصة عند غيرهم ..!!!! والحياة غالية عندهم وحياة الغير رخيصة في سوقهم.

الخطر الديمغرافي وخيار تهجير العرب :

سلوك الأقلية العربية في إسرائيل واستكانتها وعدم سلوكها طريق العنف للحصول على حقوقها المسلوبة منها في وطنها وعلى أرضها أثار اهتمام العديد ممن يهتمون بدراسة الظاهرة الإثنية. حتى بيّن إيان لوستيك في الجزء الثاني من القسم النظري سبب ذلك وحجم السيطرة الممارسة على هذه الأقلية بحيث ترصد كل حركة لها وتحصى عليها أنفاسها وتململها .. ومع ذلك تجد بعضًا أو كثيرًا من الدارسين اليهود يذهبون إلى أبعد مما تستطيع الأقلية العربية التفكير فيه، لقد أصبح الساسة الإسرائيليون ومفكروهم قلقين من الخطر الديموغرافي للأقلية العربية، باتوا يحلمون بصوت عال. وهذا الذي نكتبه بعض ما يهمسون به وما يحلمون به .. وقد سبق أن ذكرنا أن هناك منطقًا يهوديًّا.

يقول أرنون سوفير (من قسم الجغرافيا في جامعة حيفا، ونائب رئيس مركز أبحاث الأمن القومي) : المواجهة مع الأقلية العربية حاصلة وحتمية، وكل البهارات التي تقدم نموذجًا من المصالحة بين قيم الدولة الديمقراطية مع قيم الدولة اليهودية الصهيونية لا تفيد في الواقع .. كل النشاط الذي قامت به الأقلية العربية في الماضي والذي ستقوم به مستقبلاً يظهر بروز القومية العربية ويشير إلى بناء الجهاز القومي المستقل. وهذا النشاط ما هو إلا محاولات لإقامة علاقات خارجية منفصلة وذاتية، لإحياء الميراث الفلسطيني، إقامة مؤسسات حكم مستقلة: كلجنة المتابعة العليا وفروعها العديدة، الطلب بالاعتراف بكلية أم الفحم الإسلامية، إقامة دائرة معارف عربية منفصلة، وتأسيس محطة بث خاصة بالعرب ومن ثم إقامة جامعة عربية في شمال البلاد ... ويتابع برفسور سوفير قوله بأن العرب لن يستعملوا العنف في تحقيق كل هذا الذي ذكر وإنما عن طريق نشاط مستمر وجني ثماره بالتدريج مستغلين الديمقراطية لرعاية أهدافهم.[60] ويتوقع سوفير مع تقدم عملية السلام وتوقع الأقلية العربية أن تحل كل المشاكل التي تضايقها، وهذا سوف يخلق ردة فعل عنيفة في الجانب اليهودي وقد تحصل مواجهات بين العرب واليهود داخل

حـــدود الدولة اليهودية وقيام حركة ضد العرب ومن الممكن أن تتبلور بحزب ضد العرب بشكل واضح.

والخطـــر الديموغرافي العربي ارتفعت حرارته في أوساط المفكرين والدارسين ووصـــل الـــيوم بشكل سافر إلى الأوساط الرسمية فهذه لجنة الخارجية والأمن في الكنيست تعقد جلسة خاصة لتبحث أمر هذا الخطر والتقرير الذي قدمه لها برفسور أرنـــون ســـوفير مع طاقم مختص قدم توصياته، هذه التوصيات تدعو إلى ترحيل مئات الآلاف من الأقلية العربية الفلسطينية في إسرائيل للتخلص من 800 ألف مسلم عـــن طـــريق نقـــل كتل بشرية في المثلث ومنطقة القدس، ويستثني التقرير بشكل عنصـــري حيث يتحدث عن المسيحيين والدروز وهذه سياسة قديمة حديثة (سياسة الـــتجزئة) و"فـــرق تسد"حيث يوجد الآن 660 ألف مسلم وسوف يزداد في 15 سنة القادمـــة إلـــى مليون نسمة.[61] وهذا الطاقم الأمني برئاسة نائب رئيس مركز أبحاث الأمن القومي من جامعة حيفا، يوحي بشكل عنصري بتهجير العنصر الإسلامي من بين المواطنين العرب.

قضـــية التهجـــير، بل مؤامرة تهجير الأقلية الفلسطينية قد كانت الحافز المباشر وراء كتابة هذا البحث من يوم الانتفاضة الأول، أحسست بهذا الهاجس وكأنه ماثل أمامـــي ومـــن قبل ذلك منذ عام 1998 نبهت من ذلك الخطر في جلسة مع رئيس الحركة الإسلامية المستقيل الشيخ عبد الله درويش .. وقد ظن يومها أن ما يخيفني ما هو إلا أسلوب لحمله على سحب استقالته، ولكني كنت جادًّا يومها من أن المتأمل فـــيما يجـــري علـــى المستوى الإسرائيلي من تخطيط وبرمجة ورد الفعل العربي التلقائـــي والعفـــوي خاصـــة مـــن فئات تعيش على هامش الحدث ولا تتقن غير المزايدات. ولطالما استخدمها المخطط الإسرائيلي كجزء من برنامجه عند الحاجة. وكان جواب الشيخ يومها : لا تقلق نحن نعيش زمانًا لا يسمح بأن يقع ما تخاف .. قلـــت الأمـــر يقع حتى في المركز في أوروبا، يهجر الناس ويقتلون .. وهذا الذي حفزنـــي لأكتـــب لقادة هذه الأقلية ، ولكنهم لا يقرأون وإذا قرأوا قلما يفهمون وما يفهمو نادرًا ما يعونه ويعقلونه، وها نحن أمام ظاهرة تتكرر فلجنة الخارجية والأمن تســـتمع إلى طاقم مختص برئاسة برفسور أرنون سوفير وغيرهم ، وكلهم يبحثون الخطر الديموغرافي .. وهي سلسلة متصلة من مقترحات يغئال الون وروبنشطين وكينـــيغ في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، وحتى الكتابات الأكاديمية التي تبحث هذا الموضوع والى أرنون سوفير هذه الأيام.

وتحـت عـنوان "المـناعة والأمـن القومـي" بحثت لجنة من كبار السياسيين والعسـكريين الخطـر الديموغرافي العربي[62] وأوصت بترحيل الفلسطينيين (الأقلية العربية في إسرائيل) وبعد ذلك فقد أوصى ضابط عسكري كبير سابق في إسرائيل بقـيام نظـام طوارئ دكتاتوري لعدة سنوات لمواجهة الخطر الديموغرافي العربي الـذي اعتبره من أشد الأخطار على الدولة، ودعا أيضًا لاتخاذ قرارات بخصوص تحديد النسل.

وقـد جـاءت توصيات تلك النخبة السياسية والعسكرية مع توصيات ذلك القائد العسكري الكبير، جاء كل ذلك منسجمًا مع توصيات وردت في وثيقة صدرت عن مؤتمـر عقـد في هرتسليا مؤخرًا، حضرته شخصيات رئيسية، ذات دور أساسي بحجم نتنايا هو ــ رئيس الحكومة الإسرائيلية الأسبق عن الليكود (اليمين الإسرائيلي) ومن بين الحضور كان أيضًا باراك ــ رئيس الحكومة السابق وهو من يمثل اليسار وحـزب العمل. عقد هذا المؤتمر بدعوة وتحت رعاية "المركز المتعدد المجالات" وحمل عنوان "ميزان المناعة والأمن القومي ــ اتجاهات لسياسة عامة" بمبادرة من شخصـيات بـارزة في الأمن والأكاديميا، وتم تسليم تلك الوثيقة إلى رئيس الدولة كتسـاف كما كشفت عن ذلك صحيفة "هآرتس" الأسبوع الماضي. وتدعو توصيات المؤتمـر إلى رسم سبل مواجهة "تكاثر الفلسطينيين داخل إسرائيل" وإلى ضرورة اتـباع سياسـة ترانسـفير العرب بهدف الحفاظ على الهوية اليهودية للدولة. كما اشتملت التوصيات على عدم الاستثمار من جانب الدولة بهدف جسر الفجوات بين الفئات الغنية والضعيفة في المجتمع كما أوصت الدراسة باقتراحات عنصرية أخرى مـنها: اتباع سياسة تشجيع عائلات من 3 ــ 4 أولاد من خلال إلغاء معونات مالية تقـدم للعائلات كثيرة الأولاد. وكذلك دعت الدراسة إلى توزيع اليهود في المناطق "المثـيرة للمتاعـب" ديموغرافيًا خاصة في الجليل ومرج بن عامر والنقب، ولمنع تواصـل غالبـية عربية وكذلك دعت الدراسة إلى تبادل كتل سكانية بين إسرائيل والدولة الفلسطينية العتيدة، على أن يتم ضم كتل استيطانية إلى إسرائيل مقابل ضم كتل سكانية عربية إلى فلسطين.

إنهـا سياسة واحدة متصلة منذ سنوات ما قبل قيام الدولة اليهودية وحتى اليوم، إنهـا سياسـة العمل على جعل اليهود أكثرية من جهة وجعل العرب أقلية من جهة أخـرى. فهـذا بن غوريون قد عارض معارضة شديدة قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين وسماها كانتونات ، وعندما طلب إليه وايزمن الموافقة غضب بن غوريون

وقــدم استقالته من رئاسة الوكالة اليهودية. وظن أن الأمر ما هو إلا مؤامرة لمنع الــيهود من أن يصبحوا أكثرية في فلسطين، ويظهر أن في الموقف هذا تنافس مع وايزمــن على رئاسة الحركة الصهيونية، وقد رد وايزمن على منتقديه بقوله: "لقد اخــتار الصـــهيونيون قائدًا ليقودوه، لا ليقودهم".[63] وكان بن غوريون يعتبر إنشاء الدولة ما هو إلا وسيلة لا هدف بحد ذاته، وإن كان هدفًا مهمًّا لتحقيق باقي أهداف الصـــهيونية. ولم يعترف بن غوريون بحدود التقسيم إلا مرحليًّا، بل اعتبرها نقطة بداية ، إذ كما يقول: سوف نخترق هذه الحدود .. عندما ندعم وجودنا بهجرة كبيرة مــن اليهود وتقويتنا عسكريًّا واقتصاديًّا فإننا سوف نخلق القاعدة لاتفاق حر بشأن إلغاء القيود بين إسرائيل وبين الدول العربية .. وقد اعتبر بن غوريون قيام الدولة اليهودية على جزء من أرض فلسطين ما هو إلا رافعة قوية لرفع المساعي اليهودية التاريخــية لتحرير كامل فلسطين، ولن يحول شيء بيننا وبين الاستيطان في كافة فلسطين باي طريقة كانت.[64]

وإذا كانت التفاحة لا تسقط بعيدًا عن الشجرة، فإن القول العام الشائع بين اليهود عندما يغضبون من العرب يقولون: "العربي الجيد هو العربي الميت" (عربي طوب عربي ميت).

ملاحظات القسم الثالث

الدولة الإسرائيلية من منظور يهودي

1- هندسة الهوية في زمن السلام ــ أ. ب. يهوشواع ــ مقاله في فصلية "الكرمل" عدد 54 عام 1998 رام الله – فلسطين ص100.
2- المصدر السابق، ص100.
3- المصدر السابق، ص100.
4- المصدر السابق، ص101.
5- المصدر السابق، ص89.
6- المصدر السابق، ص90.
7- يحازقــيل درور برفسور في العلوم السياسي من الجامعة العبرية وهو متقاعد ولكنه ما زال فعالاً وله مؤلفات عديدة. وقد كتب أربعة كتب سماها "مذكرة لرئيس الحكومة الإسرائيلية في بناء الدولة والامة باللغة العبرية ــ الأكاديمون ــ الجامعة العبرية ــ القدس 1989 ص8،7. وقد شغل منصب مستشار الأمن القومي.
8- المصدر السابق، ص8.
9- المصدر السابق، ص8.
10- المصدر السابق، ص22.
11- المصدر السابق، ص22.
12- المصدر السابق، ص22-23.
13- المصدر السابق، ص23.
14- المصدر السابق، ص23.
15- المصدر السابق، ص23.
16- المصدر السابق، ص24.
17- المصدر السابق، ص25.
18- هشيسع هيهودي عربي بيسرائيل: المكتبة من أجل الديمقراطية ــ روث غافيزون. الانقسام العربي اليهودي في إسرائيل 2000، 307، 308.
19- المصدر السابق، ص291.
20- المصدر السابق، ص291.

21- المصدر السابق، ص292.
22- المصدر السابق، ص293.
23- يحازقيل درور، ص31.
24- المصدر السابق، ص31.
25- المصدر السابق، ص32.
26- المصدر السابق، ص36.
27- المصدر السابق، ص36.
28- المصدر السابق، ص38.
29- المصدر السابق، ص39.
30- المصدر السابق، ص41.
31- المصدر السابق، ص26.
32- يحازقيل درور هو برفسور متقاعد ولكنه ما زال يعتبر في الكادر الأكاديمي اميريطوس للعلوم السياسية وقد كتب مؤخرًا كتابه "تجديد الصهيونية"، وهو مؤلف أربعة كتب كمذكرة لمن سوف يشغلون منصب رئيس الحكومة تحت اسم: "حياكة مستقبل يهودي صهيوني لدولة اسرائيل"، وقد شغل منصب مستشار الأمن القومي.
33- كيفونيم حداشيم (اتجاهات جديدة – مجلة تعنى بالصهيونية واليهودية) أكتوبر 2000، ص 85.
34- المصدر السابق، ص87.
38-Fundamentalism, Sectarianism and Revolution Cambridge U.K.1999
36- الاتجاهات الجديدة، ص89.
37- المصدر السابق، ص104.
38- C. Klein, Israel as a nation state and the problem of the Arab minority in a search of a status, Tel-Aviv 1987, p.91
39- المصدر السابق، ص92.
40- هشيسع هيهودي عربي بيسرائيل – روت جفيزون وآخرون (قراءة في الانقسام اليهودي العربي في إسرائيل تحضير روت جفيزون – المعهد الإسرائيلي للديمقراطية، إسرائيل 2000 ص95.
41- المصدر السابق، ص96.
42- المصدر السابق، ص119.
43- المصدر السابق، رؤوبين يفتح إيل من قسم الجغرافيا في جامعة بن غوريون – بئر السبع، ص119.
44- المصدر السابق، ص190.
45- هشيسع هيهودي – عربي بيسرائيل، المكتبة من أجل الديمقراطية – روت جفيزون – إسرائيل ص40، 41.

46- عزمي بشارة، المصدر السابق، ص 41.
47- مديـناة يسـرئيل بيـن يهـدوت وديمقراطيا (دولة إسرائيل بين اليهودية والديمقراطية) ــ مجموعـة مقـالات ومقـابلات تحضير يوسي ديفيد، المكتبة من أجل الديمقراطية، إسرائيل 2000 ص326، 327.
48- المصدر السابق، ص329.
49- المصدر السابق، ص191.
50- إسرائيل بين اليهودية والديمقراطية – نويبرغر ص312.
51- المصدر السابق، ص313.
52- المصدر السابق، ص315.
53- المصدر السابق، ص314.
54- المصدر السابق، ص315.
55- المصدر السابق، ص319.
56- المصدر السابق، ص320.
57- المصدر السابق، ص320.
58- المصدر السابق، ص321.
59- المصدر السابق، ص324.
60- أرنون سوفير، المصدر السابق، ص150.
61- انظر "فصل المقال" العدد 250، 251 يوم 20-7-2001 والملحق يوم 27-7-2001 تحت عنوان "مخطط لترحيل مئات آلاف المواطنين العرب في المثلث" الناصرة أيلول 2001.
62- انظر "فصل المقال" الجمعة 30-3-2001 عدد 234 الصفحة الأولى – الناصرة.
63- صـبري جـريس : تاريخ الصهيونية 1862 – 1948 الجزء الثاني – مركز الأبحاث – منظمة التحرير الفلسطينية 1986، ص343. (ملحق لصفحة 167) .
64- المصدر السابق، ص344.

القسم الرابع

الأقلية العربية الفلسطينية في الدولة اليهودية والمستقبل المجهول

دراسة نقدية لتصرفات عفوية ارتجالية في مواجهة منهجية يهودية تقوم على تسييس المعرفة

المقدمة

لقد ضم القسم الأول كإطار نظري ثلاثة أقسام تحدثت فيها عن تعريف المصطلح كمبحث في علم السياسة أو فن إدارة الدول، وميزنا بين نظريتين رئيسيتين هما: النظرية الوضعية على أقسامها وتشعباتها وتفرعاتها والنظرية الربانية . وفي القسم الثاني تحدثنا عن أدبيات المشكلة الإثنية وتناولنا ما توصل إليه أكثر الذين تناولوا هذا الموضوع، عن علاقة المستعمر بالمستعمر، وخرجنا بما يشبه الاتفاق على أن العلاقة بين أجهزة الدولة الإسرائيلية وبين المواطنين العرب علاقة تقوم على مبدأ "السيطرة" بأبعادها الثلاث: التجزئة، التبعية، التعيين، وقمنا بتطبيق هذه المبادئ على العلاقة بين السلطات الإسرائيلية وبين الأقلية العربية الفلسطينية التي تعيش داخل الدولة اليهودية ومن خلال عرض أحد الدارسين اليهود الأمريكان هو إيان لوستيك ... ثم تناولنا بالقسم الثالث الدولة اليهودية من منظار يهودي كما يراها اليهود، هل هي دولة إسرائيلية بمجتمع إسرائيلي، هل تتصرف كتصرف الدول؟ أم أنها ما زالت تعيش الحالة والوضع الصهيوني؟ وتعرضنا بإسهاب لمفهوم الدولة اليهودية الديمقراطية والفرق بين "الديمقراطية الإثنية" و"الديمقراطية اللبرالية" وهل بالإمكان قيام ديمقراطية يهودية؟ ووقفنا على المشكلة الديمغرافية وخطورتها من وجهة نظر يهودية وطرق علاجها.

وأما في القسم الرابع* فنحاول عن طريق التقييم النقدي معرفة المعوقات الذاتية في التنمية الاجتماعية والسياسية والثقافية للأقلية العربية إلى جانب المعوقات الموضوعية الخارجية. وكنا ننتقل بالبحث من مستوى الماكرو العربي والإسلامي العام إلى حالات محددة في مستوى الميكرو كلجنة المتابعة العليا للجماهير العربية ، أهدافها الاستراتيجة وديناميكية حركتها وميكانيكيتها التي تكاد تكون شبه معطلة. وحاولنا تتبع السلبيات التي تعيشها القوى الفاعلة محليًا سواء في مستواها القومي

---

* فيضم القسم الرابع عن الأقلية العربية ولجنة المتابعة العربية في الكتاب الأول وأما في الكتاب الثاني فنتحدث عن معوقات وإشكاليات الخطاب القومي والخطاب الإسلامي ومع أن هناك وحدة موضوعية بين الكتابين، فقد تحدثت في هذه المقدمة عن الكتابين ربطا بينهما وقد أخرجتهما في كتابين الأول تحت عنوان: "المبني والمعرب في دنيا السياسة" وأما الكتاب الثاني فهو تحت عنوان "عندما يصغر التاريخ".

والوطني أو على صعيد الحركة الإسلامية .. والكتاب الثاني في معظمه كتب على شكل مقالات نشرت في صحيفة "الميثاق" الناطقة باسم الحركة الاسلامية. والمقالات كثيرًا ما كانت تتأثر بسخونة القضايا التي كانت تمر على هذه الألقية وعلى الشعب الفلسطيني بشكل عام. فجاءت التعابير فيها حية غاضبة تخاطب الحدث الماثل وتحاول ان تدفع الخطر الواقع، وقد رأيت ان انشرها بحيويتها وهي تصارع الأحداث حتى تكون أكثر تمثيلا وأصدق مقالة وأوضح بيانًا .. وبفضل الله فقد استطعت في العديد من الحالات أن أخرج من نطاق نفسي وذاتيتي الشخصية والجمعية لأرقب الحدث كما هو حتى يكون التصور ألصق بالحقيقة الموضوعية، فإن المرء لا يستطيع أن يفكر استراتيجيًّا من غير أن يتحرر من الواقع الذي يشده باتجاهات آنية وقتية تحاول أن تحجب عن بصيرة الباحث الرؤيا البعيدة الواضحة. والباحث إذا لم يستطع أن يتحرر وهو يبحث من ذاتيته بالقدر الذي يسمح له بالرؤيا الموضوعية، فلن تجيء دراسته دقيقة فضلاً عن أن تكون موضوعية.

وهذا البحث على سعته وشموله وكذلك خصوصيته جاء ليعالج في الأساس ثلاث فرضيات رئيسية وهذه الفرضيات متشابكة ولها تأثيرات متبادلة.

1- العقلية اليهودية ودورها في التلبيس على الفكر الإنساني ومحاولة قيادته واحتناكه. وهذه الفرضية كغيرها من الفرضيات في هذا الكتاب لا يستطيع الباحث أن يبرهنها برهنة ترقى إلى القطعي ولكنها أشبه بالإشارات الضوئية التي تشع في اتجاهات محددة.

2- المركزية الأوروبية في التاريخ الحديث ومحاولة تفريغها للعالم العربي والإسلامي من عناصر القوة والعمل على إبقائه ضعيفًا، كسوق استهلاكية غير منتجة.

3- قلة الصدق وندرة الإخلاص وعدم الجدية من قبل العرب والمسلمين في تناولهم لقضاياهم، مما يطرح السؤال التالي: لماذا بعد ما يزيد عن مائة وخمسين عامًا من نداءات الإصلاح لم تستطع أن تقوم الدولة الإسلامية القوية؟

ومن جهة أخرى لماذا بعد مائة وخمسين عامًا أو يزيد من بداية الطرح القومي، لماذا لم تقم الدولة القومية القوية؟

فمجموعة المقالات هي في الأساس نقدية: فواقعيًّا تتغذى من الحدث الذي يقصف الواقع بقوة ونظريًّا ترتكز على منطلقات معرفية يقينية .. وسخونة النقد من حرارة الحدث ومن مرارة الواقع. فإن جاء في نقدي ما هو قاس فحتى يستطيع أن

يوقــظ الــنائم ويستحضـــر الغائب، ولأن القضية أكبر من الأفراد، أيًا كان هؤلاء الأفراد؟

وهذا الكتاب يقع في أربعة أقسام متداخلة ومتشابكة تشابك الظروف والأوضاع التــي تعالجها، فيها نعالج لجنة المتابعة العليا لشؤون الأقلية العربية ثم من الماكرو إلى الميكرو فنعالج الطرح القومي وكذلك الطرح الإسلامي ومنه إلى حالات محددة ومنــتقاة، حتى يعلم القارئ أننا ننطلق من إشكالية تضغط بشدة على الأحداث التي تعيشـــها هذه الأقلية ، وتراهن على مستقبلها من خلال تصرفات بعض الشخصيات المتــنفذة والتــي بدل أن تعالج القضايا الكبيرة والمصيرية وتلقي عليها الأضواء، تحـــاول أن تجمـــع الأضواء حول ذاتها لتغذي شهوة الغرور ولذة العجب الكاذب. والطـــروحات القومـــية مفتتة على مساحة الأفراد الذين رزقوا فتنة التنظير الكاذب الذي ما صمد فيما مضى أمام التحديات ولن يصمد مستقبلاً ، ما ظل الذاتي ينتفش ولا سلطان لنا عليه إلا من خلال توضيح خطابه وكشف السراب الممتد أمامه حتى الأفــق، ونحن نفعل ذلك لأن ممارساته تطالنا وتنعكس على مجمل القضية العربية والإسلامية. ومقابل ذلك ينتصب الطرح الإسلامي، ونريد أن يرقى هذا الطرح إلى مســتوى القضية الإسلامية فكرًا وأخلاقًا وممارسة .. القضية الإسلامية بمفهومها الكونـــي الشـــامل، تشمل من بين ما تشمل الفكرة الإنسانية، والقضية الإنسانية هي بعـــض من الفكرة الإسلامية وهي عضو رئيسي فيها لا ينفك عنها، لأن الجسد لا يـــنفك عـــن بعضـــه .. فلهذا فإن القضية الإنسانية تحتل الحيز الكبير من اهتمام المسلمين. فكرة الإسلام هي الفكرة الكونية الجامعة والمسلمين هم جزء وبعض من هذه الإنسانية، والبعض يسعى لراحة الكل لأن السعادة الحقة لا تتحقق مع انتصار الجزء وتقدمه فحسب وإنما بارتقاء الكل.

وإذا كانت القومية العربية المتخيلة سواء سكنت الذاكرة أم المخيلة أم تشربت بها القلـــوب تنظر بحسرة ولوعة على ما أحدثه أبناؤها ولا تملك إلا ذرف دموع الألم والأســـى والحـــزن، فإن من ينظر إلى القضية الإسلامية هو الحي الباقي الذي لا يموت، وهو المهيمن القادر وهو الناقد البصير، فما علينا إلا أن نصدق ونخلص في قولـــنا وفي عملنا لعل الله ينظر إلينا ويبدل حالنا ويغير نفوسنا حتى يتغير ظرفنا وواقعنا.

وأمـــا الخلاصة والنتيجة التي يقود إليها هذا البحث فتتمحور حول رؤية جديدة تحاول أن تفهم وتفسر مقولات "الوظيفة المقدسة" لليهودية، و"نور الأمم" و"الشعـــب

المختار" و ... إلخ.

وأما خلاصة الكتاب الثاني فتشير إلى كيفية خروج العرب والمسلمين من مأزق الـــتردد والهامشـــية والــرؤى الضبابية، إلى حيث الوضوح الذي يساعد في تناول القضـــايا بصدق وأكثر جدية .. وصياغة الأهداف النهائية للأمة على ضوء دراسة الواقع وتحدياته.

الفصل الأول

الأقلية العربية نموذجا

مفهوم القيمة بين النسبي والمطلق :

إذا كانت السياسة هي مجموعة المفاهيم والقيم والضوابط والقواعد والعلاقات التي يسوس بها الناس أنفسهم .. وإذا كانت السياسة هي تلك الانعكاسات والإسقاطات التي ترافق العقيدة والأيديولوجية وتأثيرها على مجمل العلاقات بين الفرد والمجتمع والدولة، وبين المجتمع وفئاته المتعددة والمتنوعة .. وبين المجتمع والأنظمة التي تفرزها منظومة الأخلاقيات التي يمارسها الفرد والمجتمع في ظرفية معينة، ويندرج من ضمنها أسلوب تداول السلطة في هذه المجتمعات، والعلاقة كذلك بين الدول .. وإذا كان من بين مفهوم السياسة كذلك أسلوب علاج المشاكل والمستجدات في حياة الفرد والمجتمع والدولة، وكيفية إيجاد الحلول لها، إذا كان كل ذلك من المفهوم العام للسياسة فلنا أن نسأل: أين المبني وأين المعرب في هذا الموضوع؟

بمعنى آخر، ماذا عن الثابت والمتحول في حياة الناس؟ وهل الثوابت والمتغيرات التي تضبط سلوك الأفراد هي ذاتها التي تتحكم بخط سير المجتمع والأمة؟

هذه الإشكالات تضغط لتخرج مشكلة أخرى، وهي الإرادة، وهل هناك علاقة مباشرة في صياغة وتشكيل الإرادة الفردية من قبل الإرادة العامة؟ وهل هناك "إرادة عامة" حسب مصطلح كانت Kant أو أنها مجموع الإرادات (إرادة الكل) بلغة روسو؟ وهذا ينقلنا بدوره إلى إشكالية الخاص والعام، أو الذاتي والموضوعي، حتى نصل في النهاية إلى المصطلح القديم / المعاصر .. العولمة.

المبني أو الثابت: هل بناؤه أو ثباته نسبي أم مطلق؟ فإن قلنا إنه نسبي فهو متعلق بغيره فيصبح ثباته وبناؤه مشروط، فهو إذن لا يقوم بذاته تمييزًا له عن الثابت المطلق الذي يقوم بذاته ولذاته من غير شرط.

الإنسان كقيمة بين المطلق والنسبي :

لقــد عرّفــت الماركســـية الإنسان على أنه : "أغلى رأسمال في هذا العالم" وما عُــرف بالفلسفة "الإنسانية" وضعت الإنسان في مركزية يسجد له كل شيءٍ وتسبح بتقديســه الكائنات !! والدين قال عن هذا الإنسان[1]: ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في الــبر والبحر ... وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ (الإسراء 70) .. ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾ (البيّنة 7).[2]

وسواء كان الإنسان قيمة اقتصادية غالية حتى وان كان أغلى رأسمال يبقى قيمة متداولة في سوق العمل سواء كانت الأيدي التي تتداوله الرأسمالية البشعة أو الدولة فهــو يقــع في دائرة النسبي .. وكذلك نرى أن الإنسان في مفهوم الدين هو نسبي أيضًــا فقيمته متغيرة بتغير فكره وعمله. فإن صلح فكره وعمله فهو خير الكائنات وإن فســد فكره وعمله فهو شر هذه الكائنات وكما جاء في الأثر: "من غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم".

وإذا كان الإنسان قيمة بذاته، أي بما هو إنسان، فهو يندرج ضمن دائرة المطلق وعندها لا بد لنا أن نمسك بسلسلة من الأسئلة: أي إنسان نعني؟ القوي أو الضعيف؟ السادة أو العبيد؟ الغني أو الفقير؟ المتحضر أو البدائي؟ العالم أو الجاهل؟ المالك أو المحــروم؟ الظـــالم أو المظلـــوم؟ وبالتالي القاتل أو المقتول؟ الشمال أو الجنوب؟ الأوروبــي أو الأفريقي أو الأسيوي؟ وإذا قال قائل بأننا نعني "الإنسان" مجردًا عن أوضاعه وصفاته وظروفه، جاز لنا أن نسأل: في ميثاق الأمم المتحدة هناك مبادئ وقوانيــن عن حقوق الانسان، وحقوق الشعوب .. لماذا نلاحظ من خلال التجارب اليومــية أن قــيمة الــدم الأوروبي أو اليهودي أغلى بكثير من قيمة الدم الأفريقي والعربــي والإســلامي؟ لمـــاذا تحتل إسرائيل أراضي عربية منذ عام 1948 ضد المواثيق الدولية، وتصدر الأمم المتحدة قرارات إدانة ما يزيد عن نصف قرن، ولا تســتنفر أمــريكا وأوروبــا قواتهـــا لتعيد لقرارات الأمم المتحدة هيبتها وللشعوب المقهورة حقوقها؟ لماذا يعتبر الإنسان العربي الذي احتلت أرضه عدوانيًا وإرهابيًا، بينما المحتل يريد السلام؟ لماذا تحتل إسرائيل جنوب لبنان وتحتل بيروت عاصمة دولـــة عضـــو في الأمم المتحدة، ولا تستيقظ الشرعية الدولية وحقوق الإنسان من غفوتهـــا؟ وبعدهـــا تعتبر باحثة عن السلام .. وإذا قام اللبنانيون بتحرير أراضيهم بمقتضـــى ميـــثاق الأمم المتحدة يصنفهم القاموس "الإنساني" الأوروبي والأمريكي

إرهابين؟!! لماذاعندما يحتل العراق الكويت، وهو يعتبرها تاريخيًا وجغرافيًا جزءًا من أرضه تُساق الأمم المتحدة تحت وقع السوط الأمريكي وغلظته فورًا لتحشد قواتها وتجيش الجيوش الجرارة من دول العالم، لتضرب العراق بكل بربرية؟ ولا تترك أمام العراقيين فرصة من الوقت لمراجعة أنفسهم والانسحاب من الكويت؟ لماذا تسقط أمريكا طائرة الحجاج الإيرانية؟ وتفعل كذلك إسرائيل بطائرة ليبية مدنية، وتسقط أمريكا طائرة مصرية مدنية .. ولا إرهاب ولا يحزنون ..؟ ولا محاكم لمجرمي الحرب الأمريكان؟ ولا حقوق إنسان، ولا شرعية دولية .. الكل غائب أو مغيّب. لم يبق هناك غير معنى واحد لمفاهيم "الفلسفة الإنسانية" تتعلق بمن يكون هذا الإنسان، إن كان أوروبيًا، صاحب الوجه الطويل، أو أمريكيا فقيمته مطلقة، وإن كان غير ذلك فهو لا يساوي أكثر من حفنة التراب التي سيرجع إليها.!! ومن هنا يتضح أن قيمة الإنسان ليست مطلقة .. كيف يمكن لذات أن يستبد بعضها ببعض؟ كيف يمكن أن يضحى بهذه القيمة المطلقة على مذبح العامل الاقتصادي أو السياسي أو الديني، أو أي أمر آخر؟

وإذا كان الأمر كذلك وهو كذلك، فإن قيمة الإنسان نسبية سواء كان قيمة "اقتصادية" أو "قيمة أوروبية من ذوي الوجوه الطويلة" أو كانت قيمة "فكرية وعلمية" تظل نسبية يعتريها التغيير ويلحقها الإعراب بمقتضى موقعها من الجملة.!! وهي ليست مطلقة، لأن المطلق لا يلحقه التغيير أو التحوير، فهو ليس ناقصًا فيحتاج إلى زيادة ليحصل له الكمال، والمطلق لا تبدله الظروف، حيث لا تحده الظروف، فهو مطلق بعلمه، مطلق بإرادته، مطلق بإحاطته وكماله .. والإنسان ليس كذلك فهو نسبي في كل شيء .. ويظل نسبيًا حتى والخالق يسجد له الملائكة ... هذا الإنسان بأي أبعاد يقوم؟ أببعده الترابي فقط؟ أم ببعديه: المادي والروحي؟ ونحن الآن لا نسأل عن الصحيح والخطأ في ذلك؟ فالموضوع له مكان آخر ... ولكننا نبقى أمام نتيجة واحدة تؤكد امتناع كون الإنسان مطلقًا، أي ثابتًا مبنيًا لا يتحول ولا يتغير، ولكنه قيمة نسبية معربة في بعضها ومبنية في جانب منها، وبمقتضى حالته الظرفية .. فالإنسان في مضمونه ومحتواه يتألف من قيم: خلقية ومعرفية .. وهذه القيم بعضها معرب وبعضها مبني الا في حالات استثنائية.

وما يلزم أن نخلص إليه: هو أن الذات الإنسانية قيمة نسبية تختلف وتتفاوت من شخص لآخر ومن مجتمع لآخر .. وهو ذات حدود، وأهم هذه الحدود هي: مضامينها من مفاهيم وقيم معرفية وأخلاقية .. والذات تسلك وتتصرف بمقتضى

محـــتواها العقائدي والقيمي والثقافي .. فالفاشية والنازية تصرفت بمقتضى فكرها وفلســفتها القومــية العنصرية، فخرجت على الناس على شكل وحش يعيث فسادًا وتقتيلاً .. والديمقراطيات الغربية متمثلة بالولايات المتحدة الأمريكية أشد بشاعة من الـــنازية وأكثر وحشية، وتتمثل بشاعة وحشيتها في محاولة فرض ثقافتها وأسلوب حياتها على الضعفاء من حولها . وتتمثل هذه الوحشية كذلك في غياب منطق الحق والعدل في علاقتها مع غيرها، وممارسة دوسها على حقوق الشعوب خاصة العربية والإســـلامية، وحقــوق الشــعب الفلسطيني حالة صارخة لهذا الظلم .. إن سياسة الولايات المتحدة، سياسة غطرسة تدعو إلى الاشمئزاز والنفور من مثل هذه الإنماط "الإنسانية" .. إن على الشعوب المستضعفة واجبًا إعلاميًّا من الدرجة الأولى يقتضي التمرد على مفاهيم ومضامين المصطلح السياسي الأوروبي والأمريكي .. المفهوم العنصـــري للإنسان، "حقوق الإنسان"، و"الشرعية الدولية" و"حق تقرير المصير". هـــذه مصـــطلحات محشوة بمفاهيم عنصرية تظهر على شكل ممارسات في طول العالم وعرضه.

ولهـــذا فإن قيمة الإنسان ومعياره بمحتواه ومضمونه القيمي .. فإن كان محتواه يقـــوم على مبادئ: الصدق، الإخلاص، والأمانة، والتضحية، والشجاعة، والكرم، والـــبذل والعطـــاء، فهذه قيم صحيحة وثابتة لا يعتريها التبديل ولا التحوير إلا في ظروف استثنائية قليلة، ومثال ذلك: الصدق فضيلة وقيمة ذاتية ثابتة مبنية لا يلحقها التغيـــير مهمـــا تبدلـــت الظـــروف والأحـــوال، إلا كما ذكرنا في بعض الحالات الاستثنائية، وكذلك الكذب فهو رذيلة، وهو قيمة ذاتية سلبية منذ الأزل وحتى نهاية الـــزمان إلا فـــي حالات قليلة ونادرة .. كأن يموّه الإنسان على عدوه ويكذب عليه فـــيما يحفـــظ علـــيه حـــياته ولا كشف عورات بلاده أمامه، أو أن يكشف خططها وبرامجها .. وما إلى ذلك .. وكذلك في حالة إصلاح ذات البين بين المتخاصمين، فـــيكون عدم الصدق في نقل أقوال المتخاصمين من أجل فضيلة أكبر وهي الصلح والتســـامح والتقدير المتبادل .. مثل ذلك كمثل النظام الديمقراطي عندما يستعاض عـــنه فـــي ظـــروف الحـــرب الاستثنائية واستبداله بقانون الطوارئ الذي يحد من الحريات العامة والشخصية.

وخلاصـــة القول، أن الأطر التنظيمية على اختلافها وتنوعها وتفاوتها خاضعة لقـــانون التغيـــير وتقـــع ضـــمن دائـــرة المعرب من الأفعال .. وتبقى المضامين والمحتويات لهذه الأطر هي الإشكالية التي يصعب التمييز فيها بين المبني والمعرب

والحـــالات الاستثنائية لكل حالة من هذه الحالات .. وإذا استعملنا مصطلح "القيمة" مكـــان لفظ المحتوى والمضمون، فيصبح لدينا قيم متنوعة فهناك "القيمة الأخلاقية" و"القيمة المعرفية" و"القيمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية" ويمكن أن نقول بأن "القـــيمة الأخلاقية" هي قيمة تتداخل في باقي القيم .. فما هي القيم المبنية والمعربة من بين هذه القيم؟

ومن يتدبر المعاني المركبة في هذه القيم يستطيع أن يميز بوضوح وجلاء المبني مـــن المعـــرب من بين هذه القيم، والتي بمجموعها تؤلف القيمة الإنسانية .. لكننا نلاحظ أن قيمة "المعرفة" تتبدل بمقتضى التطور العلمي وتحول المعطيات العلمية، فهـــي خاضعة للابتكار والإبداع والاجتهاد الظرفي للإنسان .. وكذلك نرى القيمة السياســـية والاقتصـــادية التـــي تخضع وتتأثر سلبًا وإيجابًا بميزان القوى الظرفي، والقـــوى هنا تشمل حالات عديدة: فالموارد الطبيعية قوة، والتطور العلمي ودرجته قـــوة، والتكتل السياسي قوة، والثروة قوة، والبعد الجغرافي قوة ... إلى غير ذلك . وهذه الحالات تؤثر في بعضها البعض بشكل إيجابي أو سلبي .. فتخرج بناء على ذلـــك حالة اجتماعية متماسكة أو متفككة .. لأن المتعلق بمتغير متغير فهو بالتالي يلحقـــه الإعراب بحسب موقعه من هذه المتغيرات، وإذا جاز لنا استعمال الأسلوب المجـــازي قلنا: بمقتضى موقعها من الجملة .. وإذا سلمنا بوجود ما هو مطلق في هذا العالم، فإن ما يستند إلى هذا المطلق فهو المبني، وبناء على ذلك فإن قيم: الحق والعـــدل والصدق والإخلاص والرحمة والتسامح والسخاء هي قيم صحيحة صالحة سواء على مستوى الفرد والجماعة والأمة .. وسواء كانت في مجتمع بدائي يعيش حـــياة البادية أو مجتمع متطور متقدم يعيش حياة الحضر بكل أبعادها .. وهي قيم مبنـــية لأنهـــا قـــيم تقـــوم بذاتها ومطلوبة لذاتها، وهي الطرف الأهم في المعادلة الإنسانية، فإن قامت العلاقة بين هذه القيمة "الأخلاقية" وبين مجموعة القيم الأخرى بشـــكل صـــحيح متناســـق لأنها تكمل بعضها بعضًا ، نهض الإنسان ضمن إطاره الاجتماعـــي أو السياسي المشحون بهذه القيم المتفاعلة بشكلها الصحيح في المسار الصحيح ، وإذا اختل هذا التوازن كأن تخلف الإطار عن المضمون، اختل التفاعل الإبداعـــي بين هذه القيم، فيلزم ذلك تخلف الإنسان فتختل دعائم المجتمع وركائزه، وتنحط إلى حالة من الفوضى والظلم والاستبداد.

وهكذا ننتهي إلى القول بأن العلاقة الصحيحة الصادقة لا تقوم على حالة المبني وحـــده فقـــط وكذلك فإنها لا تقوم على حالة المعرب فقط. بل إن الوضع الصحي

الصـــحيح هـــو الـــذي يأتي بمنظومة أو معادلة صحيحة صادقة تتألف من المبني والمعـــرب معًا، بحيث يكمل أحدهما الآخر، بل لا ينفك أحدهما عن الآخر، ولهذا فهناك ثوابت وهناك متغيرات في حياة الإنسان والمجتمع والدولة.

الثوابت والمتغيرات في حركة الأقلية العربية :

إذا بدأنـــا من حيث انتهت الفلسفة في تعريفها للشيء على أنه: عرض وجوهر أو: ماهـــية وصـــورة، إطار ومحتوى، مادة وروح، عام وخاص، وبالتالي النص والمعـــنى، والوجـــود والحـــركة، فلا بد لنا أن نحدد بما يتعلق في موضوعنا، فإن الإطـــار الـــذي نتحرك به ومن خلاله، هو هذا الوطن الذي يسمى فلسطين والذي أصبح في غالبيته يقع تحت السيطرة اليهودية، وعلى ذلك فإن روح هذه البلاد تعتبر اكثرية يهودية وأقلية عربية .. أكثرية تملك كل موارد وأسباب القوة، وأقلية جردت مـــن الكثـــير مـــن أسباب قوتها، وسوف نتطرق فيما بعد إلى البيئة والوسط الذي تـــتحرك فـــيه هذه الأقلية ، محليًّا وشرق أوسطيًّا ودوليًّا، ونريد أن نحدد هنا على ضوء ذلك مسار حركتنا كمجتمع ــ والمبني والمعرب في وجودنا.

لا إخال أن يختلف اثنان من بين هذه الأقلية على هدفين رئيسيين ينبغي أن نعمل على توفيرهما كشرط أساسي لاستمرار وجود هذه الأقلية:

الأول: الـــبعد المكانـــي والجغرافي الذي نتحرك ونتمدد فيه وهو يشكل الإطار والنص .

الثانـــي: البعد الروحي أو المعنوي الفكري والثقافي كمعنى للحياة المتحركة في إطار هذا النص حركة مستمرة دائمة.

وينبغـــي أن تصـــب كـــل جهودنـــا أو جلها على توفير وتحقيق هذين الهدفين الرئيســـيين .. وينبغي أن لا نغفل في خضم معارك الحياة التي يخوضها كل واحد مـــنا لتحقيق آمالة وطموحاته الشخصية عن أحد من هذين الهدفين، نستيقظ عليهما عـــند الصـــباح ونـــأوي معهما إلى فراشنا عند المساء، ونرعاهما ما بين الصباح والمساء.

الأرض كإطار هي شرط وجودنا المستمر :

عـــندما نقـــول البعد المكاني أو العامل الجغرافي فإننا نقصد الأرض التي عليها نـــتحرك وبها نعيش فكلما اتسع هذا المكان كبرت الحركة وتشعبت وكبرت الآمال والـــتطلعات وكثر العطاء ونشط المحتوى والمعنى ومن ثم الروح، فباتساع الفضاء

يتسع المجال أمام الفكر ومغامراته، وعلى العكس من ذلك فكلما ضاقت علينا الأرض، تحددت حركتنا وضعفت، وكلما تحددت الحركة أكثر كلما قل العطاء وقلت الإمكانيات وقل كذلك النشاط وضعفت الحيوية وانكمش بالتالي المحتوى وأخذ يضغط باتجاه المعنى والروح حتى يهزل وتضمحل، وإذا كان الظرف لا يقوم إلا ببعديه الزماني والمكاني، فتصبح معادلتنا: كلما انكمش المكان وضاق كلما تقلص الزمان وضاق وراح يضغط على حركة الفكر ويحد من انطلاقته فبدل أن نفكر بالمصطلحات الكبيرة والمصيرية في مجال الإبداع والابتكار يضغطنا ضيق الفضاء المكاني والزماني لنحشر جل تفكيرنا في المصطلحات اليومية الصغيرة .. كيف توفر إمكانية إقامة البيت وتوفير الأرض، والحصول على لقمة العيش ومبيت ليلتنا والقلق الدائم على مستقبلنا ... وهكذا.

من هنا بل هنا تكمن خطورة تخطي الظرف الذي نمر به عندما نحاول الإفلات من الظرف الذي نعيشه حتى وإن كان استثنائيًّا بمقياس الزمن والتاريخ، من غير أن نحسب جيدًا هل نستطيع القفز من الظرف الذي يمسك بنا والإفلات منه؟ كيف يكون ذلك؟ ومهما كانت قوة الدفع الذاتي لحركتنا فنحن أبناء بيئتنا ووسطنا وبالتالي فنحن إفرازٌ للظروف القاهرة .. وكل طرح أو فهم غير ذلك معناه الانتحار، وما فائدة الإطار إذا فقد المحتوى والمضمون؟ وماذا يفيدنا النص إذا تفلتت المعاني؟ تبقى هياكل خربة تأوي إليها البوم والغربان .. إن الحديث عن الانتماء والهوية من غير توفير الإطار والنص الذي يحويها والمحافظة عليه هي قفزة في المجهول غير المحسوب، وهذه ارتجالية وعفوية قد تقود إلى أن نخرج من التاريخ كمجتمع لنضيف إلى شقاء أمتنا شقاء جديدًا وإلى طابور المتسولين على أعتاب الأمم متسولين جددًا، كل ذلك لأ ن الزرع الغريب بيننا يتطاول لقيادتنا إشباعا لجنون العظمة وآفة الغرور التي احتنكته .. تلك القيادات المزروعة بيننا والتي تتكلم بلغتين متناقضتين، إذا تكلموا إلى "الداخل" غيبوا عقولهم واستحضروا عواطف من الحماسة المزيفة وكأنهم يخطبون إلى عسكر وجيوش مدججة وإذا جلسوا إلى "الفضائيات" وخاطبوا "الخارج" استحضروا عقولهم وغيبوا عواطفهم واستعملوا الحجة والبينة في تبرير الواقع، والتفوق الإسرائيلي الماحق على العالم العربي .. وكان خطابهم للخارج تهدئة خواطر ، وكأن العالم العربي بأنظمته مستنفر لقواه وعلى وشك أن يخوض مغامرة سياسية أو عسكرية أو اقتصادية ضد أمريكا وإسرائيل غير محسوبة وغير مضمونة النتائج، فلا ينبغي أن نزيد من حماسته

وتهـوره .. شـاهدت بطرسهم من على قناة الجزيرة وهو يحذر الدول والأنظمة العربـية من عملية متهورة وهو يحاول الإصلاح ما بين الشارع العربي الغاضب وبيـن الأنظمـة العربـية المتخاذلة، ليحفظ لنفسه حرية الحركة والانتقال بين هذه الأنظمـة .. كيف يستطيع بطرس الناسك أن ينال حظوة عند الشيخ زايد والخطوة ذاتهـا عند الثوري والمناضل السوري!!؟ كيف نخاطب من يملك الدبابة والطائرة والصاروخ بعقلانية ومن غير هيجان وحماسة بينما نلهب مشاعر الشعب الأعزل؟ ماذا يريد منا هذا الزرع الغريب؟ نحن نبحث عن إطار يجمعنا، نحن نحاول توفير النص لنتمكن من صياغة المعنى الذي نريد وهذا المعنى هو الهوية هو الانتماء .. والـزرع الغريب يحاول تفريغ النص وتفريغ الإطار بل بيعه وهجرته .. والإطار هـو الأرض، هو الفضاء، الذي نريد أن نملأه بإنسانه بصاحبه المتعلق برحمه منذ أن كـان الـتاريخ يملـؤه بمجـتمع صاحب هوية وانتماء. ولا نعني هنا الانتماء الشخصي والهوية الشخصية "الإنسانية" وإنما نفتش عن الهوية الجمعية، هذه الهوية لا تقوم على غير أرض ولا تستمر حركتها ونموها بغير توسيع لرقعة الأرض التي تحتضـننا باسـتمرار .. وقد جعلنا ذلك هو الهدف الثاني الرئيسي. وأقول الهدف الثانـي مـن حيـث الترتيب، لا من حيث الأفضلية والسابقية فالانتماء الشخصي الإنسـاني من حيث الوجود هو المضمون هو الجوهر وهو المعنى .. لأن هويتي "الإنسانية" الشخصية يمكن أن يتوفر لها الوجود في أمريكا أو في السويد أو في أي مكـان آخـر في هذا العالم .. وسوف أدلل على ذلك بمثال حي عشته بنفسي كما عاشه الكثيرون غيري .

داهمنا ليل حزيران 1967 وأنا طالب أدرس الفلسفة والعلوم السياسية في الجامعة العبرية في القدس، وشغلت يومها منصب سكرتير لجنة الطلاب العرب .. واعتقلت اعـتقالاً إداريًا من أول أيام الحرب باعتبار أجهزةِ الأمن الإسرائيلية، أنني عنصر معـاد للدولـة. وبعـد الإفراج عني وعدم السماح لي بتقديم امتحانات نهاية السنة غادرت البلاد والتحقت بجامعة استوكهولم في سنتي 68/67، خرجت وأنا عضو في الحـزب الشيوعي الإسرائيلي وبعد متاعب جمة اكتشفت إلهي هناك في السويد، إن جـاز هـذا التعبـير، وهدانـي ربـي لـنعمة الإسـلام، وأنـا أعيش في فندق Betelsemenariet (كنيسة الله) وهو خاص وتابع للبابتزم Baptism فوجدت انتمائي الشخصـي كمسلم ، وقبلها كنت على الشيوعية أو بتعبير أدق مزيج من الماركسية والناصرية، وعشت يومها فترة الإيمان الكشفي الوجداني الحار .. بينما اليوم أعيش

حـياة المسـلم الذي يعتمد السبب والمسبب، مع الإيمان بان الله، سبحانه، هو مقدر ومصرف الأسباب .. وهكذا فإن انتمائي الشخصي والإنساني أستطيع تحقيقه فوق كـل أرض، بالطبع ليس بنفس الشروط . لكن الحديث عن الهوية الجماعية يختلف فـإذا كـان هـناك الإطار لتحقيق البعد الإنساني الشخصي، هي الأرض بطولها وعرضـها، فـإن الهوية الاجتماعية أو الجمعية لا تقوم على غير أرض مشتركة محددة ومعرفة.

ودعـنا نقوم الآن بتفكيك عناصر الهدف الرئيسي الثاني وهو المضمون الثقافي والروحـي لهذا المجتمع وبتعبيرا آخر الانتماء والهوية .. والدارس أو الباحث في أمور الأقلية العربية يستطيع أن يميز عدة انتماءات من أشهرها:

أولاً ــ التـيار الدينـي: ممثلاً بالجماعات الإسلامية ذات النشاط المنظم أو شبه المنظم وكم كبير من المسلمين الذين يعيشون الحياة الإسلامية عقيدة وأسلوب حياة من غير أن يتقيدوا بحركة محددة أو تنظيم معين.

– الكنيسة ورجال الدين المسيحيين وبعض منظمات الشباب كالكشاف المسيحيي (الأرثوذكسي ...) إلى غير ذلك.

ثانياً ــ التيار القومي: وقد بدأ في منتصف الخمسينيات ممثلاً بجماعة الأرض، لجنة الطلاب العرب في الجامعة العبرية في القدس ثم أبناء البلد، فالحركة التقدمية (وقـد بـدأت عربية يهودية) ثم الحزب العربي الديمقراطي، وقد تحللت معظم هذه الحـركات وتصدعت .. ويعاد اليوم لم شتاتها في بوتقة ما يدعى "التجمع الوطني الديمقراطـي" بقـيادة الدكتور عزمي بشارة [3]، وبمقتضى دستور هذا التنظيم فإن الانتسـاب إليه مفتوح أيضًا أمام المواطن اليهودي. بل هناك في الحقيقة بعض من انتموا إليه ولهذا فهو تيار وطني يضم اليهود والعرب.

ثالثاً ــ التيار الوطني: وهو الحزب الشيوعي الذي يقوم على أساس من الانتماء للوطن، وبما أن الوطن يضم اليهود والعرب فهو حزب يهودي ــ عربي أو أممي وينضم تحت لوائه العديد من اليساريين والعلمانيين العرب الذين ما زالوا يعتقدون أن الماركسية لم تستنفذ شرعيتها بعد.

رابعـاً ــ التوجه اللا مبالي من الوصوليين والنفعيين: وهو يضم هؤلاء الذين يعيشـون فـي حـدود مصالحهم الانانية الضيقة وهم الذين تغدق عليهم السلطات الإسـرائيلية المناصـب وتحـاول فرضهم على مجتمعهم ، وتستخدمهم السلطات الإسرائيلية كأخشاب أو لوحات إعلانية تنشر عليها السلطات الإسرائيلية بضاعتهـا

من الديمقراطية والتعددية ... وغير ذلك.

وإذا صح أن هذه التيارات الفاعلة على الساحة العربية وأنها تعيش في الوسط والبيئة الذي وصفناه فيما سبق، مع الأخذ بعين الاعتبار أن حالة الحرب الساخنة أو الباردة على كل الأصعدة بين العالم العربي والغالبية من الدول الإسلامية التي كانت تحكم العلاقات العربية الإسرائيلية في الأربعينيات والخمسينيات وحتى السبعينيات من القرن العشرين قد خف أوارها وتلاشى دخانها بعد أن وقعت أكبر دولة عربية وهي مصر اتفاقية سلام مع إسرائيل وتبعتها بعد فترة الأردن ثم منظمة التحرير الفلسطينية ، والعديد من الدول العربية والإسلامية فتحت أبوابها وأسواقها للبعثات الاقتصادية والثقافية الإسرائيلية. بل إن المجلس الفلسطيني وهو أعلى سلطة فلسطينية حذف من ميثاقه كل البنود التي طالبت إسرائيل شطبها باعتبارها مجافية للوجود الإسرائيلي .. بينما لم يطلب الفلسطينيون بالمقابل إدخال أو تعديل مبدأ واحد على وثيقة إعلان الدولة اليهودية، يضمن ولو نظريًّا حق الوجود الفلسطيني أو حق العودة أو حق تقرير المصير أو فك الارتباط ما بين الدولة الإسرائيلية والحركة الصهيونية.

وإذا كانت انتفاضة الشعب الفلسطيني الثانية والمعاناة التي يعيشها هذا الشعب الأعزل وهو يخوض معركة غير متكافئة .. بل إن مصطلح غير متكافئة لا يكفي .. شعب لا يملك غير قوة الهتاف والتلويح بالأيدي وسلاحه الحي هو الحجر .. كل ذلك في مقابل الدبابة والطائرة والصاروخ .. هذا السلاح الفتاك يحصده تحت سمع العالم العربي والإسلامي وبصره ورغم أنف "الشرعية الدولية" ومبادئ "حقوق الإنسان". ويجتمع مؤتمر "القمة" العربي بل مؤتمر "القاع" العربي ليجد صيغة يتضامن بها مع شعب فلسطين أو مساعدته لرفع وتخفيف معاناته ويجيء هذا المؤتمر بل هذا التآمر فقط لتفريغ شحنات الغضب في الشارع العربي والإسلامي وينفض مجلس التآمر العربي على بيان هزيل لا يسمن ولا يغني من جوع، لا يرهب عدوًّا ولا يشد من أزر الصديق، وتلقى بيانات حماسية كانت كافية لامتصاص الغضب الجماهيري وتعود الحياة لطبيعتها ولسابق عهدها .. عند الفضائيات العربية المسرحيات والتمثيليات الخليعة والأغاني الماجنة والإنسان العادي، راح يركض ليوفر لقمة العيش لبنيه .. وتبقى الطائرات والدبابات تقصف في الشعب الأعزل، وتصبح المناظر البشعة والرهيبة صورًا عادية كأننا نشاهد فيلمًا تم إنتاجه في هوليوود أو في الربع الخالي من أرض الجزيرة العربية وتتبخر

المشـــاعر الإنســـانية يومًـــا بعد يوم من كثرة تكرار المآسي. ثم يعقد مؤتمر للعالم الإســـلامي ليبحـــث موضوع القدس والأقصى، فيخرج من غير قرارات ... إنها أنظمة فقدت إرادتها، ودول فقدت حريتها فهي كما وصفناها في بداية هذه الدراسة، أنظمة مبنية للمجهول ..

في مثل هذا الوضع من الضياع العربي والإسلامي يبحث بعض قادتنا المحليين الذين أنبتوا من بين الزرع الغريب عن فاكهة الصيف في فصل الشتاء.

الفصل الثاني

العلاقات العربية العربية والعربية اليهودية

العلاقات المفصلية في المجتمع العربي :

بناء على ما تقدم فإن العلاقات العربية العربية داخل الدولة اليهودية، هي علاقات متغيرة باستمرار تتعلق بالتفاعل الاجتماعي والسياسي والعقائدي والتوازن الاجتماعي الذي يصيغ أطراف المعادلة بين المواقف الدينية والثقافية والسياسية لهذه الأقلية ، وقد تحدث ظاهرة التغيير في الأقلية العربية بأسرع مما تحدث في مجتمعات العالم العربي في بعض المجالات وتبطء عنها في مجالات أخرى تبعًا للدور التي تقوم به السلطات الإسرائيلية الفاعلة والنشطة في تطوير هذه العلاقات والتأثير فيها. فهي عامل من العوامل المؤثرة وصاحبة دور محدد في عملية التغيير الاجتماعي والسياسي والديني .. وإذا كانت هذه العلاقة المتغيرة في داخل الأقلية العربية متعلقة بالحالة الظرفية التي تمسك بها فينبغي مراعاة ثلاثة عوامل حاسمة ينبغي أن تضبط وتتحكم بهذه المتغيرات وينبغي أن تكون مبنية لا يلحقها الإعراب مهما تغيرت الظروف وتبدلت:

أولاً: الأمر الأول المبني في حياة هذه الأقلية ، والتي لا ينبغي أن يلحقة الإعراب بأي حال من الأحوال، هو اللغة العربية كعامل أساسي ورئيسي من عوامل وحدتنا والمحافظة على وجودنا من آفات الانحلال والتفكك .. واللغة هنا هي اللغة الفصحى التي ينبغي أن تتحسن باستمرار حتى تصبح لغة محكية .. واللغة هي حلقة الصلة اليومية فيما بيننا .. إنها الثقافة، انها الفكر، انها الروح التي نتحرك بها، وهي الرابط الذي يجمع تعددنا الثقافي والاجتماعي والديني، ولهذا يلزمنا تطوير هذه الآلية باستمرار لتستجيب لكل حديث ولتستوعب همومنا جميعًا .. اللغة العربية هي العامل الحاسم وهي القاسم المشترك الكبير بين التيارات الفاعلة في الساحة العربية سواء كانت إسلامية أو مسيحية، قومية أو وطنية. اللغة هي حافظة الفكر وهي وعاء الثقافة، بل هي الذاكرة الجمعية. وهي العنصر الرئيسي

الذي يحفظ لنا حضارتنا ويربطنا ويمدنا بتلك الحرارة والسخونة بين الماضي والحاضر وانطلاقة المستقبل. فهذا العامل هو العامل الخطير في قوة استمرارنا ووجودنا كأقلية قومية ودينية، اللغة العربية هي مفتاح بيتنا في ماضيه وحاضره ومستقبله، فهي من ثوابتنا المبنية التي لا ينبغي أن يلحقها الإعراب إلا فيما يتعلق بتطوير وتحسين أداء هذه الآلية.

ثانياً : المبدأ الثاني المبني هو الإسلام عند المسلمين، والنصرانية عند النصارى، والقومية عند القوميين، والوطنية عند الوطنيين. وهذه الثوابت لا يلحقها الإعراب إلا عند التحول من خانة إلى أخرى ضمن المعادلة الاجتماعية الكبرى .. فمبادئ الإسلام وأركانه، فروضه وواجباته ، ليست مكان مساومة في أي ظرف أو حال .. فينبغي أن تكون مكان تقدير مجتمعنا جميعًا، لأن العرب كل العرب ينتمون حضاريًا لهذا الإسلام العظيم ولغته الكريمة ولا حاجة بنا لنعيد كتابة أقوال كبار المثقفين العرب من أمثال إدوارد سعيد وميشيل عفلق وغيرهم. وفي الوقت ذاته فإن عقيدة النصرانية والحاملين لها من بين العرب هي محل تقدير مجتمعنا، وقيم المسيحية ومبادئها ثوابت مبنية لا يلحقها الإعراب إلا في حدود ما تقرره مصادر الفقه بمقتضى ديانتهم ورجال الكنيسة، هذه أمور تخص رجال الدين عندهم ونحن كأقلية هنا علينا احترام إجماعهم وتقديره وكذلك الطرح القومي، فله دعاته ومنظروه وله ثوابته مع أن هذه الثوابت تختلف من طرح لآخر ويعتريها التغيير تبعًا لاجتهادات متعددة ومتنوعة من وقت لآخر ومن ظرف لآخر، وتصل في كثير من الأحيان إلى حد المصادمة . والطرح القومي عرضة للاجتهادات وللآراء المتعددة ويمكن حوارها باستمرار .. وفي الوقت ذاته قد نجد اجتهادات مختلفة ومتنوعة في الساحة الإسلامية، ولكن ما يميز الطرح الإسلامي أن هناك مرجعية واحدة هي القرآن الكريم وهو ثابت مبني لا يقبل الإعراب، إلا ما كان من عمق الفهم وسطحيته، بعكس الطرح القومي الذي ليس له مرجعية واحدة، وإنما يمكن الحديث عن طروحات متنوعة تلتقي في بعض الخطوط وتختلف في أشياء كثيرة ... وأما الطرح الوطني وهو الذي يقوم على قاعدة لا قومية ولا دينية، وفي وضع الأقلية العربية هي المشاركة بين القوى اليهودية والعربية ذات المناهج الماركسية. وهي التي ترى أن من أسس العيش في هذه البلاد المصلحة المشتركة بين الشعبين اللذين ينبغي أن يجدا الصيغة الملائمة للعيش المشترك على أسس من الاشتراكية العلمية ومبادئ الماركسية ـــ اللينينية المطورة . هذه التوجهات داخل الأقلية العربية

ينبغـــي مراعاتها عند الحديث عن العمل المشترك ويجب احترام المواقف المغايرة لهــذه الأقلية .. ويبقى هناك هؤلاء الذين يعيشون في حدود مصالحهم في جو من اللامبالاة، وهم الذين ينبغي الأخذ بأيديهم ليحتلوا خانة من الخانات التي سبق ذكرها والتي يعتبرها "ميثاق الشرف" للأقلية العربية في نطاق "الشرعية".

ثالــثاً : المــبدأ الثالــث الذي ينبغي أن يجمع عليه كل الأطراف الذين يشكلون قطاعــات الأقلــية العربية هو مبدأ اللا عنف سواء على مستوى الخطاب السياسي والاجتماعي والفكري وبالأحرى الديني كذلك ... ينبغي أن يكون مبدأ الحوار وأدب الحــوار والاخــتلاف هــو مــن صــميم تربيتنا .. الصبر على المواقف المخالفة والمعارضــة والتســامح بين كل الآراء وحق التعبير عن الذات بكل حرية وإبداء الــرأي في كل المواقف .. ينبغي أن نتخطى القول بقانون المشاركة والتكامل حتى يصــبح لدينا تربية نرعاها ونؤمن بها وأن نلغي من مفاهيمنا ذهنية تحريم المعاملة مــع المخالفين ونفسية الانزواء والمفاصلة وعقلية الخيار والبديل الواحد ... ومبدأ الحــوار وحــق الحــوار هــو أحد ثوابت المجتمعات الراقية على مستوى الأفراد والجماعــات .. فــلا ينبغي أن أفكر أن التاريخ يبدأ من الصفر عند كل مرة، فهذه ذهنــية قاصــرة عن إدارة شؤون الحياة، وما يلزم الإنسان أن يعتقده ما هو الدور الــذي علــيه القــيام بــه؟ ما هي حصتي التي أقدمها وأعتمدها في تقدم الحضارة البشــرية؟ فأنا عنصر متمم ولست العنصر البديل ووزني في المجتمع ومن ثم في مضــمار الحضــارة الإنسانية بقدر البصمات التي أتركها في ميادين العلم والتقدم والإبــداع والابــتكار .. من هذا الباب هناك حوار بين الإسلام والمسيحية، وبين الإسلام واليهودية وغيرها من المذاهب قد أمر الله بها، حتى يتنافس فيه الصدق مع الأقــل صــدقاً، والحق مع الباطل، وقد يتبادل البشر المواقف بناء على نتائج هذا الحــوار والجــدال الــذي ينبغي أن يكون بالتي هي أحسن، كما أمر الله سبحانه. وعندها يمكن للمرء أن يخرج من خانة إلى خانة ضمن المعادلة الاجتماعية الكبرى .. وكذلك هذا الجدال وهذا الحوار يكون بين الدين وبين المفاهيم الأخرى من قومية ووطنــية وغــيرها .. سواء على مستوى الفكر أو المواقف السياسية وطروحاتها اليومــية والتنســيق بيــن الآراء والمواقــف المختلفة في اتخاذ الإجراءات العامة والنشــاطات التي تصدر عن قادة هذه الأقلية .. ومن مبدأ الحوار والجدال الحسن تنمو عقلية وذهنية المؤسسات بدل الأفراد ... وهكذا.

هذه المبادئ الأساسية الثلاث التي إذا اختل توازنها كان تأثيرهــا سلبيًّــا علــى

أطراف المعادلة بكاملها وعلى النتائج النهائية لمصير هذه الأقلية.

نحن كأقلية عربية نعيش معادلة دقيقة، متعددة الأطراف كثيرة الجوانب، متعددة المصادر والمراجع، معادلة تحكمها متغيرات باستمرار متغيرات في بنيتها الأساسية الداخليــة ومتغيرات تهب عليها من خارجها فتؤثر فيها. وليس سهلاً إيجاد معادلة تجيب على كل الطروحات العربية وليس سهلاً كذلك أن نميز بين المبني والمعرب فــي ظــل علاقات متغيرة باستمرار. والكتابة فيها حرجة لمن يريد أن يستحضر أدوات التحلــيل ويســتخدم بعــض آليات المنطق في ظل تحكم العواطف السلبية المتطرفة التي تتغذى باستمرار من استعمال العنف من جانب السلطات الإسرائيلية وردود الفعــل العربــية. هذه الشكوك في المواقف تنمو وتتعاظم عند الطرفين مع مــرور الوقــت. ولهــذا فلا بد من استدعاء العقل والمنطق بالإضافة إلى العامل الأخلاقــي عــند دراسة وتحليل أوضاع الأقلية العربية ومستقبل العلاقات العربية العربــية والعربية اليهودية، لأن هذه الأقلية تعيش خصوصية قلما تجدها عند أقلية أخــرى فــي العــالم .. وســوف نتناول في الكتابات اللاحقة هذا المناخ السياسي والاجتماعي المسيطر والمتحكم بالوضع العربي واليهودي في هذه البلاد.

المناخ السياسي والاجتماعي في الدولة اليهودية :

قامــت الدولــة اليهودية في أعقاب حرب 1948 على ما يزيد عن ثلثي أراضي فلســطين، متجاوزة بذلك كثيرًا من حدود الدولة اليهودية حسب قرار الأمم المتحدة رقــم 181 الخــاص بتقسيم فلسطين عام 1947 بين اليهود والعرب، وحصلت على اعتراف الهيئة الدولية على الرغم من عدم تعيين حدود نهائية لها. وقد راهن على ذلــك رئيس وزراء إسرائيل آنذاك، بن غوريون، عند اعتراض الحقوقيون اليهود علــى أن دستور هيئة الأمم المتحدة لا يسمح بالاعتراف بأي عضو ينضم إليها من غــير تعيين حدود معترف بها. ولكن الأمر سار كما توقع بن غوريون، فحصلت إســرائيل وهي وليد الأمم المتحدة على اعتراف هذه الهيئة من غير أدنى اعتراض على هذا الإشكال القانوني، حتى ولا من المندوبين العرب!!؟

وكــان أقســى نــتائج حــرب 1948 إضافة إلى قتل المئات الكثيرة من الشعب الفلســطيني، هــو تهجيره وتفريغ هذا الجزء الكبير من فلسطين من سكانه العرب الفلسطينيين وطردهم خارج حدود فلسطين، ليقيموا في مخيمات الشتات في كل من ســوريا ولبــنان والأردن، وفيما تبقى من أرض فلسطين التي أمست تحت السيادة

المصرية والأردنية .. وبقيت أقلية فلسطينية لا تتجاوز 180 ألفًا داخل حدود الدولة اليهودية، ومن بين هؤلاء مهجرون تركوا قراهم التي هدمت ونزحوا إلى القرى المجاورة، وهم ما يطلق عليهم مهجري الداخل، وقد وُضعوا في خانة لا يتصور المرء كيف يستقيم معناها؟ ولا كيف يتم فهم حالتها؟ وهو ما عرف بوضع "الحاضر الغائب" .. كيف يكون المرؤ حاضرًا غائبًا في وطنه في ذات الزمان والمكان؟ تفسير ذلك في قاموس العالم المتحضر، العالم الديمقراطي، المشبع بالمعاني "الإنسانية" تفسير ذلك عند "الشرعية الدولية" و"حقوق الإنسان" ولكن في الحقيقة تبقى مستعصية على الفهم والإدراك فهي واحدة من تلك القضايا التي لا يجوز البحث والتفكير فيها..!

وما نحن بصدد الكتابة عنه والبحث فيه هو تلك الأقلية العربية التي قبلت مغامرة البقاء في الدولة اليهودية، والتي تبلغ اليوم ما يزيد عن مليون نسمة، وهي جزء من ذلك الشعب الذي شرد في طول العالم وعرضه، فقد تجد أخوة أبناء أب وأم أو أبناء عمومة وأقارب يعيش بعضهم في داخل إسرائيل والبعض الآخر مشتتين في شتى بقاع الأرض. ومنذ عام 1948 فرضت السلطات الإسرائيلية على هذه الأقلية حالة من العزلة، في ظل قانون الطوارئ، الذي قيد حركتها ومنعها من حرية الانتقال إلا بموجب تصاريح خاصة يصدرها مكتب الحاكم العسكري الموجود في كل منطقة ومنطقة . هذا الحاكم العسكري هو الذي حكم الأقلية العربية بموجب قوانين الطوارئ، كأن يحصي عليها أنفاسها، ويدير حياتها اليومية، وابتداء من الحصول على التصريح، الذي يعتبر في الواقع هوية لا تستطيع التحرك بدونه. لا تستطيع قضاء حاجاتك الضرورية من غير التزود به، حتى أن تذهب إلى العلاج والعمل لا بد من تصريح، وحتى تحصل على هذا التصريح لا بد من وسيط، والوسيط عادة من بين هؤلاء المرضي عنهم من قبل السلطات الإسرائيلية وهكذا من الحصول على التصريح وحتى الحصول على وظيفة وعمل لا يتم بغير رضاء الحاكم العسكري .. وقس حياة على هذا النحو. هكذا عاشت هذه الأقلية العربية حالة من التناقض النفسي الرهيب حتى يتمشى ذلك مع قانون "الحاضر الغائب"، لقد سلبت الغالبية العظمى من الأراض التابعة لهذه الأقلية بشتى المصادرات .. وتصور حالة إنسان يعيش إلى جانب أرضه أو يمر من الطريق التي شقت من أرضه ولا يستطيع أن تطأ قدماه أرض آبائه وأجداده ، وإن فعل طاله القانون بكل قساوته ..!

والأقسى من كل ذلك، خلو العلاقات العربية اليهودية من العامل الأخلاقي عندما

كان يفرض على هذه الأقلية أن تعيش ذكرى احتلال قراها وسلب أراضيها بثياب التحرير والاستقلال.! كان عليها أن تفرح وتقيم الاحتفالات بذكرى تشريدها من وطنها، ذكرى قيام الدولة اليهودية .. كيف يمكن أن يجمع الإنسان في قلب واحد وفي آن واحد بين الفرح والحزن؟ جواب ذلك لا تجده بغير قاموس القوة قاموس الحضارة الغربية، قاموس الغاب، شعب تصادر أرضه وتذبح مواطنته على مدرج الأمم المتحدة ويلاحق في تصفية جسدية واستئصال لوجوده الفيزي وملاحقته فوق أرضه وفي كل مكان فوق هذا الكوكب تحت سمع وبصر ما يدعى زورًا وبهتانًا بالشرعية الدولية، وكأن ظلمًا لم يقع، أو أرضًا لم تحتل، وحقوقًا لم تهدر، بينما تتدخل قوى البغي، قوى البطش العالمي، وتتدخل تلك الشرعية الباغية الظالمة لتنتزع استقلال تيمور الشرقية من إندونيسيا باسم حقوق الإنسان حقوق الأقليات بأسرع ما يمكن من وقت. كلها أسئلة يجيب عليها العالم العربي بخليجه وإماراته المتحدة والمتفرقة بحالة من الذل والخنوع ودعم من هؤلاء العرب لقوى البغي والظلم والعدوان بما يفوق ترليون دولار أمريكي في البنوك الأمريكية وحدها، وهو رقم قادر على تركيع الولايات المتحدة لإرادة الحق وإقامة العدل، لو كان من يملكه يملك معه حدًّا أدنى من الشهامة والكرامة..!

وفي غياب العامل الأخلاقي كان يعامل العرب وكأنهم مواطنون من الدرجة الثالثة لأن الدرجة الثانية كان يحتلها اليهود العرب هؤلاء الذين قدموا من العالم العربي. ولكن في الحقيقة كان العرب يُنظر إليهم من قبل أجهزة الدولة وكأنهم طابور خامس لا ينبغي أن يؤمن جانبه، والعرب متهمون بصورة عامة، أما عندما تثبت براءتهم فتكون في القضية الخاصة فقط. هذه الشكوك هي التي سيطرت على العلاقات العربية اليهودية وهي التي ما زال العرب يعانون من آثارها حتى اليوم، كلما توترت العلاقات بينهما. وفي الجانب الآخر من الحدود، في العالم العربي، كانوا ينظرون بعين الريبة والشك لهذه الأقلية العربية لا لشيء إلا أنها بقيت متشبثة بأرضها عندما هربت الغالبية العظمى من الشعب الفلسطيني .. لقد ظنَّ هؤلاء العرب أن هذه الأقلية لابد أن تتفكك وتتحلل لكي تذوب في الشخصية اليهودية وتتنزل عن هويتها، عن لغتها وحضارتها عن عقيدتها وانتمائها.!

محاولة تشكيل حركات سياسية عربية :

منذ قيام الدولة اليهودية، كان الحزب الشيوعي الإسرائيلي، هو القوة السياسية

المـــنظمة الوحيدة في الوسط العربي، والمعترف بها من قبل السلطات الإسرائيلية، لكونـــه حزبًا عربيًا ــ يهوديًا، وقد دعا هذا الحزب لإقامة دولة يهودية "ديمقراطية واشـــتراكية" على كل فلسطين ومن هذا المنطلق عارض قرار التقسيم كما عارضه الاتحاد السوفييتي في حينه، ثم قبل به مؤخرًا بعد قيام الدولة اليهودية وتغير التوجه السياســـي الإســـرائيلي .. وقـــد كان هذا الحزب يعتبر المتنفس الوحيد للمعارضة العربـــية، وقد دافع عن حقوق العرب بوسائله المتاحة وناضل ضد اضطهاد الحكم العسكري من خلال قوانين الدولة ..

وفيما عدا ذلك رفضت السلطات الإسرائيلية السماح لأي تنظيم عربي أن يمارس نشـــاطًا سياســـيًا أو حـــتى ثقافيًا واجتماعيًا ، وقد كان هذا الرفض يستقي من نبع العـــداوة التي تكنها تلك السلطات لكل ظاهرة عربية وكانت تطبق على هذه الأقلية بعـــض مـــبادئ نظرية الواقعية السياسية فيما يعرف بمبادئ توازن القوى، والتي تـــنادي بعـــدم الســـماح بإدخـــال لاعـــب جديد للمسرح السياسي إذا كان صاحب أيديولوجـــية عالمية، أو يمكن أن تتخطى حدود الدولة، وهو مبدأ يمكن تطبيقه على مسرح السياسة العالمية وكذلك على المستوى الداخلي للدول .. ومن هذه المنطلقات جمـــيعًا حظـــرت إسرائيل على العرب إقامة أي تنظيم سياسي عربي أو حتى غير سياسي. وكانت تعاقب على أي اتصال يمكن أن يتم بين الأقلية العربية وبين العالم العربي أو حتى بين الأخ وأخيه ابن أمه وأبيه إذا كان لاجئا خارج إسرائيل ..

وعلـــى الـــرغم من ذلك فقد قامت محاولات عديدة متحدية السياسة الإسرائيلية لإقامة تنظيمات عربية سياسية مثل جماعة الأرض في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين وكذلك لجنة الطلاب العرب في الجامعة العبرية في القدس والتي ما زال نشـــاطها يمـــارس حتى اليوم، وفي السبعينيات تشكلت جماعة أبناء البلد، ثم الحركة الإسلامية فالحركة التقدمية والتي قامت في الأساس كحزب وحركة يهودية عربية خاضت انتخابات الكنيست بعضويها اليهودي والعربي فيليد ومحمد ميعاري .. وهذه الحركات تلاشت بعد الانقسامات العديدة التي حصلت في صفوفها. ثم قام الحـــزب العربـــي الديمقراطي من شخصيات مقربة من الأحزاب اليهودية وكانت تعمـــل فـــي أحـــزاب يهودية كزعيمه عبد الوهاب دراوشه والذي كان عضوًا في الكنيســـت من قبل حزب العمل .. ثم تجمعت هذه الشظايا والشرائح المنقسمة بعد منتصف العقد التاسع من القرن العشرين تحت زعامة عزمي بشارة بما عرف تحت اســـم "التجمع الوطني الديمقراطي" والذي لم نطلع على مبادئه وأهدافه وتركيبه من

خـــلال الطلـــب الرســـمي الذي تقدم به لوزارة الداخلية الإسرائيلية لينال الشرعية القانونية[4].. ومع أن بعض هذه الحركات حاولت الحصول على الاعتراف الرسمي من خلال دخولها الكنيست، إلا أن الحكومة الإسرائيلية ومحكمة العدل العليا رفضت ذلك واعتبرتها جماعة غير قانونية كما حصل لجماعة الأرض سنة 1965 ..

ومـــع مرور الوقت أخذ الواقع يضغط ويفرض نفسه على هذه الأقلية ، لا سيما عندما عزّ النصير من داخل إسرائيل ومن خارجها في مساندتها لحقوقها، بدأ لديها الـــتحول النفســـي، مـــن رفض صامت لقبول شرعية الدولة اليهودية كان يجد له صرخة هنا وهناك متمثلة بجماعة الأرض مرة وبلجنة الطلاب العرب في الجامعة العـــبرية مرة أخرى وهكذا .. هذا الوضع النفسي تحول بعد حرب 1967 وهزيمة الـــدول العربـــية المخجل أمام إسرائيل عندما أمست إسرائيل حقيقة واقعة، فرضت نفسها بقوة السلاح وبقوة حليفها الغربي، وتبعًا لهذه المستجدات تغيرت النفسية لدى الأقلية العربية وإلى مدى غير قليل خارج إسرائيل عندما استسلمت لهذا الواقع، في هـــذه المـــرحلة أخذت الأقلية العربية تبحث عن صيغة في معادلة جديدة مع الدولة الـــيهودية تتمحور حول المطالبة بحقوقها الإنسانية في حدود دولة إسرائيل . بل إن النضال في الدول العربية اكتفى واقتصر على المطالبة بانسحاب إسرائيل إلى حدود مـــا قـــبل حرب 1967، وتبعًا لذلك فقد تغيرت شعارات ومطالب الدول العربية من الرفض الكامل للوجود الإسرائيلي والذي لم يقبل في البداية قرار التقسيم لعام 1947 ولكن بعد نتائج حرب 1967 سقط حتى هذا الطلب قرار التقسيم وتمركزت المطالب العربـــية بانســـحاب إسرائيل إلى خطوط الرابع من حزيران 1967 وقبول قرارات الأمم المتحدة 242 و 338.

وقد تحولت النفسية العربية من نفسية رافضة للشرعية اليهودية إلى نفسية مهادنة بعـــد حـــرب 1967 إلـــى نفسية قابلة ومعترفة بعد توقيع معاهدة الصلح بين مصر وإسرائيل وأخذت المطالب العربية،والكتابات تتركز حول المطالبة بحقوق المواطنة وقبول شرعية الدولة اليهودية في الجزء الذي قامت عليه بعد حرب 1948 ... وبعد الاعـــتراف المتبادل بين منظمة التحرير الفلسطينية والدولة الإسرائيلية .. أصبحت المطالـــبة بالمواطنة حقًا لدى الأقلية العربية .. وراحت قياداتها تتحدث عن حقوق المواطنة التامة والمساواة بين اليهود والعرب، وأصبحت تسمع أكثر العرب تطرفًا يتحدث عن المواطنة، ودولة كل مواطنيها ثم يترشح لرئاسة الحكومة الإسرائيلية؟!! كما فعل زعيم التجمع الوطني عزمي بشارة.

وقد مرت نفسية الأقلية العربية وتطورت من نفسية رافضة حتى سنة 1967 إلى نفسية مهادنة لشرعية الدولة اليهودية، وإلى نفسية معترفة بهذه الشرعية بعد المصالحة المصرية الإسرائيلية وإلى نفسية تطلب المواطنة في هذه الدولة والمساواة مع اليهود بعد الاعتراف المتبادل بين منظمة التحرير وإسرائيل .. وإذن فإن هذه العلاقة متأثرة كما قلنا بمتغيرات من داخلها ومن خارجها .. وما حصل في الانتفاضة الأخيرة أن النفسية العربية انقلبت من نفسية طالبة لمبدأ المواطنة إلى نفسية ثائرة ومتمردة على هذه المواطنة المنقوصة.. وهذا أمر في غاية الغرابة، لابد من متابعة دراسته، بجدية وعمق حتى نقف على أسبابه هل هي موضوعية أم مفتعلة؟ لقد كان في الجانب الإسرائيلي يحدث أيضًا تغيير في النفسية اليهودية، وأصبحنا نسمع عن شعارات وبيانات رسمية وشعبية تعترف بالظلم والتمييز الذي تتعرض له الأقلية العربية، وبوجوب تجسير الهوة القائمة بين اليهود والعرب، وتحولت بعض المشاعر بالاتجاه الإيجابي وحصل بعض التقدم أيضًا في الاتجاه الصحيح، وفجأة ينهار كل ذلك وتبدأ المواقف بالاستقطاب والمفاصلة من جديد ..!!

وقد زاد الثقل النوعي للأقلية العربية في الميزان العربي العام، هذا الميزان غير الدقيق والذي لا يقوم على أسس من العدل والعقل، كما أنه ميزان يخلو من أسس المنطق ويعاني من ذهنية التحليل الفاسد .. وهكذا كلما صغرت وتقزمت القامة العربية أمام الإسرائيلية كلما ارتفع الوزن النوعي للأقلية العربية في هذا الميزان الفاسد الذي بالغ في تضخيم دور الأقلية العربية وراهن عليه في مدى تأثيره على القرار الإسرائيلي وكأن الأقلية العربية تستطيع أن تنتزع قرارًا من الحكومة الإسرائيلية بالانسحاب من القدس والضفة الغربية وهضبة الجولان. وهذا الميزان الفاسد راح يخلط بين تأثير اللوبي اليهودي في صنع القرار السياسي الأمريكي وبين "اللوبي العربي" وتأثيره على اتخاذ القرار السياسي الإسرائيلي، ولم يستطع هذا الميزان العربي الفاسد أن يميز بين ما يظنه "اللوبي العربي" والذي تعتبره إسرائيل "المشكلة العربية"، فالأقلية العربية تعتبر مشكلة ينبغي علاجها، فكيف نصبح قوة مؤثرة يراهن عليها؟ أقلية لم تستطع حتى اليوم أن تحصل على المساواة في ظل الدولة اليهودية، لم تستطع أن تخرج من دائرة المشكوك فيها، كيف تصبح قوة مؤثرة في قضايا كبيرة أكبر من إمكانياتها؟ لقد ضخم الميزان العربي العام دور بعض القادة المحليين، الذين أصبحوا يتنقلون بين عواصم الدول العربية وفضائياتها يبيعون استشاراتهم الرخيصة والمرخصة للدول والأنظمة العربية القاصرة.

كــان مــن الممكن أن يصبح للأقليه العربية دور ما وتأثير ما ولو محدودًا في اتخــاذ القرار لو أحسنت هذه الأقلية دراسة الواقع، فعرفت ما هو المطلوب منها؟ ووضعت منهجًا محددًا لسياستها، وعملت بمقتضى إمكانياتها وبموجب سلم أولوياتها لاستطاعت تحقيق تحالفات داخل متخذي القرار السياسي الإسرائيلي لصالح القضايا العربــية .. لكن دور الإعلام العربي السلبي ساهم إلى حد بعيد في خلق وهم كبير عــند بعض القادة المحليين من بين العرب وتضخيم دورهم فأوقعهم في فخ الغرور الطــائش، حــتى أصبح بعضهم يظن أن المعارك السياسية تكسب وتحسم القضايا المصيرية بالعبارة المنمقة والألفاظ الجميلة، والتنظير الفارغ، و"العقلانية" المجافية لكل عقل ومنطق، حتى أصبحنا لا ندري هل نحن أمام امتحان في موضوع الكتابة والإنشاء أم نحن أمام مشروع سياسي يرسم الحدود ويحل إشكاليات مستعصية؟

لقــد عمل الذوق الفاسد والميزان المتعطل في العالم الغربي على تحميل الأقلية العربــية فوق طاقتها وأكبر من قدراتها قبل أن يشتد عودها، وعمل على انحرافها عن أهدافها الأساسية قبل أن تتشكل عضلاتها ويصلب ساعدها، فسقطت تحت هذا الحمل الثقيل الذي جبن عن حمله العرب والمسلمون مجتمعين ..!! وفي الوقت ذاته برهــن العديــد من قادة هذه الأقلية على أنهم مراهقون سياسيًا حتى استطاع متخذ القــرار الإسرائيلي احتناكهم وتوظيفهم في المخططات المرحلية والنهائية للسياسة الإسرائيلية . بقي علينا أن نعرف كيف حصل هذا التوظيف؟ لعل ذلك ينفعنا أو قد ينــتفع به التاريخ وسوف نترقب وننتظر ما سوف تسفر عنه الأيام: فالأيام عوامل تعــرية لأحــداث الــتاريخ وقواه الفاعلة ما كان منها علنيًا مجاهرًا وما كان سريًا متخفيًا ...

المفصـل الدقـيق بـين حـد المواطـنة للأقلـية العربـية في إسـرائيل وانـتمائها الفلسطيني :

فــي الوقت الذي أصبح هناك علاقات اقتصادية وسياسية وسياحية بين إسرائيل والعديــد من الدول العربية والإسلامية ، وأخذت عملية التطبيع بين الدولة اليهودية وبين العالم العربي والإسلامي تزداد عمقًا واتساعًا يومًا بعد يوم .. بعد أن تحولت إسرائيل من دولة عدوة، يجب إزالتها، إلى ظاهرة تفرض وجودها في واقع الحياة بقــوة سلاحها العلمي والعسكري والسياسي وتأثيرها المباشر على القرار الأمريكي والغــرب الأوروبي إلى دولة يطلب ودّها في العالم العربي والإسلامي وغيرها من

دول آسـيا وإفريقيا .. في هذا الظرف بالذات تتجمد بل تسوء العلاقات بين الأقلية العربية وبين أجهزة الدولة العبرية وقد تجاوز ذلك إلى الجمهور اليهودي، ووصل الوضـع إلـى درجة بالغة الخطورة، حتى هؤلاء الذين كانوا يتعاطفون مع الحق العربـي أداروا لـنا ظهورهـم بحجة أننا تجاوزنا حدود المواطنة وغلبنا الانتماء القومـي وتخطينا شرعية الدولة .. لقد اعتبرنا أكثر تطرفًا من كل الشعوب والدول العربـية، حتى بات العديد من الدول العربية وأجهزتها اقرب إلى دور الوسيط بين الدولة العبرية ومواطنيها من العرب ..! واتهمنا بأن سلّم أولوياتنا السياسية ليست مـبادئ المسـاواة وتحسـين شروط المواطنة بل تعدتها إلى حمل القضايا القومية والاستشـهاد دونهـا، تلـك القضايا التي لم يفلح العرب كل العرب مجتمعين على تحقـيقها. بـل أصـبحت كـل دولة تنظر إلى مصالحها الخاصة الضيقة، وباتت المصـلحة القومية ليلها الطويل تنتظر الأقلية العربية لتلقي عليها الضوء وتحملها فـوق سـواعدها الغضـة الطرية حتى تبين لنا أن تلك القضايا كبيرة وتحتاج إلى طاقـات وإمكانيات غير محدودة، بينما اكتشفنا الفرق بين التخطيط الواقعي الحي وبيـن الطموحات الحالمة، تبين لنا أن الغرور الأجوف لدى بعض قادتنا المحليين ابـتداء مـن بطرس الطرح القومي وحتى حسن الصباح صاحب قلعة الموت كان محشوًّا بهواء فاسد وأنهم قد قرأوا الواقع السياسي بصورته المقلوبة فأحضروا قالبًا معكوسًـا، هذا إذا أحسنا الظن بهم، وإذا أخذنا الحيطة والحذر قلنا: لقد أدوا دورهم في التمثيلية كما هي العادة .. وهكذا فقد نامت الأقلية العربية ساعة الرحيل.

لم تعد المشكلة هي قبول إسرائيل كحقيقة في الشرق الأوسط على أنقاض شعب فلسطين، بل لقد انعكس الوضع وأصبح العديد من الدول العربية تسعى جاهدة لكي تكون مقبولة على إسرائيل .. وأمسى السؤال الذي يلح في طلب الإجابة، ماذا عن حـق المواطنة؟ هل علينا أن نقبل المواطنة الإسرائيلية أم نردها؟ وننبذ إليهم على سـواء .. هـذا السؤال يطرحه اليوم كل من الجانبين العربي واليهودي. ماذا أيها القادة المحليون علينا أن نفعل؟ هل نقبل المواطنة بشروطها أم نرفضها وننتهي إلى نتائج غير محسوبة وكأنها قفزة في المجهول؟

الدولـة بكـل أجهـزتها تبارك هذا التوجه، فلطالما نظرت إلى الأقلية العربية باعتـبارها مشكلة زمنية ينبغي إيجاد الحلول لها، لقد استعصى حتى اليوم حل هذه المعضلة.

أصحاب الطرح القومي يعيشون حياة الرغد "الراقية" بين اليهود فـي الناصـرة

اليهودية لأن ذلك أفضل من العيش مع الرعاع .. أم أن ذلك يدخل في باب النضال والكفـــاح؟ فهو تحرير شقة في الناصرة اليهودية وخطوة أخرى على طريق تحرير الأرض والإنســـان ..؟ ومن جانب آخر هؤلاء الذين ينادون بالمفاصلة على أساس دينـــي يرفضـــون بكـــل شدة وإصرار العيش مع الجانب الفلسطيني وتحت السيادة الفلســـطينية، حـــتى وإن كـــان فـــي ذلـــك تحرير لبضعة كيلومترات من الأرض المحـــتلة..؟ وكـــأن لســـان حالهم، من قوميين ومتدينين، يكشف لنا بأوضح حجة وأفصـــح بـــيان، أنهم يفضلون العيش كمواطنين في دولة اليهود، حتى وإن كانوا مواطنين من الدرجة العاشرة على أن يعيشوا مع أشقائهم العرب الفلسطينيين .. فهم يرغبون في الإقامة بسوريا أو في قطر، وغيرها من بلاد العرب، لمدة لا تزيد عن أســـبوع تكفـــي لإسداء المشورة والظهور في الفضائيات، أسبوع نقاهة وراحة من عناء النضال المرير في الدولة اليهودية..!!

كـــان يمكـــن، أيهـــا الســـادة! أن يكـــون للأقلية العربية دور تلعبه في السياسة الاســـرائيلية، لـــو فكرت بعقول ابنائها ولم تستوردها أو تستبدلها بعقول من خارج حدودهـــا .. عقول أثبتت كسلها وعجزها في مواجهة مشاكلها هي ذاتها. كان من الممكن أن يكون لنا دور مؤثر في السياسة الاسرائيلية، لو درسنا واقعنا جيدًا بآلياتنا نحـــن، بعقولـــنا نحـــن، وحافظنا على أنفسنا من أن تصاب بعدوى رفع الشعارات الفضفاضة، وبريق البيانات الخادعة المضللة. كان من الممكن، أن يكون لنا دور، لـــو قمـــنا بعملـــية غسيل وتنظيف للرئة العربية من ذلك الهواء الفاسد، الذي لوث فضـــاءها مـــع تباشير ما سمي بعصر النهضة منذ ما يزيد على مائتي عام. ونحن نجتر هذا الهواء الفاسد، ونعيد تكرير نسخ منه كلما كسدت بضاعته فالأمة ما زالت تعيش في مصحة وتحت العلاج المكثف، فرئتها تحتاج إلى "دياليزا" من وقت لآخر، تمســـي على شعار وتصبح على شعار آخر ... وسيبقى هذا الوضع يراوح مكانه، حـــتى يأذن الله لمصالحة تاريخية بين النص والمعنى، عندما نقول ما نعتقده وإن كان خاطئًا، ولا نقول ما لا نعتقد حتى وإن كان صوابًا. وقد سبق أن كتبنا في هذا الـــباب بشـــكل واضح عن مشكلة المصطلح ومضمونه، وتلك الحرب القائمة بين الـــنص والمعـــنى .. نستجلب النص ونحشوه بمعان أخرى لا تستقيم مع الأصل ، فمثلاً نقول مجتمع المؤسسات ويعيش داخل النص معنى الانفراد وتسلط الأنا وبهذا نفرغ النص من معناه الجمعي. وهكذا تصبح المؤسسة هي مديرها، ومع كل مدير معـــنى جديد وبداية جديدة. وهكذا هو الحزب إطار ينبغي أن يضم الملايين ولكن

الزعـيم يملـؤه وحـده، ومـع كـل زعيم جديد، حزب جديد .. وكذلك مصطلح الديمقراطـية والتعددية وإذا ما أردنا ان نستحدث نصًّا يصف حال النص والمعنى، لقلنا إن النص في لغتنا الحديثة يمارس الزنى، وزناه يكون بملء أحشائه بغير معناه الأصـيل، فيضـم الـنص معنى حرامًا. وأما سلطة النص فليس هناك أجمل من مصطلحها القديم وهو مصطلح النفاق. وهكذا يكون النفاق عندما يملأ النص الجميل بمعنى حرام. ولنضرب مثلاً: في حياتنا اليومية نسمع ونعيش في ظل ما يطلق عليه نظامًـا جمهوريًّا، وهو في الأصل نظام يخالف النظام الملكي أو الاستبدادي، فهو نظـام حكـم يقوم على أساس من تداول السلطة داخل المجتمع بعد كل فترة زمنية محددة، ويتم اختيار رئيس هذا النظام عن طريق الاقتراع المباشر كما هو المعهود في الأنظمة الديمقراطية، ويكون حق كل مواطن بلغ سنًا معينة، يحدده الدستور، أن يرشح نفسه لهذا المنصب ما لم يصب بلوثة خلقية أو سياسية. فإذا حمل النظام بهذا المعـنى ثم تم وضعه بتلك المواصفات التي ذكرنا فهو ابن حلال، فيكون النص قد حمل معنى حلالاً صادقًا. وأما عندما يسكن النص (الجمهوري) رئيس مدى الحياة ثـم يدخل ابنه في هذا النص قبل موته ليملأ هذا النص، فيكون هذا النص قد زنى بالملكـية من حيث يدري أو قل بمصطلح الخلافة على الطريقة الأموية أو العباسية أو العثمانـية .. فهـي أنظمـة ملكية وراثية . وفي حالة الخلافة التي ذكرنا فإن المسـتخلف هـو صاحب السلطة هو الملك، بينما نظام الخلافة في الإسلام يكون مسـتخلفًا مـن قبل الأمة. فأبو بكر الصديق، رضي الله عنه لم يستخلف عمر بن الخطاب وإنما رشحه للخلافة، حتى يحصل على مبايعة الأمة كما لو كان عمر بن الخطـاب، رضـي الله عنه، نائبًا لأبي بكر، كما يرشح نائب الرئيس في الولايات المـتحدة لمنصـب الرئاسة .. وهكذا فإن عمر رضي الله عنه رشح لهذا المنصب خمسـة .. والخلافة الراشدة تختلف بأنها لم تكن وراثية بل كانت عامة ، والخلافة هـي للأمـة وهي التي تستخلف، لأن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مات ولم يستخلف، بل جعله حقًّا للأمة، فلا يعقل أن يفصل لنا أمور ديننا حتى أنه يعلمنا بأي رجـل ندخل المسجد وبأي رجل نخرج ثم يترك أمرًا عظيمًا كنظام الحكم من غير بـيان، وما سكت عنه الرسول إلا لأمر واجد ولغاية واحدة هو أن يجعل الأمة هي التـي تسـتخلف، وليس نظامًا وراثيًّا، يرث فيه الابن أباه في الحكم كما يرث عنه ضيعته وأملاكه الخاصة.

كهذا الذي حدث في سوريا مؤخرًا، وهي البلـد الذي يحكمهـا حـزب البعـث

العربـــي، وهو الحزب الذي يرى أن له رسالة قومية .. ولكنها أفرغت من معناها عـــندما لا يكـــون هذا الحزب قائمًا على ذهنية المؤسسة، وله برنامج حكم واضح وليس حزبًا الزعيم يملؤه طول حياته ثم يرثه ابنه في قيادة هذا الحزب .. ومن ثم أن يصبح رئيسًا للجمهورية بعد سلسلة من التجاوزات الدستورية .. وقد يكون السيد بشار جديرًا بهذا المنصب وكفؤًا له، فقد سمعته يتكلم ويطرح أفكاره في مؤتمرين، مؤتمر القمة العربية في القاهرة، والمؤتمر الإسلامي، وقد كان طرحه عميقًا ويثير الإعجـــاب ، ولكـــن تـــبقى الآلية التي جاء بها إلى الحكم غير ديمقراطية، وغير جمهوريـــة وبالتالي فهي غير سليمة. وما يؤسف له أن يبارك هذا الوضع صاحب الطـــرح القومـــي النهضوي الأخير، بطرس القومية العربية وناسكها، أبهذه الصيغ تنهض الأمم وتحقق رسالتها في الحياة؟

وهكذا هو الحال مع مصطلحات عديدة لها خطورتها في الحياة الخاصة والعامة للأمـــة،فقد أفرغت مصطلحات كالديمقراطية والتعددية والعلمانية من محتواها من معانيها الأصلية،لتحمل في أحشائها معاني أخرى فاسدة لأن سلطة النص قد فسدت قـــبل أن تفســـد معاني الحياة ذاتها، وعندما تنافق سلطة النص فلابد أن تسكب في النصوص معاني فاسدة،وهكذا تزني النصوص الجميلة بالمعاني الفاسدة..والأخطر من ذلك عندما يطول هذا الفساد الجانب الأخلاقي والديني للإنسان، عندما يستعمل الإنســـان غير الفاضل مصطلح الفضيلة فيملؤه بممارساته الفاسدة الفاحشة، وكذلك الحـــال مـــع لفظ الكرامة والشرف والمروءة عندما يستعملها الإنسان الدنيء السيئ فلابـــد أن يسكب فيها ما يقترفه من سيئ الأعمال.! وهكذا يستعمل الدجال المارق على الأخلاق ألفاظًا جميلة مثل تقوى الله وخشيته. ومع أننا لسنا بصدد خطاب في فقـــه اللغـــة، إلا أنه من المفيد والمناسب بيان ذلك عندما نعود لنتحدث عن الزنى السياســـي والـــنفاق الاجتماعي، لا سيما ونحن نعيش ذلك ويضغط علينا في حياتنا اليومية .. ونعود لنسأل قادتنا المحليين: ما هي المعاني التي تحشون بها نصوص المواطنة؟ والانتماء؟ والهوية؟ أهي أيضًا نصوص قد نما في أحشائها ما ليس منها؟

ولابـــد مـــن إثارة أسئلة عديدة موجهة لقادتنا المحليين، كما هي موجهة للطرف الآخر، للمسؤولين في إسرائيل: ما هو سقف المواطنة الذي نتكلم عنه؟ وكيف يفهمه المسؤولون الإسرائيليون؟ هل هو التسليم والخضوع من جهة والاستعلاء والتفضل من جهة أخرى؟

نحن العرب واليهود في هذه الدولة ينبغي لنا أن ندخل العامـــل الأخلاقـــي فـــي

صـياغة العلاقة التي تربطنا كطرف لا غنى عنه في معادلتنا الحياتية .. والعامل الأخلاقي هنا ليس بديلاً لشرعية الدولة والمواطنة وإنما هو بعد حاسم من أبعادها.

العامل الأخلاقي :

إن منظومة القيم الأخلاقية التي يتخلق بها مجتمع من المجتمعات تكاد تكون هي المميـز الغالب في المجتمعات المتحضرة الراقية. وهي التي تكسب الإنسانية صفة التحضـر. وكلما كان حضور القيم الأخلاقية في حياة الفرد والمجتمع أكثر بروزًا كلما كان هذا المجتمع أكثر إنسانية وأكثر رقيًا، والقيم الأخلاقية هي الصدق والعدل والإخلاص والأمانة والبذل والعطاء وكل هذه القائمة الطويلة من الصفات والمزايا الحميـدة التـي إذا فقدت من الفرد والمجتمع كان هذا المجتمع أقرب إلى المجتمع البهيمـي المتوحش، وكلما حضرت فيه أكثر كلما زاد المجتمع أمنًا وسلامة وحياة متكافلة هادئة كريمة وإذا غابت انحطت الحياة وساد الخوف وتفشى مرض الأنانية والحرص وتفشت الرذيلة، وهذا إيذان بزوال هذا المجتمع .. وبغياب الأخلاق التي تسـتمد وجودها من معاني الحق والعدل، يستبد الظلم والطغيان، فتقوم العلاقة بين البشـر علـى عناصـر الشر والجور .. ولهذا كان للأخلاق دور خطير في قيام علاقات صحيحة ومستقيمة بين مختلف المجتمعات .. والمجتمع العربي واليهودي بأمس الحاجة إلى ادخال عامل الأخلاق في صلب العلاقات العربية اليهودية وبغير الأخـلاق لا تسـتقيم هـذه العلاقة، ولن تتطور بشكل إيجابي، بل سوف تسقط في مهاوي الظلم والطغيان.

وقـد سـبق أن ذكـرنا استبداد الحكومات الإسرائيلية بالحقوق الحياتية للأقلية العربـية، بعـد أن أقامت دولتها على أنقاض الوجود الفلسطيني، فقد سلبته أرضه وحريته في التنقل والتعبير والتنظيم وحرية الإرادة والاختيار وإذا ما طالب العرب بالمسـاواة مع اليهود مثلا أجابت الدولة باستنكار: المواطنة التامة موكولة بشروط محددة لا تنفك عنها، كيف تكون المساواة بين العرب واليهود، في حين أن العرب يتهربون من تادية الخدمة العسكرية والتهرب كذلك من الخدمة المدنية في المحافظة علـى مبدأ الأمن القومي وكذلك الأمن الفردي؟ كيف يحصل العرب على المواطنة الـتامة فـي الوقت الذي لا يهمهم الدفاع عن هذا الوطن؟ بل أخلاقيًا يرون أن لا شـرعية لمثل هذه الدولة؟ كيف تكون المساواة، بينما يخسر اليهودي ثلاث سنوات من حياته في الخدمة العسكرية بينما يرفض العرب حتى مجرد فكـرة التجنيـد أو

الخدمة المدنية ؟!! كل هذه الأسئلة تدور في خواطر المجتمع اليهودي..!!

ومـــا أســـرع ما يجيب الطرف العربي على ذلك بصيغة السؤال في هذا الحوار الساخن متذرعًا بالمبدأ الأخلاقي مرة وبالمنطق السياسي أخرى. كيف لنا أن نعمل فـــي صـــفوف جيش احتل قرانا وخرب بعضها وشرد إخوة لنا؟ كيف نحمي نظامًا يقـــوم علـــى أنقاضنا؟ كيف نطمئن إلى من يسلب في كل يوم أرضنا ويهدم بيوتنا ويحاربنا في أبسط حقوقنا؟ ثم كيف نعمل في صفوف جيش رسالته ودوره محاربة شعبنا إخوتنا أقاربنا؟ نحن نتكلم عن أبناء أب وأم، أبناء عمومة كان يجمعنا بهم قبل قيام الدولة اليهودية سقف بيت واحد وبلد واحد .. هل يطيق اليهود فعل ذلك؟ نحن كعـــرب فلســـطينيين لا يمكـــن بحال من الأحوال أو تحت أي مبرر ومسوغ كان، محاربـــة اقربائنا الفلسطينيين المشردين في الخارج .! ثم إننا نحن كعرب لا يمكننا محاربـــة العرب الذين وقفوا مع قضايانا، وعانوا وقاسوا مر الصراع مع إسرائيل ومن ورائها الغرب الاستعماري .. لأن ذلك لا يستقيم مع المنطق السياسي ولا مع المـــبدأ الأخلاقـــي .. ولا إخال الدولة اليهودية، إن كانت تؤمن بالبعد الأخلاقي في تعاملها ترضى من بعض مواطنيها التخلي عن أخلاقهم؟

مـــع أن هـــذه الأســـئلة جريئة قاسية ولكنها ضرورية ويجب مواجهتها بعزيمة وصـــدق إن كـــان الطرفان جادّين ويعملان على صياغة معادلة حياتية تقوم على أسس من الصدق والاستقامة والحق والعدل .. إنها أسئلة تحوم في فكر وقلب هذين الشعبين ولابد من مواجهتها بالشجاعة والصراحة الكافية .! وإذا كان الأمر كذلك، فكـــيف يمكـــن صـــياغة معادلة المواطنة بطرفيها اليهود والعرب وعلى أسس من مراعاة بعض الثوابت في حياة كل طرف؟

أظـــن فـــي معرض الجواب عن هذا السؤال وحل هذا الإشكال لا بد من اعتماد العامل الأخلاقي كمبدأ أساسي وقاعدة من القواعد التي تقوم عليها معادلة المواطنة فـــي الدولة الإسرائيلية .. ودعنا نأخذ مثالاً حيًّا عاش اليهود سخونته وعايشه كذلك العرب بل الإنسانية كلها، وينبغي أن نترفع في مشاعرنا فأنا لا أقصد الإساءة لأحد، بـــل هو مثال قد يوفق إلى الصدق كما أنه قد يحتمل المبالغة، وعذري في ذلك هو كوني أجتهد والمجتهد قد يخطئ وقد يصيب في تقديراته وبحوثه ودراساته. فألمانيا بـــالأمس والـــيوم بعد أن تخلصت وبرئت من روح النازية التي اضطهدت اليهود ألزمت نفسها ومن منطلق العامل الأخلاقي تعويض اليهود والدولة اليهودية ودفعت أمـــوالاً طائلـــة لا عـــد لهـــا ولا حصر، ووقفت كذلك سياسيًّا ومعنويًّا مع الدولة

الــيهودية. هــذه الكفارة التي تدفعها ألمانيا لليهود شعورًا منها بالذنب والخطأ الذي وقع من بعض مواطنيها تجاه اليهود .. ومرة أخرى قد يظهر للبعض أن هذا المثال فــيه مبالغة وقسوة وظلم من وجهة نظر يهودية قياسًا لما فعله اليهود ويفعلونه مع الشــعب الفلســطيني .. ولكنه يبقى في دائرة المثال سواء كان قريبًا من الحقيقة أو ابــتعد عــنها، فمــا نهدف إليه هو الاستفادة من هذا الوضع الذي كان بين النازية والــيهود في رعاية وضع آخر فيه من الجور والظلم الشيء الكثير .. وهذا المثل تجسيد حي لمحاولة المعلم الأول أرسطو في تربيته للإسكندر المكدوني وهو يعلمه ويقــوم علــى تنشئته ويعده ليرث أباه في الحكم .. فقد عمد الفيلسوف اليوناني إلى إيقاع الظلم بتلميذه بسبب وبغير سبب، وكان ذلك يترك مرارة في نفس التلميذ، حتى إذا اســتلم الملــك أحضر استاذه أرسطو وسأله: لماذا كنت تظلمني بقسوة من غير ســبب؟ فســأله الأســتاذ : هل تشعر حقًا بمرارة الظلم؟ قال : نعم وكيف لا؟ قال الحكــيم: هــذا درس بلــيغ يمنعك من أن تظلم غيرك ... وهكذا فنحن نتوقع ممن تحملــوا الظلــم وقاســوه أن لا يظلمــوا غيرهم .. وإذا ظلموا أن يتحلوا بالوازع الأخلاقــي فيردوا المظالم إلى أهلها كلها أو بعضها، فليس هناك كالاعتراف بالظلم يزيل الضغائن والغل من القلوب، وبناء على ذلك لابد من التعويض عن هذا الظلم، إن كان الضمير اليهودي فعلاً أمام محاسبة معينة.

ونحن كعرب فلسطينيين أخرجنا من ديارنا، وقتل العديد منا، وأعدمت مواطنتنا كشــعب مــن علــى مــدرج الأمم المتحدة، وتحت سمع وبصر العالم .. لقد قتلت الإنسانية وأهينت كرامتها متمثلة بالشعب الفلسطيني .. فهل هناك ظلم أكثر من أن يــتحول شــعب يعــيش فوق أرضه إلى مجموعة لاجئين متسولين، يعيشون على صدقات الأمم وفتات موائدها ...؟ إنها مشكلة سياسية ولكنها قبل ذلك أخلاقية أيضًا وما لم تجد لها حلاً عادلاً فسيبقى الضمير العالمي والشرعية الدولية تعاني من خلل وعيــب يصــفعها باستمرار ويؤرق نومها كلما تغافلت وتناست هذا الحق الشرعي للفلسطينيين .. والدولة اليهودية والمجتمع اليهودي هو السبب المباشر في إيقاع هذا الظلــم، فهــل يســتفيق هــذا الضمير ويصحو على ما ألحقه من ظلم لهذا الشعب فيعوضه عن ذلك فيرفع عنه معاناته ويرد إليه بعض حقوقه التي سلبت منه؟

ويــا ليــت لشــعب إســرائيل مائة لايفوفيتش ولايفوفيتش، هذا الناقد الأخلاقي والاجتماعــي، الــذي ينبغي أن يعبر عن الضمير اليهودي ، إنه صيحة الحق في المجــتمع الــيهودي فــلا ينبغــي لهــذا المجتمع أن يخنقها .. ويا ليت السلطات

الإســرائيلية تســتمع لبعض نصائحه لها عندما كان يطالبها بتمييز لصالح الأقلية العربــية، بمساواتها بتعويضها على ما سلب منها، كان ينصح السلطات الإسرائيلية بمعاملة العرب الفلسطينيين معاملة طيبة وخاصة "لكي ننسيهم ما فعلناه بهم".. ينبغي أن نعــوض عليهم بعض ما فقدوه من سلب لأراضيهم ومصادرة لحقوقهم الوطنية والإنســانية .. ينبغــي أن لا نقســوا عليهم ونزيد في ظلمهم ومعاناتهم فنبقي على جــراحهم حية موجعة يستمدون منها مشاعر العداء والكراهية لنا .. ثم نأتي نحن كــيهود ونســأل: لمــاذا يــتطرف العرب؟ لماذا يكرهنا العرب؟ هذه بعض أقوال يشيعياهو لايفوفيتش في كل لقاءاته وحواراته ..

فــلا أقل أن يمسح القاتل على رأس اليتيم بدل أن يطارده ويتركه يعيش مآسيه وأحقــاده ... وهكــذا فــالأمم المــتحدة، والشرعية الدولية، وحقوق الإنسان كلها مصــطلحات فارغــة وظالمــة عندما يتعلق الأمر بالحديث عن موقفها من الحق الفلســطيني .. والأمم المتحدة هي منظومة ظالمة وطاغية ما بقي هناك شعب على هذه الأرض مسلوب الحقوق وفي مقدمتهم الشعب الفلسطيني ... من هذه المنطلقات فإن المبدأ الأخلاقي يفرض على المجتمع الإسرائيلي أن يمنح الأقلية العربية مزيدًا من حقوقها وأن يرعى مواطنتها بالدفاع عنها وتحسينها باستمرار .. وأن يزيل كل غبــن وإجحاف وظلم عنها كتعويض عما لحقها من ظلم .. ولا ينبغي الحديث عن ثــلاث ســنوات يخدمهــا المواطن اليهودي في جيش يدافع فيه عن نفسه وطنه .. كشــرط لحصوله على امتيازات اجتماعية وسياسية أكثر من العربي الذي لا يؤدي الخدمــة العســكرية .. في السنوات الثلاث التي يقضيها المواطن اليهودي في ظل الجــندية يكتســب خبرات ويتعلم أمورًا كثيرة، فهي لا تذهب سدى .. هذا حرمان للعربــي وقصــاص لــه يحسب ضده لا لصالحه ... إننا نشعر بنقص كبير جراء حــرمان ابنائنا من الجندية، ونحن الذين ينبغي أن نطالب بالتعويض عن هذا وليس العكــس. ومــا زال هــناك حائلان يمنعاننا من الالتحاق بالجندية : الأول أخلاقي والثانــي سياسي فالمبدأ الأخلاقي يمنعنا من الالتحاق بجيش ليس له هدف غير قتل أبناء شعبي وإلحاق بالغ الضرر بهم، فنحن لا نستطيع أن نقتل بعضنا ، أن يحارب المــرء أخاه وقريبه على الجانب الآخر من الحدود .. وسياسي لأن هذا الجيش هو الذي هدم القرى وشرد شعبي فكيف أقاتل فيه أخي وابن عمي؟ وكذلك فإن شرعية الدولــة ما لم ترد بعض الحقوق لي ولشعبي فستبقى تنقصها الشرعية السياسية من وجهــة نظري الفلسطينية على الأقل..هذا إذا كنا صادقين وجادين في الحديث عن

حـدود المواطـنة مـن الناحية السياسية والأخلاقية .. وخلاصة ما نرمي إليه أن حرماننا من الخدمة العسكرية هو حرمان يمنع بناء شخصيتنا القومية، ولما كان هذا الحائل هو أخلاقيًّا بالدرجة الأولى قبل أن يكون سياسيًّا فهذه بتلك، ولهذا فإن المبدأ الأخلاقـي يحتم على الدولة اليهودية تعويض الأقلية العربية عما لحق بها منذ عام 1948من ظلم واضطهاد وسلب لأراضيها بأن تمنحها المواطنة كاملة غير منقوصة.

ونحـن في حوار مستمر مع قوى السلام اليهودية، حوار ينبغي أن يستمر حيًّا وهادفاً، تلك القوى التي كانت تقف إلى جانبنا ونحن نطالب بحقوقنا، كانوا يزورون الخـيام التـي كـنا ننصبها مطالبين بحقوقنا وكانوا يشدون على أيدينا. هذه القوى أدارت لـنا ظهـرها في الانتفاضة الأخيرة وفي رأيهم أن الأقلية العربية تجاوزت حـدود المواطنة عندما تثور مطالبة ليس بحقوقها كمواطنين، وليس كذلك من أجل مـبدأ المسـاواة، أو ضد هدم البيوت إلى غير ذلك وإنما تجاوز كل ذلك ليخوض معركة القدس، والدولة الفلسطينية، والانسحاب من الجولان نيابة عن العالم العربي والإسـلامي .. ولسـان حـالهم يصرح بأن القوى اليهودية المحبة للسلام تطالب بتحسـين أوضـاع الأقلية العربية في كل المجالات .. فلو أن الذين استشهدوا في الانتفاضة الأخيرة قتلوا دفاعًا عن هدم بيوتهم، نضالاً من أجل توسيع مناطق نفوذ القـرى والمـدن العربية، من أجل الحصول على المساواة وتحسين الخدمات لظل الأمر في حدود المواطنة ..!

وإلى هذا الحد نسأل أنفسنا أسئلة محرجة وجريئة لكنه لا بد ولا غنى لنا عنها: ماذا نريد؟ وما هو المطلوب؟ وكيف السبيل؟ فهل قادتنا المحليون ما زالوا متمسكين بالهويـة والمواطـنة الإسـرائيلية ويعملون على تطويرها بتغيير منطق المواطنة السارية حتى اليوم؟ أم أننا أمام منعطف يحتم علينا رد المواطنة وحفظ العهود، كما أمـر سبحانه: ﴿... فانبذ إليهم على سواء ...؟﴾ هذه أسئلة نطرحها على قادتنا بعد أن نطلـب إليهم قراءة منطق التاريخ من جديد وفهمه جيدًا لكي يعلموا يقينا أن التاريخ مـتحرك ومتغـير لا يعرف الثبات، والمعادلة تصاغ عنده في كل يوم من جديد، ويلحقه الإعراب باستمرار، ليس هناك ثابت غير الفضيلة والصدق والعدل، فتعالوا نعيد لهذه التعابير الحياة، حتى لا يقال لنا يومًا: نامت الأقلية العربية ساعة الرحيل، ولا يكون حالنا كحال من يستعجل أكل فاكهة الصيف وهو يعيش برد الشتاء.

هذا كلام كله يحوم حول مفهوم المعاني ، أما الكلام عن النص، عن الوعاء، عن الأرض فسيأتي تفصيله.

الفصل الثالث

توفير النص واتساع فضائه كإطار لحركة المجتمع

إذا كانـــت تركيـــبة الأقلية العربية كما ذكرنا سابقًا، وإذا كان هدفاها الرئيسيان اللـــذان ينبغي أن يتمحور حولهما جل نشاطها كما سبق أن أكدناهما فيما سبق من هذه الدراسة، فحق لنا أن نلتمس الثوابت في هذه العلاقات، حتى لا نتجاوزها فنقع في خطر يصعب حصره وتقويم نتائجه، وقد يطول خطره كذلك مصير هذه الأقلية واستمرار وجودها.

وإذا كـــنا نعني بالنص هي تلك الرقعة الجغرافية التي نتحرك بها كإطار يحفظ هـــذه الحركة الاجتماعية ونموها وتمددها الطبيعي، فلكي نعلم مدى ضرورتها لنمو مجتمعنا العربي واستمراره، سيما وهي (الأرض) هناك من ينافسنا عليها بكل قوة وشراســـة، وقـــوة منافســـنا أضعاف قوتنا، فعلينا أن نعلم أن هذا النص يتسع كلما عظمـــت حركة المعاني وازداد نشاطها، فكلما كبر هذا المعنى كمًّا وكيفًا كلما احتل مســـاحة أكـــبر فـــي فضاء النص ومنع كل تسلل لمعان أخرى غازية. وهذا كان موضوع كتاباتنا في الفصول السابقة، حتى نتبين بكل وضوح ما هو مبني وما هو معرب في حياة هذا الإنسان الذي يسكن هذا النص.

وإذا كـــان عامل الأرض يشكل الإطار والوعاء الذي يحفظنا، فهو بمكان الجسد الـــذي تسكنه الروح، وروح الأرض هو إنسانها .. ولهذا فلا يمكن أن يختلف اثنان على أن ثباتنا واستمرار وجودنا حتى اليوم، إنما يرجع إلى عنصر الأرض المتوفر لدينا، والتي حاولت وما زالت تحاول السلطات الإسرائيلية سلبه وسرقته منا .. فإن هذين الشعبين العربي واليهودي يتمددان في إطار رقعة جغرافية محددة.

وفـــي منظورنا الإنساني المحدود، فإن الظاهرة اليهودية العربية في هذه البلاد، هي ظاهرة وجودية مستمرة، ضمن منظومة من الضوابط المتغيرة التي تتحكم بها، وهـــي كذلـــك فـــي مـــنظورنا الإنساني البعيد تستبد بها علاقات متغيرة، لأن هذه العلاقات تتحكم بها ظروف متغيرة ومتحولة، وخاضعة لمنطق متحول، وكل متعلق بمتغـــير لابـــد أن يلحقه التغيير أيضًا. وإذا أردنا أن نسكب معنى في النص الذي

اخترناه عنوانًا لهذه الدراسة: "المبني والمعرب" فهي في حالة العلاقة العربية اليهودية، حالة متغيرة متحولة، تخضع لعوامل غير متوازنة ومتغيرة باستمرار، لهذا فهي حالة معربة، وحركة إعرابها تتشكل بمقتضى موقعها من الأحداث المؤثرة فيها، فكل هزة في داخل إسرائيل سواء كانت سياسية أو اجتماعية لها أبعادها على هذه العلاقة، وكل اهتزاز في الشرق الأوسط يؤثر سلبًا وإيجابًا على مجمل هذه العلاقات وكذلك الحال في مستوى الأحداث العالمية.

وإذا كانت الأرض، هي الوعاء، وهي النص، وهي الحافظة التي تتحرك فيها معاني الحياة العديدة والمتنوعة، فنحن نقصد حركتنا الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية كذلك، حركتنا كأقلية قومية في منظورنا المرئي، ولخطورة البعد الجغرافي في حياة هذه الأقلية وما يترتب عليه من نتائج خطيرة على مستقبل الظاهرة العربية في هذه البلاد، من أجل كل ذلك نعتبر الأرض إحدى الثوابت التي لا يلحقها الإعراب مهما تغيرت الظروف وتبدلت الأحوال، فهي بهذا المعنى اسم مبني لا يلحقه التغيير ولا التحوير، وإذا كان ذلك كذلك فإن عنصر الأرض وملكيتها والمدافعة عنها هو ثابت من الثوابت الذي إذا ضعف أو اختلت بعض قواعده وأسسه أثرت تأثيرًا مباشرًا وخطيرًا على قوتنا ومن ثم على استمرارية وجودنا، ولذلك فهي قيمة ذاتية مبنية في صميم وفي جوهر تشكلنا السياسي والثقافي والديني.

من أجل ذلك فعنصر الأرض هو الذي يكاد أن يتحكم بمجمل العلاقات اليهودية العربية في هذه البلاد، فعندما تعترف الدولة وتقر ملكيتنا لأرضنا ولا تصادرها بشتى الوسائل، فهذا مؤشر إيجابي لتطور العلاقات العربية اليهودية بالاتجاه الصحيح، أما إذا تصرفت سلطات الدولة بكل تعسف في قضية الأرض فهذا دليل على تخطيط مبيّت يبدأ بتقييد حركتنا ومضايقتها واغلاق فرص العمل لجمهورنا ويمكن أن تنتهي بعملية تهجير واسعة يرافقها حالة من العنف المنهجي المبرمج في حبك مسرحي متقن الأدوار، لاستغفال البعد الأخلاقي العالمي والالتفاف حول الضمير الإنساني الغافل والنائم بطبيعته. وبغياب كل هذه المعاني الإنسانية يمكن أن تحدث أمور من الصعب استيعابها والتنبؤ بنتائجها.

والأقلية العربية التي تعيش ضمن حدود الدولة اليهودية تعيش ظروفًا مختلفة سواء كان ذلك من وجهة نظر المجتمع الدولي، أو ما درج على تسميته العالم العربي والإسلامي .. فقد سلم الجميع باعتبارنا مواطنين في هذه الدولة، سواء كنا مواطنين من الدرجة الثانية أو العاشرة، فليس لنا حليف يقف إلى جانبنا في نضالنا

وكفاحنا لنيل حقوقنا، فقد مر على معاناتنا ما يزيد عن نصف قرن، ولم يهب لنجدتنا أحد، وتجارب التاريخ الحديث تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن ما يسمى "الشرعية الدولية" أو "مبادئ حقوق الإنسان" لا تسري على هذه الأقلية وإذا كانت الأمم المتحدة بدستورها تعتبر أن وضع الضفة وقطاع غزة وهضبة الجولان وجنوب لبنان كلها أراض احتلتها إسرائيل في حرب 1967 أو 1982، وأصدرت قرارات تدعو إسرائيل للانسحاب منها ، ولا تفعل شيئًا في تنفيذ هذه القرارات. بل أكثر من ذلك تعتبر المقاومة لهذا الاحتلال بمقتضى دستورها حقًا شرعيًا لكل شعب يعاني من الاحتلال الأجنبي وفي حالات معينة تجند الأمم المتحدة تحت رعاية أو تحت ضغط السوط الأمريكي لتجييش الجيوش الجرارة لمحاربة هذا الاحتلال كما حدث في حالة الغزو العراقي للكويت .. بينما تنام الأمم المتحدة عن قراراتها التي صدرت عنها منذ أكثر من خمسين عامًا وبضغط من "الشرعية الدولية" كذلك بحق القضية الفلسطينية واللاجئين الفلسطينيين. وعمليًا فإنها تعتبر مقاومة الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان والجولان والضفة والقطاع عملاً إرهابيًا يجب التنديد به وكل دولة تمد يد العون لهذه المقاومة يدرج اسمها في قائمة الدول راعية الإرهاب ..!!!

فالأمم المتحدة، والشرعية الدولية، أو بتعبير أدق "الاستبداد الدولي" ومنظمات حقوق الإنسان لم تتحرك خطوة واحدة ولم تتفوه بكلمة واحدة ضد الممارسات الإسرائيلية في المناطق التي تحتلها فضلاً عن ان تتدخل لتحمي الأطفال والنساء والشيوخ المدنيين من القتل الجماعي الذي تتعرض له مناطق الاحتلال هذه .! هذه الأمم المتحدة، أو الأمم المحتلة من قبل أمريكا، لا تستطيع مساعدة أعضائها ضد التدخل الأمريكي والإسرائيلي، فكم من الصعب، بل من المستحيل، أن تفعل لنا نحن الأقلية العربية ــ المواطنين في الدولة اليهودية شيئًا ما أو تقدم مساعدة ما أو حتى كلمة حق واحدة.! وهذا لا يعني، بحال من الأحوال الاستكانة وعدم النضال في سبيل نيل حقوقنا المهضومة كأقلية، ولكن علينا ترتيب أوراقنا، وأجندتنا بمقتضى سلم أولوياتنا بما يتماشى مع إمكانياتنا المتاحة والظروف التي تمسك بحركتنا وإمكانية توجيهها.! إن واجبنا حراثة وزراعة الأرض التي تحت أيدينا واستصلاحها ومحاولة توسيعها باستمرار، وكل جهد نبذله وراء ذلك في أرض غير أرضنا، فهو سراب ووهم خادع غايته تشتيت قدراتنا وتبديد طاقاتنا .. نحن هنا نقاسي ونعاني اضطهادًا وتمييزًا فظًا منذ أكثر من نصف قرن ما تحرك أحد

لمساعدتنا وفي منظورنا الإنساني ومن خلال فهمنا لمجريات الأحداث من حولنا لن يتحرك أحد كذلك في المستقبل لمساعدتنا. ومادامت ظل وضع العالم العربي والإسلامي من التفكك والضياع كما هو في حالته الراهنة فلن يتمكن من مساعدتنا حتى لو رغب في ذلك، فهو حتى اليوم لم يستطع التحرك بإيجابية نحو قضاياه الخاصة فكيف ترجى مساعدته ...؟

من أجل كل ما تقدم فواجبنا توظيف أقصى ما لدينا من إمكانيات في سبيل تحقيق هدفينا الرئيسيين توفير الأرض والمحافظة عليها وتوسيعها باستمرار، وصياغة إنسانها صياغة نوعية متفوقة لعله يفرز ويستولد طاقات جديدة، وكل ذلك ينبغي أن يتحرك ضمن طرف المعادلة الأخرى بوصفها الطرف القوي .. فإن الظاهرة العربية اليهودية هي ظاهرة باقية على الأقل، في منظورنا البشري المحدود. وينبغي التحرك من خلالها، حتى يأتي أمر الله، أما هؤلاء السكارى على خمر الخرافات والأساطير فلينتظروا عاطلين ومعطلين عقولهم وحواسهم في انتظار الغائب القادم، والله أمرنا أن نستعد، ونأخذ لكل أمر أهبته، والله أودع في هذا الكون خصائص ونواميس ولا يحسن الحركة فيه من لم يعرف خصائصه ونواميسه .. ليس هناك أمة طلب منها ربها القراءة والتأمل والتفكير والتدبر والاستدلال والاستنتاج أكثر من المسلمين. ومع هذا هناك من يرى تعطيل كل ذلك وتغييب العقل .. ولهذا وجب علينا دراسة أحوالنا وظروفنا باستمرار حتى لا نعيش في غربة ماحقة مع الظرف الذي يلفنا من جميع جوانبنا .. وإذا كان هناك من بين قادتنا المحليين من يريد أن يحصد شهرة في سوق الإعلام باستبدالهم لأهدافنا الرئيسية، أهدافًا أخرى وبضاعة يسهل تسويقها فليريحونا وليلتحقوا بتلك الأسواق .. لأنهم بفعلهم هذا يفتقدون عقل التاريخ وصبره، ويستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، ولهذا لا حاجة لشعبنا بقادة لا يلتزمون بأهدافه الرئيسية .. أما جماهيرنا فقد علمتها حكمة الأيام، كيف يكون الصبر والثبات لنيل الحقوق، وهي تميز جيدًا بين الصمت المتحرك، والعزم المتربص، من التهور المهزوم والصياح المتقهقر.

الحركة المقيدة والخيارات الصعبة :

إن حركة الأقلية العربية البطيئة المثقلة بالقيود التي تشدّها في اتجاهات متعاكسة تنبئ عن خطورة وضعها وصعوبته ، وصعوبته تأتي من كثرة تعلقه بمتغيرات كثيرة وفي بعضها متغيرات خارجة عن إرادتها وتؤثر تأثيرًا مباشرًا على مجمل

علاقاتهــا مــع بعضها البعض من جانب وعلى علاقتها مع شركائها في الدولة من جانــب آخر، ومع انتمائها الفلسطيني والعربي والإسلامي من جانب ثالث، وحركة مجــتمع تــنمو داخل متناقضات لابد أن تثقل حركته وتقلل من فرص نموه، لكونه مــنجذبًا مــن عدة أطراف متصارعة، مصالح بعض أطرافها تتغذى على حساب الأطراف الأخرى. وهكذا فقد فرض على هذه الأقلية أن تصارع البقاء في ظروف متغــيرة وصــعبة، وهــذا يحتم عليها دراسة واقع حركتها دراسة عميقة وشاملة ومستمرة، وما لم تهضم الظرف الذي تعيشه وتعرف جيدًا ماذا تريد؟ وتحدد بصدق إمكانــياتها، وتعمــل بكل جدية وتضحية، فلن تستطيع النهوض فضلاً عن منافسة شريك قوي ومتطور ..؟

والخــيارات أمــام هــذه الأقلية لا تقل صعوبة عن حركتها بين هذه الاتجاهات المتصــارعة والمتصــادمة، وصعوبة الخيارات تطول المواقف الأخلاقية والثقافية والسياســية أيضًا، وبما أنها كذلك، فلابد من العمل بوضوح خوفًا من أن نقع على الخيار الأسوأ..

نحن كأقلية فلسطينية تعيش في وطنها داخل حدود الدولة اليهودية لا تستطيع أن لا تــتجاوب مــع مــا يحصل للطرف الفلسطيني، سواء في صراعه مع الحكومة الإســرائيلية مــن جهة أو في صراعه مع بعضه ومع غيره من الأطراف العربية والإسلامية، كما أننا لا نستطيع أن نلغي عواطفنا فلا تتأثر مما يحصل على الساحة العربية والإسلامية، من تفكك وانحلال يضر ضررًا بالغًا على نتائج الصراع على الساحة الفلسطينية والدولية .. من جانب آخر نحن نعيش كمواطنين في الدولة التي تخوض صراعًا مريرًا مع شعبنا وأمتنا، وما لم نحسب بدقة متناهية خطواتنا ونسلك بخــط سيرها بين حقول المتناقضات هذه، فلن نستطيع المحافظة على كياننا فضلاً عــن تنميــته باستمرار، ولهذا قلنا إن حركتنا بطيئة وثقيلة تشدها وتمسك بخطامها متغــيرات متناقضــة وباتجاهــات مختلفة، ولهذا فإن الخيارات المطروحة أمامها صــعبة، ولهذا لابد لها من وقفة جريئة وشجاعة: لتقرر أين مصلحتها؟ وكيف يتمّ تحقيقها؟

مــن أجل كل ذلك فلا مجال للمزايدات الرخيصة والمرخصة، وكذلك لا مجال لمن يريدوننا ان نحضر بعواطفنا، بمشاعرنا، بهتافاتنا فقط ويريدون تغييب عقولنا وآلــياتها الحســابية والمنطقية، وفي صراعاتنا الإقليمية والدولية لا مكان لقيادة ما زالــت تتتلمذ وتستمد كل خبراتها العسكرية والسياسية من مدرسة داحس والغبراء.

الوعـظ في الاتجاه الصحيح شيء جميل، والخطابة في تحريك العواطف نحو القيم والأخـلاق أمر إيجابي وكذلك القصيدة الشعرية الحالمة أو الواقعية تبقى في نطاق الفن الراقي والأدب الرفيع، لكن كل ذلك لا ينبغي أن يتحول بديلاً للبحث والدراسة والتخطـيط وإعداد البرامج المنهجية لوضع الصيغ الملائمة لبرنامج دقيق وشامل ياخذ بزمام المبادرة في تحديد أهداف وغايات الأقلية العربية وبيان مصالحها العليا .. ومـن هنا ينبغي أن يكون انتماؤنا الأول لهذه الأهداف ولمصالح الأقلية العربية العليا وبعد ذلك يمكننا ترتيب مصالح وغايات وأهداف أخرى.

وقـد سـبق لنا أن وضعنا هدفين رئيسيين لهذه الأقلية ، لا يسعها أن تغفل عن إحداهما، ولا أن تسمح لأي هدف ثانوي آخر أو موقف استثنائي طارئ أن ينحرف بخـط سـيرها ويصرفها عن تحقيق هذين الهدفين .. ونحن لا ننكر وجود أهداف وغايات كبيرة وجليلة في حياة هذه الأقلية ، وعليها أن تميز جيدًا بين الهدف الذي بـه تعـيش وتحيا وتنمو وبفقدانه تضمحل وتتلاشى ويذهب ريحها، وبين أهداف مسـاعدة من الواجب أن نشارك غيرنا في إنجازها وتحقيقها، بما نستطيع تقديمه، وبمـا لا يضر أو يتناقض مع مصالحنا العليا. وقد سبق أن تكلمنا عن الإنسان عن المعـنى، ولابد لنا أن نتم الحديث عن الهدف الرئيسي الثاني وهو النص أو الوعاء وهو الأرض، وهو الذي قلنا عنه بأنه اسم مبني لا يلحقه الإعراب.

ولبـيان مـا نرمـي إليه نسوق مثالاً حيًّا من واقع حياتنا حتى نبرهن على أن عنصر الأرض مبني لا يقبل أي مساومة لإدراجه في دائرة الإعراب.

البرنامج الهادف الطويل في مقابل الانفعال الوقتي العابر:

الطرف القوي في المعادلة التي نحن طرف فيها يصرح في كثير من المناسبات ويجـري دراسـة جديدة جادة حول الوجود العربي ويصرح بأن نسبة العرب في الدولـة الـيهودية ينبغي أن لا تتجاوز 20% من مجموع سكان الدولة. هذه الرؤية اليهودية للمشكلة العربية الماثلة أمامه والتي تؤرق قادة إسرائيل ويضعون الدراسات لعـلاج هذا الإشكال وملاحقته كيف يمكن أن نفهم أن نسبة العرب لا ينبغي لها أن تتجاوز 20% من سكان الدولة مع الأخذ بعين الاعتبار أن نسبة الزيادة الطبيعية عند العرب هي أعلى كثيرًا مما هي عليه عند اليهود؟ كان يحافظ على هذا التوازن في الماضـي والحاضر عن طريق الهجرة اليهودية. هذا العامل تشح موارده يومًا بعد يوم، وهكذا فكيف يمكن حل هذا اللغز في المستقبل المتوسط على الأقل؟ نسبة 20%

مـــن سكان الدولة ← زيادة طبيعية كبيرة ← في رقعة جغرافية محدودة ــ في ظل هجرة يهودية قليلة حاضرًا نادرة في المستقبل .. ولهذا فإن الأمر يحتاج إلى تفكير كبـــير بقدر ما هو مقلق، حتى تستقيم المعادلة من وجهة النظر اليهودية، فلابد من هجرة اضطرارية وبتعبير آخر لا بد من عملية تهجير منظمة أو شبه منظمة .. هذا الوضع يحتم علينا، على قيادتنا، على لجنة المتابعة العليا (ويا ليتها تتحول إلى لجنة مـــبادرة) وكذلـــك اللجـــنة القطرية للسلطات المحلية وباقي الحركات أن تضع هذا الإشـــكال العسير وهذا المصير المخيف نصب عينيها وفي قلبها وعقلها، حتى يبقى ماثلاً أمامنا، حتى نعلم ويعلم أبناؤنا خطورة ما نحن مقبلون عليه.

مـــن أجـــل ذلـــك قلـــنا بـــأن الأرض، هذا الوعاء، هذا النص الحافظ لوجودنا واســـتمراره ثابت ومبني لا يلحقه الإعراب في جميع ظروفه وأحواله، وهذا يلزمنا أن نجعـــل جلّ اهتمامنا ونشاطنا بل ونضالنا يتمحور في العمل على توسيع رقعة مناطق النفوذ للبلدات العربية. هذا هو الهدف الرئيسي، هذا واجب منوط بنا وحدنا ولا نتصـــور أن يســـرع لنجدتـــنا أحد ، لا جامعة عربية، ولا أمم متحدة ولا غير مـــتحدة، حتى ولا الشقيقات الثوريات. لأن الكل مشغول بمحاولة توفير أمنه الذاتي ومشاكله الخاصة، بل بتعبير أكثر دقة الكل يلهو ويلعب بقاضاياه الخاصة ويستغفل عقل جماهيره عن طريق إلهائها ببرامج تسلية ومسلسلات وهمية كلها تهدف وتعمل علـــى تغييب عقل هذه الجماهير وتعطيل إرادتها، أما قضايا الأمة الكبرى فهي من اختصـــاص نوادي الإنشاءات الخطابية والأدبية ودور الإفتاء الديني والفكري التي أقيمت لهذا الغرض.

لنأخذ على سبيل المثال لا الحصر مدينة سخنين، الناصرة، أم الفحم، أو أية قرية عربـــية أخـــرى وندرس خارطتها الهيكلية، إن وجدت خارطة كذلك أصلاً، ونرى كـــيف يمكن أن نتصور سخنين، الذي يبعد شريط المستوطنات من حولها عن دور سكنها بضعة متار فقط، في كثير من الأحوال لا تتجاوز 5 أمتار، كيف نتخيلها بعد خمســـة عشـــر عامـــا مثلاً، وهذه رؤية مستقبلية متوسطة بمقياس علوم المستقبل Futurism؟ ماذا يمكن أن يكون وضعها السكاني؟ أين يجد آلاف الشباب القادم رقعة الأرض التـــي يقيم عليها بيته الذي يأويه؟ الأمر جد خطير قد يضطره لهجرة بلده، ولكن إلى أين؟ وماذا عساه أن يكون الوضع بعد ثلاثين سنة؟ لابد أن يمتلئ الوعاء، وعـــندها إما أن يختنق، وإما أن يتمدد بحركة طبيعية خارج هذا الإناء ؟ وهنا نقف أمام الخيارات الصعبة.

إذا تحقق السلام على وجهه العادل، فقد يكون مُتسع في شرقنا الأوسط لامتصاص هذا الفائض، اما في حالة الاحتقان، كما هو حاصل اليوم، فإن الضعف الموجود في طرف المعادلة التي يحتلها العرب (الأقلية العربية) ينبغي تعويضه بقوة مساندة، وقد سبق أن استبعدنا المواقف العربية غير الجادة من التحرك في اتجاهنا، فضلاً عن أنها لا تملك القدرة حتى ولو رغبت في ذلك، فهي دول محتلة، لا تستطيع التحرك نحو قضاياها هي نفسها ..! بقي خيار اللجوء للمحافل الدولية كالأمم المتحدة مثلاً، الأمر الذي لا ينبغي أن نسقطه من حسابنا أو نغفل عنه كما هو حاصل حتى اليوم، مع علمنا المسبق أن أيدي الأمم المتحدة، متى وجدت، فهي مغلولة إلى عنقها بالضوابط الأمريكية والغربية التي تتحكم بها .. وبقي خيار أصعب وهو أن نسرح عقولنا ونمنحها إجازة قد تطول وقد تقصر في انتظار ما ياتي به الغيب أو ما تسفر عنه الأيام، ونريح أنفسنا من هذا القلق الذي يضغط على عقولنا ومن ثم يؤثر على أعصابنا ويتركنا ننتظر أمام النافذة المغلقة ننتظر المجهول القادم يطرق بابنا.؟ وهناك شرائح عريضة من مجتمعنا تعيش هذه الحالة، بل تطلبها وتفتش عنها، ولا تقتصر إشارتنا هذه على قوى الظلام والعتمة من بين قطاع المتدينين على تعدد دياناتهم ومللهم، ولكني أقصد أيضًا القوى الجاهلة واللاعقلانية من هؤلاء الذين يظنون أنهم قد حصلوا على بطاقة تؤهلهم من دخول نادي "المستنيرين". وهنا علينا أن نميز بدقة بين من ذبح عقله واغتاله على أمل أن تحضر صفقة العقول التي استوردها من وراء البحار كما يستورد أية بضاعة أخرى، وبين من عطّل عقله أو سجنه من هؤلاء الذين افتتنوا وهاموا في عشق الماضي فلم يعد يرى حاضرًا ولا يفكر في مستقبل .. قلنا إن علينا أن نميز بين هاتين الطائفتين، بين من اغتال عقله وقتله وبين من سجن عقله أو عطله، فقد تبقى إمكانية تحرير السجين وتفعيل المتعطل بينما الطائفة الأخرى قد تخلصت من عقولها وهي في انتظار صفقة العقول التي أبرمت اتفاقيتها قبل ما يزيد عن مائتي عام ولم تحضر حتى اليوم.؟!

وما بقي لبطرس الناسك وحسن الصباح دور ومكان في عجلة القيادة فسيبقى الأمر مدعاة للقلق والخوف، وقد يستغرب القارئ وحق له أن يستغرب أي نص يمكن أن يجمع بداخله بطرس الناسك وحسن الصباح؟ هل يكون هذا النص هو الفاتيكان أو قلعة الموت؟ في حقيقة الأمر لا هذا ولا تلك، بل هي خانة مجازية تعيش في عقل التاريخ ودروسه السياسية .. وهي كذلك خانة يحسن بناءها

وتجهيزها العقل الذي يحرك كل متناقضات العالم ويجمعها في وظيفة تعمل لصالح هــذا الــنظام العالمـــي الجديد .. ولا تستغرب يا قارئي العزيز أن بطرس الناسك التاريخـــي باعث الصليبية ومحركها في أوروبا كان بعيدًا عن حسن الصباح، شيخ الجبل وصاحب قلعة الموت والذي كان يعيث قتلاً وفسادًا في المشرق .. فقد كانت بضاعتهما واحدة تعرض في سوق واحدة.

وأمـــا الخـــيار الصـــعب المتبقي من بين الخيارات الصعبة، هو الإمساك بحد المواطـــنة عـــن طـــريق آلـــية يفرزها العقل الفاعل، وبمنطق دقيق لا يلغي دور العواطف والمشاعر ولكنه يلجمها من أن تتحول إلى موجة من الطغيان والاستبداد بالـــنص وحدهـــا .. الإمساك بحد المواطنة مع العمل الدؤوب والقتال المستمر في تطويـــر وتحســـين شـــروطها، وإدخال العامل الأخلاقي الغائب من صلب المعادلة الـــيهودية العربـــية. ثـــم الصدق مع النفس أولاً ومع الغير بعد ذلك في البحث عن تطبـــيق هـــذا الخـــيار وتفعيل العامل الأخلاقي بيقظة دائمة من أجل بناء الثقة في العلاقـــات واكتساب العديد من الجمهور اليهودي المتعاطف مع قضايانا، كقوة دفع وعامل تقوية في طرف المعادلة التي تعاني من الضعف. ومع صعوبة هذا الاختيار لـــدى العديـــد من الغائبين والحالمين، يبقى هو الخيار الذي أفرزه ويفرزه السياق التاريخـــي وأمـــا الخـــيارات الأخرى فهي ليست غير عملية فحسب بل هي عامل تهجير ذاتي لنا لنخرج من التاريخ تمامًا.

وهكـــذا فان العامل الأخلاقي الذي ينبغي أن يتحلى به الطرف الآخر في معادلة المواطـــنة يعمـــل من وجهة نظر عربية على استيعابنا في الدولة كمواطنين ينبغي مـــراعاة تحســـين أوضاعهم وشروط مواطنتهم باستمرار بناء على قاعدة أخلاقية تفـــرض علـــى الدولة اليهودية تعويضنا عما اقترفته في حقنا في جميع المجالات وعلـــى جميع الأصعدة..وأما من وجهة نظر يهودية فعلينا مراعاة حقوق المواطنة وحدودهـــا بكل صدق وجدية..ومن حقنا أن نناضل ونعارض ما وسعنا هذا النص، هـــذا الإطـــار في إبراز عواطفنا وتطويرها، وإذكاء روح الانتماءات المتعددة من ثقافية وسياسية ودينية في نطاق هذا النص الذي يجمعنا، وسوف نستمر في توضيح هذا الخيار.

إشكاليات العقل العربي والخيار الصعب :

عندما يكون حاضرنا مرهونًا إما لماضينا أو لأيد غريبة عنا فيمسي عقل الأمـــة

أهـون عليها من هوان قعيس على عمته[5]. عندئذ يؤم القوم مسبوقهم ويقودهم من ليس منهم .. فكيف يستقيم ظل الأمة والعود أعوج ؟...

ويل لأمة فقدت عقلها،وويل لها ثم ويل لها إذا ما فقدت شرعها..فإذا اجتمع على أمـة هـذان الويـلان فقـدان العقل والشرع، فقد استحكمت فيها الحماقة والغباوة والسـفاهة، ومن اجتمعت فيه هذه الخصال لا يستطيع تمييز خيره من شره، ومن افـتقد قـوة التمييز خرج من شر ودخل فيما هو أعظم منه .. فقد ضل من كانت العميان تهديه، وأمة هذا وضعها فلابد أن يكثر في حقلها الغرس الغريب، ومن كثر الغـرباء في داره، أمسى من الغربة قريب، فقد قالت العرب:"من يأوي مع الذئاب لابد أن يتعلم العواء". هذا الذي حدث لأمة العرب والمسلمين في تاريخهم الحديث.

فقد أقصى العرب والمسلمون العقل والشرع من حياتهم، أقصوا العقل يوم أغلقوا بـاب الاجتهاد، وفتحوا باب التقليد، وتحولت الأمة من أمة مجتهدة مبدعة ومبتكرة إلـى أمـة مقلدة، وبتعبير آخر استعاضت عن العقل الفعال أو المكتسب بلغة حجة الإسلام الإمام الغزالي إلى عقل حافظ ينقل النصوص، حتى جمدت حركة المعاني داخـل نصوصـها، وهكذا فقد أصبح الماضي يفكر للحاضر، فغاب الحاضر وقعد مكانـه الماضـي بآلياته وأدواته، فصار كل جديد بدعة، وكل بدعة ضلاله، وكل ضـلالة في النار، ومع غياب العقل وأدواته اختلطت المفاهيم، وأصبحت الأمة لا تفـرق بين البدعة والإبداع فحاربت الإبداع كما حاربت كل جديد. فحق عليها قول ربهـا: ﴿**إنـا وجدنـا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾(الزخرف الآية 23) وإذا كان الحديث خاصًا ومقيدا بالبدعة في الأمور العبادية فبغياب العقل وأدوات تحليله صار الحديث عامًا مطلقًا حتى طال حياة الأمة كلها. فحرمها من كل إبداع وتجديد، حتى لا يـؤول مصـيرها ومصير ابداعها إلى النار .. وليس هذا مكان البحث في هذا الحديـث سواء في شروطه أو متنه ودرجته، وما معنى قول عمر رضي الله عنه: "نعـم البدعة الحسنة"، على أن إغلاق باب الاجتهاد كان إيذانا بتدهور الأمة ثقافيًا وعلمـيًا. وكـان هـذا الوضع بمثابة ردة عن تلك الثورة النقدية التي قادها الإمام الغزالي وخاصة من بعده شيخ الإسلام ابن تيمية، تلك الثورة التي سبقت ثورة كانت الـنقدية في أوروبا بما لا يقل عن ستمائة سنة. ولهذا كان يرى الإمام الغزالي أن شـرط الفقـيه والمجتهد أن يتقنا علم المنطق، ومن قصر عن إدراك هذا العلم فلا اعتبار لفقهه.

وأما المصيبة الثانية التي أصابت الأمة كنتيجة لغياب عقلها هو انحرافها بالشرع

ثم إلغاؤه ، والاستعاضة عنه بمشروع العلمانية الوافد من أوروبا وقد استورده بعض تجار النصارى كما استوردوا معه مشروع الدولة القومية. وكان عرض هذه المشاريع بغياب العقل وتعطيل الشرع يلاقي رواجًا سيما وهو المنقذ والمخلص للأمة من وهدتها وانحطاطها، وما زلنا حتى اليوم وبعد ما يقارب القرنين ونحن نحاول النهوض بهذه البضاعة ولكننا نعود للسقوط في كل مرة بسقوط أمر وأقسى وحتى اليوم مازال شياطين هذه البضاعة يعرضوها صباحًا ومساء. ولو استعادت الأمة عقلها لعلمت أن "ويل أهون من ويلين" وقد انطبق عليها ذاك القول: حمقاء ولا دين لها.

فالعقل والشرع سببان متلازمان وصنوان متساندان للنهوض بالأمة، وإذا شئت قلت إن الله سبحانه قد قرن العقل والشرع في أول آيات نزلت على قلب رسول الله، صلى الله عليه وسلم حين أمره :﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق .. خلق الإنسان من علق .. اقرأ وربك الأكرم .. الذي علم بالقلم**﴾[6] " فهناك قراءة الوحي الذي هو شرع الله وهناك قراءة القلم وآليتها العقل .. وأمة فقدت هاتين القراءتين فسوف تخرج من وضع سيئ إلى ما هو أسوأ منه .. وتعال نرصد خط سير الأمة في تاريخها الحي.. عندما صاغت حياتها بمقتضى العقل والشرع، كان لها ذلك التاريخ الناصع وكان لها التمكين في الأرض، ولما غيبت العقل بإغلاق باب الاجتهاد تعطل وانحرف الشرع بالعديد من جوانبه في الزمن العثماني، ولكنه استطاع الثبات والصمود بالأمة مئات السنين ككيان سياسي مرهوب الجانب. ثم خرجت الأمة من نطاق الشرع وركضت وراء الفكرة القومية، عربها وكردها وفرسها وتورانييها إلى غير ذلك، حتى وقعت في أحضان معاهدة سايكس بيكو وتقسيم هذا العالم العربي والإسلامي بين بريطانيا وفرنسا واستعمارهما المباشر تحت اسم الوصاية الدولية وتعبير "الوصاية" أقسى على النفس من الاستعمار ذاته، فأصبحت الأمة من أمة ذات سيادة وريادة إلى أمة قاصرة غير مؤهلة أن تحكم نفسها فتحتاج إلى وصاية. هكذا يا تجار العلمانية، يا تجار الدولة القومية، بعتم أمتكم بثمن بخس دراهم معدودات وما زلتم مصرين على بيع سيادة الأمة بإلغاء عقلها واستبعاد شرعها ..!! وهكذا أفرغت المنطقة من عوامل الشرع وتجزأت دولها وشعوبها وذهبت ريحها، واضمحلت عناصر القوة فيها. ثم خرج الاستعمار الغربي بعد أن أقام وكيلاً يحكم باسمه .. واستطاع استنزاف طاقات الأمة وقدراتها وما زال، ثم دخلت في وضع أشد وأسوأ وهي تلك الحروب الداخلية بين الأهل والجيران، إلى ان سلمها سوء

عقلها وتعطيل شرعها مرة أخرى لأيدي الاستعمار الغربي ممثلاً بالولايات المتحدة. فأوروبا بدولها بخلافاتها بحروبها المريرة بلغاتها المختلفة، بقومياتها المتعددة تتحد، وإمارة البحرين والشارقة وقطر وسلطنة عمان والإمارات والكويت ... إلى غيرها تكرس حدودها وتتحالف مع أمريكا لتحفظ لها عروشها واستقلالها فتزيد ضعفاً إلى ضعف، وليت الأمراء والملوك يعون أن المواطن العادي في دولة ذات سيادة أكرم ألف مرة من أمير تابع مرتبط بذيل أمريكا. وهكذا "فإن السنابل الفارغة تشمخ برأسها عاليًا" وحال هؤلاء الأمراء والسلاطين مع هذا الضعف الذي هم فيه أمام الأوروبي والأمريكي كالمثل القائل: "عبد وحلي في يديه". وهكذا باتت شعارات العروبة والقومية والوحدة شعارات باردة باهتة لا حياة فيها ولا حراك لها، حتى انتهى الأمر بالأمة إلى أن أصبحت هذا الغثاء.

لجنة المتابعة العربية وخياراتها الصعبة :

هذه الهيئة العربية هي إفراز لهذا الواقع، وقد كثر نقدها في السنوات الأخيرة والمطالبة بإصلاحها وتطوير أدائها. وليت الحديث يكون صادقًا وجادًّا لتطوير هذه المؤسسة حتى تستطيع تحقيق الحد الأدنى من المصالح العربية في هذه الدولة. ليتها تتحول إلى مؤسسة تعمل وفق آليات خاضعة لإرادة المصلحة العليا للجماهير العربية. وإذا كان أمام هذه الهيئة هدفان رئيسيان هما: قضية الأرض والإنسان إلى جانب أهداف أخرى أقل أهمية، فمن واجبها أن لا تغفل عن غاياتها وأهدافها تحت ضغط أي مطلب استثنائي وطارئ، وعليها أن تحسن انتقاء الخيار الأفضل والأهم خاصة عندما تكون الخيارات التي أمامها صعبة ومتشابكة .. وعليها أن تحتكم إلى منطق التحليل أكثر من أن تعتمد العواطف الجياشة وتلتزم بالقاعدة التي ترى الأخذ بأهون الضررين. فإن هذه القاعدة الفقهية التي تعتبر الأكثر عقلانية، الأكثر منطقية وعلمية وبالتالي فهي الأكثر إنسانية: "درء المفاسد مقدم على جلب المصالح" لأن في درء المفاسد بحد ذاته مصلحة، فإغلاق باب الشر أولاً قبل فتح باب الخير، لأن في استبعاد الشر ذاته خير. ونحن كما سبق أن أشرنا بأننا أمام خيارات صعبة في ظروف صعبة، وجودنا كأقلية عربية كمواطنين في الدولة اليهودية وكانتماء عربي فلسطيني، كلها حالات متناقضة وظروف تشدنا باتجاهات متعارضة.

فإذا كنا كلجنة متابعة أمام خيارين نستطيع أن نؤثر في اتخاذ القرار بواحد منهما:أولاً: على سبيل المثال زيادة منطقة النفوذ بنسبة معينة وتحرير أراض محددة

لصالح البلدات العربية ــ أو ثانيًا: الانسحاب الإسرائيلي من هضبة الجولان. فبأي اختيار تأخذ لجنة المتابعة؟ إذا كان لديها سلّم أولويات في عملها السياسي، وإذا التزمت بالأهداف والمصالح العليا لهذه الأقلية ، وإذا كانت الأراضي هي الإطار وهي الوعاء الذي يحفظ وجود العرب وبغير الأرض لا وجود لهذه الأقلية ، فإن على من يرعى مصالحها واجب العمل بكل حزم على زيادة رقعة الأرض التي تعيش عليها هذه الأقلية ، لأن هذه هي قضيتها الأولى، والتي لن يأتي أحد لمساعدتها في تحقيق هذا الهدف، كما أنه لم يحدث في الماضي وعلى مدى أكثر من خمسين عامًا أن تحرك لا العرب ولا المجتمع الدولي لرفع ظلم أو حيف طال الأقلية العربية. فقد سلم الجميع أننا مواطنون في هذه الدولة وهم لا يجرؤون على التدخل في شؤونها الداخلية، فنحن أصبحنا قضية داخلية، وهذا الوضع يفرض علينا ترتيب أوراقنا بمقتضى ما يمليه هذا الوضع وحسب قواعد العملية السياسية داخل إسرائيل. ونحن لا ننكر تعاطف العرب مع قضايانا الخاصة، ولكن لم نسمع ولم نقرأ أن الجامعة العربية مثلاً أو إحدى دولها ولاحتى السلطة الفلسطينية قد قدمت شكوى إلى المحافل الدولية تتناول أوضاعنا وحقوقنا المهضومة والوقوف بكل حزم إلى جانبها، مع أن عملاً كهذا بلا أدنى شك يفيدهم في كسب التأييد لقضاياهم الخاصة .. بينما عندما يتعلق الأمر بالانسحاب من هضبة الجولان، فواجبنا يملي علينا العمل ضمن إمكانياتنا وفي ظل الظروف الخاصة التي تمسك بنا لأن تحرير هذه الأرض هي مسؤولية الشعب السوري والشعب العربي والمجتمع الدولي .. وفي اعتقادي، ولنذهب في توضيح هذا الأمر إلى مداه، ففي قضية بيت المقدس والتي يعتبرها العرب والمسلمون قضيتهم ولنقل بأن كسب معركتها أكبر من طاقة الشعب الفلسطيني وسلطته الوطنية، وجاءت السلطة الفلسطينية باتفاقية تنهي الاحتلال الإسرائيلي لكل الأراضي الفلسطينية التي احتلتها في حرب 1967 ما عدا القدس بقيت معلقة، وقام عرفات وقال هذا ما أستطيع تحقيقه ويستطيعه شعبي، وتبقى القدس قضية العرب والمسلمين، وعندما يقررون التحرك في اتجاه تحريرها فنحن كفلسطينيين سنكون رأس الحربة في تحرك عربي إسلامي شامل، ولكن ليس المطلوب من وجهة نظر فلسطينية أن يضحي من أجل هذا الهدف حتى آخر فلسطيني، بينما يبقى صاحب القضية يلهو بشعاراته ويجتر هتافاته .. من هذا المنطلق نحن كأقلية فلسطينية تعيش في الدولة اليهودية ليس مطلوبًا منا أن نضحي بآخر فلسطيني من هذه الأقلية من أجل قضية عامة لا يتحرك أهلها خطوة واحدة

جـادة لمعالجـتها، كمـا أنـنا نفهم القادة المصريين وهم يتهمون الأنظمة العربية بخذلانها في معاركها وكأن العالم العربي يريد أن يحارب لآخر جندي مصري من أجـل قضايا العالم العربي...وهذا حال الواقع السوري أو العراقي .. من أجل ذلك لابد من إدخال العامل الأخلاقي في صلب تعاملنا مع قضايانا القومية والوطنية.

عـندما تخـوض الأقلية العربية نضالاً مريرًا تقدم فيه الشهداء من أجل قضايا عربـية عامـة سـكت عنها العرب، وتتجاوز بذلك حدود المواطنة أو ما يعتبرها المجـتمع الـيهودي تمردًا على هذه المواطنة، فتخسر كل من كانوا يتعاطفون مع قضـاياها الخاصـة من اليهود، بل يمكن أن يؤدي الوضع لما هو أخطر من ذلك، فيـتهدد كيانها ويصبح استمرار وجودها في خطر..ولو أن هذه الضحايا قدمت في سـبيل الحفـاظ على أرضنا وبيوتنا من الهدم والمطالبة بالمساواة وتحسين شروط المواطـنة لربحنا معاركنا ولبقي تعاطف الجانب اليهودي لمطالبنا العادلة قائمًا، أما أن لا نحسـب ولا نعـد لكل معركة عدتها فسوف يتحول نضالنا إلى عبث تلهو به قـيادة قاصـرة لا ترى أبعد من موضع أنفها، معركة القضايا العربية والإسلامية العامـة أكبر من طاقتنا وأكبر آلاف المرات من طاقة المزايدين من بيننا .. وكما سـبق أن ذكـرنا بـأن السلطات الإسرائيلية تحلم بذلك اليوم الذي نعطيها الذريعة لـتمارس ضـدنا اضطهادًا وظلمًا يضطر البعض منا خاصة هؤلاء المزايدين أن يفتشـوا عـن مكان أكثر دفئًا وأمانًا وسلامًا..عملية التهجير الذي تنادي به بعض الجهات الإسرائيلية تكبر يومًا بعد يوم وهذا ينبغي أن يثير لدينا القلق حتى يبقى في دائـرة اهتمامنا .. وأما هؤلاء المزايدين فهم أول المنهزمين فقد أخبرنا عنهم رب العـزة سـبحانه :﴿**أشحة عليكم، فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير، أولئك لم يؤمنوا فأحـبط الله أعمـالهم ...**﴾(الأحزاب 19)[7]. وعلينا أن لا نستبعد ذلك فقد حدث وما زال يحدث ونحن نعيش هذه الأحداث، فهذا لبنان، والبوسنة والهرسك، وكوسوفا والعديد من الدول الأفريقية.

كمـا أنه على قيادتنا أن لا تغفل للحظة واحدة أننا نعيش ضمن معادلـة جائرة للمواطنة في الدولة اليهودية، لم نحصل على كل حقوقنا ، ونحن نحتفظ بانتمـائنـا القـوي والديني، ومع صعوبة جمع أطراف ومركبات هذه المعادلة والتنسيق بينها لكـنها تظـل هي الخيار الوحيد للعيش فوق أرضنا وبين أحضان وطننا ونناضل لتحصيل قوتنا من بين فكي الحكومات الاسرائيلية.

فالحـــركة الإسلامية، على سبيل المثال، عندما قررت ممارسة النشاط السياسي حصرت حركتها ضمن خطي عرض لا يجوز تجاوزهما :

1- العمـــل فـــي نطاق ما أباحه الشرع الحنيف، فيما يتعلق بمصلحة المسلمين، وحظرت أي تجاوز لدائرة الحلال في نشاطها السياسي.

2- العمل ضمن ومن خلال قوانين البلاد فلا يصح تجاوزها أيضًا.

كـــان هذا الموقف الصادر عن المرجعية الفقهية للحركة متمثلاً بأمر الشيخ عبد الله نمـــر درويـــش، جـــزاه الله عن المسلمين خير الجزاء. كل هذا مع الأخذ بعين الاعتـــبار المتغـــيرات الظرفـــية لهذه الأقلية التي تنسجم مع المتغيرات التاريخية، فالـــتاريخ تعمل فيه عوامل التعرية من كل جوانبه، ويبقى خط سيره ضمن موازنة دقيقة لميزان القوى السائد ومتغيراته.

وكذلـــك فـــإن القوى الوطنية متمثلة بالحزب الشيوعي فأيديولوجيتها تحتم عليها العمل السياسي في نطاق قوانين الدولة اليهودية.

بقـــي أن نسأل القادم الجديد / القديم الذي احتل بسرعة مكانة مرموقة في النظام العربـــي المبنـــي للمجهول، وأحرز شعبية لا بأس بها في الفضائيات العربية التي تســـبح فـــي القاع. هذا المستوطن الجديد بمشروعه الهجين صاحب القدرة البارعة علـــى إسداء النصائح "الاستشارية" و"التنظيرية" على أنواعها ما يصلح منها للشيخ زايـــد وما يتمشى مع النظام الثوري السوري .. هذا المستوطن الجديد الذي يعمل ضـــمن خطوط الطول الحقيقية التي بدأت بروما عام 1996 والذي يدور مع نظرية العولمـــة، يبيت حيث تبيت ويصحو حين تصحو، فهو يتحرك في خط سيرها وقوة دفعهـــا، لكيلا يستنفذ وقوده الذاتي. وبمناسبة الانتفاضة نسأل بطرس روما، بطرس الأنظمة العربية المبنية للمجهول، هل استبدل مواطنته مثل ما يستبدل حماره في كل مرة؟ يا هذا يقول المثل الإسباني: "من يخدم سيدين فلابد أن يكذب على أحدهما".

وليت جمهورنا يطلع على مواد الاتفاقية بين بطرس روما وشيخ الجبل صاحب قلعة الموت "فهما زندان في وعاء واحد".

ولله در أبي الهلال العسكري حين قال:

فلـــو أنـــي جُعلـــت أمـــير جيش   لمـــــا قاتلـــــت إلا بالســـــؤال
فـــإن الـــناس يـــنهزمون مـــنه   وقـــد ثبـــتوا لأطـــراف العوالي

الفصل الرابع

القوى الفاعلة في تاريخ لا يكتب

الأقلـية العربية، هو ذلك الجزء من الشعب الفلسطيني الذي بقي متشبثاً بأرضه وفي وطنه بعد عملية التهجير الجماعية التي حصلت للشعب الفلسطيني عام 1948 عشـية قيام الدولة العبرية، هذه الأقلية التي لم تكن تتجاوز يومها 180 ألف نسمة، عـزلاء من كل شيء، قيادتها الدينية والوطنية غادرت البلاد، أقلية ضعيفة لا تملك قـوة سياسـية ولا اقتصادية ولا ثقافية، ليس فيها تنظيم سياسي واحد، غير الأطر العائلـية تحكمهـا العلاقـات العشـائرية .. لـم يبق هناك غير الحزب الشيوعي الإسرائيلي كحزب يهودي عربي يقوم بنشاط في الأوساط العربية .. هذه الأقلية قد حكمـت بواسـطة الحكم العسكري بقوانين الطوارئ. هذا الحكم العسكري البغيض الـذي كان يمسك بخناق الأقلية في كل المجالات فصادر أرضها وأذل كل شريف يجرؤ على انتقاده ويتفوه بكلمة حق. ومنع منها التعبير وحرية التنقل والعمل.

وعلـى الـرغم من ذلك فقد ظهرت في الخمس والعشرين سنة الأولى من عمر الدولـة العبرية قوى وطنية وقومية متعددة، كانت تحاول في ظروف صعبة، قيادة العمـل الوطنـي، كانـت خطواتهـا تتميز بالعفوية والارتجالية وردود فعل على الممارسات القمعية للحكم العسكري ضدها، ولم تستطع هذه القيادة من بلورة منهجا أو بـرنامج سياسي واضح أو إيجاد آلية متطورة تتمكن من حشد الجماهير العربية وتجمـيع طاقاتها وتوظيفها لإنجاز مشروع أو خطة واضحة المعالم تعمل جنبا إلى جنـب مـع الحـزب الشـيوعي العربي اليهودي الذي كان يملك برنامجًا وسياسة واضحة بصفته الحزب الذي تعترف به السلطات الاسرائيلية.

كـان من الصعب على المجتمع العربي داخل الدولة اليهودية إفراز قيادات تقود العمـل السياسـي وتكون على مستوى الظروف الصعبة التي تعيشها هذه الأقلية. نظرًا لأوضاعها الداخلية الخاصة وأوضاعها الخارجية حيث تمكن الحكم العسكري الإسرائيلي من تفريغ طاقاتها وإهدارها في خلافات جانبية من عشائرية حمائلية ..

كانت هذه الأطر المتخلفة ضعيفة أمام سلطان الحكم العسكري نظرًا لتكريس طاقاتها في خلافات داخلية بين الحمائل وكل حمولة تريد أن تتودد للنظام المستبد أكثر لعلها تكسبه إلى جانبها في خلافاتها مع غيرها، وهكذا حال مجتمع منقسم متخلف لا يملك من أسباب القوة، كيف يمكن أن يقود صراعًا مع نظام قوي يملك من أسباب القوة والجبروت ما لم تستطع قوى العالم العربي المبعثرة الصمود أمامه؟ بقيت تلك الصرخات لأفراد تنادي وجماعات قليلة تعمل للنهوض بالقضية العامة في مقابل القضايا الخاصة المنقسمة على ذاتها والتي كانت السلطات الإسرائيلية تحسن التعامل معها بإذكاء روح الخلافات فيما بينها، لا سيما إذا كانت تلك القوى واعية لحجم المؤامرة وتريد أن تدخل الوعي الوطني لحياة الفرد والمجتمع، كان يحارب في رزقه وحريته وحركته وتقف القوة الإسرائيلية ذات الخبرة التاريخية المشهورة في التعامل مع مثل هذه الأوضاع حيث تقف مختفية خلف المتراس مع القوى المتخلفة، تزيد نار اقتسامها وخلافها. كان يكفي لأي مثقف وطني أن يكتب ويعمل ضد النظام الحمائلي حتى يصبح في تعريف القاموس الإسرائيلي عنصرًا معاديًا للدولة ينبغي تقييد حركته والحد من حرية التعبير وإبداء الرأي ونشر فكره .. كانت صورة الدولة العبرية في العالم الغربي، تلك الدولة ذات النظام الديمقراطي التعددي اللبرالي في غابة الشرق الأوسط. بينما هذه الدولة "المستنيرة" كانت تساند قوى التخلف والتعسف والدكتاتورية في الوسط العربي على المستوى المحلي وكانت حليفة لحكم الأقلية البيضاء في جنوب إفريقيا. هذا التناقض في موقفها هو نفسه التناقض الذي تعاني منه الديمقراطيات الغربية في تعاملها داخل وخارج كياناتها؟ من أجل ذلك كان على القيادات الشابة في الأقلية العربية أن تتحمل أضعاف ما يمكن ان يتحمله أمثالها في مجتمعات أخرى .. كانت أجهزة الدولة تعمل على أن تبقي الأقلية العربية متخلفة ثقافيًا منقسمة سياسيًا بطبيعة أوضاعها الاجتماعية، فكان ذلك أسهل لقيادتها وتمرير سياستها في سلب أراضيها ومحاصرة طموحاتها فلا تتجاوز المخترة أو مكانة متنفذة في داخل الحمولة، أما أن توجد قيادة تتجاوز طموحاتها المستوى العائلي والحاراتي أو القرية لينظر في قضايا الأمة العامة فهذا وضع يستدعي التدخل الفظ من قبل أجهزة الدولة، ولعل شعار مستشاري رئيس الحكومة للشؤون العربية ونصائحهم على إبقاء الأقلية العربية متخلفة ثقافيًا وعلميًا وجاهلة سياسيًا فهو أسهل لقيادتها وما زالت نصيحة المستشار لوبراني ماثلة يرجع صداها من فترة لفترة حيث أوصى أن يبقى العرب "حطابين

ورعـــاة ماشية" ولعل هذا الحل قد استعاضه من فلسفة برفسور مورجنثاو اليهودي فـــي نظريته في السياسة الواقعية يوم كان مستشار الأمن القومي لرئيس الولايات المـــتحدة بعد الحرب العالمية الثانية .. حين عرض على الحلفاء في مؤتمر ما بعد الحرب الذي ضم تشرتشل وستالين وروزفلت خطة لمنع ألمانيا من أن تقوم بحرب أخـــرى. كانـــت خطـــته، تدمير الصناعة الألمانية وإعطاء كل ألماني نايًا وعصا وقطيعا من الماشية. كانت خطة في غاية البساطة تخلو من التعقيدات ولكنها تحمل الإعـــدام للشـــعب الألمانـــي مما جعل تشرتشل ينتفض غاضبًا ليقول نحن لا نريد القضاء على الشعب الألماني، إن ما نريده هو القضاء على الروح النازية التي كان يتحلى بها النظام الألماني.

فـــي سنوات الخمسين ظهرت أول صرخة ضد سياسة التمييز والاضطهاد الذي يمارســـه الحكم العسكري ضد الأقلية العربية من منطلق قومي، وأهابت بالجمهور العربـــي أن يـــرتفع إلى مستوى قضاياه الحقيقية وأن يوحد صفوفه، وهذه الجماعة تســـمت بجماعـــة الأرض تعبيرًا عن دور الأرض وأهميتها في حياة هذه الأقلية ، وكانـــت تصـــدر نشـــرة شبه سرية لمرة واحدة تحت اسم "الارض". هذه الجماعة حاولـــت في سنوات الستين من القرن العشرين أن تعمل في نطاق القانون وتشارك فـــي انتخابات الكنيست لعام 1965 ولكنها منعت بإخراجها خارج القانون بقرار من محكمة العدل العليا..

ونظـــرًا لظـــروف القهـــر التي كانت تعيشها الأقلية العربية وملاحقة قادة هذه الجماعة اعتقالاً ونفيًا مما أبقى على هذه الجماعة تمارس نشاطها السياسي ولكنه لم يـــرق ليصبح جماهيريًا .. في سنوات الخمسين أيضًا شهدت ساحة الأقلية العربية مـــيلاد لجـــنة الطـــلاب العرب في الجامعة العبرية في القدس. وكانت هذه اللجنة تمـــارس نشاطًا سياسيًا إلى جانب عملها كلجنة للطلاب وكان يتناوب على قيادتها جماعة الأرض والحزب الشيوعي. كانت لجنة الطلاب قوة ذات نشاط متمم ومكمل لنشـــاط القـــوى الوطنـــية والقومـــية الأخرى، بصفتها جسمًا تمثيليًا منتخبًا بشكل ديمقراطي مباشر.

في هذه الظروف كانت الأقلية العربية تمتص ضربات الاضطهاد والملاحقة من قـــبل الســـلطات الإسرائيلية، وهي في حالة عزلة شبه تامة، وعزلاء كذلك من كل آلـــيات المقاومة، إلا ما كانت تحتفظ به من مخزونها الحضاري، كانت عزلاء من التنظـــيمات والأطـــر السياسية والاجتماعية والدينية .. حتى طلائعها لم تكن تملك

بـــرنامجًا سياســـيًّا واضحًا ولا آلية لتحريك الجماهير العربية .. لم يكن هناك أكثر تنظـــيمًا مـــن الحـــزب الشيوعي وكان في ظروف معينة يستطيع تحريك الشارع العربي في مظاهرات عارمة كما حدث لمظاهرة أول آيار 1958 في الناصرة، قبل أن تصـــطدم مـــع برنامج عبد الناصر القومي الذي احتل بسرعة الشارع العربي وأصـــبح أمل العرب في حياة كريمة تنهض بالقضايا العربية مثل الوحدة والعدالة والقـــوة وتحرير المشروع العربي النهضوي من الأيدي الهجينة التي أمسكت به ما يفـــوق عـــن مائـــة سنة .. هذا المشروع قد تصادم مع المشروع الشيوعي وترك انعكاســـه علـــى قوة الحزب الشيوعي نفسه وشعبيته في المحيط العربي .. وبقدر الآمـــال التـــي عقدتهـــا الأمة على مشروع عبد الناصر القومي كانت خيبة الأمل والاحـــباط الذي أصابها بعد نكسة حرب حزيران 1967 وهزيمة المشروع القومي في مجاله العسكري والسياسي والأيديولوجي.

كـــان الشـــيوعيون العرب ملاحقين ومضطهدوين ويتعرضون للقمع من أجهزة الدولـــة لا لكونهم شيوعيين، بل لأن الريبة والشك اللذين تتعامل بهما أجهزة الدولة مع الأقلية العربية جعلتها تظن أن انضمام العرب لهذا الحزب ما هو إلا ضرب من الـــتمويه والتضـــليل لأجهـــزة الدولة يخفي وراءه عداء للدولة العبرية ومشروعها الصهيوني.

الرفض والتحدي الصامت :

كانـــت الأقلـــية العربية تجابه الاضهاد والظلم بنفسية الرفض الصامت، التحدي المكـــبوت الـــذي ينتظر من يغيثه وينجده لتحقيق بعض حقوقه، كانت تنتظر العون والفرج على أيدي الأنظمة العربية، خاصة المشروع القومي الناصري. كانت هذه الأقلية تنظر لكل أجهزة الدولة اليهودية على أنها أجهزة مغتصبة تنقصها المصداقية الأخلاقية والشرعية السياسية، فهي أجهزة قمع وقهر واستبداد وتستمد شرعيتها من قوة بطشها فقط .. كانت النفسية العربية لا تسعى وراء المواطنة، لأن المواطنة في ذلك الوقت كان ينقصها البعد الشرعي في مستواه السياسي والاخلاقي .. إلا ما كان من أعضاء الحزب الشيوعي الذين كانوا يعترفون اعترافًا كاملاً بشرعية الدولة.

بقـــي الوضـــع كذلك حتى هزيمة 1967 العسكرية للأنظمة العربية وفي مقدمتها المشـــروع القومـــي وخيـــبة الأمل والإحباط الذي أصاب أوساطًا واسعة في الأمة برمـــتها. فـــي هـــذا الوضع برز الدور الإسلامي وغيابه من معادلة الصراع التي

صـــاغها العـــرب. وعندما نقول الدور الإسلامي، لا نعني صفاء الإسلام وتعاليمه المـــتفوقة ، الإســـلام قيمة ذاته بل بدقة أكثر محاولات توظيف هذا الإسلام لصالح المعـــركة العربـــية من جهة أو من أطراف وجماعات أخرى تعيش في تصادم مع الأنظمـــة .. وفرق كبير وكبير جدًّا بين الإسلام بذاته ولذاته وبين توظيفه كآلية من أي طرف كان سواء ادعى الإسلام أو العروبة. الإسلام هو دين الله، ومن يبتغي به غـــير وجه الله فلن ينجح مشروعه، لأن هذا الدين لا يقوم إذا أفرغ من محتواه كما يفرغ غيره، فهو آلة نفسه ووسيلة ذاته، وليس وسيلة لتحقيق أي غرض آخر. ولهذا يتعـــثر هـــذا المشـــروع ويهلـــك كل هؤلاء الذين يقصدون توظيفه لأغراض غير أغراضه ذاتها.

بعد هزيمة 1967 تحولت المقولة العربية من استرجاع فلسطين، كل فلسطين إلى مـــا عـــرف في السياسة العربية آنذاك بمصطلح "إزالة آثار العدوان" وهو مطلب العـــرب الـــذي تركز حول استرجاع الأرض التي احتلها الاسرائيليون عام 1967. حـــتى قرار التقسيم 181 لعام 1947 لم يعد يظهر في أجندة الماطلب العربية .. هذا الظـــرف جعـــل النفســـية العربية تتحول من نفسية رافضة للسيادة الشرعية للدولة الـــيهودية إلـــى نفسية مستسلمة لهذه الشرعية. بعد يأسها من استيراد الحلول عبر الحـــدود وهكـــذا تحولت من نفسية رافضة للشرعية المغتصبة إلى نفسية استسلمت لشرعية الدولة مع يقينها أنها قامت تحت عامل القوة. في فترة ما قبل حرب 1967 كانـــت نفســـية الـــرفض الصـــامت والـــتحدي المكبوت تلقى لها تعبيرًا في بعض الصرخات التي تطلقها القيادات الوطنية كجماعة الأرض، ولجنة الطلاب العرب في القدس وهي حركات وتنظيمات غير معترف بها من قبل السلطات الإسرائيلية.

كان المشروع الناصري عواطف جياشة تتدفق في الشوارع والأزقة والمنتديات العربـــية مـــن غير تنظيم .. والمشاعر والعواطف الغير مضبوطة وبالتالي الغير منظمة يسهل سرقتها والانحراف بها وتوظيفها في تحقيق غايات غير غايتها، وهذا الذي حدث ويحدث للمشروع القومي الناصري، عندما يفرغ من محتواه ويصب فيه فكر آخر كان في يوم مما مضى يكيد لهذا المشروع ويتآمر عليه .. هذه العواطف التـــي كـــان يمـــثلها العديـــد من العرب في الدولة اليهودية، كلجنة الطلاب العرب وجماعة الأرض وغيرها ممن يحملون أسماء غير الناصرية كلها خفت صوتها بعد هـــزيمة 1967 خاصة بعد الملاحقات التي شنتها أجهزة الدولة العبرية لهؤلاء سواء مـــن طـــلاب أو من جماعة الأرض فأودعت بعضهم السجون ونفي آخرون حتى

فضل بعضهم النفي الاختياري خارج حدود الدولة .. ضعف صوت جماعة الأرض وغـاب عـن الساحة وتلاشى تأثيرها .. وتركت المجال لبروز تيارات أخرى في السبعينيات من القرن العشرين كحركة أبناء البلد، والحركة الوطنية التقدمية كإطار يضـم العـرب والـيهود، وقيام اللجنة القطرية للسلطات المحلية العربية بعد يوم الأرض مـن سنة 1976، ثم تشكيل الجبهة من الشيوعيين وغيرهم ممن يتعاطفون معهم، وفي هذه الفترة أيضًا برز التيار الإسلامي كقوة مجابهة عظيمة كما سنرى. وظهرت كذلك لجنة المتابعة العليا عام 1982.

لجنة المتابعة العربية بين التجديد والبناء من جديد :

العقل والإرادة بين الغياب والحضور :

إن كـل هـيكل أو إطار تنظيمي ما هو إلا أداة لتحقيق غايات مطلوبة وأهداف محددة. وهذا الإطار هو الكيان الذي تتفاعل فيه نشاطات القوى الفاعلة فيه. ويقاس نجاحه بمقدار نشاط الحركات الذاتية المتفاعلة من خلاله وإيجابية توجهاتها، وكذلك قدرتهـا علـى تحقيق كل أو بعض تلك الغايات والأهداف. وما بقي هذا الإطار أو الهـيكل مكانًا تتفاعل فيه القوى وتصب فيه جلّ نشاطها، فهذا دليل على صلاحية وجـوده واستمراره. وفي العمل السياسي فإن الإطار يلزمه أن يكون مبادرًا، وهو الـذي ينبغـي أن يسبق بتخطيطه ودراساته عفوية الجماهير، والأطر والتنظيمات الحـية هـي التـي تتفاعل فيها القوى الجماهيرية كما تتفاعل المعاني الحية داخل نصوصـها. وإذا مـا حصل خلل بين هذه المعاني والنصوص، فيحدث أن تتفلت المعاني من نصوصها، وتصبح هذه النصوص فارغة وخربة تحتاج إلى من يحفظها فـلا تجد غير بطون المعاجم، وهكذا أيضًا حال الأطر والهياكل والتنظيمات، إن لم تجدد بناءها لتستوعب حركة الجماهير ونشاطها، فسوف تهجر الجماهير هذه الأطر والهـياكل وتتركها خربة يقف على أبوابها عدد من الموظفين المنتفعين المترهلين، الذيـن ينزلقون مع وحل أنانيتم وشهواهم، ولا يقبل عليهم غير باحث اجتماعي أو دارس للتاريخ.

والتنظـيم الـناجح هو التنظيم الذي يقوم على منطق وفلسفة متحركة بمقدورها استيعاب كل جديد، وهو كذلك قادر على إبداع آلية يستطيع بواسطتها تحقيق غاياته وأهدافه، ونجاح القيادة يقاس بمدى توجيهها لحركة الجماهير العامة، وتأثيرها على خـط سـير المجـتمع بما يتلاءم مع الأهداف التي تصوغها تلك القيادة المتحركة

بسرعة تسبق الحركة الجماهيرية، وهي التي تستطيع أن تبدع عقلية جمعية وإرادة اجتماعـــية ومصلحة عامة. أما عندما تشيخ هذه الأطر وتهرم فلا تستطيع استيعاب حركة الجماهير فسوف تصبح عبئًا وعائقًا يعيق الحركة الجماهيرية وعربة القيادة يجرها الجمهور وراءه بدل أن تقوده وتتحرك أمامه .؟ وينطبق عليها قول وايزمن في خطابه للصهيونية "لقد اختار اليهود قيادة ليقودوها".

وهذا الكيان ينبغي أن تنمو أطرافه بشكل متناسب فلا يتضخم طرف على حساب طــرف آخــر فــتفوته حالة الاستقامة والاعتدال إلى حالات التطرف والانحراف. ورحم الله فيلسوف الإسلام الفارابي عندما مثل كيان مدينته الفاضلة، بجسم الإنسان وكان أشرف ما في هذا الكيان هو قلبه ورأسه.

تعريف عام :

لجنة المتابعة هي كيان تمثيلي يجمع ويضم القوى الفاعلة على الساحة السياسية والاجتماعــية والثقافية للأقلية العربية الفلسطينية في إسرائيل، وقد تشكلت في عام 1982 لمتابعة موضوع أحداث يوم الأرض من كل جوانبه، ومع الوقت أخذت شكل المؤسسة التي تبحث في شؤون هذه الأقلية وتعالج مشاكلها .. ولهذا فهي كيان يضم قــوى عاملة وفاعلة تختلف في أطروحاتها السياسية والاجتماعية والعقائدية، ولهذا فهـــي غـــير منبثقة عن عقد اجتماعي محدد أو أيديولوجيا معينة، وليس لها برنمج اجتماعـــي ولا سياسي واضح خاص بها. لأن الجماعات الفاعلة في داخلها تختلف مقولاتهـــا وطـــروحاتها بمقتضـــى انتماءاتها وعقائدها. من أجل ذلك فلا ينبغي أن تـــتحول إلـــى ســـاحة للنزال الفكري الأيديولوجي أو للمزاحمة الحزبية والحركية. وبذلك فهي أقرب إلى كونها هيئة تقوم على تنسيق المواقف المختلفة والمتباينة، لكي تحـــافظ على المصالح العليا للأقلية العربية في هذه البلاد والتي تتلخص في هدفين رئيسيين، يمكن أن تتشعب منهما أهداف كثيرة:

1) العمـــل على توفير الأمن والحياة واستمرارية الوجود والنمو للكيان العربي والعمل على زيادة ثقله النوعي حتى يمتلك كثافة عالية يكون لها تأثير في صياغة مســـتقبلة بمقتضى إمكانياته المتاحة، ورعاية امتداداه الأفقي والعمقي، فوق أرضه وعلى تراب وطنه، ضمن أطروحة الدولة العبرية، والعمل على إمكانية تعديل هذه الأطـــروحة، بحيـــث تشـــمل فـــي خطتها الاستراتيجية وجود الأقلية العربية كأحد مركباتها الأساسية صاحبة تأثير في قراراتها المصيرية.

2) الهدف الثاني يرمي إلى توفير مناخ وبيئة ثقافية واجتماعية وسياسية قائمة على مسلمات الحضارة العربية الإسلامية، وفي مقدمتها تطوير لغتها كآلية اتصالات والعمل على إتقان هذه اللغة وفهم نصوصها وتطويرها، والانتقال بالانسان العربي إلى إنسان منتم لحضارته وتراثه. وعلى شركائنا في الطرح القومي أن يدركوا أن كل محاولة لهم.بقطع جذور هذه الأقلية عن تراثها وحضارتها الإسلامية لا تخدم بالتالي غير المخطط الصهيوني في إبعادنا عن جذورنا وبيئتنا الثقافية والاجتماعية.

فإذا كان الهدف الأول هو توفير البيت الدافئ وصيانته والعمل على توسيعه باستمرار، فإن الهدف الثاني يتمحور حول رعاية سكان هذا البيت والمحافظة على مصالحهم مجتمعين، والعمل على بعث روح ثقافة وتربية تقوم على رعاية عقلية جمعية ترى في شرائح المجتمع مكملة ومتممة بعضها بعضًا، والإبقاء على روح التزاوج والمشاركة والاحتكاك الفكري لدى مجمل التيارات والحركات الفاعلة في نطاق هذا البيت، وحرية التنقل بين غرفه وردهاته .. بتعبير آخر، منح الحركة الفكرية حرية التعبير وحق الانتقال من فكر إلى فكر، ومن انتماء إلى آخر من غير حجز على حرية اختياره ولون ثقافته، ونوع حياته الاجتماعية.

معطيات تاريخية :

بعد هزيمة الدولة العثمانية على أيدي البريطانيين والفرنسيين وحلفائهم من أصحاب "عربية الفتاه" وانحسار الحكم العثماني عن جميع الأراضي السورية والعراقية واقتسامها بين فرنسا وبريطانيا بمقتضى اتفاقية سايكس ــ بيكو، واستغفال العقل العربي الذي كان غائبًا في الأصل، وكذلك جاء الإعلان عن وعد بلفور، وزير خارجية بريطانيا سنة 1917 باقتطاع فلسطين ومنحها كوطن قومي لليهود، حدث هذا حتى قبل الانهيار التام للسيطرة العثمانية على سوريا، وكأن هذا الإعلان أحد مطالب "عربية الفتاة" وثورتها العربية الكبرى .. وكان هذا إيذانًا ببدء الهجرة اليهودية المنظمة إلى فلسطين، تحت رعاية وحماية التاج البريطاني حليف الثورة العربية الكبرى. وبدأت المقاومة العربية لهذه الهجرة بشكل عفوي وارتجالي، خاصة في غياب العمل المنظم الذي ينبغي أن يصدر عن تنظيمات واعية مدركة لحقيقة ما يجري، وعلى علم بميزان القوى المحلي والعالمي.

على الصعيد المحلي كان الشعب الفلسطيني يعاني من عدم وجود تنظيمات جادة

تفكــر بأساليب عصرية، بل كان يفتقر إلى أدنى أشكال الهيئات الشعبية الجماهيرية المنظمة، وإنما كانت تسود فيه روح القبلية والنظام الحمائلي بوجود بعض العائلات الإقطاعــية التــي كانــت تملك آلاف الدونمات، وأحيانا عشرات آلاف الدونمات، والعديــد مــن هؤلاء الملاك لم يكونوا فلسطينيين، بل بعضهم من لبنان وسوريا، ولاشــك أن بعضــها كان شخصيات تمويهية كانت تشتري الأرض لصالح الوكالة اليهودية .. بل إن العلاقة بين التنظيمات الفلسطينية الموجودة كانت علاقات سلبية، علاقــات مواجهــة كمــا كانــت بين الفتوة والنجادة، أو بين الحسيني والنشاشيبي وغيرهم هي التي كانت تميز العلاقات داخل فلسطين.

بقي النضال الفلسطيني يراوح مكانه هتافات ومظاهرات "تحيا فلسطين ... تسقط بريطانــيا والصــهيونية" إلى أن بعث الله الشيخ عز الدين القسام القادم من سوريا، الــذي راح ينفخ روح الجهاد والفداء في مساجد حيفا والشمال وبعث في مستمعيه حب التضحية وروح القتال ضد الاستعمار البريطاني. وسريعًا جدًّا تحولت الهتافات مــن "عاش ... سقط، عاش سقط" إلى مواقف ساخنة ومشاعر متدفقة حماسة ضد السياســة والوجــود البريطاني في فلسطين. وهكذا استحضر فارس الأمة الغائب، حضر الإسلام ليقود الصراع مع بريطانيا. حضوره بعث حرارة الحياة في الكلمات الميــتة التي كانت ترتسم على شفاه خائفة مرتجفة قبل ذلك، وهكذا قاد القسام ثورة ضد الوجود البريطاني، ثورة غير متكافئة، ولكنها كانت منعطفاً في تاريخ القضية الفلســطينية .. وتاريخــنا المتوسط والحديث يعرف أن ما من قضية عربية أخذت بعدهــا النضــالي الجاد وسجلت انتصارات من غير أن يدخل عامل الإسلام ويأخذ دوره فــي ذلــك. لكــن ســرعان مــا يجحد دوره هؤلاء المتسلقون من النفعيين والوصــوليين .. وليست انتصارات حزب الله في لبنان عنا ببعيد. بضعة مئات من المقاتليــن المســلمين مــن هؤلاء "الأصوليين" و"الظلاميين" مئات من تلك "القوى الغيبيــة" تتمكــن من قهر الآلة العسكرية الإسرائيلية، وتذلها وتدحرها من جنوب لبــنان، تلــك العســكرية التي ما زالت ترهب مئات الملايين من أصحاب الطرح القومــي، بــل تــرتجف الأيــدي وترتعد الصدور المختبئة وراء القصور والقلاع المحاطــة بالجيوش الجرارة، ترتعد وترتجف عندما تسمع بتهديد لأي قائد عسكري إســرائيلي ... لمــاذا يحدث هذا؟ بل كيف نفسر ذلك؟ أين قوى "التنوير"؟ بل أين "العقلانــية العربية"؟ ما بال "العلمانية العربية" نامت نومة أهل الكهف، آسف فإنها مقارنــة غير دقيقة، فإن نوم أهل الكهف كان تحديًا وتمردًا، بينما صمت "العلمانية

العربية" استسلامًا وخضوعًا!! أين أصحاب المشروع النهضوي العربي الذين يحسنون ويتقنون الاحتفال بانتصار حزب الله؟ الاحتفال بنصر حفنة "الأصوليين" و"الإرهابيين"؟!!

كأن الكم العروبي الهائل بإمكانياته الضخمة، بقياداته "التنويرية" ومنظرية الأشاوس يحتاجون إلى بضعة مئات من "الأصوليين".لكي يهزموا لهم جحافل الغزاة الأمريكيين والفرنسيين والبريطانيين والإسرائيليين من لبنان..! كيف يتم ذلك أيها "المتنورون" في عالم قد أفرغتموه من وقوع المعجزات؟ بل يحدث ذلك في عالم قد أعلنت "العقلانية العربية" أنها أكملت احتلالها للكون برمته، وأرادت محاكمة الإله وضيقت السبل على المؤمنين به، عندما سخرت من الغيب وأهله، ما هذه التناقضات؟ كيف تفسر "العقلانية العربية" ذلك؟ أم أن كبر عقلها واتساع مداركها وعمق فهمها استطاع توظيف هؤلاء "الدراويش الأصوليين" في برنامجها من حيث لا يدرون؟ فلم يكونوا أكثر من آلة ابتدعها "العقل العربي" ليحارب بها معاركه .. ولكن حتى لو صح ذلك فنحن نسأل: فما حاجتهم لتلك "العروبة" وهي تستخدم طرقًا وأساليب وآليات تسخر منها لتحقيق أهدافها وطموحاتها ..؟ المشروع النهضوي العربي حاله مع البعد الإسلامي كالمثل الذي يقول: "أبي يغزو وأمي تحدث".

إذا كان الإسلام هو القوة التي تستطيع تفجير طاقات الأمة المادية والمعنوية فلماذا هذا الجحود؟ ومن هو صاحب المصلحة في إقصائه من حياة المسلمين؟ ولنأتي بمثل آخر نعيشه أيتها العروبة وينبغي أن تُسئلين عنه، إذا كان هؤلاء "الاصوليون" ما هم إلا منظمات "إرهابية" لا تستطيع الشرعية الدولية استئصالهم، فما قولك يا "عربية الفتاة" بدولة كإيران تعمل وتحكم بتعاليم ومبادئ الإسلام، وتملأ حياتها ووجودها بطريد "العقلانية العربية" إله هذا الكون، ثم تصمد لكل أنواع التهديدات والمضايقات والمقاطعة التي تصدر عن الشيطان الأكبر، بل على الرغم من كل ذلك تزيد كثافتها ومن ثم يرتفع وزنها النوعي وتأثيرها فيما حولها من دول المنطقة وفيما هو وراء ذلك. وعلىالرغم من ذلك يبدأ الغرب بطلب ودها، ويتعب نفسه في إيجاد صيغة يلائم بين مبادئه السياسية ومواقفه الدولية وبين المنهج والنظام الإيراني؟ أم ترى أن هذا الاله، الذي خلق العالم وهو الذي يصرف أموره قد عاقب تلك "العقلانية العربية" التي أرادت أن تطرده من حياتها من منهاجها فعزلها هي وطردها وهمش دورها، حتى خفّ وزنها فلا دور لها ولا ثقل في المحافل الدولية حتى تحولت إلى هذا الغثاء!!؟

جدلية الحضور والغياب وإمكانية التأثير السلبي :

الحضـــور حضـــوران: حضـــور شهادة ، فيه أخذ وعطاء وتفاعل وتأثير في الأحداث الجارية، وحضور الشهادة هذا: إما أن يكون حضورًا في مركز الأحداث يؤثـــر فـــيها توجيهًا بالقدرات والإمكانيات التي قد تكبر وقد تصغر، تناسبًا مع قوة الحضـــور وفاعليته، والتأثير كذلك إما أن يكون إيجابيًا أو سلبيًا يتناسب طرديًا مع هذه الإمكانيات .. والحضور مع التأثير الإيجابي يكون بالسيطرة على هذه الأحداث واســـتغلالها لتحقـــيق مصالح ومكاسب كبيرة أو صغيرة تتناسب وحجم الإمكانيات المـــبذولة. وحضـــور آخر قد يبتعد عن المركز، حيث الأطراف وتأثيره في سير الأحـــداث يقـــدر مساهمته في صنعها، ويقدر بعده عن المركز. وحضور من هذا القبـــيل، غالـــبًا مـــا يكون حضور استهلاك أكثر مما يكون حضور إنتاج .. وأما الحضـــور الســـلبي فيتمثل بالحضور مع امتلاك الامكانية والقدرة على منع وقوع حـــدث من الاحداث، أو العمل على تحقيق هذا الوقوع والحصول والكل بما يتلائم مع المصالح الذاتية للطرف الحاضر، وهذا التأثير يتناسب أيضًا مع مقدار ونوعية هذا الحضور.

وكذلك الغياب، غيابان، غياب له حضور وغياب بغير حضور، والغياب الأخير إمـــا غياب بغير دور، وإما غياب له دور، والغياب الذي له دور إما غياب قسري كما هو الحال بالنسبة للعراق وإما غياب اختياري كما حصل للغياب الأمريكي في ديربـــن، وأما أحطّ أنواع الغياب فهو غياب الحضور القسري، وهو الذي لا يملك صاحبه حتى إرادة الغياب كما هو حالة دول الخليج.

والغـــياب والحضـــور يتعلقان بنوعية الغائب والحاضر، هل هو صاحب كثافة عالية ووزن نوعي ثقيل؟ أم هو عكس ذلك؟ فغياب صاحب الكثافة العالية له تاثير مباشر على الوضع العام، فهو غياب جسدي مع حضور التأثير، يشعر به الجميع، فهذا غياب عرضي يحقق صاحبه بهذا الغياب بعض مصالحه وأهدافه. وهذا الغياب هو بمثابة سياسة ضغط في اتجاه من الاتجاهات، فغياب دور الولايات المتحدة عن إحـــدى فعالـــيات الأمـــم المتحدة، على سبيل المثال، يفرغ هذه الفعالية من إمكانية التحقيق، ويشعر بهذا الغياب العالم كله، وبهذا تقف الأمم المتحدة عاجزة عن تحقيق أو تقديم علاج ما لمشكلة سياسية أو اقتصادية قائمة!؟ وعلى العكس من ذلك يكون غـــياب موزمبيق أو غينيابيساو، أو قطر، فهو غياب لا يؤثر على مسرح الأحداث العالمـــي، فهـــو غياب فعلي بالمعنى العرفي الدقيق للكلمة. وكذلك غياب إيران أو

محاولة تغييبها عن مواطن التأثير، مثلاً يختلف، فقد لا يكون لغيابها تأثير دولة قوية وكذلك يكون أمر حضورها، ولكن دورها غيابًا وحضورًا يمكن أن يؤثر في الدائرة الإقليمية، والإقليمية بمعنى من المعاني تساهم في الحضور والغياب على المستوى الدولـــي، وهـــو حضور وغياب يتناسب مع قدرات وإمكانيات الغائب أو الحاضر نفســـه. وعندما تمتلك إيران إرادة دولة مستقلة، فغيابها وحضورها يكون بمقتضى إرادتهـــا ومصلحتها الذاتية. وهذا الغياب يختلف عن الغياب القسري الذي يمارس علـــى العراق، فتغييب العراق إقليميًّا يتوازن بحضور القوات الأمريكية في منطقة الخلـــيج، فبغـــير الحضور الأمريكي لا يحصل التوازن، وهذا يجعل تغييب العراق أمرًا يشعر به كل من له علاقة في منطقة الخليج. أما حضور وغياب دول الخليج، فهـــو حضـــور اســـتهلاك قسري وغياب إنتاج، وحتى حضورها الاستهلاكي ليس بإرادتهـــا، فهـــي لا تملك إرادة الحضور والغياب، فحضورها هو حضور خاماتها ونفطها وليس حضورًا انسانيا له تاثيره، فالغائب بإرادته يستطيع أن يتخذ خطوات قد تؤثر بشكل سلبي على مصالح أعدائه ويكون له مردود إيجابي على مصالحه هو نفســـه .. فالعـــالم العربي مثلاً، ليس لغيابه على صعيد الإنتاج دور عالمي مؤثر، ولكـــنه لـــيس كذلك، لو كان لديه إرادة حرة، لاستطاع أن يغيب كمستهلك، وغيابه كمســـتهلك له ثقل وله تأثير في تحقيق الكثير من مصالحه، لو استطاع أن يوجهه الوجهة الصحيحة. فلو امتنع عن استيراد البضائع الأمريكية وقاطعها، فسوف يكون لذلـــك مـــردود إيجابي على مجمل القضايا العربية، لأن ذلك سيخلق أجواء أخرى منافسة في رحاب العالم العربي من قبل العديد من دول العالم صاحبة الحضور في السياسة الدولية، ولكن فقدان الإرادة الحرة للعالم العربي يجعله لا يستطيع حتى أن يغيـــب عـــن السوق الأمريكية .. ولا غرابة في أن يخرج وزير الدفاع الأمريكي، باتفاقية مقررة من البيت الأبيض ببيع دول منطقة الخليج سلاحًا غصبًا عنها!! وهي صفقات بيع وهمية في العديد منها.

وإذا كـــان هـــذا هو حال أنظمة ودول ذات "سيادة" لها حدود وأعلام، وجيوش، وعواصـــم، وعـــيد "اســـتقلال" تفـــرح له، وتقيم له الزينات والمهرجانات، وسوق اســـتهلاكية كبـــيرة، واحتياطـــي من النفط، وغيره من الكنوز والخامات الطبيعية العديـــدة، فكـــيف يكـــون حال أقلية صغيرة، تفتقر لكل شيء، كالأقلية العربية؟ إذا حضرت، فأي وزن يكون لحضورها؟ وإذا غابت فأي خسارة وفقدان يكون لغيابها؟ هذه أسئلة ينبغي الاجابة عليها بجرأة وشجاعة وصدق.

لا تجعلوا التاريخ يتحمل أخطاءكم مرة بعد مرة .

إن تغييب العقل، آلة البحث والدراسة، يجعلنا نفقد المنطق الواضح في فهم ومعالجة قضايانا، بل تراجع العقل وخوفه من منازلة الأحداث ومبارزتها وجهًا لوجه، خوفًا من "الغضب الساطع"، الذي تأخر قدومه كثيرًا، وفي غياب مناخ النقد والتحليل، ترتفع أسهم القادة التجار الذين يستطيعون التمويه والتضليل بدخان الشعارات والهتافات الكثيفة، القادة التجار الذين يختبئون وراء يافطات "مقدسة" لا يجوز الاقتراب منها. يافطات تجارية، ولكنها غالية، وغالية جدًّا، إنها "دماء الشهداء" التي يريدها القادة التجار أن تحول بين الباحث والدارس والناقد وبين ممارساتها وأسلوب أدائها ومجمل مفاهيمها لقضايانا ومشاكلنا وأهدافنا المصيرية. إنهم يخافون من مساءلتهم التي لابد أن تجيء يومًا، ونحن من طرفنا نقول: ليس هناك مناطق محرمة على العقل دخولها، بآلياته التي أودعها الله، سبحانه، فيه من تعقل، وتدبر وتفكير وتخطيط، كل المناطق خاضعة لنفوذه، وهو صاحب حق في اقتياد كل مذنب، كل معتد وآثم ومتآمر، ويعرضه حاسرًا أمام سلطة النقد والحوار والبحث والدراسة، وبعد ذلك يقدمه عاريًا أمام الجمهور ينزل فيه حكمه ويقول فيه كلمته.

لقد قال سقراط، ذات يوم: "اعرف نفسك" ونحن مطالبون بالإجابة على أسئلة ما زالت تلح في طلب الإجابة عليها، وكنا قد طرحناها في كتابات سابقة: ما هي حدود المواطنة؟ وما هي العلاقة التي تربطنا بهذه الدولة التي نعيش فيها فوق أرضنا؟ نحن الأقلية العربية التي تعيش في وطنها وفي الدولة اليهودية التي قامت على هذا الوطن، ماذا علينا أن نفعل أيها القادة؟ هل تسعون لوضع من المفاصلة ورد المواطنة؟ هل تريدون مثلاً حكمًا ذاتيًّا؟ وهل نستطيع أن نستقل بإدارة شؤوننا في الظروف الراهنة التي نعيشها؟ هل نستطيع أن نستقل ثقافيًّا؟ مع تحمل تبعات الثقافة والتعليم ومؤسساتها؟ هل نستطيع أن نستقل اقتصاديًّا؟ هل ...؟ هل ...؟

هل نحن قوة اقتصادية تستطيع أن تؤثر بحضورها أو بغيابها؟ وهل نحن قوة وثروة علمية، إذا غبنا افتقدتنا مراكز البحث والدراسة، وتركناها تعاني فراغًا يخيفها ويقض مضجعها؟ هل نحن قوة إعلامية تلاحق خصومها فلا يخفى عليها منهم شيء؟ ألعل لنا قوة عسكرية تقف على مخزون من السلاح الرهيب؟ وهل نحن بالتالي قوة سياسية؟ ومع أن القوة السياسية لا تقوم على غير القوى الأخرى

والاعتماد عليها، بقي أن نسأل: ماذا بقي لنا من قوة التأثير حضورًا أو غيابًا؟

نحـن كم وعدد لا بأس به، متى وجدنا واهتدينا إلى صيغة تحول هذا الكم إلى كـيف يستطيع التأثير في أطراف المعادلة السياسية الإسرائيلية، فقوتنا تكمن أصلاً في هذا الكم عندما ينجح في توظيف نفسه ضمن المعادلة الكلية لهذه الدولة. نصبح قوة عندما يستطيع هذا الكم أن يترجم نفسه إلى كيفيات متعددة ومتنوعة كيفية علمية واقتصـادية وإعلامية ومن ثم سياسية، وهذا لا يتحقق في المستقبل القريب، بل هو تحد على المدى البعيد. أما ما نحن بصدده من أمورنا ووجودنا الجاري، فهو كيفية عـلاج الحضـور والغياب مع صناديق الاقتراع وبعد ذلك حضورنا في الأجهزة المخـتلفة لهـذه الدولـة، مهما كان هذا الحضور بسيطًا لأن الغياب في مثل حالنا وأوضـاعنا فهـو غـياب لـيس له حضور تأثير إلا إذا اعتبرنا أن إسقاط اليسار الإسرائيلي هو أحد أهم قضايانا؟

الأقلية العربية في إسرائيل تعيش في الريف، وأكثر من ذلك تعيش على هامش هـذا الـريف، بعيدة عن المركز، بعيدة عن مراكز القوة، وبهذا بعيدة عن متخذي القـرار، الأمر الذي يجعل مهمتنا صعبة في دخول خانة من الخانات المتقدمة في المعادلة العامة التي تقوم عليها الدولة اليهودية، حتى نصبح جزءًا من استراتيجيتها. الأقلـية العربـية بعددها وزيادتها الطبيعية تشكل مصدر قلق للعديد من المسؤولين الإسـرائيليين، بل لطالما نظروا إلينا كمشكلة تستوجب العلاج والدراسة. ولهذا فإن وضـعنا في الدولة كوضع الطالب المشاكس في الصف، الكل يرغب في التخلص منه، طبعًا من وجهة النظر اليهودية، فكم سيكون فرح المعلمين وإدارة المدرسة إذا تطوع هذا الطالب بالغياب؟

لو جاز لنا أن نطرح قضيتنا بصيغة سؤال: لو تصورنا أن الأقلية العربية غير موجـودة فـي الدولـة اليهودية، فهل سوف يؤثر ذلك على استمرارية قيام الدولة اليهودية؟ وهذا التصور ليس بعيدًا عن الواقع الذي يعيشه الكثير من اليهود، كثيرون مـن بينهم، الذين يراجعهم حلم لذيذ، أن يستيقظوا ذات يوم فيجدوا البلاد وقد خلت مـن سـكانها العرب. هذه ليست أوهامًا ولا خيالات وإنما هي طروحات سياسية متعصبة لها من يحركها ويقف وراءها ويغذيها باستمرار. ومن أولى مصالحنا أن نحـارب هـذه الظاهـرة، ليس بتطرف وغلو مقابل ولكن بالحضور الفاعل للدور العربـي فـي هـذه الدولة، وبتجنيد أكبر عدد من بين المؤيدين اليهود لمصالحنا ولمحاربة تلك الطروحات العنصرية واجتثاث مشاريعها وإبعادها عن دائرة الاهتمام

اليهودي. وليس أفضل من غيابنا عن الساحة السياسية هدية نهديها لتلك الطروحات، فنكون كمن يقطع الفرع الذي يحمله.

انها ليست مفاصلة :

نحن نقاطع صناديق الاقتراع، وفرق كبير بين ممارسة حق الاقتراع بالسلب أو الإيجاب، وبين الخروج من دائرة التأثير أو الحديث عن المفاصلة. نحن نقاطع الانتخابات، لأن هذا الاقتراع يضعنا بين خيارين أحدهما أسوأ من الآخر، ولو كان هناك خيار غير باراك وشارون لكان موقف الأقلية العربية يختلف، ولا ينبغي أن يشتط بعض الناس في التأويل، سواء من بين اليهود أو من بين العرب وكأن الأمر مقدمة لطرح موضوع المفاصلة من جديد، لقد أطلت بعض الأفاعي برؤوسها، وكأن هذه المقاطعة برهان ودليل على صحة طروحاتها ومفاهيمها السقيمة. ليست هناك مقاطعة ما لمؤسسات الدولة، حتى تلك الأفاعي فإنها تعيش في مخازن الدولة وتقتات على هوامها وفئرانها، فهذا الوضع أبقى لها وأيسر.

لقد كنا أول من طرح في برنامجه للحكم المحلي في كابول قضية استقلال جهاز التربية والتعليم في الوسط العربي ووضعه بأيد عربية في مجال التخطيط ووضع البرامج التعليمية واختيار الطواقم والكوادر المناسبة. ولم نكن نتطلع للاستقلال التام عن الحكم المركزي في هذا المجال، لأن ذلك في رأينا تفكير فج وارتجالي وصبياني خاصة في الظروف الراهنة التي تعيشها الأقلية العربية. ولهذا فعلينا توطيد النفس في المستقبل المنظور لا انفكاك ولا خيار على أن نكون طرفاً في المعادلة التي تتألف منها هذه الدولة، وكل من يظن غير ذلك، فليأتنا بالبديل المعقول والمقبول ونحن له من الشاكرين. نحن، كما هو حال غيرنا يعلم علم اليقين، مقدار المعاناة التي يقاسي منها "الضيوف" الفلسطينيون في البلاد العربية "المضيفة". نحن، كما هو غيرنا، يعلم الأوضاع البائسة التي يعيشونها .. ولا أظن أن من بيننا من يتوق أن يزيد هذه المأساة بفتح روافد جديدة تصب فيها. هذا مع الاخذ بعين الاعتبار، أن البلدان العربية "المضيفة" قد أغلقت مضافاتها في وجه ضيوف جدد، ضيوف "مواطنين" تمتد فترة ضيافتهم لوقت لا نستطيع تحديد نهايته .. وحال المبعدين الفلسطينيين عام 1994 شاهد على ذلك فقد رفضت لبنان ومن وراءها كل العالم العربي استقبالهم، فقضوا مدة تزيد عن السنة في مرج الزهور في خيام تعصف بها الرياح والضياع من كل جانب.

وسوف نعالج فيما يلي، حال اليمين واليسار مع ذهنية "الواحد نفسه".

حتى نبقى في دائرة التأثير الإيجابي ينبغي أن لا ينسينا الغضب أبجديات العمل السياسي :

فقدان الوزن بين اليمين واليسار ونفسية "مع" و"ضد" :

منذ قرون، والأمة تفقد شيئًا فشيئًا من اعتدالها ووسطيتها، ومن ثم استقامتها، وهكذا رويدًا رويدًا راحت تقترب من الأطراف، وتسكنها حالة غضبية تقودها من طرف إلى طرف، فلم تعد تعرف حقيقة ما تريد، وباتت لا تميز بين قيمها وأهدافها ومصالحها، والتبس عليها أمرها واختلطت المفاهيم المختلفة فلم تعد تتبين بالوضوح الكافي وجهة مسارها. حتى تعودت سكنى الأطراف والهوامش فانكرت حياة الوسط والمركز. فعند المركز تكثر المزاحمة وتشتد المدافعة، وهذه التحديات تحتاج إلى وجود إرادة حرة قوية تتحمل تبعات واستحقاقات هذا الوضع. وأمة بغير إرادة، لا شك تفتقر إلى القدرة، ومن ثم فهي تعيش نفسية مهزومة تقتات من فضلات الآخرين، تتحول ذات اليمين وذات الشمال وراء كل مائدة منصوبة، وضع كهذا يستدعي نفسية إما مع اليمين فلا ترى غيره، وإما مع اليسار فلا تتسع لضده. ولهذا تعيش حياة الهامش فهي أسلم لها من حياة المغامرة والمدافعة في المركز؟!!

ولما كان المركز بطبيعته يعتبر منطقة جذب لكثافته العالية وثقله النوعي، فهو بحكم ذلك يحتل الخانة الكبيرة، بينما تبقى الأطراف تدور حول المركز لخفة وزنها وقلة كثافتها، فهي بذلك تحتل الخانات الصغيرة، وبما هي كذلك، فإن القضايا التي تشغلها تبقى صغيرة، وهي كذلك تقنع بالأهداف المتواضعة، وهذا بالتالي يؤثر على ضحالة معارفها ومن ثم أهدافها ومصالحها ورؤيتها التسطيحية، وهذا المناخ يؤثر ثقافيًا وتربويًا على الصيغة الآدمية للإنسان، بحيث تبقى أسيرة القضايا الصغيرة والمحدودة، وطنيًا وقوميًا يعيش هذا النموذج ببعده الشخصي، وانتماؤه يكون لشخصه ولمصالحه الفردية، ولا يرى في المجتمع إلا خادمًا يحقق بواسطته أقصى حدود المنافع والمكاسب الأنانية، وبدل أن يكون شعاره: ماذا تراني أستطيع أن أقدم لمجتمعي؟ تنعكس الآية، فتصبح : بماذا يستطيع هذا المجتمع أن يخدمني؟ وفي المستوى الديني يخفت الإيمان، فتقدم الفروع على الأصول، وتعلو المندوبات، في حياة الفرد والأمة على السنن والفروض والواجبات... فقد يرى البعض منا، على سبيل المثال، إذا تناول المرء شيئًا بشماله من دون يمينه، شرًا مستطيرًا، وكأنه قد اقترف منكرًا، لا يستقيم معه إيمان صحيح، وهو بذلك قد عصى الله ورسوله، حيث

رغّب عليه السلام بالأكل والشرب باليد اليمنى، فإذا حدث وكان أحدهم يقف إلى شمالك ويريد أن يناولك شيئًا، ورأيت أن من السهل عليك أن تأخذه بشمالك، امتنع وأخذ يؤنب ويزجر "خذ بيمينك". فإذا ما جلسوا للطعام تراه يتناول رغيف الخبز بيمينه فقط، ويقتطع لقمة العيش بأطراف أصابعه اليمنى، ولا أدري إن كان يستعمل فكه الأيمن فقط، وتبقى يسراه جامدة على ركبته اليسرى، كانها ليست منه، أو أن الله، سبحانه، قد خلقها عبثًا ...؟ وتصور ذهنية تحتقر وتشمئز من بعض أطرافها..؟ ذهنية انشطارية قد تتخذ موقفًا متطرفًا فعاليًّا في قضية يمكن تصنيفها في قائمة المستحسنات والمندوبات ولا تشفع لك الفروض والواجبات والسنن المؤكدة، هذا وضع يخص الحركة الظاهرية للجسد، ويبقى خطره محصورًا ما دام في هذا النطاق أما عندما يتجاوزه إلى المواقف السياسية في لعبة اليمين واليسار، فيصبح خطره أشد وأقسى وأعم بلا ريب. هذا حال شطر الأمة المفتون بتقديس الماضي، والذي استطاع أن "يبدع" آلية لا تتحرك به إلا في فضاء الماضي وبين تراثه.

وأما شطر الأمة الآخر، وهم الذين لا يعنيهم ما يملأون به معدهم وبطونهم من حرام أم من حلال ، باليمين أم باليسار، ولكنهم في المجال الفكري والثقافي والسياسي لا يتحركون إلا في عالم اليسار، فاليمين عندهم غير معطل فحسب وإنما غير قائم ولا موجود.. فاليمين في عرفهم كله شر وباطل، ومن كان كله شر فقليله حرام. وبهذه الذهنية يصبح اليمين حقلاً لا مفكر فيه، ولذلك يحرم ولوجه. وهذا أيضًا حال عملاء اليمين مع الشمال فاليسار غير موجود في نهجهم السياسي. وهكذا تضيع الأمة بين الأطراف فلا تدري يمينها ما تفعله شمالها. وبموجب التعريف الماركسي: فإن الغرب الاستعماري الغني هم أهل اليمين، بينما أهل الشمال هم الطبقة العاملة الفقيرة..

ومع أن هذا الفكر قد انتهى من العالم، وطويت صحيفته مع نهاية القرن العشرين وانفتح الشمال على اليمين، بل راح يهرول مسرعًا يقبل اليمين ويضعها فوق رأسه تعظيمًا وإجلالاً لجيوبها المليئة .. كل هذا تمّ في عالم ما وراء العرب، لكن اليسار العربي ما زال يرفض أن يتقبل هذه المستجدات بنتائجها، إلا إذا تعلق الأمر بالإسلام فلا يسار ولا يمين، أما في ما وراء الإسلام فاليسار واليمين عند العرب كالوجود والعدم، ينفي كل واحد منهما الآخر. وهذا يذكرني بمقالات كنت قد كتبتها في مجلة الصراط عام 1986 تحت عنوان "البعد المفقود" وكنت قد تناولت

فيها تهافت الفكر المادي وإبراز التناقضات الفكرية والمنطقية في صلب النظرية الماركسية. وقلت فيها إن النظام القائم عليها ينهار وينهار بسرعة وكنا نخاطب رفاقنا على الضفة الأخرى ونحذرهم لكي يخرجوا من تحت سقف الماركسية فهو ينهار وطلبنا إليهم بصريح العبارة، أن يعبروا إلينا، وأن يرضوا من الغنيمة بالإياب بعد سفر طالت مدته. وشبهت يومها اليسار العربي بذنب الفيل وقلت يومها، "وحتى يكمل ذنب الفيل دورة كاملة حول خرطومه، تكون أمور كثيرة في العالم قد تغيرت وتبدلت .." وها نحن بعد خمسة عشر عامًا وما زالت الأطراف النائية لا تدري ما حصل وما أصاب المركز، وما زال يدور بقوة الدفع الذاتي..

وأما "اليمين العربي" وبتعبير أصح وكلاء الغرب وعملاؤه وذيوله، فقد جمدوا على مواقفهم، منذ أذنابهم في القرن التاسع عشر، وهم لا يحسّون ولا يشعرون بما يفعله الغرب الاستعماري ببلادهم، وهو يقطّع أوصالها، ويحتل أراضيها، ويحاربها في كل أموزها، ويتآمر على مصالحها، وهم ما زالوا يعرضون بضاعة القرن التاسع عشر. لقد زالت دول وانقرضت امبراطوريات، وتلاشت نظريات وانهارت فلسفات وهم على بضاعتهم قائمون.

يا هؤلاء! وهؤلاء، حتّام تعيشون في الماضي؟ حتى متى تظلون مقيدين في كهف أفلاطون؟ إنكم لا ترون غير ظلال الحقيقة، متى تخرجون لتروا نور الحقيقة؟ حتى متى يبقى كياننا أشلاء مبعثرة هاربة ذات اليمين وذات الشمال؟ حتى متى نعلم، أن اليمين والشمال والرأس والقدم كلهم يشكلون كيانًا واحدًا؟ إذا قام قام كله وإذا مشى مشى كله، متى يستقر في وعينا أن اليمين واليسار جهتان تقعان في حدود المكان، وهما طرفان متممان لبعضهما في جسد واحد؟ إلى متى سوف نعلم، أننا ونحن نسير بكياننا الاجتماعي والثقافي والفكري قد ننعطف ذات الشمال إذا اعترض طريقنا حائل يمنع تقدمنا، وكذلك قد ننعطف ذات اليمين إذا اعترض كياننا وحركتنا عائق يمنع تقدمنا ..؟ إلى متى أيها العرب، أيها المسلمون، نبقى نراوح بين "مع" وبين "ضد"؟ متى سنكون مع أنفسنا؟ متى نتحسس مصالحنا؟ كم سوف يمضي علينا من الوقت حتى نستطيع تشكيل صيغة جديدة، ننظر بموجبها إلى من هو "معنا" وإلى من هو "ضدنا"؟ بدل أن نظل مبعثرين نركض وراء هذا ووراء ذاك. متى نخرج من حالة الضياع هذه؟ متى نتخلص من عقلية ونفسية إذا لم يكن اليسار خيارنا فلابد من الغياب؟ وإذا لم يكن اليمين، فلا كانت الحياة؟

إذا لم يكن هذا ولا ذاك ، فليس معنى ذلك بالضرورة أن نخرج من دائرة التأثير

الإيجابـــي إلى حيث التأثير السلبي، الذي لا نملك فيه سلاحًا ، ولا طاقة لنا بتحمل تـــبعاته، لماذا تقعد بنا الهمة عن التفتيش عن خيارات أخرى ..؟ علينا أن نعلم تلك البديهـــية السياســـية التي تصرخ عاليًا، ليس هناك مكان في عالم اليوم لمن يعيش ويقـــتات من خيار واحد؟ ومن يفعل ذلك فلابد أن يجوع ويطول جوعه ! والقيادة الجـــادة الصــــادقة والواعية هي التي تبدع البدائل والخيارات، وأما القيادة العاجزة فينبغي لها أن تخلي مواقعها باختيارها وطواعية.

الخيار بين باراك وباراك :

يظن القارئ للصحف العربية، ووسائل إعلامها هذه الأيام، وكأن الأقلية العربية تقـــف بيـــن خياريـــن: إما باراك، وإما شارون، وهذه مغالطة لا تستقيم مع الواقع الإعلامي والتوجه السياسي لقادة الأقلية العربية، فنحن حقيقةً أمام خيار واحد يرتدي بزتيـــن: إما باراك الذي يقتل ويسفك الدم الفلسطيني في طول فلسطين وعرضها، حـــتى هـــؤلاء الذين يعيشون تحت حكمه وفي دولته سفكَ دماءهم، إما باراك الذي يرتدي درع المقاتل سافك الدماء، وإما باراك، مرشح حزب العمل ، مرشح اليسار، الحلـــيف الطبيعي، عضو الاشتراكية الدولية، باراك الآخر الذي سوف يعتذر عما فعـــل، ونحـــن ننتظر بفارغ الصبر متى تفصح شفتاه عن كلمة آسف، حتى نقبلها، ونقـــبلها شـــاكرين لـــه معروفه وفضله هذا !! فنحن شعب يجد العذر لحليفه حتى الســـبعين عذرًا أو يزيد!؟ قلها يا باراك، قل آسف حتى نغفر لك كل شيء..! أليس هذا الذي يحدث للعرب هنا وهناك منذ ما يزيد عن مائتي عام ؟!

ونقول بأن الخيار هو بين باراك ببزته العسكرية، وباراك صاحب ربطة العنق، لأن المرشـــح الاخر، لأن شارون محسوب على اليمين، واليمين غائب في المعادلة السياسية للأقلية العربية، وإذ وجد فهو موجود في حالة خصومة.

وهكـــذا نظـــل نراهـــن على حصان واحد، وحال هذا الرهان، كحال انتخابات الرئاســـة فـــي الجمهوريات العربية، عندما يخوض معركة المنافسة حصان واحد يحصـــل فـــي كل الأحوال على 99,99% من أصوات المتفرجين والمراهنين، وفي مجـــال السياســـة والدبلوماسية الدولية فنحن لا نعرف العيش إلا في أحضان حليف واحـــد. ولا نراهن إلا على "حليف واحد"، تمثل مرة في الاستعمار الأوروبي ضد الدولة العثمانية، ومرة في الاتحاد السوفييتي، ثم وضعنا 99% من أوراق اللعبة في قضـــية الشرق الأوسط بيد الولايات المتحدة. هذه ليست مقولة السادات وحده وإنما

المنهج الذي يسلكه العرب اليوم قاطبة، وفي غياب المنطق تصبح الأمور والقضايا أشد غرابة، أمور أغرب من الخيال إذا كان 99% من قضايانا المصيرية أوراقها بيد عدونا، فماذا نملك من قضايانا؟ لا شيء ... هكذا، كل كلامنا، تعابيرنا، مصطلحاتنا السياسية وغير السياسية تحمل في أحشائها بما ليس منها. ورحم الله جدتي بحكمتها فقد أوصتنا: "لا تضع يا بني كل البيض بسلة واحدة".

عرف التاريخ صنفين من القادة: قادة يتقدمون الصفوف ويقفون على رؤوسها في كل المجالات: السياسية والعسكرية والفكرية والأدبية، وصنف آخر من "القادة" يختبئون وراء الجماهير، فتقودهم جماهيرهم، وقادة جبناء من هذا القبيل يختبئون دائمًا وراء شعارات: "الحس الجماهيري!! تجربة الجماهير، عقل الجماهير، و ... و ..." وهكذا إذا كان الموضوع أدبًا أو فكرًا لن يجرؤ الأديب والمفكر أن يقول ما يعارض هوى وميول الجمهور، فيكرس في فكره وأدبه الحالة والوضع الذي عليه الجمهور حتى وإن كان مخطئًا .. ثم تقول مؤسساتنا : أبدع فلان . والحقيقة أن صاحب الجائزة المبدع في مثل أوضاعنا هو الجماهير!؟ وأساليب التربية ومناهجها في ما وراء العالم العربي، ترى أن هناك نسبة قليلة من المجتمع هي المتفوقة وهي التي تستطيع أن تبدع وتبتكر كما أن هناك نسبة قريبة منها متخلفة ينبغي علاجها والأخذ بيدها حتى تعيش وتفهم عصرها. والغالبية الساحقة من المجتمع هي التي تعيش في المركز، في الوسط .. ففي هذه المجتمعات يقودها المبدعون المتفوقون. أما عند العرب فالمركز والوسط هو المبدع هو المتفوق .. من أجل ذلك نرى النتيجة أمامنا، "الإبداع والابتكار" من كل نوع ولون.!!!

في مقال لعبد الناصر يخاطب فيه مخالفيه من الشيوعيين تحت عنوان: "لكم دينكم ولي ديني" يقول: كنت أعجب من بعض القادة الذين ينجحون بسرعة في اجتذاب الجماهير، وتسويق أنفسهم، ويحتلون العناوين بسرعة. بينما قادة آخرون مع جديتهم وإخلاصهم وصدقهم لا ينجحون بهذه السهولة. وبعد قلق واضطراب علمت أن هناك نوعين من الناس، نوعين من القادة، قادة وأناس ينجحون في الجماهير، وهناك من ينجح للجماهير وينتصر لها، وشتان بين نجاح ونجاح. الصنف الأول قادة "تجار" ينجحون في المجتمع، وقادة صادقين ينجحون للمجتمع ..

ليس هناك من ينكر أن الجمهور يملك إحساسًا ومشاعر وتجارب، ولكن من قال: إن الجماهير تملك آلية التخطيط والدراسة والبحث والاستقصاء؟ ومن اختبر أن عفوية الجماهير صادقة وصحيحة في كل أحوالها؟ من قال إن حركة الجمهور

لا تخطــئ؟ ومــتى كان الجمهور مهما أوتي من وعي وإدراك يستطيع أن يضع الدراســات والبحوث؟ ولو صح ذلك فماذا يبقى للقادة والاختصاصيين؟ ثم لو كان ذلــك كذلك، لماذا يسير العرب من هزيمة إلى أخرى؟ لماذا لم يرتقوا خطوة واحدة فــي مجــال تحقيق تطلعاتهم وأمانيهم وأهدافهم؟ متى أصبح الجمهور هو الموجه بحركته العفوية؟

ومن يطالع صحفنا في غالبيتها هذه الأيام، يرى بوضوح هذا الصنف من القادة التجار، الذين يختبئون من وراء غضب جماهيرهم، يتمترسون من وراء دم الشهداء والضحايا، وحتى يهربون من دفع استحقاقات المناصب العليا والأدوار القيادية التي يتربعون فوقها ... يجعلون من دم الشهداء والجرحى حائلاً يهربون به من مواجهة حســاباتهم ومســاءلاتهم، ولكــن لا بــد للجمهــور من يوم يلح فيه بالسؤال، عن بــرنامجكم؟ ماذا كانت خطتكم؟ وإلى أي شيء انتهت؟ مقاطعة الانتخابات شيء لا يعوضــه الدم الذي أريق والأرواح التي أزهقت؟ وإذا كان هناك أهداف محددة فهل حققناها؟ وإذا لم نحققها فلماذا هذا التراجع والتردد الجبان؟ لماذا هذا الصمت القاتل؟ إذا كــان الهــدف مــن انتفاضتنا تخليص القدس، وقيام الدولة الفلسطينية ورجوع اللاجئيــن، فلماذا توقفت ولم يتحقق لنا شيء من هذه الأهداف بعد؟ أكان التخطيط مــن بعــض قادة الأقلية العربية أن يشعلوا نار الانتفاضة في الضفة والقطاع، ثم يرجعون لمزاولة حياة الفنادق والبارات!؟ لابد للجمهور أن يقف يومًا يسائل هؤلاء القــادة التجار . وعندما ينقشع الغبار سوف يتضح أن هناك شركاء آخرين لباراك ...!! ولكن حينها قد لا ينفع من الحدثان ليت ، ونكون كمن قال: "ما بين حانا ومانا ضاعت لحانا".

النفسية المهزومة وذهنية الواحد نفسه :

ازدواجية الأذدناب بين اليمين واليسار:

إذا أراد العــرب معالجة أمراضهم السياسية والاجتماعية والدينية، بصورة جدية وصــادقة، فلابــد لهــم من ان يعيدوا تشكيل لغتهم كأداة اتصال، ولا نعني بإعادة تشكيل لغتهم إعادة صياغة قواعدها ومبناها النحوي والصرفي والبلاغي، وهي وإن كانــت أمورًا غير مقدسة إذا كان هناك حاجة لتحسين أدائها، وتعميق دورها بإلغاء الكثير من لهجاتها في الأقطار العربية، رويدًا رويدًا، حتى يصل العرب جميعًا إلى لغــة خطابة بعربية واضحة بينة راقية، وأن يحاولوا، إن كانوا جادين في انتمائهم

إلـــى عربيـــتهم، أن يـــتجاوزوا اللهجات العامية، حتى تصبح الفصحى هي اللغة المحكـــية، وقد نستعيض عن كلمة الفحصى في مقابل العامية عندما نحصل على اللغـــة العربية الصريحة الواضحة .. ليس هذا ما نرمي إليه من قولنا، تشكيل لغة الاتصـــال، وإنما نرمي إلى علاج إشكالية المفاهيم والمضامين والمعاني في أطرها اللفظـــية، علاقة المعنى باللفظ والتعبير، ينبغي النظر في النصوص والمعاني التي تفرغ فيها، وعلاقة ذلك بالواقع وبمشروع النهضة الفكرية والثقافية التي يطمح إليها العـــرب .. لا ســـيما تلـــك المصـــطلحات التي تحمل خطورة معينة في المشروع النهضـــوي العربي، لا ينبغي أن نحمل النص من المعاني ما لا يتسع له، أو ما هو علـــى خلاف المتعارف به بين الثقافات المتعددة، ينبغي أن نتخلص من عادة الزنى اللفظي ونحن نعالج أمراضًا سياسية واجتماعية وخلقية. ليس جميلاً للغة بحجم اللغة العربـــية، أن تعانـــي من هذه الأمراض، أن نحشوا نصوصها بما ليس منها، فيقود ذلـــك إلـــى بلبلة فكرية وإلى تشويش في الاتصال بين بعضنا البعض، وبيننا وبين العالم من حولنا من جهة وبيننا وبين الأجيال القادمة من جهة أخرى.

ومن هذه الإشكالات، تحصين بعض الأفكار والقيم الغريبة الفاسدة باصطلاحات وتعابـــير جميلة ليتم تسويقها بسهولة ويسر، وعندما يقوم الباحث بتفكيك النصوص عـــن المعانـــي يتضـــح أن لا صـــلة قرابة من الدرجة الأولى ولا الثانية بين هذه النصوص ومعانيها، بل قد يصل الأمر إلى أن المعنى يحتل هذا النص قسرًا ليؤدي رسالة ما، وبهذا تتحول اللغة من حافظة للمعاني والأفكار، وتتحول النصوص من مالكـــة لمعانـــيها إلـــى مجرد نصوص وأطر يستأجرها بعض المغرضين لتمرير بضاعة كاسدة أو محظورة. وهذا الذي حصل للعديد من المصطلحات الحديثـــة ...

ومـــن هذه الأمراض ذهنية "الواحد نفسه" وهي ممارسة نوع من الرياضة التي أصـــبح العرب يتقنونها، بل يعتبر الوطن العربي موطنًا لها، وهي رياضة تقتصر علـــى مبارزة الذات. ورياضة نفي الآخر والتغلب عليه، ليس بمنافسته والاشتباك معه، بل عن طريق تغييبه قسرًا، ومع أن المشاهد العربي قد مل وضجر من متابعة هـــذه المسلسلات ومشاهدتها والانسجام معها، ولكنه ما زال يفرض عليه حضورها ولو بجسده، والمواطن العربي نفسه جزءٌ من هذا المسلسل والمشهد، ويتحمل قسطًا وافرًا في استمراره.

ففـــي انـــتخابات رئاسة الجمهورية، ينافس فيها الرئيس نفسه، ويبارز ذاته، فلا يـــدري المشاهد كيف يحدد قدرته ومهارته وبراعته؟ وإذا كان الحديث عن حاجتنا

إلى حلفاء، اكتفينا بالحليف الواحد، وهذا يحول بيننا وبين تقييم مدى صدق محالفته، ومــدى عطائه، وهل بطاقة هذا الحليف وحده أن يكفينا فيما قد نحتاج إليه؟ وكذلك إذا كــان لديــنا قضايا ملحة تنتظر أن نجد لها الحلول، لا نعرف كيف نتعامل مع مجمل القضايا، بل نتجاوزها جميعا إلى قضية واحدة ، وأما باقي القضايا فينبغي أن تــنام على جنبها الأيمن، ويكفيها أن تصيب السنة ولو في نومها، وعادة ما تطول مدة نومها .. لأن القضية الواحدة، بالرئيس الواحد بالحليف الواحد، بالظرف الواحد الذي يتغير باستمرار، في حين أننا نحن القائمين على علاج هذه القضية لم نتغير، ونــبقى نعرض قضيتنا بغير أن نعي بأن بيئتها ومناخها وظرفها قد تغير، وتغيرت حتى مصطلحاتها، ويبقى طرفنا الممسك بقضيتنا هو نفسه، بعقليته وذهنيته ونفسيته، بينما الطرف الآخر الذي نصارعه والذي يمسك بالقضية من جهتها الأخرى يكون قد تغير مرات ومرات. وهكذا فنحن نعيش الواحد نفسه في كل شيء.

وهــذا حــال الأقلية العربية في إسرائيل بغالبيتها العظمى، فهي أسوة بالقومية العربية بتفسيرها ونسختها العلمانية والثورية التي لم ولن تراهن على غير المعسكر الاشــتراكي اليساري، وهكذا نحن هنا ما زلنا نراهن على حليف واحد هو اليسار الإسرائيلي، هو حزب العمل، عضو الاشتراكية الدولية، منذ الخمسينيات والستينيات مــن القــرن الماضــي، وتلك القوائم العربية المرتبطة بحزب مباي (العمل) آنذاك وانتهــت تلــك الحقــبة برجالها وبقيت أوضاعنا، وجاءت حركات سياسية، ثورية ووطنــية وما زالت ترتبط بحزب العمل وتراهن عليه وحده .. وهي بهذه المواقف غير المبررة تستعدي ضد قضاياها أكثر من نصف سكان الدولة.

لقد حكم حزب العمل، اليسار الإسرائيلي، الدولة اليهودية في أول ثلاثين سنة من عمــرها من غير منازع خطير، وهذه السنوات بالضبط هي السنوات العجاف التي عاشــتها الأقلــية العربــية ابتداء بالحكم العسكري، ومصادرة الأراضي، وقوانين الحاضــر غائــب، ومصادرة الأوقاف، وملاحقة الشرفاء في كل مجالات حياتهم، وتضــييق الخــناق على الأقلية العربية كلها .. اليسار الإسرائيلي هذا هو الذي قاد حــروب إســرائيل الكــبرى ضد العالم العربي واحتل الكثير من أراضيها، وهو المسؤول الأول عن تشريد شعبنا وملاحقته. وأما العشرون سنة الباقية التي مضت مــنذ قــيام الدولة فقد تعاقب فيها حزب العمل مع اليمين (الليكود) وتناوب معه في حكم هذه الدولة. فماذا حصل؟ واقع الحال يغني عن السؤال!!

نحن كعرب وكمسلمين ، لا ينبغي لنا أن نكون حلفاء طبيعيــن واستراتيجيــن

لليســـار، بما هو يسار ولا لليمين بما هو يمين. لسنا حلفاء لليسار، بكل ثمن مهما مـــارس ضدنا من سياسات غاشمة. ينبغي أن نشكل إرادتنا المستقلة، التي لا تحدّها المواقــف المسبقة، ينبغي أن نكون حلفاء طبيعيين لمصالحنا لأهدافنا وقيمنا. ندور حيث تدور، ونبيت حيث تبيت ولسنا أسرى "لمعروف" اليسار الإسرائيلي، الذي فعل فيـــنا الأفاعيل، لسنا أسرى "لمعروف" من طرد شعبنا، لسنا أسرى "لمعروف" من يضطهدنا ويصادر أرضنا وأوقافنا ... كما أننا لا ينبغي أن نكون ضد اليمين، بما هو يمين، بمعنى أن نجعله خصمًا طبيعيًّا لنا .. وسوف نسوق بعض مواقف لليمين كدلالـــة على أن حلفنا الطبيعي مع اليسار خطأ كما أن عداءنا الطبيعي لليمين خطأ آخر .. وهذا إشارة وحجة لبعض من يراهنون دائمًا على اليسار الإسرائيلي وحده.

1) فـــي العلاقات مع العالم العربي، كان بيجين، الزعيم اليميني المتطرف، هو الذي وقع اتفاقية سلام مع مصر، وانسحب من كل الأراضي المصرية التي احتلتها إسرائيل وهي تحت قيادة حزب العمل1967. وعلى الصعيد الداخلي:

1- كان حيروت (الليكود اليوم) هو الذي بادر لتحقيق مشروع قانون يلغي الحكم العسكري الذي كان يمارس من قبل اليسار علينا عام 1965 وكان يتوقف نجاح ذلك علـــى تصـــويت النواب العرب الأربعة في القوائم العربية المرتبطة بحزب العمل، وعـــندما ذهبـــت لجـــنة الطـــلاب العرب في الجامعة العبرية لتقنع هؤلاء النواب بالتصـــويت إلـــى جانب القرار الذي قدمه حزب الحيروت (الليكود اليميني) والذي أفضى إلى تغيب بعضهم، بقي منهم الشيخ جبر معدي، عضو الكنيست آنذاك يواجه الطلاب بقوله: كيف تريدونني أن أصوت ضد الحكم العسكري وهو صاحب الفضل في وجودنا كأعضاء كنيست؟ كيف تريد الجماهير العربية أن يقـــف العديـــد من حكامها ضد الولايات المتحدة وهي التي تمنحهم الشرعية؟

2- مصـــادرة أراضـــي العمـــل الـــتابعة لسخنين وعرابة، على أيدي "الحليف اليســـاري" بطل معارك يوم الأرض عام 1976 والتي خاضها مع مواطنيه العرب، والذي سفك فيه دم عربي طاهر ونحن ندافع عن أرضنا المصادرة، ولنسأل أنفسنا، من هو الذي أعاد هذه الأراضي التي صادرها اليسار؟

3- والأمـــر الـــذي لا ينبغـــي أن ننساه "كمعروف" أسداه لنا اليسار الإسرائيلي الحليف مجزرة كفر قاسم، خلال عدوانه على مصر عام 1956، لقد اغتال خمسين ضحية من "مواطنيه" العرب. وتم محاكمة الضابط شدمي وتغريمه بقرش إسرائيلي لقاء خمسين ضحية ..! وبمقتضى هذا الحساب، فإن أفقر يهودي يستطيع دفع ديـــة

الملايين من العرب !!!

4- شـــهداء انتفاضة الأقصى الأخيرة، والدم الذي ما زال يسفك من قبل الجيش الإســـرائيلي بقيادة حزب العمل، اليسار الاسرائيلي، الذي لا يرغب البعض منا فك الارتباط به .. إنه باراك الذي اغتال الزعماء الفلسطينيين الثلاثة في لبنان 1972 إنه ... إنه ...

إن مـــن الخطـــأ الخروج من دائرة التأثير الإيجابي، ولكن الخطأ قد يتضاعف خطـــره إذا خرجنا أيضًا من دائرة الغياب المؤثر، فإن مقاطعة صناديق الاقتراع، هي لغير صالح "الحليف" اليساري، ولكنه بكل تأكيد سيكون له نتائج إيجابية لصالح اليمين، وهذا فضل لا ينبغي لليمين ان يجحده ويتنكر له، بل ينبغي أن يذكره جيدًا.

كـــان على قادتنا، لو كانوا على مستوى الأحداث، أن يجدوا مخرجًا غير القعود أو الغـــياب، والـــبدائل كثـــيرة، لو كان قادتنا يعرفون ماذا يريدون؟ لو كان لديهم مطالـــب مصنفة بقتضى سلم أولويات، إن لم نستطع تحصيل هذا المطلب، فليكن مطلب غيره ... وهكذا.

ومع أنني لست من هواة ترشيح عربي لرئاسة الحكومة الإسرائيلية، لأنها خطوة ينقصها البعد الأخلاقي والمنطق السياسي، ولكنها في ظل المأزق الراهن يكاد يكون المخرج المقبول للحرج الذي يشعر به الكثيرون من بيننا، خاصة هؤلاء الذين جبلوا علـــى "حب" اليسار مهما ظلم وبغى، ونحن نسأل: لماذا لم يفكر النواب العرب في ترشـــيح أحـــد المواطنين العرب لهذا المنصب؟ وإن فكروا في ذلك، فمن هو الذي أفشـــل ذلـــك؟ وقـــد يكـــون بذلك يريد أن يسد دينًا لباراك لحق ذمته ذات يوم من انتخابات عام 1998..!!

الفصل الخامس: الخاتمة

الحفريات المعرفية في الطبقة الجيو-تاريخية الثالثة لليهودية

لقد أمسى دور اليهودية في تأثيرها على مسار التاريخ البشري مثار جدل ونقاش تتسع دائرته يومًا بعد يوم. وبات تقييم الناس لهذا الدور يقع كله في دائرة الإفراط والمبالغة وحتى الموقف المغالي جدًّا في الإفراط. مما جعل الرجل العادي والشعبي يردد قولاً شائعًا: "لقد غلبوا الأنبياء". إن هناك أبحاثًا لها اعتباراتها كموسوعة التاريخ العام للحضارة تجعل منهم. أسيادًا وحكامًا يمسكون بخناق العالم اقتصاديًّا وسياسيًّا وإعلاميًّا، ومدى تأثيرهم على الطبقات المتنفذة والنخب التي تدير سياسة هذا العالم حتى قبل القرن التاسع عشر، خاصة ما تذهب إليه الرواية الماسونية.

ما من شك، أن لليهود دورًا فعّالاً في تشكيل المنظومة المعرفية للإنسان، لا يغفل عنه ولا ينكره إلا من أنكرته المعرفة ذاتها، وغفل عن قراءة الحقائق المحفورة في ثنايا التاريخ ... ما من شك كذلك، في أن فاعلية الدور اليهودي وتأثيره يفوق أضعافًا مضاعفة نسبة اليهود إلى غيرهم من بني البشر .. فليس عبثًا أن يقرّر القرآن الكريم حقيقة ذلك ﴿.. ولقد اخترناهم على علم على العالمين وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء عظيم﴾ (الدخان 31-32). ولهذا من الصعب، بل من العسير أن يستطيع الدارس والباحث تأكيد هذا الدور بوضوح ظاهر، لأنه يتعامل مع دور يحاول فاعلوه إخفائه بعناية. ولهذا لا يبقى أمام الباحث إلا أن يجند القرائن المتباعدة وأن يحشر العدد الكافي من الدلائل والإشارات، ولا بدّ كذلك من تأويل بعض هذه الدلائل والقرائن، والتي تشير بشيء ما إلى إبراز هذا الدور، فهو حفر في العمق أكثر منه توسع في الأفق. فإذا كان لليهود ذلك الدور المبكر في المساعدة لترتيب الأحداث التاريخية والسياسية لتجيء بحاكم مثل كورش لتأخذ منه موقفًا مؤيدًا لسياستها بمنحها فرصة إعادة بناء الهيكل للمرة الثانية، وهي قريبة عهد بسبي بابل، فكم سوف يتضاعف هذا الدور فيما بعد؟

مـــا من شك أيضًا، بأن اليهود حتى يصبح لهم هذا التأثير الكبيـــر الذي يفـــوق عددهم ونسبتهم إلى غيرهم، لابدّ أن تكون لهم حركة خفية تتلبس على التاريخ، كما قد تتلبّس على الأمم والشعوب. فعلى سبيل المثال ــ لكي تؤثر على منحى المسار للمســلمين، لابدّ أن يكون من بين المسلمين يهود يحاولون تبيئة الأفكار "الأخرى" الغير إسلامية والتي تتلبّس على المسلمين. وكذلك الحال مع المسيحيين في العصور الوسـطى وفي عصر النهضة (الرينسانس) وما تلا ذلك من عصور. وهذا الدور يستطيع القارئ لهذا البحث أن يتأكد منه ويتبينه من مراجعة هوامش هذا البحث فقد أوردنا فيه القرائن والدلائل ما نجلو به كثيرًا من الشكوك.

وكذلــك هــو وضع اليهود وتأثيرهم في السياسة الأوروبية والأمريكية الحالية، وتأثــيرها علـــى سياسة الاتحاد السوفييتي في حينه .. فقد كانت تمسك وما زالت تمســك بأطراف الحبال بين المتصارعين. وقد أخطأ هؤلاء العرب شعوبيًا وساسة عندما ظنوا أن الاتحاد السوفييتي حليف لهم من دون إسرائيل . يظهر هذا من سوء تجهــيز العــرب بأنواع السلاح الروسي التي ما أغنت عن العرب شيئًا .. وسوف نرى تلبس اليهود في التاريخ الأوروبي منذ الصور الوسطى بشكل واضح. ويظهر هــذا من كثرة القرائن التي سنوردها في هامش هذا البحث. والفرضية التي نحاول أن نبرهــن عليها، أو بتعبير أكثر دقة، ما نشير إليها: هل يمكن أن نعتبر اليهودي المــتجول في طول العالم وعرضه، كالمعنى الذي يبحث عن نصّ يسكنه، فيكسبه طاقــات معيــنة وقــد ينحرف هذا المعنى بالنص إلى الدرجة التي يريدها وتخدم وظيفــته .. وفـــي هذا المناخ لم يعد من نافل القول السؤال: ما هو دور اليهود في بعــث وإثـــارة الحــروب الصليبية بين أوروبا وبين الممالك الإسلامية؟ وهل من الصــعب توظــيف أوروبـــا القرون الوسطى، لصالح اليهودية، بينما هي تستطيع توظيف أوروبا والولايات المتحدة في حروبها الحالية ضد العرب والمسلمين؟

اليهودية بين عالمية الإطار وعنصرية المعنى :

إن الدارس لتاريخ الحضارة ، نشوئها وانحطاطها ومن ثم انهيارها، وقيام الأمم تبعًا لذلك وانحلالها يرى أن هناك أمما قد أشادت حضارات ومدنيات قديمة وأقامت إمــبراطوريات عظيمة وقوية استمرت مئات السنين، ولكنها تلاشت واندثرت ولم يــبق مـــن آثارها غير الدلالات التاريخية الأثرية التي تستخرجها عمليات التنقيب والحفــريات من بواطن الأرض، والتي تشير وتدل على قيام مثل هذه الحضارات.

بيـنما شـعوبها وأممهـا قـد ذابت في غيرها من الأمم اللاحقة وساهمت في بناء حضارات جديدة، لا تحمل طابعها الخاص وتوقيعها الذاتي، وإنما أضافت جهودها إلـى جهود غيرها من الأمم في بناء تلك الحضارات، وكأنها تحيا في إطار عالمية الإطار وشمولية المعنى، ولهذا تذوب الأمم وتنصهر في غيرها لتولد من جديد في عنصـر جديـد، بشخصية إنسانية جديدة لتقيم وتساهم في حضارة إنسانية جديدة، كامتداد للحضارات السابقة، وهذه الحركة التاريخية الحضارية تتميز:

1) الإطـار الجغرافي والزماني، أو الزمكاني، الذي يضم أمة من الأمم فتتشكل بمقتضـى الاتسـاع الجغرافي بملامحها الخاصة من حيث المظهر والشكل، بينما المعـنى والمحـتوى تجري فيه مفاهيم الحضارة ومعاني المدنية التي تشاد في هذا الإطـار من وقت لآخر على اتساع التاريخ مع الإضافة الخاصة الذاتية للأمة التي تقـف وتعـيش فـي تلك الفترة الزمكانية المحددة ولهذا يمكن أن نرى أن المعنى الحضـاري متحرك في نطاق هذا النص الزمكاني، فالشعب المصري، على سبيل المثال ـ قد أشاد الحضارة الفرعونية القديمة، ثم ساهم في تشكيل وهضم الحضارة الرومانـية والإغريقة، ثم استقر بعد الفتح الإسلامي، على حضارة الإسلام، وإذا كـان المكـان والـزمان هو الإطار الذي يتحرك فيه الحدث التاريخي على اتساع الحـياة، فإنـه لا يعرف الفراغ إلا في حالات استثنائية عند المنعطفات التاريخية حيث يمكن أن تتدفق المعاني الحضارية إلى الحياة من خارجها.

2) والإنسان ببعده المادي، يمثل وضعًا جيو ـ زماني، تتحرك فيه معاني الحياة المخـتلفة، فإذا كان هذا الإنسان في لحظة زمنية محددة مليئًا بالمعاني الحية الفعالة اسـتقام أمره. وإذا فرغ من ذلك، فلابد أن تتدفق إليه معانٍ جديدة تملأ الفراغ الذي حصل. وبمقتضى هذه المعاني الجديدة تتشكل الحضارة من جديد في تطور مستمر.

3) والمعاني المتحركة في الإنسان، إما قيم ثابتة لا تتغير، وإما سلوكيات يومية تلقائـية ،غريزية تخضع لتغير الظروف. وأما القيم الثابتة كالعقائد فهي التي تحافظ علـى خصوصيات هذا الإنسان حتى وهو ينتقل من مكان إلى آخر ومن زمان إلى آخـر، سـواء كان ذلك بمحض اختياره أو تحت ظروف قاهرة اضطرارية. وهذه العقـائد ومنظومة الأفكار إما أن تكون ذات أبعاد إنسانية كلية، وإما عقائد وأفكار انغلاقية ترفض التعامل والتفاعل مع "الغير". فاليهودية مثلا كعقيدة، بقيت محصورة ومتداولة في نطاق العنصر بشكل رئيسي وأساسي. ولهذا لا تجد في اليهودية جهاز دعـوة ودعاة أو هيئات تبشيرية تدعو للدين اليهودي بشكل ملحوظ كما هو الحال

فـــي الإسلام والمسيحية. ويكفي أن تعريف اليهودية ما زال يتأرجح بين تفسيرات واجـــتهادات عديـــدة، فمنهم من يحصرها فيمن ولد لأم يهودية، ومنهم من يوسعها حـــتى تشـــمل مـــن يدخل فيها ويعتنقها، وبعضهم مثل بروفسور درور، في كتبه الأربعـــة التي تحمل "نضائح لرئيس الحكومة" يرى في نصائحه الثلاثة عشر فيما ينبغـــي أن تفعله الدولة اليهودية داخليًا في الخمسين سنة القادمة أن تجبر المقيمين الدائمين من العمال الأجانب وذرياتهم على قبول اليهودية شريطة أن لا يُقبل يهودية المسلمين من بينهم.[1]

ولهذا نرى أن الشعوب التي تؤمن بعقائد معينة ثابتة، عندما تتعرض لصعوبات واحـــتلال، أو تهجـــير، مـــع مـــرور الزمن وتعاقب السنين تذوب في غيرها من الحضـــارات أو تنصهر في قوميات وأمم أخرى مُشكلة ومُدخلة بعضًا من عقائدها وأسلوب حياتها إلى أعراف وتقاليد وأنماط الحياة للأمم الأخرى. ولهذا نرى أن هذا الإنسان يعيش ضمن الإطار الجغرافي العام ويتحرك ضمن المعنى الإنساني القابل للتغييروالـــتعديل. ولـــيس كذلـــك إنسان العقيدة والدين الذي يحاول المحافظة على خصوصياته المتميزة ما بقي مؤمنًا بتلك العقائد سواءً كان هذا الدين يتسع للإنسانية جمـــيعها، بحيث يشتمل عليها فيعايشها أو يساكنها ويجاورها ضمن معادلة مشتركة لهذا الكل الإنساني، أو كان دينًا خاصًّا منغلقًا على ذاته مقتصرًا على معتنقيه، حتى وإن كان من الصعب وصفه بالدين .. وهذا من بين الأسباب الرئيسية، بل قد يكون الســـبب الرئيسي الذي جعل اليهود يحافظون على خصوصيتهم العنصرية وهويتهم الـــيهودية آلاف السنين وهم أقليات تسكن جميع أطراف الأرض. فقد حافظوا على العنصـــر اليهودي متميزًا على الرغم من المحن والصعوبات التي مروا بها. بينما شعوب أخرى أقامت حضارات وبنت مدنيات وسيطرت على مناطق جغرافية كبيرة جـــدًا لفـــترات تاريخية طويلة قد تلاشت وانحلت وذابت وانصهرت في غيرها من الأمـــم والشـــعوب على مدار التاريخ كالآشوريين والكلدانيين والحثيين والفينيقيين والفرعونية وغيرها من حضارات العالم.

صـياغة الـدور الـيهودي مـن جديـد – دور الدولـة في مقـابل دور الـيهودي المتجول :

يـــرى يهوشـــواع[2] بـــأن دور اليهودي المتجول أن يقدم للعالم المعرفة و"القيم" ورســـالته "أخلاقية" كـــ"الضوء بين الأمم". فعلى الرغم مما قاساه اليهود على أيدي

النازي ظل بعض القادة الروحانيين والفكريين اليهود يصرون على أن مهمة الشعب اليهودي بين الأمم، وأن قدرهم الوحيد يكمن في أن يبقوا "الضوء بين الأمم" و"الشعب المختار" مما جعل مثقفًا علمانيًّا مثل غيرشوم شولم يقول في إحدى مقابلاته، الجملة الإشكالية والاستفزازية التالية: "إذا كانت إسرائيل كبقية الدول والشعوب الأخرى في تصرفاتها فسوف تكف عن الوجود في القرن القادم"(3).

ويرى يهوشواع أن الحديث عن الدور والمهمة اليهودية المنوطة بـ "الشعب المختار" و"الضوء بين الأمم" يمكن أن يستمر، إذا ما استطاع العقل اليهودي، إدماج القومية بالدين لدى الشعب اليهودي، وهي على الرغم من إشكالياتها تبقى الجواب الوحيد بعد قيام دولة اليهود.

والخاصية الإنسانية الكونية لليهودية في نظر يهوشواع مشروطة بتخلي الإنسان عن هويته الدينية والقومية معًا، لذلك هي كونية متحيزة تعاني من خلل. ولتعويض تحيزها ونواقصها، وضع الشعب اليهودي على عاتقه غاية ومهمة تجاه العالم بأسره، العالم المرفوض بدرجة معينة. والتعويض المقدم نوع من العرفان مقابل القداسة الحصرية، التي يطلبها الشعب اليهودي لنفسه. أي: "سأكون ضوءًا بين الشعوب لأنني لا أملك القدرة ولا الإرادة على قبول الجميع" .. وقد تنازل اليهود عن هذا الدور، وهذه المهمة، "الشعب النموذجي" و"المختار" مقابل الحصول على طمأنينة الاستقرار، كبقية الشعوب في أرض تخصنا، والتحول إلى أسياد لمصيرنا، نطلب السيطرة على مصيرنا، على أفعالنا، ونحن بهذا المعنى كأي شعب آخر يعيش في بلده، بمقتضى سيادته الخاصة، ولا نطلب الاختلاف عن الآخرين.

وهكذا يرى يهوشواع كغيره من الصهيونيين بناة الدولة اليهودية، تهافت فكرة "الوظيفة المقدسة" لليهودية التي يدافع عنها الفيلسوف اليهودي الألماني هريمان كوهن، ويطلق عليها يهوشواع "البلاغة الخطابية". وقد اكتشف هذا الأخير كغيره من بناة الصهيونية أن "الأخلاقية العالية" التي كانت مصدر فخرنا في "المنفى" كانت إلى حد ما بلاغة خطابية، يمكن العثور عليها في بطون الكتب والموسوعات، بنصوصها الجميلة، وليس في الأفعال أو في الواقع. فلم نكن قد اكتشفنا آنذاك، اقتصاد الاكتفاء الذاتي الأخلاقي الخاص بنا، لم يكن لنا جيش خاص بنا، لم نسيطر على أقليات .. ولهذا فقد جعلنا التخلي عن "البلاغة الخطابية القديمة" نرى صورتنا عن أنفسنا في واقع الحياة باكثر دقة .. ولهذا فإن في التخلي عن دورنا ومهمتنا ووعينا بمهمتنا "الأخلاق العالية" خاصة عندما يكون التخلي لصالح الانزلاق نحو

غفـــران ضيق الأفق للذات القومية .. فقد تعلمنا من تجاربنا الفردية والجماعية أن الذي يعطي الآخر يصبح أكثر قوة في عطائه ... كالولايات المتحدة التي لا تشكل أكثر من5% من سكان العالم ولكنها الدولة القوية لأنها تعطي وتمنح الغير ...".[(4)]

وهكـــذا فـــإن المـــرآة التي ينظر من خلالها اليهود إلى صورتهم وإلى صورة الولايـــات المـــتحدة وعلاقاتهمـــا بدول العالم وكذلك المنطق الذي يفكر فيه اليهود تجعلهم يرون ويفكرون بما يعطونه للغير فقط ولا يرون الأضعاف المضاعفة التي يأخذونهـــا من هؤلاء "الأغيار". لا يرى اليهود تلك الإمبراطورية اليهودية العالمية فـــي مجال الاقتصاد والسياسة والإعلام التي تتحكم في هذا العالم، لا يرون الذراع الأمريكي التي تطول كل نواحي الأرض سلبًا ونهبًا .. وكذلك لا يرى يهوشواع ولا أقـــرانه أن الأمر المتواضع الذي يطلبه، أن يعيش في أرض خاصة به كغيره من الشعوب، غير متوفرة بغير عدوان على شعب آخر، فهو يقيم أمنه واستقراره على حســـاب أمن وتشريد شعب آخر .. كيف تستقيم هذه مع رسالته "الضوء بين الأمم" و"الشمعة التي تحترق لتضيء على الآخرين".؟

ويـــرى يهوشـــواع أن تبادر الدولة اليهودية في تشكيل فيالق تطلق عليها "فيالق التربـــية والتعليم" على غرار "فيالق السلام" التي سبق أن شكلها الرئيس الأمريكي جون كندي في مطلع الستينات من القرن الماضي، يرسلونها إلى دول العالم الثالث المخـــتلفة والمـــتخلفة، فنعلمها كل شيء: اللغات، الكيمياء، الرياضيات، الكمبيوتر، الطب، الاقتصاد والموسيقى ولن تكون هذه مهمة دولة إسرائيل فقط بل سينضم إليها يهـــود العالم، ويصبح هناك نوع من التنافس على تقديم هذه الخدمات بين إسرائيل كدولـــة وبين يهود العالم. وهذا سوف يعيد الثقة التي اهتزت وضعفت، بين بعض الـــيهود الذيـــن اعـــتزلوا إسرائيل في السنوات الأخيرة عندما شعروا فيها بالضيق والإحـــراج الخلقـــي من ممارسة إسرائيل للأنانية القومية المنافقة ... وسوف يثق هـــؤلاء الضـــعفاء والفقراء من الشعوب الفقيرة بمثل هذه المعونات "الفيالق التعليم" والتي لا تخفي وراءها أطماعًا اقتصادية وسياسية وعسكرية".[(5)]

تمـرد المؤرخـين الجـدد عـلى تسـييس المعـرفة للـتاريخ مـن قـبل المؤرخـين القدامى :

إن إعـــادة مراجعة في تاريخ الدولة اليهودية الحديثة بعد فتح بعض الملفات من الأرشـــيف التاريخي بعد مرور الوقت الكافي جعل طائفة من المؤرخين "الجدد" من

بين اليهود من أمثال: "بيني موريس، وإيال كفكافي، وايلان بابيه" ينتقدون السياسة الإســرائيلية ويحملونهــا مسؤولية تضييع بعض فرص السلام والتسوية السياسية للــنزاع العربي الإسرائيلي التي كانت على ما يبدو متاحة في عدد من المناسبات. وهــذا الرأي والتوجه الجديد في فهم وتقييم الممارسة الواقعية للدولة اليهودية جاء مغايــرًا ومخــتلفًا للموقــف الرائج الذي يرى أن المجتمع الإسرائيلي هو مناصر للســلام، وهو مكرهٌ على خوض صراع عنيف فرض عليه وليس من "خيار آخر" أمامه مثله كالحمامة التي اضطرت أن تحمل حربة رغم أنفها، كما ورد في عنوان كتاب لأنيتا شبيزا: "حربة الحمامة : الصهيونية والقوة 1881 ـــ 1948" (منشورات "عام عوفيد" (الشعب العامل) تل أبيب 1992).

وكذلــك يــرى هؤلاء "المؤرخون الجدد" أن إسرائيل تتحمل مسؤولية كبيرة في نشــوء مشــكلة اللاجئين الفلسطينين، عقب سياسة التشريد التي اقترفها قادة حرب كــبار فــي صراع وحرب 1948 بتشجيع خفي، أو الموافقة من خلال الصمت من طــرف المســتوى السياســي الأعلى. وكذلك في القانون المبني على سياسة "منع العــودة" للاجئيــن الفلســطينيين الذين هُجروا من وطنهم والتي اعتمدتها السياسة الإســرائيلية وما زالت.[6] وكذلك يرى هؤلاء المؤرخين أن المسؤولين الإسرائيليين مارســوا سياسة المغامرات العسكرية التي أدت إلى توتر الوضع ثم حدوث حرب 1956 الزائدة. هذا التشدد الذي كان يتبناه ابن غوريون خلافًا لموقف موشه شاريت الأكثر اعتدالاً.

ويــرافق نظــرة هــؤلاء "المؤرخيــن الجــدد" موقف مماثل "لعلماء الاجتماع الانتقاديين"، والذين تمحورت علاجاتهم حول الفترة العثمانية والانتدابية لبريطانيا. وقــد أجــروا تحليلات موازية عرضت الاستيطان الصهيوني في فلسطين بوصفه مشــروعًا كولونيالــيًّا من الاحتلال والسلب والنهب. وهذا الموقف يعارض التوجه الذي يتبناه التيار المركزي في العلوم الاجتماعية الإسرائيلية، الذي يرى "الاستيطان الــيهودي" من منظور "التطور الثنائي" واحدًا بمحاذاة وملاصقة "الآخر"، اليهودي إلــى جانب الفلسطيني، مجتمع فلسطيني عربي متخلف بدائي، والى جانبه مجتمع يهــودي عصــري مــتطور. يمــثل هــذا التيار علماء الاجتماع (شموئيل نوح، وايزنشتادت ودان هوروفيتش وموشيه ليسك)، وهناك تيار اجتماعي ثالث من علماء الاجتماع يؤكد على نشوء ثقافة عسكرية وتطوير روح قتالية في إسرائيل تسهم في استنســاخ الصــراع والعمل على استدامته كما يرى ذلك أمثال (باروخ كيمر لينغ

واوري بــن اليعيزر)، وجميعها تنتقص، بطبيعة الحال من صورة إسرائيل المدنية والمناصـــرة للسلام. كما أن بعض علماء الاجتماع يؤكدون على ظاهرة الاحتكار القوي من جانب منظمات حركة "العمل" بما يتعلق بسياسة التوطين والعمل والتعليم والـــرفاه الاجتماعـــي والتـــي تظلـــم الأقلية العربية وتهمش دورها ومنهم (هنري روزنفيلد، وشولميت كرمي، وزئيف روزنهوك وميخائيل شليف، ورؤوبين يفتاحئيل وماجد الحاج). أو بالنسبة لحكم ووضع الجماهير العربية التي تتمتع بمواطنة جزئية فـــي ظـــل ديمقراطـــية إثنية (سامي سموحة وايان لوستيك ويوآف بيلد وعزمي بشـــارة).[7]

وبغـــض الـــنظر عن مختلف الدلالات العالمية لهذا النقاش الدائر بين المؤرخين وعلمـــاء الاجـــتماع، فإن النقد التاريخي في الحالة الإسرائيلية يمكن تجسيده بشكل ملموس، خاصة في أحد جوانبه الأكثر إثارة، وهي ما يمكن أن نطلق عليه: "العقدة الغورديـــة" القائمة بين السياسة والمعرفة، خاصة في سياسة المعرفة التاريخية في إســـرائيل في سنوات التسعين من القرن العشرين. ومصطلح "سياسة المعرفة" الذي قد يساعدنا في توضيح الرابطة بين النص والقرينة في نقاش المؤرخين في إسرائيل يمثل تجسيرًا بين المجالات المنعزلة ظاهريًا للمعرفة والهوية. وهو تجسير موجود دومًا غير أنه منكر دومًا ..

والادعاء الأساسي الكامن في مصطلح "سياسة المعرفة"، بما أنه دراسة الإنسان والمجتمع، فلا وجود لإنتاج ونشر واستيعاب المعرفة في منأى عن التموضع ضمن وجهـــة نظـــر اجتماعية. وقد انتشر الوعي بهذا الادعاء في العقدين الأخيرين من القـــرن العشـــرين، فشمل أوساط جيل كامل من المثقفين، والذين يرون أن سياسة الهويـــة وسياســـة المعـــرفة مرتبطتان ببعضهما البعض. كما عرف هذا اللون من الارتباط بين "سياسة المعرفة" والتموضع في النصف الأول من القرن العشرين في التفســـيرات الماركســـية، وكذلـــك في مذهب مدرسة فرانكفورت، وبعث في عقد الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي في صياغة ميشيل فوكو "ما بعد البنيوية" أو في صياغة ما "بعد الكولونيالية" لإدوارد سعيد.[8]

وفـــي السجال الدائر بين المؤرخين "القدامى" في إسرائيل والذين يمكن اعتبارهم مجنديـــن من قبل السياسة الرسمية الإسرائيلية والأيديولوجية الصهيونية في تناولهم لموضوع كتابة التاريخ بمقتضى النص الرسمي التبسيطي حتى لا تعرض السياسة الإســـرائيلية لفهم سلبي من قبل "الآخر"، وبين تلك الفئة الوسطى "القدامى ـــ الجدد"

وهم الذين يكتبون بصيغة أقرب إلى المهنية الأكاديمية التجميلية ولكنها تتبع ولو بلا وعي منها، منهجًا تبريريًا في مواضع بحثهم. وبين المؤرخين "الجدد" وممثلهم بيني موريـس والذي يعتبر تحديه للبحث التاريخي في إسرائيل واحدة من أكثر المراحل أهمية في سيرورة الحوار التاريخي العلمي الاسرائيلي، ومع ذلك فإن ما كان مثيرًا فـي حينه، جدير اليوم بالاستيضاح والتعديل. وهذا ما بدأ بإنجازه مؤخرًا المؤرخ الجـريء "الجديـد" الآن بابـيه، ذلـك أن التعبير الحاصل في مناخ علم التاريخ الإسرائيلي أكثر شمولاً وجوهرية مما يصفه موريس[9]. وميدان الاختلاف هو حول "الـثقافة الصـهيونية ـ العـبرية" والنظرية المركزية هنا طرحها أمنون راز ـ كراكوتسـكين الذي يرى أن حجر الزاوية في تشييد الهوية: "الأرض ـ إسرائيلية" وكـان قـد حشـر التاريخ والثقافة الإسرائيلية على تشكيلاتها المتعددة في شرنقة الخطاب السائد للصهيونية بشأن نفي "الشتات" (الدياسبورا) والتخلص من إسقاطاته، وتوكيد مركزية "أرض إسرائيل". ولهذا كان محك التصور الذاتي الإيجابي في نظر الصـهيوني هو في مدى تعارضه مع التصور السلبي لليهودي. وأدى هذا التمركز فـي فلسـطين فـي قـراءة بعـض المؤرخين، إلى أن لا تحرك قيادة "الييشوف" (الاسـتيطان) ساكنًا عند وقوع كارثة الهولوكست، وبدل أن تصب كل جهدها في إنقـاذ اليهود، واصلت التركيز على "بناء البلاد" (انظر شبتاي بيت تسفي، ويوسف فرودزينسـكي وتـوم سيغف) هذا الزعم يحاول أن يفنده التيار المركزي في علم الـتاريخ والذي يبرر ذلك بما أصاب القيادة من بُكم ومشاعر عجز وتقصير (حافا اشكولي ـ فاغمان ويهودا باور وشبتاي طيفت ... وغيرهم) بينما يؤكد موقف آخر أنـه جرى في إسرائيل استغلال ذكرى الهولوكوست بصورة نفعية مصلحية، وتم توظيفها سياسيًا من أجل الحصول على العطف العالمي ولهذا فقد عرضت فقط من زاوية "عبرتها" الصهيونية، وذلك على حساب التماثل الإنساني مع الضحايا، وعلى حسـاب اسـتخلاص العـبر الكونـية (أنظر دان دينر، وهنري فاسرمان وعيديت روزنطال وروت فيرر وموشيه تسوكرمان).[10]

وكما هو الحال في موضوع العرب الفلسطينيين، فكذا أيضًا في موضوع اليهود الشـرقيين، وفـي موضـوع يهود أوروبا، حيث يعارض علم الاجتماع الانتقادي والمؤرخون الجدد الرواية المألوفة للمجتمع الإسرائيلي، وهي الرواية التي توجزها مقـولات: "شعب بلا أرض إلى أرض بلا شعب" و"ليس ثمة من نتحدث إليه" و"كل إسـرائيل مجتمع تكافلي" وبدل "كل" تطرح رواية المصلحة الذاتية "لليبشوف القديم"

(الاستيطان) حيال "آخرين" انتهبت أرضهم واقتلع الغالبية من أرضهم وألقي بهم في العالم الضيق على سعته الذي لم يتسع لهم، ولم يعترف بهم.

وهذا يؤكد لنا أننا لسنا أمام موضوع أكاديمي صرف، وإنما أمام حدث في ميدان الثقافة السياسية العامة في إسرائيل، إذ تتعرض للتعرية واحدة في إثر أخرى، مجموعة "الطباع الإيجابية" ومجموعة "الأساطير" المؤسسة للمجتمع الإسرائيلي، الرسمية والشعبية والدراسات البحثية سواء بسواء. ويختل بذلك تصوره الذاتي كمجتمع مناصر للسلام والمساواة والأخوة، وهكذا إذا تمّ وضع كل ذلك في السياق السوسيو ـ بوليتي الأوسع والأشمل فإنه يثبت دعوى بأنه يعكس مواجهة متجددة حول تعريف الهوية الإسرائيلية .. بكلمات أخرى فإن نقاش المؤرخين هو تعبير عن حوار ساخن بل معركة تدور حول تحرير أو احتلال الذاكرة الجماعية في إسرائيل، معركة من شأنها أن تؤدي إلى بديل مرتقب في مضمار تعريف الهوية الإسرائيلية.[11]

الطرح الصهيوني الاستيطاني والخطاب التحريضي :

يتضح لكل من يحاول أن يدرس الحركة الصهيونية وأيديولوجيتها السياسية من غير أن يضطر في التنقيب والبحث، أنها قائمة وتستمر كأداة للدفاع وبالأحرى كرد فعل للدفاع عن ملاحقة اليهود واضطهادهم والعمل من أجل رفع المعاناة مما لحق بهم في أوروبا خاصة. ولذلك فإن دوافعها وخلفياتها عدائية في تناولها "للغير". وكذلك فان خطابها ومنطقها تحريضي ضد "الجوييم" كل ما هو غير يهودي، وذلك من أجل أن تكتيل اليهود، وبذر الشكوك في نفوسهم ضد "الغير" ولو كان هذا الغير هو المجتمعات التي آوتهم وعاشوا بها مئات السنين. وتعمل الصهيونية في تثقيفها الداخلي والذاتي على خلق أجواء من انعدام الثقة بين الطرفين ـ الطرف اليهودي والشعوب التي يعيشون بينها ـ هذا التثقيف يساعد على خلق مركزية لنواة يهودية من جهة وبالتالي محورتهم حول الذات، وحول أهداف الحركة الصهيونية، والتي تقمصت دور فكرة "همشيحيت" (عقيدة الخلاص التي تنتظر عودة السيد المسيح المخلص) مع الفارق كونها حركة سياسية علمانية في توجهها العام .. وكنتيجة لذلك ترى اليهودي يحاول دائمًا الحصول على جنسية مزدوجة، تعبر عن انعدام الثقة في مواطنته الأصلية في البلاد التي يعيش بها.

وقد يفهم المرء أن يكون هناك إنجليزي علماني ، أو فرنسي أو عربي ولكن

وجــود يهــودي وعلماني بمعنى ــ لا ديني ــ وغير مؤمن، فهذه حالة تعاني من تناقض بنيوي بين النص والمعنى في مصطلح "اليهودية". وكل هؤلاء المفكرين من بيــن الــيهود الذيــن يحاولون صب معاني قومية في المصطلح "اليهودي" هي في الــنهاية محــاولات غير مفهومة وغير مبررة، وهي نوع من هندسة المصطلحات الغير موفقة لأنها تحاول أن توجد قولبة جديدة تضم بداخلها مفاهيم متعارضة وغير متجانســة. هــذا قالب تتحرك فيه معان متقاتلة متخاصمة تغذيها حرب أهلية بين الدينـــي المحض الذي يراد أن يحوي بداخله مفاهيم غير دينية، بل لا دينية. فكيف بهــذا الــنص أو القالــب الديني الذي يسكب فيه مفاهيم متعارضة ومتغايرة ثقافية واجتماعية وسياسية، كمصطلح اليهودية التي تسكن بقاع الأرض المختلفة. وإذا ما رغــب العربي، الفارسي أو الفرنسي، على سبيل المثال، أن يعتنق اليهودية كدين فهل عليه أن يطلق قوميته ويخرج عن هويته القومية؟ وهل بالإمكان أن تكون هناك حالة نصف يهودي؟ أو يهودية بشروط؟ ولهذا فإن كل المحاولات التي تجتهد لتجد تفسيرًا لليهودية كدين وقومية في آن واحد، لن تنجح قطعيًّا.! في واقع الأمر هناك ديانـــة يهودية وإلى جانبها قومية إسرائيلية. وكل اجتهاد المفكرين الصهيونيين لن ينجح في هندسة قالب يحوي هذه المتناقضات. فبنوا إسرائيل هم الذين انحدروا من نســل يعقــوب، عليه السلام، الذي لقب بإسرائيل. وأما المنتسبون لليهودية فشيء آخر، هم كل هؤلاء الأقوام الذين اعتنقوا اليهودية كدين، كمعتقد ومناسك وطقوس.

وبهذا يمكن أن نفهم الحركة الصهيونية على أنها حركة سياسية أبدعها وأنتجها العقــل الــيهودي ليستخدمها آلية من أجل بناء دولة. وبعد قيام دولة إسرائيل فمن التــناقض أن تتحول هذه الدولة من هدف للصهيونية لتصبح وتتحول إلى أداة وآلة بيد الصهيونية لتحقيق توسعاتها الاستيطانية الكولونيالية في المنطقة .. فإن كان من الممكــن إيجاد تسوية سياسية للنزاع العربي الإسرائيلي، فمن غير الممكن ــ إن لم يكــن مــن العســير ــ أن يــتعايش العرب كل العرب مع المشروع الصهيوني، فالمشروعان العربي والصهيوني كمفهومين متغايرين لا يتسع لهما نص واحد. وما لــم تــتم عملــية فــك الارتباط ما بين الدولة الإسرائيلية (اليهودية) وبين الحركة الكولونيالــية الصهيونية، وتتمكن الدولة الإسرائيلية من أن تتخذ قراراتها وتصوغ سياستها بمقتضى مصلحة سكانها فقط، فلن تتم تسوية سياسية بين العرب وإسرائيل .. لأن الــبلهاء والحمقى فقط هم الذين يعقدون أتفاقا ما أو سلامًا مع من لا يعترف بهم ولا بحقوقهم ولا بملكيتهم لأراضيهم، وهذا ما يعلنه الكثير من المثقفين اليهود،

كما رأينا بروفسور درور وغيره من تأكيدهم على صهيونية الدولة، وأن الدولة آلة صهيونية، وأن الصهيونية لم تحقق كل أهدافها[12].. فماذا يعني كل ذلك؟

مـــن أجـــل ذلـــك فإن المصلحة العربية والمصلحة الإسرائيلية تحتم أن يمتلك الطرفان إرادة مستقلة، ورؤيا مستقلة، وقرارًا مستقلاً، وخاصة الطرف الإسرائيلي، بل إن المصلحة العربية تلتقي مع اجتهادات الكثيرين من هؤلاء "المؤرخين الجدد"، وكذلـــك النقاد الاجتماعيين والذين يخوضون معركة حقيقية في اتجاه فك الارتباط بيـــن الحـــركة الصهيونية وبين المجتمع الإسرائيلي. والأقلية العربية في إسرائيل ينبغـــي أن تكون جزءًا نشيطًا وفعالاً في هذا الطرح، وصياغة وتشكيل هذا الاتجاه وتعمـــيقه وإرســـاء دعائمـــه، مصلحة إسرائيلية وعربية وشرق أوسطية وبالتالي عالمية.

مـــنذ أن كانت فلسطين، أو أيًّا كان اسمها عبر التاريخ، لم يحدث أن عانت من فـــراغ ونشـــاط إنساني على ظهرها، فكيف حدث أن فرغت من أهلها في النصف الأول من القرن العشرين؟ كيف يستسيغ العقل مقولة كهذه؟ "أرض بلا شعب، ليهود بلا أرض" أحقًا هذا حصل؟ يا من يعتبرون أنفسهم "نور الأمم" و"النموذج المختار"؟ بعض من هؤلاء الذين ولدوا مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ما زالوا أحياء، يروون حياتهم فوق تراب فلسطين.أين عاش هؤلاء وترعرعوا؟ بأي أرض وتحت أي سماء؟ أتكون كذلك وعلى هذا النحو رسالتكم للبشرية؟

نحـــن إذ نبارك الاتجاه الجديد "للمؤرخين الجدد" و"النقاد الاجتماعيين" ولكن ما زالـــت حركتهم في نطاق التشكيك بصحة الرواية الرسمية الإسرائيلية ودون الحد الأدنـــى مـــن الاقـــتراب إلى الحقيقة الموضوعية .. ما يزيد عن 420 قرية هدمت وســـويت في الأرض وقتل بعض أهلها وشردوا وأخرجوا من قراهم ومدنهم بأمر مـــن القادة العسكريين فقط؟ أو أن المسؤولين السياسيين قد صمتوا عن ذلك؟[13] أهذا كل ما في الامر؟

الحقيقة التي تصرخ بأوضح بيان، وأتم حجة تقول إنه ما من حجر هدم في بيت صـــغير مـــن قرية صغيرة إلا والقيادة السياسية والعسكرية تعلم به وأمرت به، بل باركتها وأثنت على القائمين بها. نحن ننتظر صحوة الضمير، حتى يعترف بالخطأ والشعور بالذنب مما اقترف من ظلم بحق الشعب الفلسطيني وما زال يمارس ضده الظلم .. إن اعترف بذلك ستكون الخطوة الأولى في الاتجاه الصحيح من أجل بناء الـــثقة وإيجاد حل صحيح لهذا النزاع، ونهاية سلمية لهذا الصراع الطويل والمعقد.

والصراعات المعقدة لا تحلّ إلا بتفكيكها إلى مركباتها وعناصرها الأولية، ومحاولة علاج أطرافها الأيسر فالأيسر، ورفع المعاناة عن الإنسان أولاً، ورد الاعتبار إليه مسؤولية أخلاقية وقيمية قبل أن تكون سياسية. ولا أدري "رسالة" تصف نفسها على أنها "الضوء بين الأمم" يمكن أن تكرس جهودها من أجل سحق شعب أعزل، لا لشيء، إلا أن يقول: هذا وطني، هذه أرضي، هذا بيتي، وبيت آبائي وأجدادي؟ وهل من الأخلاق أن ينكر المرء انتماءه وذاتيته؟ وهل من رسالة "نور الأمم" أن يصبح الراب عوفاديا يوسف الناطق الرسمي للممارسات الصهيونية؟ ويصبح هذا الشعب الفلسطيني عبارة عن أفاعي ينبغي قتلها والتخلص منها؟ وهل استطاع عوفاديا أخيرًا أن يحل شيفرا هرتسل بعد مائة سنة حين قال بني الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر حين أعلنٍ أن الطلائعيين الصهيونيين الأوائل ذهبوا إلى فلسطين لاصطياد الأفاعي"؟ حقًا وبهذا يستحق أن يكون عوفاديا يوسف "النور الهادي للبشرية"؟.

قراءة في اللا مكتوب للدور اليهودي التاريخي :
تعرية الطبقة الجيو ـ تاريخية الثالثة :

في عالم النباتات، هناك نباتات تعيش وتقتات على النباتات. وفي عالم الحيوان هناك من يقتات من عالم النبات، وهناك من يعيش على لحوم الحيوانات، وهناك الإنسان الذي يعيش على النبات والحيوان معًا .. وهناك من يقوم على تسخير الانسان.

وفي عالم الصناعة، هناك صناعة يدوية، يفرغ فيها الإنسان جهده وطاقته الإنتاجية بالجهد المباشر، وهناك صناعة متطورة تنتج فيها الآلة الأكثر تعقيدًا من غير مشاركة بشرية مباشرة. والذي يحرك تلك الآلة المعقدة التي تنتج غيرها، هو عقل هذا الإنسان وإبداعه. وفي المرحلة الأخيرة هناك عقل تلك الآلة المعقدة وموجهها والمتحكم بها وبمنطقها.

فعندما كانت تصر إسرائيل على بناء طائرة "الليفي" المتطورة والتي تبلغ تكلفتها المبالغ الطائلة الباهظة لكي تنافس الطائرات الحديثة خاصة الأمريكية، فقد أثر في اتخاذ القرار النهائي في الإحجام عن هذا المشروع عوامل كثيرة أهمها:

1- التكلفة الباهظة لهذا المشروع الكبير.

2- صعوبة وكثرة التكاليف لصيانة هذا المشروع واستمرار تطوره.

3- الطاقـــة الإنتاجية المحدودة التي لا تستطيع أن تنافس المشاريع العملاقة في دول ذات خبرات وموارد وأسواق استهلاكية كبيرة كثيرة.

4- إغضاب حلفائها.

5- إثـــارة الحافـــز فـــي الإرادة العربية لإقامة صناعة شبيهة في ظل الصراع والمجابهة.

6- الانشغال بهذا المشروع الكبير، وصعوبة حشد الطاقات المادية والتقنية لمثل هذا المشروع، وهذا كله سوف يتم على حساب التوسع في مشاريع أقل تكلفة ولكنها أكـــثر تطـــورًا.. كقوة التوجيه وإضافة عقل من أجل تحسين أداء الطائرات البديلة التي ستملكها.

وبالتنســيق مـــع الولايـــات المتحدة الأمريكية تم إلغاء هذا المشروع واستبداله بالطائرات الأمريكية المتطورة: إف 14، إف 15، إف 16 .. وغيرها ، بينما انصب الجهـــد الإســـرائيلي على إنتاج عقول إلكترونية وأجهزة متقدمة لتتحكم وتوجه هذه الطائرات الضخمة .. وهكذا عن طريق استثمار جهد قليل ذي كفاءة عالية وتكلفات قليلة نسبيًّا تم الإبداع بها عن طريق إنتاج أجهزة متطورة تتحكم بهذا الهيكل الضخم وتحسين أداء هذا الذي يسمى إف 15، إف 16 إلخ. وهكذا تصبح الولايات المتحدة الكبـــيرة ذات القـــوى الإنتاجـــية الضخمة تنتج الطائرات والصواريخ الضخمة .. وإســـرائيل الصغيرة بإمكانياتها الذاتية المحدودة تنتج أجهزة صغيرة ولكنها بمثابة عقول تتحكم بتلك الصناعات الضخمة الثقيلة.

والعقلـــية الـــيهودية اشتهرت على مر التاريخ بالإبداع في مجال التنسيق وإنتاج المركـــب الثالـــث، فمن الموجود وحتى المطلوب ينتج الممكن وهكذا .. وإذا كان الإنســـان يتميز بالبعد الأخلاقي وبالإرادة والتفكير، فإن الإرادة لا يحصل عليها إلا مـــن توفـــرت لديـــه الإمكانيات بأنواعها ومن بينها المال الوفير وطرق تحصيله وإنتاجه، وأما التفكير فإنتاج ذهني وعقلي، وكلما كان هذا التفكير أرقى احتاج إلى فعل عقلي أوسع وأشمل وأقوى.

وعلى ضوء ذلك وبالاستناد إلى الحفريات المعرفية تحت السطح أو تحت القشرة المرئـــية مـــن الطـــبقة الجيوتاريخية الثانية لكثير من المفكرين اليهود والمقولات المتداولة: "الشعب المختار" و"الشعب النموذجي" و"نور الأمم" أو "الضوء بين الأمم" و"الخطاب الأخلاقي الرفيع"، أو "التمرين العقلي" الذي يطرحه برفسور درور على لســـان القادم الضيف من كوكب آخر، والذي استضافه برفسور درور ليضع على

لسانه ما يفكر فيه وما هو موجود في قلب وعقل برفسور درور ذاته وما لا يستطيع التفكير به بصوت مرتفع أو مقروء Thinking on the unthinkable لدور الدولة اليهودية المزدوج بل المتناقض كهدف وكذلك كآلية. فإن الضيف القادم من كوكب آخر لو اتيحت له فرصة دراسة التاريخ الإنساني والتاريخ اليهودي ونظر في مرآة عجيبة تعكس الماضي والحاضر والمستقبل، من غير أن يهتم بموضوع الحياة القصيرة لجيل أو جيلين، فسوف يستنتج هذا الضيف من العالم البعيد أن مهمة الشعب اليهودي هو إبداع أفكار روحانية مهمة للجنس البشري مقابل تضحياته باستقلاله السياسي. ولهذا في عين القادم من بعيد يمكن لدولة إسرائيل، بل الأفضل لها أن تنهار بعملية ذاتية إذا كان ذلك سيُحدث زلزالاً يؤدي إلى إنتاج كبير من نوع الإبداعات الروحية التي قدمها الشعب اليهودي للبشرية عند خراب الهيكل الأول والهيكل الثاني. وقد يفضل إمكانية أن تكون شمعة تضيء في السماء من جديد على قيامها كدولة يهودية عادية كباقي دول "الأغيار" (الجوييم) والتي ينقصها مفهوم روحاني عالمي. وعلى ذلك فإن القادم من كوكب آخر سوف يرى أن قيام دولة إسرائيل ما جاء إلا لتستخدم كعود ثقاب يشعل إنتاجًا روحيًا من جديد بواسطة إحراق ذاته".[14]

هذا التمرين العقلي الذي يورده برفسور درور على لسان قادم من كوكب آخر يقوله بعض المفكرين اليهود صراحة من غير أن يضطروا لاستضافة ضيف من عالم بعيد. وهذا يظهر الارتباك والحيرة في فهم الدور والمهمة اليهودية وما هو الأفضل لليهودية، الاستقلال السياسي بدولة تقتصر على طاقاتها وإمكانياتها أم المحافظة على دور اليهودي المتجول الذي يفتش عن نصوص يسكنها ومن ثم يتحكم بمقدراتها الكبيرة الغير محدودة؟!! وكأن الدور اليهودي مهمته الأساسية ورسالته تتلخص في بعث ثورة روحية في العالم، وليست التحيز بدولة متحيزة بمكان وظرف محدد.

هذا الكلام وهذه الأفكار هي نفسها التي رد بها الفيلسوف اليهودي الألماني هريمان كوهين على حاييم وايزمن، عندما طلب هذا الأخير منه الانضمام للمشروع الصهيوني بهدف إقامة الدولة اليهودية. قال كوهين غاضبًا ومعاتبًا وساخرًا: "هل نحن بحاجة إلى ألبانيا جديدة"؟ وهكذا يتخلى اليهود عن مهمتهم في رعاية "الوظيفة المقدسة" لليهود في العالم ... وقريبًا من مثل هذا القول صدر عن غيرشوم شولم المفكر العلماني حيث يقول: "إذا استمرت إسرائيل في نهجها وحجم ونوع تطلعاتها

كما هي عند غيرها من الدول والشعوب، فسوف تكف عن الوجود في القرن القادم (القرن الواحد والعشرين) ــ (أنظر "الكرمل" عدد 54 شتاء 1998).[15]

وهـذا أ.ب. يهوشـواع يحاول أن يجمع بين "الوظيفة المقدسة" للشعب اليهودي وبين ما ينبغي أن تحمله "دولة إسرائيل" من رسالة إلى الناس جميعًا ويقترح في هذا المجـال، كمـا سـبق أن ذكـرنا "فيالق التعليم" التي ترسلها الدولة اليهودية لتعليم الشـعوب الفقيرة والمتخلفة مجاناً، لكي تستمر "الرسالة اليهودية". بل إن المفكرين اليهود وكذلك بعض الساسة يعملون على نشر مشروعات أخلاقية إلى برنامج الأمم المتحدة كمساهمة في دور اليهودي في موضوع الأخلاق.

وفـي هـذا الاتجـاه كانـت تصـب كل انتقادات برفسور لايفوفيتش للسياسة الإسرائيلية وخلوها من عناصر "الرسالة اليهودية".

وسـوف نخـترق بحفرياتـنا المعرفـية طبقة أخرى تكشف لنا بعض جوانب ومرتكزات المسألة اليهودية وهي خطوة أخرى بنفس الاتجاه أعمق وأشمل من تلك الأضواء والأنوار التي تمثل الطبقة الأولى والثانية من القشرة المرئية.

الرسالة اليهودية في مرحلة ما قبل سبي بابل ورسالتها بعده :

الرسالة اليهودية قبل سبي بابل كانت رسالة ربانية دينية، تدعو إلى دين الله منذ إبراهـيم ويعقـوب وإسحاق ويوسف وموسى، وحتى داوود وسليمان عليهم السلام جميعا ــ كانت دعواهم واحدة، وقد كانت حقاً رسالة "أخلاقية" كانوا حقاً "النور بين الأمم".

وأمـا الرسـالة اليهودية الثانية، رسالة اليهودية في فترة ما بعد خراب الهيكل الأول وسـبي بـابل وانقطـاع حبل الله الذي كان يربطهم، بعد أن تنكبوا دينه فقد أصبحت رسالة غير ربانية، رسالة لا دينية، ويمكن تسميتها رسالة فكرية وضعية. وجعلـت العقـل في مكان الوحي والشرع، وأقامت حربًا مفتعلة بين الفكر والعقل وبيـن الوحـي والشـريعة، رفعت "الإنسان اليهودي" إلى درجة التقديس، وأبطلت الإلهي.

رسـالة الـيهود الربانـية منذ زمن إبراهيم وذريته حتى داوود وسليمان عليهم السلام، كانت دعوة "أخلاقية، دينية، نورانية" وسوف نعيش مثالين اثنين كدليل على ذلك : مثال يوسف، عليه السلام، ومثال داوود وسليمان، مثال فيه فرد واحد يدعو لدين الله ومثال فيه ممكلة ودولة تدعو وتعمل بشرع الله.

وأما مثال يوسف، عليه السلام، فبعد أن قربه الملك لعلمه وأخلاقه وصدقه، فكان طلب يوسف، عليه السلام:**﴿قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾**[16](يوسف 55) بكلمات أخرى فإن يوسف طلب من الملك أن يجعل تحت تصرفه، خزانة الدولة، أو وزارة المالـــية، فهـــو حافظ لها، وعالم بما ينبغي أن يصرف فيه المال من أوجه الخـــير والدعوة وقد حاز يوسف عليه السلام قوة المال وقوة الإعلام. خزانة المال والـــثروة إلـــى جانـــب الإعلام والدعوة. ولما كان يوسف، عليه السلام، ربانيًّا فقد استخدم هذا الإعلام في الدعوة إلى الله، وإلى دينه، وإلى الأخلاق والفضيلة. وهكذا أصـــبح يوســـف الوحيد الملاحق الذي خرج من السجن يمثل عقل البلاد ومنطقها، ومـــالك ثروتها، فهو يدها التي تنفق على البلاد والعباد، ولسان إعلامها ودعوتها، وهكذا تحرك يوسف بمفرده بمقدرات وطاقات البلاد كلها. لأنه احتل عقلها وروحها وإرادتها، مثل تحكمه في أمور مصر وتوجيهها كمثل الجهاز المتطور الذي يتحكم بطائـــرة إف 15 أو 16 الضخمة ... مع الفارق أن ذلك كان نشاطًا وفعالية أخلاقية رحـــيمة تبغي الخير للإنسان، بينما الجهاز المتطور في الطائرة الضخمة، نذير شر وخراب لا يستويان مثلا، وليوسف ــ عليه السلام ــ مثله الأعلى".

وأمـــا مملكة داوود وسليمان، فقد قام فيها حكم يدعو إلى دين الله[17]: **﴿ ... وقال رب أوزعـــني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمـــتك في عبادك الصالحين ﴾** (النمل 19)، وقوله: **﴿ .. إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم .. ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين ﴾** (النمل 30-31) وهذا علو لبني إسرائيل وتمكين لبني إسرائيل، إنه علوّ المؤمنين، علوّ صاحب الرسالة الربانية الفاضلة الصالحة .. فقـــد سخّر الله سبحانه، الإنس والجن والريح لسليمان عليه السلام، فلما طلب ممن يجلسون إليه، أيهم يأتيه بعرش الملكة بلقيس؟ قال عفريت من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقـــوم من مقامك . قال الذي عنده علم من الكتاب: أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طـــرفك . فما نظر إلا وكان العرش ماثلاً أمام سليمان، عليه السلام . الذي عرض المســـاعدة الأولـــى كان عفريتًا من الجن ممن سخرهم الله سبحانه لسليمان .. وأما الثانـــي فهو المؤمن الذي عنده علم من الكتاب. وتعاون المؤمن الذي عنده علم من الكـــتاب مشروط برسالة بني إسرائيل الربانية .. أما عندما تخلوا عنها واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر. وهكذا بقي في أيديهم الخيار الآخر، الخيار الثاني: "عفريت مـــن الجن مع الفارق فيما يتعلق بسليمان، عليه السلام، فقد سخر الله له الجن وأما

بعد التخلي عن دين الله ودعوته فهناك خيار تعاون وتنسيق.[18]﴿ قال: يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين .. قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني علـيه لقوي أمين .. قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد طرفك، فلما رآه مستقرًا عنده، قال هذا من فضل ربي ليبلوني، أأشكر أم أكفر، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾ (النمل 38–40) وهكذا يكون اليهود بعد سبي بابل، بل ما كان سبي بابل الا نتيجة ان صدّ اليهود عن دين الله فوقعوا على خيار "عفريت من الجن".

وهكذا بعد داوود وسليمان، عليهما السلام، تنكب بنو إسرائيل الجادة الصحيحة، وتـركوا أمـر ربهم، وعصوا تعاليم أنبيائهم ونبذوهم، حتى استحقوا أن يبعث الله عليهم نبوخذ نصر، فخرب هيكلهم، ودمر بلادهم وسباهم، لأنهم لم يسمعوا لدعوات أنبيائهم كما تحدثنا التوراة نفسها عن ذلك، حتى خاطب "الرب" أورشليم بـ"الزانية" وشـبه بني إسرائيل وأورشليم بالكرم الذي رعاه صاحبه وجعل حوله سياجًا واقيًا وحافظًا، وأعطاهم من كل شيء، ولكنهم لم يحفظوا دين الله، كما أن الكرم لم يعط الإنـتاج الـذي توقعـه صاحبه، بل أنتج شوكًا وحسكًا فماذا يفعل به صاحبه؟ كما تحدث التوراة سيهدم السور الذي يحفظه ويجعله عرضة لدوس الشعوب..

فـي مصـر بيع يوسف وحيدًا أي سبي وحده ولكنه بقي مع ربه وعلى دينه، فمكن الله له بذلك، وفي سبي بابل كانت هناك جحافل كبيرة ولكنهم تخلوا عن منهج الله ودعـوة أنبيائهم، فبقيت لديهم، قوة الإنسان أو ضعفه، فتمسكوا بالخيار الثاني، الخيار اللاديني، خيار "عفريت من الجن"، فاستطاعوا أن يحتلوا مكانة مرموقة في تلـك البلاد في عالم الفكر، ونادوا بالقطيعة بين الوحي والشرع وبين العقل والفكر من جهة أخرى، حتى أنزل الله فيهم: ﴿... فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون هذا من عند الله، ليشتروا به ثمنًا قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾(البقرة 79) وكذلك قوله تعالى: ﴿... فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً﴾(ال عمران187)[19].

الرسالة الفكرية اللادينية لليهودية ـ "المعنى" اليهودي المتجول الذي يفتش عن نص يسكنه :

اسـتطاع "الفكر اليهودي" أو بتعبير أدق "فكر بني إسرائيل" أن يشق طريقه في مملكـة فـارس ومسـاعدة كورش في الاستيلاء على الملك وتنظيمه، مما جعلهم يحصلون من كورش على قرار بالسماح لهم ببناء الهيكل الثاني والعودة إلى بلادهم

مــن غــير أن يكون لهم الحق في الاستقلال والانفصال عن إمبراطورية كورش، وهكــذا جــاء "إعــلان كورش" تمامًا كإعلان "بلفور" عام 1917، وهذا يظهر من محاولة القبائل العربية السامية التي كانت تسكن هذه البلاد من عدم الرضا عن ذلك ومحاولــتهم المتكررة للإيقاع بين اليهود وبين كورش بإيغار صدره وإثارة شكوكه بنوايا اليهود في الميل إلى الاستقلال عن طريق بناء القلاع والحصون. وبقي اليهود علــى هذا الحال منهم من يسكن أرض فلسطين، ومنهم من فضل العيش بعيدًا في ســوريا وآســيا الوسطى وبلاد اليونان وكذلك بلاد فارس. وكان لهم دور في نقل علــوم الكلدانييــن والبابليين والمصريين وحضارة بلاد فارس إلى الإغريق وتلقيح العقــل اليوناني بالفكر الشرقي، وكان حصيلته تلك الثورة المعرفية التي نهض بها اليونانيون.

بقــي أمــر الــيهود كذلك إلى أن بعث الله فيهم المسيح عيسى بن مريم برسالة ربانية، تحاول أن تعيدهم للجادة الصحيحة، طريق الله، ولكنهم أعرضوا عن دعوة المسيح وأوقعوا به، وبرسالته وبذلك أفلت حبل السماء من أيديهم وتمسكوا بحبل من الــناس، أخــذوا بالخــيار اللارباني، حتى بعث الله عليهم تيطوس القائد الروماني فخرب الهيكل الثاني وأقدم على تشتيتهم في أطراف الأرض.

وظــل اليهود ينشرون الفكر والفلسفة اليونانية ثم الرواقية والأفلاطونية المحدثة في بلاد الشرق القديم، إلى أن بعث الله سبحانه، محمدًا صلى الله عليه وسلم، بخاتمة الرســالات، فوقف اليهود ضده وأعرضوا عنه كما أعرضوا عن رسالة عيسى من قــبل .. ولكن بعد أن مكن الله لدينه في الأرض وسقطت إمبراطوريات الشرق من رومانية وفارسية وانحسر تأثيرها عن بلاد سوريا والعراق وفارس وشمال إفريقيا، حتى أصبح أكثر العالم القديم من حدود الصين وحتى ضواحي باريس يدين بالولاء السياســي للخلافــة الإســلامية ، استطاع اليهود ان يحتلوا خانات متقدمة في ظل الخلافة الإسلامية، وقد ساهموا في إيجاد قوى المعارضة، واحتلوا عقولها ووجوهها ضــد الحكم المركزي واستنزفوا طاقات الأمة في حروب داخلية، مما وضع قيودًا وصــعوبات ومعوقات في طريق الفتح الإسلامي. وبهذا فقد اخترق الفكر اليهودي الإســرائيلي مواضع الفلسفة والفكر الإسلامي، حتى الفقه الإسلامي لم ينج من هذا الاختراق[20] .. مما جعل ابن كثير يذكر أن مؤسس الدولة العبيدية في شمال إفريقيا كان يهوديًا وقد احتل قائده جوهر الصقلي مصر وأقام هناك الدولة الفاطمية كامتداد للدولة العبيدية. ولهذا فإن المجاهد صلاح الدين بعد قضائه على الدولــة الفاطميــة

طلب إلى بعض علماء المسلمين تنقية الفقه الإسلامي في مكتبة الجامع الأزهر.

وقد كان تأثير اليهود كبيرًا في الممالك الإسلامية التي قامت في الأندلس، سواء من حيث قوة المال أو من حيث الثقافة وتحصيل العلوم في الجامعات الإسلامية.

وبما أن الإسلام رسالة ربانية فلم يستطع العقل اليهودي الانحراف به في الكامل، فقد اقتصر تأثيرها بصورة جزئية في نطاق الفلسفة والعلوم والفقه، بينما نجحت في خلق تلك الفرق المغالية والمتطرفة التي كانت تعمل تفريقًا في صفوف الأمة .. وقد دخلت الإسرائيليات إلى الفقه الإسلامي عن طريق وضع الأحاديث الكاذبة بهدف تحريف العقيدة وزرع عواطف مزيفة في الأمة مبنية على معلومات خاطئة وغير حقيقية.

وبعد أن ظهر ضعف الممالك والإمارات الإسلامية وانحلال العديد منها وقويت شوكة بعض الممالك الأوروبية، فقد استطاعت "العبقرية الإسرائيلية" التسلل إلى أوروبا بصور شتى فنقلت إليها بعدة أشكال وبأسماء منحولة العلوم والثقافة الإسلامية[21]، ورويدًا احتل المعنى الإسرائيلي المتجول النص الأوروبي الذي كان يفتقر للعلوم والمعرفة، فملأ هذا النص بأنواع المعرفة التي حصل عليها من الجامعات الإسلامية عن طريق الرافد الإسرائيلي، بالإضافة إلى تلك الوفود الطلابية من الأوروبيين الذين كانوا ينهلون علومهم من تلك الجامعات. ولهذا فإن ما يسمى بعصر "النهضة" في أوروبا لم ينزل إليها من وحي الإغريق أو من سماء روما مباشرة،[22] وإنما عن طريق هؤلاء الطلاب الأوروبيين وهؤلاء "الإسرائيليين" الذين تسللوا إلى أوروبا خاصة بعد أن بانت شيخوخة تلك الممالك الإسلامية. فما كان من "اليهود" (الإسرائيليين) إلا أن انتقلوا ليحتلوا جسد أوروبا وعقلها، وقوة التوجيه فيها، وهكذا ما جاء القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر إلا والتأثير الإسرائيلي واضح في كيان أوروبا المالي والفكري. وهكذا استطاعوا أن يمسكوا بقيادة الأمور والتحكم بها والقدرة على توجيهها[23].. فبدل أن يتحرك اليهود بقواهم الذاتية فقط تحركوا بإمكانيات أوروبا شرقها وغربها وامتدادها الولايات المتحدة، حيث ملكوا إرادتها وفكرها... وهكذا تنتقل الإسرائيلية لتحتل طرف المعادلة الدولية القوية .. مرة بإنتاج الفلسفة القومية والدولة القومية، ومرة بجعل الصراع يقوم على أساس طبقي وهذا التوجه هو الذي قاد النشاط العربي والكردي والفارسي والطوراني وكان من أقوى الأسباب الذي عمل في جسد الإمبراطورية العثمانية تخريبًا وتفكيكًا. ونحن نرى في الخمس عشرة سنة الأخيرة من القرن

العشـــرين تحرك "الإسرائيلية" لتحتل عربة القيادة والتوجيه في بلاد الصين والهند بصمت بعيد عن ضجيج الأضواء الإعلامية .. إنه "المعنى اليهودي" المتجول الذي يفــتش عــن نصــوص يســكنها ويتحرك من خلالها .. إنه "النور بين الأمم" إنها "الرســالة الفكرية" إنه جهاز الكمبيوتر الذي يقود إف 16 .... والصهيونية العالمية وكذلــك الدولة الإسرائيلية لا تفكر ولن تقبل بهجرة جماعية ليهود أوروبا وامريكا إلـــى إسرائيل . حتى لا يختل ميزان تأثيرهم وتوجيههم على خط سير الأحداث في تلــك الدول. فإن تجميع اليهود في بلد واحد حتى وإن بلغ تعدادها 15 مليون نسمة فســتبقى إمكانــياتها وطاقاتها محدودة.وهذه ستكون نهاية تأثير اليهودية العالمية. وبالتالــي زوال إمبراطوريــتها الغــير معلنة.ولهذا يرى برفسور درور أن يهاجر ملــيون يهــودي مــن أوروبــا والولايات المتحدة إلى إسرائيل في الخمسين سنة القادمــة[24]، أي أن يهاجر فقط نسبة قليلة من الزيادة الطبيعية لليهود في تلك الدول. وهــو بحاجــة إلـــى مليون مهاجر يهودي غربي لكي يحافظ على التفوق للعنصر الاشكنازي في التوازن الديمغرافي للمجتمع الإسرائيلي.

وبهذا يمسي موضوع إقامة الدولة اليهودية واستقلالها وتحيزها الظرفي، يحد من دور ونشــاط وفاعلية اليهودي المتجول، فإن المعنى الذي يحتل نصًا معينًا ويسكن فــيه ليس من السهولة مغادرته إلى حيز آخر، فإن خطواته تصبح مكشوفة وعارية وتفقــد ســلاح التستر والإخفاء. وبهذا يصبح مشروع بناء الدولة اليهودية محرجًا للتــنقل والــتجول الــيهودي واحتلال خانة التحكم والتوجيه في المجتمعات، وهذا يحــرمها مــن جاهزية التلبس على الغير. وهذا الارتباك وعدم وضوح الرؤيا هو جوهر النقاش والجدل الدائر في الأوساط الفكرية اليهودية، بين من يرون استمرار دور الــيهودي المتجول "النور بين الأمم" من أمثال برفسور هريمان كوهين وغيره وبين هؤلاء الذين يرون أن من حق اليهود الاستقرار والاطمئنان في حيّز معين كما رأيــنا مــن موقــف يهوشواع وغيره ويعوض عن الدور "الأخلاقي" بإقامة "فيالق التعليم" للعالم المتخلف ..!!

***

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدنّ في الأرض مرتين ولتعلنّ علوًّا كبيرًا .. فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادًا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدًا مفعولاً .. ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرًا .. إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها، فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكــم

وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا ﴾ (الاسراء 4-7).[25]

فيا بني إسرائيل هلموا فأحسنوا يحسن الله إليكم، ويمكن لكم، هلموا فارجعوا إلى رسالتكم الأولى، رسالتكم الربانية واخلعوا من نفوسكم الهة المادة وثقلها، اخلعوا من قلوبكم رسالتكم اللادينية، فإن توليتهم وأبيتم وأسأتم فلها.!!

الملاحظات والهوامش :

1) مجلـــة "اتجاهـــات جديـــدة" (كيفونين حدشيم) ــ أكتوبر 2000. عاموس يوبيل ــ الصندوق القومـــي اليهودي (كيرن كيميت ليسرائيل) وهي مجلة مختصة بقضايا اليهودية والصهيونية، ص87 وما بعدها.
2.1 يحازقيل درور، مذكرة لرئيس الحكوم'، إصدار معهد القدس لدراسة إسرائيل . الأكاديمية. نشر منظمة الطلاب في الجامعة العبرية في القدس 1989 ص115 وما بعدها.
2) محاضـــرة ألقاهـــا عام 1995 في جامعة شيكاغو بالولايات المتحدة، نشرتها فصلية "الكرمل" الثقافية العدد 54 شتاء 1998، تصدر عن مؤسسة "الكرمل الثقافية" رام الله ــ فلسطين.
3) المصدر السابق ص 101.
4) المصدر السابق ص 102.
5) بينـــي موريس ــ ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين 1947 ــ 1949، دار نشر "عام عوفيد" (الشعب العامل) تل أبيب 1991.
6) الكرمل عدد 51 ربيع 1997.
7) Said Edward W. Culture and Imperialism, New York Vintage Books .1994
8) الكرمل، عدد 51، ص 220.
9) المصدر السابق، ص 218.
10) المصدر السابق، ص 219.
11) وليد الخالدي ــ كي لا ننسى ــ مؤسسة الدراسات الفلسطينية.ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الأولى 1997 من XXXIX) ص 39) وهذه هي القرى التي هدمها جيش الدفاع الإسرائيلي في حرب 1948 وهي لا تضم تلك التجمعات الصغيرة فإذا اضيفت هذه التجمعات فإن العدد سيكون أكثر من 420 قرية بكثير.
12) يحازقـــيل درور، مذكـــرة لرئيس الحكومة ص29 (فصل وظيفة الدولة في إسرائيل) وهي الفكـــرة التـــي يحاول درور أن يؤكدها في سياق الكتاب بل مجموعة كتبه الأربعة المعروفة تحـــت اسم "مذكرة لرئيس الحكومة" على خصوصية دولة إسرائيل الصهيونية وأن الدولة ما هيَ إلا أداة لتحقيق الأهداف الصهيونية.
13) المصدر السابق ص 24.
14) المصدر السابق ص 155 وما بعدها.
15) فصلية الكرمل عدد 54 شتاء 1998 رام الله فلسطين.
16) القرآن الكريم ــ يوسف الآية 56.
17) القرآن الكريم ــ سورة النمل الآيات: 19، 30، 31، 38، 39، 40.
18) القرآن الكريم ــ النمل 38 ــ 40.
19) القرآن الكريم ــ البقرة 79، وآل عمران 187:

20) انظر تفسير ابن كثير، وغيره من التفاسير كالبيضاوي والزمخشري والنسفي والتفسير الكبير للرازي.

21) انظــر الكتاب القيم في هذا الموضوع ــ (هيهوديم بتربوت هرنسانس بايطاليا) دور اليهود الثقافــي فــي الرينســانس الإيطالي، بتصيل ــ ايل روت ــ مؤسسة بيالك، القدس 1962. والكتاب يقع في 340 صفحة من الحجم المتوسط.

والكــتاب عــبارة عن مستند وثائقي عن دور المسلمين والعرب واليهود بشكل خاص في النهضــة الأوروبية الحديثة. وسوف أقوم بترجمة بعض الفقرات فعلى سبيل المثال ص 26، 27 :

ويمكــن القــول من وجهة نظر معينة، بأن يهود إيطاليا في العصور الوسطى عاشوا حياة مزدوجة، حياة البنك الربوي الاقتراضي إلى جانب حياة المعابد اليهودية من جهة أخرى. عن هؤلاء الذين أسسوا وعملوا في البنوك نقرأ عنهم عن طريق السجلات الرسمية الإيطالية، وأما الفئة الأخرى وهي ذاتها التي تعلقت بالمعابد نعرف عنهم من الشهادات والمستندات العبرية. فــي المســتندات العبرية نعرف هؤلاء اليهود بأسمائهم العبرية التوراتية. بينما في المستندات الرســمية يعــرفون بأسمائهم الإيطالية. وليس من السهل التنسيق بين هذه الاسماء، وهو ليس عمــلاً سهلاً. ومن المعروف والواضح أن الاسم الإيطالي "إبرامو" هو الاسم العبري إبراهيم، والاســم "جاكوبا" ليس سوى الاسم يعقوب التوراتي. وقد تكون طريقة هذه الأسماء معقدة جدًّا وبعــيدة عــن الأصل العبري، وحينئذ لابد أن نعتمد على الخيال والصوت السماعي أو دلالة الاسم العبري عن طريق الأمثال بمباركة يعقوب (السفر الأول م ط) أو بمباركة موسى عليه الســلام (ســفر "دبــريم لف") فعلى سبيل المثال فإن الاسم الإيطالي للاسم يهودا عن طريق التمثــيل كــان يعرف بالغالب تحت اسم "ليئو" أو "ليونا" لأن يعقوب قد لقب ابنه الرابع يهودا (جــور ــ أريــيه ــ يهــودا) وكان هذا مقبولاً وطبيعيًا للغاية. وأقل من ذلك قبولاً كان الاسم "مردخاي" تحت اسم "ماركو" عن طريق اعتماد الخيال أو الصوت والفرز السماعي أو تحت اسم "أنجيلو" وكذلك الاسم إسحاق (يتسحاك) والذي ترجم عادة تحت اسم "جايو" على مقتضى مفهــوم الضحك باللغة الإيطالية. وهكذا الاسم مناحيم والذي قد يكون تغير عن طريق الاسم الألمانــي "منديل" وحسب خيال الموسيقى السمعية أو الصوتية إلى الاسم الإيطالي "مانوئيلا" وفــي حالات خاصة عرف تحت اسم عمونائيل. وأما الاسم بنيامين فقد تغير دائمًا إلى الاسم "جوليبلموا" (لأن يعقوب، قد مثل بنيامين بالذئب وفي الديالكتيك الألماني وولف وهو قريب من الاسم (ويلهلم) وهو كذلك بما يتعلق بالاسم "حزقيه" والذي ترجم على الأقل، منذ القرن السابع عشر إلى اسم شبيه في موسيقاه للاسم "تشيزارا".

وقــد تــم قــبل فترة وجيزة اكتشاف ونشر هذه الأشياء والأسماء في قوائم سجلات البنوك الإيطالية، هذه الأسماء كانت معروفة حسب السجلات العبرية اليهودية كطلاب للأدب والثقافة الــيهودية، أو كمشاركين نشيطين في هذا الأدب. وهكذا على سبيل المثال ــ فإن مانولا دي بونايوطو رئيس المؤسسة المالية "بانكو ديلا ــ وأكا" بمدينة فيرنتشي، وهو الذي نجا من خطر الموت عند ملاحقة اليهود في أعمال عنف عام 1488، وقد عرف عن طريق المثال بأنه ليس

إلا عمانوئـــيل بن عزرئيل دا ـــ كاميرينو، والذي كان في حينه يساعد أدباء يهود. والمشهور من بين علماء اليهود في إيطاليا في القرن الخامس عشر كان مردخاي بن إبراهيم فينتشي من بلـــدة مانطوبا وهو ما يمكن أن نعرفه مع الميموناي المحلي، أنجيلو دي إبرامو والذي حصل عـــام 1435 علـــى رخصة من بيت جونزاكا لفتح مصرف للقروض. وكذلك نذكر مشلّم بن مناحيم مفولطيرا، والذي كتب وصفًا، أخذ بمجامع القلوب، في وصف رحلته إلى فلسطين عام 1481 وقـــد ذكر في السجلات الإيطالية ليس دائمًا بشكل محترم، تحت اسم بونا بنطوره دي مـــنولا ... عزاريا من الآدوميين كان من الشخصيات الأدبية المعروفة في الأدب العبري في زمانه، ولكنه كان يوقع على رسائله الصادرة باللغة الإيطالية تحت اسم بونيوطو دي روسو. وبهذا المنهج والأسلوب كان هناك العديد ممن ترجموا الكتب الفلسفية والعلمية من العربية إلى الإيطالـــية أو اللاتينية تحت أسماء مستعارة نظرًا للنفسية الأوروبيةالرافضة للثقافة الإسلامية والعربية والتي تكونت عبر صراع مرير دام مئات السنين.

حـــتى فـــي فن التجميل (الكوسماتيكا) كان هناك دور لليهود، ودور تجميل تستقبل روادها ومنذ القرن الخامس عشر والسادس عشر حدث لفاتاريتا سبورتشا أميرة أيمولا العجوز عندما طلبت من اليهودية "آنا" في روما عام 1508 معجونًا من أجل نضارة الوجه ومعالجة تجاعيد الوجه (دور اليهود في عصر النهضة ص52).

حـــتى أنـــه كان لليهود دور فعال في انتشار عادة قبيحة كاللعب بالورق (الشدة) ومزاولة القمـــار التي انتشرت في إيطاليا في القرن الرابع عشر وما بعده، حتى عجزت الحكومة عن منع ذلك بالرغم من كثرة القوانين التي صدرت لمنع ذلك، كان ذلك يكثر بمناسبة عيد الميلاد من كل عام (انظر دور اليهود في عصر النهضة ص 33 وما بعدها).

لقـــد وصلت الروابط بين اليهود في عصر النهضة (الرينسانس) والمسيحيين إلى علاقات صداقة كما يظهر من خلال علاقة اليهود الحميمة مع البابا كليمنس السابع (1523 ـــ 1534) عندما ظهـــرت بشكل فجائي في جيتو فينيتسيا عام 1524 شخصية يهودية شبه خيالية كمبعوث من قـــبل أخيه يوسف ملك سبط رؤوبين يطلب مساعدة عسكرية من البابا ومن حكام أوروبا في حربه ضد الأتراك. ومن الذين شهدوا بصحة ذلك الفنان المصور موسى دي كاسطيلاتسوا. ويظهـــر أن الـــبابا قد وثق من رسالة رؤوبين فأعطاه رسائل موجهة إلى بعض حكام أوروبا يحـــثهم على نصرته ومساعدته. وهكذا استطاع رؤوبين أن يجمع إليه القوة الروحية والمادية ليهود روما (المصدر السابق دور اليهود في عصر النهضة ص 30).

لقـــد بلـــغ الأمـــر أن استطاع اليهود فتح اكاديمية يهودية بإيطاليا حتى تلبي حاجات اليهود العلمـــية وغيرهم .. وقد انتشرت في صقليا جنوب إيطاليا علوم الطب اليهودي المنقول عن الطـــب العربـــي الإســـلامي، وأقيمت هناك جامعة تعلم مواضيع متعددة تلبي حاجات الجالية الـــيهودية والمجـــتمع الإيطالي (دور اليهود في عصر النهضة ص 46 ، 47) وقد سمح لهم بمزاولة هذا النشاط الجامعي من قبل الملك يوحنان في 17 يناير 1466.

22) لقـــد مر وقت ظن الناس فيه أن التأثير الحضاري للمسلمين على النهضة الأوروربية كانت هامشـــية، وحـــاول الأوروبـــيون أنفســـهم في العديد من مراجعهم أن يطمسوا دور العرب

والمسلمين في البناء الأساسي للمدنية والحضارة الأوروبية، وكأن النهضة العلمية الأوروبية تطورت بشكل فجائي دراماتي من غير مثال، والذي وصل فجأة إلى درجة من الكمال العجيبة في القرن الخامس عشر، ولكننا اليوم نعلم أن العلم الكلاسيكي لم ينقطع بشكل كامل عن أوروبا (خاصة وهناك جاليات يهودية سكنت إيطاليا وأوروبا منذ القرن العاشر والحادي عشر بل وقبل ذلك) .. وعلى هذا فإن النهضة (الرينيسانس) إذا جاز تسميتها بهذا الاسم جاءت على شكل تدريجي وقد كانت بدايتها مع أوائل القرن الثاني عشر. وعلى الرغم من أن الثقافة والفلسفة العربية الإسلامية ارتكزت في نشأتها على تحصيل اليونان لمجمل العلوم والفلسفات، ولكن حصلت بعدها انطلاقة عربية إسلامية في كل العلوم كإنتاج وإبداع إسلامي قد عارض في كثير من أموره المنطلقات اليونانية .. ذلك التراث اليوناني فقد افتقد ونسي تمامًا في أوروبا، حتى تم اكتشافه وتناوله وبعثه على أيدي العرب المسلمين في فتوحاتهم الأولى .. وقد كانت هذه المعارف والفلسفات منتشرة بل تناولها العرب المسلمون برغبة ونشاط وحماسة عظيمة في نوادي: دمشق، القاهرة والقيروان وفيما بعد في قرطبة، وفي الأندلس في أيام زهوها ويقظتها. وقد نالت هذه العلوم تقديرًا واحترامًا خاصًا من قبل العلماء والفلاسفة العرب الذين نقدوا وحللوا وأضافوا وأبدعوا وشرحوا وطوروا علم الطب الهيبوكراتس، وكذلك في علم النجوم الخاص بفتولوميئوس، وقبل ذلك وإضافة إليه العلم والفلسفة الارستوطالية. وهذه العلوم كانت حسب المراجع العربية خاصة المستعملة والمنتشرة في سوريا مع بداية الفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادي، ويدور الدولاب منذ القرن الحادي عشر وما بعده، عندما بدأت روح التعلم تغزوا أوروبا المسيحية، كان هناك طلاب من بين النصارى متعطشين لتحصيل العلوم من الجامعات الإسلامية في الأندلس كفلسفة ابن رشد (أفيروس) وابن سينا وغيرهم. وقد اعتبر هؤلاء الأوروبيون ان مفاتيح المعرفة والعلوم هي بايدي العرب المسلمين. فلا طريق ولا وسيلة من نقل تلك العلوم والمعارف إلا عن طريق العرب والمسلمين ... كيف يمكن الوصول إلى تلك المصادر الإسلامية في الوقت الذي كان يفصل أوروبا عن المسلمين حاجز عدائي عظيم وكان من العسير تخطيه، وبين هذين العالمين: العالم الإسلامي والعالم المسيحي، لم يكن الحاجز دينيًا فقط ولكن كان هناك حاجز ثقافي ولغوي .. عالم اللغة العربية من جهة وعالم اللغة اللاتينية من الجهة الآخرة .. ولم تكن من حلقة اتصال بينهما غير اليهودية وبعض المبادرات الفردية من كلا الجانبين فإن اليهودية كانت موجودة في العالمين، ولها كذلك موطئ قدم في مجال العلم والفكر والمعرفة في العالمين. وهذا الدور اليهودي هو الذي قام بوظيفته المتميزة والمهمة في تاريخ العلم والمعرفة كحلقة اتصال وتفاهم بين ثقافتين مختلفتين بل متصادمتين ...!! ولطالما رغب اليهود ومارسوا عملية التجوال من بلد إلى آخر بدوافع وأحاسيس كوسمو ـ سياسية ومصالح اقتصادية والتي تضطرهم للتجول بين بلدان أوروبا وغيرها من بلدان آسيا وإفريقيا، وفي أوروبا المركزية في العصور الوسطى كان من الصعب وجود رجل متعلم. ولهذا قام اليهود، الذين كانوا يتقنون اللغة العربية بدور الوسطاء بين الثقافتين وخاصة في نقل الثقافة الإسلامية إلى أوروبا. فقد قام هؤلاء اليهود بترجمة العديد من المؤلفات العلمية والأبحاث الفلسفية إلى اللغة اللاتينية وإلى

العبرية أيضًا. وهذه الترجمات من العربية إلى العبرية كانت تصل إلى يهود يعيشون في أوروبا ويتقنون اللغة اللاتينية إلى جانب العبرية ويعرفون الكثير عن النصرانية ومثال هؤلاء (العالم والشارح الراب إبراهيم بن عزرا والذي عاش في الأندلس في القرن الثاني عشر وتجول في العديد من الدول الأوروبية وسكن فترة ليست قصيرة في لندن) وعن هذا الطريق ـ الوسيط اليهودي ـ إلى جانب مبادرات فردية كما ذكرنا من جانب الأوروبيين أنفسهم انتقلت العلوم والإنتاجات الإبداعية الإسلامية إلى أوروبا .. ولقد بقي لنا مئات بل آلاف المخطوطات من هذا القبيل بأيدي اليهود عن العلوم والفلسفة الإغريقية متمثلة بعلماء وفلاسفة عرب ومسلمين ممن درسوا هذه العلوم سواء كانت الترجمة عن العربية مباشرة أو عن العبرية. وكل ذلك دخل إلى أوروبا المسيحية ابتداء من القرن الثاني عشر وما بعده، وكان لذلك تأثير مباشر ورئيسي وحاسم على النهضة الأوروبية.. إلى جانب ذلك شهدت بعض الفترات حركة ترجمة واسعة من العربية إلى اللاتينية .. وقد قيل حقًا إن مع غروب شمس الوجود السياسي والثقافي العربي الإسلامي من الأندلس (إسبانيا) أخذ اليهود الحكمة والعلوم من أيدي المسلمين التي ضعفت وشاخت وأوصلوها بنجاح منقطع النظير وعجيب لأيدي العالم المسيحي الأوروبي المتعطش لهذه المعارف والعلوم ... وقد كان هناك ثلاثة مراكز ترجمة كبيرة وشهيرة:

الأول في الأندلس (إسبانيا) والتي بها اندمجت الثقافتان العربية والمسيحية وفي الأساس في مدينة طوليدو، تحت رعاية رجال الدين المسيحيين ومبعوثي البابا وملوك كسطيليا، وكذلك في مدينة برشلونة، والذي كان الرئيس إبراهيم بن حيان من أهم رجال العلم اليهود في العصور الوسطى وقد اشترك في منتصف القرن الثاني عشر مع بلاطو الإيطالي من مدينة طيبولي في ترجمة مخطوطات والتي أدخلت بواسطتها علوم الرياضيات إلى العالم المسيحي اللاتيني ... وأما مركز الترجمة الثاني فقد كان في بروبانس والتي أدت وظيفة حلقة الاتصال بين إسبانيا وفرنسا ومن حكمائها (أبناء عائلة ابن تيبون جيلاً بعد جيل) الذين قاموا بترجمة العديد من المخطوطات العربية إلى العبرية لفائدة اليهود القاطنين إلى الشمال من جبال البيرانيائيم ... وأما المركز الثالث للترجمة فقد كان في إيطاليا الجنوبية وقد كان حكامها تباعًا الواحد تلو الآخر يبدون عناية وأهمية قصوى في رعاية طلاب الحكمة والعلم والتي لم يكن لها مثيل من حيث الشهرة والدور في كل أوروبا.

23) يكفي أن نورد المثال التالي عن دور المسلمين في صنع الحضارة الأوروبية"من بين الأصدقاء المقربين للطبيب اليهودي يعقوب مانطينوس (ابن لعائلة يهودية إسبانية والذي تعلم الطب والفلسفة، والذي عاش بعض الوقت في بولونيا، وقد أمضى جل وقت فراغه في ترجمة مؤلفات علمية من اللغة العبرية إلى اللغة اللاتينية. وقد أصبح ذا حظوة وشهرة في بلاط البابا كليمنس السابع وقد عين في عام 1528 كمحاضر في موضوع الطب في بولونيا) كان الرحالة والمغترب الفذ، صاحب الكفاءات العالية النبيل الحسن بن محمد من مدينة جرانادا، والذي بعد مغامرات في رحلاته في بلدان إفريقيا وخارجها قد قبض عليه من قبل لصوص البحر وبيع كعبد واقتيد إلى البابا ليو العاشر، وبضغط وإغراء من البابا اعتنق المسيحية عام

1526 (ويظهــر لــيس بإيمان تام) وقد غير اسمه إلى جوباني ليو أفريكانوس، وبهذا الاسم عرف في الأدب، وقد قام بأعمال خارقة، بل فعل الأعاجيب من أجل نشر الثقافة الشرقية في إيطاليا (حتى أن الكردينال إيجيديو دي فيطربو كان من تلاميذه) وقد قامت علاقات وثيقة مع يعقوب ماطينوس والذي تعلم معه أيضًا. وبفضل البرفسور العظيم، والطبيب البارع ومن أجله فقد ألف ليو (الرجل المسلم) قاموسه الثلاثي: العربي والعبري واللاتيني والمحفوظ حتى اليوم في اسكوربال (بالقرب من مدريد).

24) اتجاهات جديدة ــ مجلة تبحث في اليهودية والصهيونية ــ عدد أكتوبر 2000 ص87.

25) القرآن الكريم: الإسراء الآيات: 4 ــ7.

ملاحظات الجزء الثاني من الكتاب

1- القرآن الكريم ، سورة الإسراء ، الآية 70 .
2- القرآن الكريم ، سورة البينة ، الآية 7.
3- انظر النظام الداخلي للتجمع الوطني الديمقراطي ـــ تحت عنوان "العضوية"+ نشرة المؤتمر الثالث نوفمبر 1999ـــ النصرة ص4.
4- هذا الحزب : التجمع الوطني ، "ليس قوميًا عربيًا فكما رأينا من تعريفه لشروط عضويته فإنه يقبل اليهودي في صفوفه من كل مواطني دولة إسرائيل بعد أن يتخطى سن الثامنة عشر ـــ النظام الداخلي للتجمع الوطني ، مادة عضوية ص4.
5- قعيس هذا كان له عمة تعيش في البصرة فذهب لزيارتها في ليلة بارده فكان من هوانه عليها أن أدخلت كلبها لضيق حجرتها ، وأرسلت قعيساً يعاني شدة البرد في الخارج حتي هلك فقالت العرب لكل أمر يهون على أهله : "أهون من قعيس علي عمته" .
6- القرآن الكريم ، سورة العلق ، آيات من 1ـــ5.
7- القرآن الكريم ، سورة الأحزاب ، الآية 19.
8- في محاضرة ألقاها عام 1995 في جامعة شيكاغو بالولايات المتحدة .
9- المصدر السابق : الكرمل : فصلية ثقافية ، العدد 54 شتاء 1998.
10- المصدر السابق ص101.
11- المصدر السابق ص102.
12- بيني موريس ـــ ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين 1947ـــ1949 ، دار نشر "عام عوفيد" تل أبيب 1991.
13- الكرمل عدد 51 ربيع 1997.
14- انظر Said Edward W.Culture and Imperialism, New York Vintage Book 1994.
15- الكرمل ، عدد 51 ، ص 220.
16- المصدر السابق ، ص218.
17- المصدر السابق ، ص219.
18- انظر وليد الخالدي ـــ كي لا ننسي ـــ مؤسسة الدراسات الفلسطينية ـــ بيروت ـــ لبنان ـــ الطبعة الأولي 1997 من XXXIX 39 وهذه هي القري التي هدمها جيش الدفاع الإسرائيلي في حرب 1948 وهي لا تضم تلك التجمعات الصغيرة فإذا أضيفت هذه التجمعات فإن العدد سيكون أكثر من 420 قرية بكثير .

ملحق (1)

إعادة بناء لجنة المتابعة العليا

تعريف عام: (درس تاريخي)

القلية العربية الفلسطينية في إسرائيل:

هـي الجـزء الذي بقي متشبثا بأرضه وفي وطنه بعد عملية التهجير الجماعية للشعب الفلسطيني عام 1948 عشية قيام الدولة العبرية.

في الثلاثين سنة الأولى تقريبًا من قيام الدولة اليهودية كان يقود النشاط السياسي فـي الأقلية العربية حركات وطنية وقومية متعددة. كان يميز عملها العفوية وردود الفعـل علـى الممارسات القمعية للحكم العسكري ضد هذه الأقلية ولم تستطع هذه القـيادات علـى ندرتهـا استخدام آلية واضحة في حشد الجماهير العربية وتجميع طاقـتها. كان الحزب الشيوعي الإسرائيلي أبرز التيارات الوطنية التي كانت تقود حملة إعلامية بصفته الحزب الوحيد المعترف به من قبل السلطات الإسرائيلية وله أجهـزته الإعلامية الخاصة من صحف ومجلات .. إلى جانبه كانت هناك حركات وتنظيمات قومية غير معترف بها .. كان هناك حركة جماعة الأرض في منتصف الخمسـينيات وحتى نهاية الستينات .. وهي حركة محدودة العدد ذات طموح قومي وإلى جانبها كانت تعمل لجنة الطلاب العرب في الجامعة العبرية في القدس، وكانت قوة ذات فعالية متممة ومكملة للقوى الوطنية والقومية. وقد كانت لجنة الطلاب أكثر تأسيسًـا ومنتخبة من قبل جمهورها سنويًّا وما زالت قائمة حتى هذا اليوم وتزاول نشاطها ..

كانـت الأقلـية العربـية تمـتص كل ضربات الاضطهاد والملاحقة للسلطات الإسـرائيلية وهي في حالة عزلة شبه تامة وعزلاء من آليات المقاومة إلا ما كانت تحـتفظ بـه مـن مخـزونها الحضاري .. كانت عزلاء من التنظيمات السياسية والاجتماعـية والثقافية .. لا تملك طلائعها برنامجًا سياسيًّا واضحًا ولا آلية محددة لـتحريك نشـاط جماهـيرها بشكل أكثر إيجابية وجدية .. كان العرب الشيوعيون

ملاحقين، لا لكونهم شيوعيين ، بل لأن السلطات الإسرائيلية كانت تعتبر انضمامهم للحـزب الشيوعي ما هو إلا تضليل وتمويه تخفي وتتستر على روح عدائية للدولة وأجهزتها.

وبعد منتصف السبعينيات وتحديدًا بعد يوم الأرض عام 1976 برزت وتشكلت اللجـنة القطرية للسلطات المحلية وبعد ذلك أقيمت لجنة المتابعة في عام 1982 .. وبعـض الحـركات القومـية كحركة أبناء البلد ... في حين اختفى نشاط جماعة الأرض. ثـم ظهـرت الحـركة التقدمية للسلام ابتداء كحركة وطنية ضمت عربًا ويهـودًا ، ثم تتابعت التشققات في هذه الحركات وذهبت ريحها .. وكل ذلك حدث علـى هـامش عملـية السـلام المصـرية الإسرائيلية .. ثم برز الحزب العربي الديمقراطـي بصـيغة أكـثر قبولاً في الأوساط اليهودية ويعبر عن مرحلة نفسية مهزوزة تعكس الواقع العربي بعد أن خرجت مصر من الصراع العربي الإسرائيلي بصورته الساخنة.

وشـهدت سـنوات السبعين وما بعدها دخول عامل ولاعب جديد يتدفق حماسة وحـيوية ونشـاطًا على الساحة السياسية والاجتماعية والعقائدية لهذه الأقلية ، هذا التـيار الإسـلامي والـذي مـن الصعب حصره في الخانة القومية نظرًا لإيمانه وتطلعاتـه العقائديـة والدينـية العالمية .. في هذه المرحلة شهدت الساحة تشرذمًا وتـراجعًا لـبعض النشـاطات المخـتلفة للكثير من القوى الفاعلة. وغاب صوتها الجماهـيري وانحصـر فـي ندوات فكرية ومؤتمرات بيتية .. وبرز دور اللجنة القطرية كوريث رسمي لأكثر هذه الحركات وأصبحت تصاغ النشاطات العامة في بوتقـة لجـنة المتابعة بعد أن تفقد حرارة الموقف وبردت حركة الجماهير .. حتى أثقلت حركة لجنة المتابعة تباين المواقف وكثرة الانتماءات خاصة تلك الشخصيات التـي كان يفرزها المجتمع في ظروف غامضة وصعبة ممن كانوا رسلاً للسلطات الإسرائيلية أكثر منهم رسلاً لقومهم.

وفـي العقد الأخير من القرن العشرين وبعد هزيمة التصور العربي وطروحاته القومـية بعد الذي حصل من غزو الغرب الاستعماري للعراق ومساندة العديد من الـدول العربـية للغـرب الاستعماري خاصة تلك الأنظمة التي يعتبرها الكثيرون "قومـية" كمصـر وسوريا ... وفي منتصف التسعينيات للقرن المنصرم ظهر من جديـد عامل قديم / جديد وهو التجمع الديمقراطي كحركة وطنية تعمل على تجميع بقايـا الحركات الوطنية والقومية وبعث روح جديدة فيها .. ويبدو "التجمع الوطني"

بقـيادة عزمـي بشارة عضو الكنيست الإسرائيلي كتيار قومي في خطابه العربي ولكـنه تـيار وطنـي في حقيقته حيث يملك كل مواطن يهودي حق الانضمام إليه بمقتضى دستور الحزب .. ولهذا فإن العديد من الحركات الوطنية والقومية تحولت إلى دروس في التاريخ، أكثر منها نشاطًا واقعيًا .. ولهذا يمكن حصر القوى الفاعلة في الساحة العربية بثلاث تيارات رئيسية:

1) الحركة الوطنية بقيادة الحزب الشيوعي الإسرائيلي.

2) الاتجاه الإسلامي بقيادة الحركة الاسلامية.

3) الحـركة الوطنـية بقـيادة حزبـي: العربـي الديمقراطي والتجمع الوطني الديمقراطي.

لجنتي القطرية والمتابعة :

همـا إطـاران متشابكان لا فصل محددًا بينهما، سلطاتهما ووظائفهما متداخلة وكذلـك الأهـداف والغايات لكليهما تكاد تكون عامة .. وحان الوقت لدراسة هذا الوضـع دراسـة جريئة. فمن غير المفيد وجود رأسين لعرب هذه البلاد؟ أو رأس واحـد لتنظيميـن كما هو حتى الآن. ثم من غير الصحي الاستمرار بربط اللجنة القطـرية للسـلطات المحلية بمشاكلها الخاصة والعامة مع هيئة عامة تحمل هموم ومشاكل الأقلية كلها وأن يقف مسؤول واحد لكليهما.

وإذا كان من المتعذر أو من الصعوبة بمكان في ظل الظروف الراهنة قيام لجنة مـتابعة كهيـئة أو جسم اعتباري يملك الشرعية التنظيمية والدستورية المنبثق عن تمثـيل صـادق لإرادة جماهـيرنا .. فإن كان هذا صعب التحقيق ظرفيًا، فإن من السهولة إعادة تنظيم اللجنة القطرية وهي هيئة أكثر شرعية وأصدق تمثيلاً واعتبارًا وتتشـكل عـن طـريق الانـتخابات الحـرة والمباشرة، مضافًا إليها كل الهيئات والمؤسسـات المنتخـبة ديمقراطـيًا وعلـى رأسها أعضاء البرلمان العرب ولهذا ولأسـباب موضـوعية أخـرى نـرى ضرورة دمج هاتين المؤسستين (القطرية والمـتابعة) مرحلـيًا وكظـرف اسـتثنائي من خلال إعادة صيغة اللجنة القطرية للسـلطات المحلية .. ولجنة تضم كل الهيئات المنتخبة ديمقراطيًا هي لجنة شرعية بكل المقاييس تمثل تمثيلاً صادقًا وأمينا وصحيحًا بالمفهوم الديمقراطي لتشكيل آلية أكثر ملاءمة لتحقيق مصالح هذه الأقلية.

ويمكن إجمال المنتسبين لهذه الهيئة العربية "العليا" والتي يمكن أن يطلق عليها: "الحكومة المحلية" أو "السلطة العربية العليا" وهو اسم يمكن أن يتفق عليه بحيث يراعي وظيفة ودور هذه الهيئة .. بحيث تعمل على تحقيق والحفاظ على مصالح الأقلية العربية ممثلة بالاتجاهات الثلاث السابقة: الحركة الوطنية، الحركة الاسلامية، الحركة الوطنية القومية .. بحيث تضم كل التنظيمات والهيئات المنتخبة ديمقراطيًا:

1) أعضاء البرلمان العرب.
2) رؤساء وأعضاء السلطات المحلية العربية ورؤساء لجان العمال فيها.
3) ممثلي لجان الطلاب العرب في الجامعات المعتبرة.
4) ممثلي أولياء أمور الطلاب.
5) ممثلي النقابات المهنية متى وجدت.

ولا حاجة لوضع قائمة طويلة متداخلة ومنها ما أصبح من اهتمام دارس التاريخ. ولكن الجمهور العربي برمته ينتمي بشكل مباشر لواحد من تلك الاتجاهات الثلاث الفاعلة على الساحة العربية.

هذه المؤسسة التي قد نتفق على اختيار اسم جامع لها مثل: "هيئة عربية عليا" أو "حكومة محلية" تعمل من خلال لجان وهيئات تنبثق عنها بموجب دستورها الذي يحدد أهداف وغايات ووظائف هذه اللجان والآليات التي تعمل من خلالها.

وينبغي أن تراعي هذه "الهيئة العربية" أهداف ومصالح مركباتها الأساسية والاتجاهات الفاعلة فيها: الوطنية، القومية، الإسلامية. فهي ليست هيئة وطنية بالمعنى الضيق للكلمة أو قومية أو إسلامية. إنها كل ذلك .. لها موقفها من الأحداث الوطنية والقومية والإسلامية.

وبهذا المفهوم فإن "الهيئة العربية العليا" هي كيان تمثيلي يضم القوى الفاعلة والمنتخبة في الوسط العربي .. وهي بذلك هيئة تقوم على مفاهيم التعددية السياسية والاجتماعية والثقافية. ولهذا فهي ليست ساحة للنزال الفكري الأيديولوجي، أو للمزاحمة الحزبية الحركية .. بل هي هيئة تقوم على تنسيق المواقف المختلفة والمتباينة وتتخذ القرارات المناسبة لمصلحة الكل العربي في هذه البلاد أولاً ثم تتعدد طروحاتها ومقولاتها فيما وراء ذلك .. لأنها غير منبثقة عن عقد اجتماعي محدد أو أيديولوجيا معينة .. بحيث إن لكل واحد من مركباتها الأساسية له طروحاته ومقولاته الخاصة به.

الأهداف والغايات :

يمكــن تلخــيص أهداف "الهيئة العربية العليا" التي يمكن الالتقاء حولها حتى لا تتشعب المواقف لمركباتها في هدفين اثنين:

1) العمــل على توفير الأمن والحياة، واستمرارية الوجود العربي والعمل على زيادة ثقله النوعي حتى يستطيع التأثير على صياغة مستقبله فوق أرضه بإمكانياته المــتاحة، ومــن أجــل رعايــة امتداده الأفقي والعمقي في أرضه ووطنه، ضمن أطــروحة الدولة العبرية. والعمل الدائب على إمكانية تعديل هذه الأطروحة بحيث تشمل في تخطيطها الاستراتيجي وجود الأقلية العربية الفلسطينية كعامل أساسي في كــيانها وصياغة مستقبلها بوضوح أشد توفير الأرض اللازمة لاستمرارية الأجيال القادمــة عن طريق: زيادة مناطق النفوذ للبلدات العربية وانتزاع وإعادة الأراضي التي صودرت بشتى القوانين منذ قيام الدولة.

2) الهدف الثاني يرمي إلى خلق مناخ وبيئة ثقافية واجتماعية وسياسية تعددية .. فــإذا كــان الهــدف الأول هــو توفير وحماية البيت العربي والعمل على توسعته باستمرار، فإن الهدف الثاني يتمحور حول رعاية ساكني هذا البيت والمحافظة على مصــالحهم مجتمعيــن، وبعث روح ثقافية تعددية ورعاية وتربية العقلية والإرادة الاجتماعــية بحيث تصبح شرائح هذه الأقلية متممة بعضها بعضًا .. واحترام الغير والموقــف الآخر المختلف، والصبر على الحوار مع المخالف والمعارض. بمعنى آخــر رعايــة مجموعة من القيم التي بها الفرد والجماعة بحيث لا نترك الإنسان العربــي فارغًا من حيث المحتوى القيمي، فيسهل حينئذ ملء هذا الفراغ بمضامين ومفاهيم ضارة لا تساعد على تجذير هذا الإنسان بوسطه وبيئته.

هــذان هدفان استراتيجيان ينبغي العمل على توفيرهم وتحصيلهم للمحافظة على أمــن الأقلــية العربــية مــن الضياع والتسيب والتهجير .. وكل غاية أو مصلحة تــتعارض مــع هذين الهدفين ينبغي تنحيتها عن جدول أعمال هذه "الهيئة" .. هذا الكلام لا يعني إطلاقًا اقتطاع هذا الكيان من ظروفه الموضوعية سواء كانت محلية أو عالمــية، ولا يعني الخروج عن الكل الإنساني، بل يعني الإبحار بهذين الهدفين في بحر الإنسانية الواسع والعمل على توفير شروط النجاح والاستمرار والتمكين. ولنضرب على ذلك مثلاً :

من الواجب النضال وبذل الجهود من أجل الخروج المبكر للاحتلال الإسرائيلي

مـــن الأراضـي العربية المحتلة .. وهذا يقع ضمن التصور لإعادة تشكيل أطروحة الـــدول الـــيهودية. ولكن مع سمو هذا الهدف فلا ينبغي أن نساويه بقضية الوجود العربـــي واســـتمراره لهذه الأقلية فوق أرضها وعلى تراب وطنها. فقضية وجودنا واســـتمراره في أرضنا هي هدف مصيري وهي واجبنا الأول، وليس هناك طرف آخر يمكن أن يقوم به غيرنا أو حتى أن يساعدنا في ذلك .. بينما إخراج الاحتلال من هضبة الجولان مثلاً مسؤولية سورية والدول العربية والمجتمع الدولي، الذي لم يكلــف نفسه مشقة خطوة واحدة ليرفع عنا ضيقًا أو ظلمًا طيلة ما يزيد عن نصف قرن وما زال.

إن القيادات القديمة والحالية للجماهير العربية لم تكن وليست كذلك على مستوى مـــرارة الظلم والاضطهاد التي تتحملها هذه الجماهير فهي ما زالت تعمل وتناضل فـــي مـــرحلة الإدانة والشجب والاحتجاج على الممارسات الإسرائيلية ومن داخل المؤسسات الصهيونية. ولم تجرؤ على الخروج بقضاياها للمؤسسات الدولية.

إن ما نقصده هو تشكيل سلم أولويات العمل الوطني وفق رؤيا استراتيجية بعيدًا عـــن التلقائـــية وردود الفعل العصبية وبمقتضى خطة مدروسة واقعية تأخذ بعين الاعتبار الإمكانيات المتاحة والظروف المتغيرة.

نحـــن فـــي "الهيـــئة العربية العليا" ينبغي أن نحارب الظلم والقهر بكل أشكاله وممارساته ومن أي مصدر كان .. فقضية الحق والعدل والخير هو جوهر قضيتنا وعناصر تماسكنا .. فإذا ما اضطهد نظام إسلامي على سبيل المثال أقلية أو فئة في داخله فينبغي أن لا نتردد في الوقوف إلى جانب المظلومين والمستضعفين. وكذلك الحال إذا ما اعتدت الدولة القومية على بعض الوطنيين أو المسلمين فيجب الوقوف مع المظلومين والمستضعفين.

هـــذه مـــبادئ أساســـية ينبغـــي مراعاتها والأخذ بها إذا أريد فعلاً إعادة تنظيم مؤسساتنا حتى تتجاوب مع الواقع وتخطو في نطاق المتغيرات الداخلية لهذه الأقلية والمحلية والدولية .. والمؤسسات الصادقة الجادة هي التي تفرزها وتطرح صياغة ذاتها على ضوء المستجدات والمتغيرات .. فبناء المؤسسات هي بالتالي حالة جدلية بيـــن الواقـــع وظـــروفه الموضـــوعية المتغيرة باستمرار وبين الإطار ومجموعة الضـــوابط المـــتحكمة بهذا الإطار ومن أهمها منظومة القيم والمضامين الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والدينية.

ونحـــن لا نقلل من أهمية أهداف ومصالح كثيرة تخص الأقلية العربية مثل رفع التمييز العنصري الجائر الذي تمارسه السلطات الإسرائيلية على هذه الأقلية في كل المجـــالات .. وحـــق المســـاواة، وتحرير أوقافنا والحفاظ على مقدساتنا، وإرجاع أراضينا المصادرة من قبل دائرة أراضي إسرائيل تحت شتى الذرائع والتبريرات .. وانـــتزاع مناطق النفوذ التي لحقت ظلمًا بالمجالس الإقليمية اليهودية . والعمل على اســـتيعاب مثقفينا في شتى الاختصاصات وفتح أبواب العمل أمامهم في المؤسسات الموصـــدة حتى اليوم أمام العرب .. كل هذه أهداف وغايات نبيلة تعمل على رفع الوزن النوعي للأقلية العربي ..

وإذا كـــان العالم من حولنا يتغير بسرعة مذهلة ويطور آلياته وأدواته باستمرار فلا يعقل أن تبقى أدوات نضالنا وفعالياتها والعقلية التي ندير بها هذا النضال تراوح مكانهـــا منذ سنوات الخمسين، بل هي لا تمت إلى روح العصر الحديث بشيء .. وما لم تتحرر مؤسساتنا من قبضة من لا وجود فعليًا لهم في الحياة العامة، بل من أصـــبحوا تاريخـــا، فلـــن ترقى هذه المؤسسات ولن تتطور ومن ثم فلن تـــستطيع تحقيق أهدافها وحمل مسؤولياتها بجدية وصدق .. فكيف يعمل من لا وجود له؟

مركبات "الهيئة العربية العليا" :

1) المؤتمر العام :

هو أعلى سلطة في الأقلية العربية وهو الذي يضع الخطوط الرئيسية والسياسية لمواطنـــيه، ومـــنه تنبـــثق كل المؤسسات العامة التي تعمل من أجل تنفيذ سياسته وتحقـــيق أهدافه وغاياته. ويتشكل من جميع القوى الفاعلة في الساحة العربية ذات التأثير فيما يجري من أحداث والتي تستمد شرعيتها وسلطاتها من قوتها التمثيلية في الجماهير العربية. ومن بديهيات العمل الديمقراطي أن تكون منتخبة بصورة حقيقية تســـتمد ســـلطاتها وإرادتهـــا من قوى تحيط بها وتعتمد عليها .. فلا قيادة من غير تمثـــيل. وكمـــا أشرنا في أكثر من موضع أن هناك ثلاث تيارات رئيسية تعمل في الســـاحة العربية. فإن الغالبية الساحقة من المواطنين العرب تنطوي تحت تيار من هـــذه التيارات. وأما ذوو الانتماءات الغير عربية فينبغي الصبر عليهم حتى يغسلوا أدرانهـــم .. ويجـــددوا ولاءهـــم لمجـــتمعهم وشـــعبهم . والقوى التي يتشكل منها المؤتمر العام :

1) الأعضاء البرلمانيون العرب.

2) الرؤســـاء المنتخبون في السلطات المحلية العربية والإعضاء المنتخبون في المدن المختلطة بالإضافة إلى ممثل عن المعارضة في كل سلطة محلية عربية.

3) رؤساء لجان الطلاب العرب المنتخبون في الجامعات المعتبرة.

4) رؤساء لجان الطلاب المحلية والقطرية.

5) مندوبو النقابات "المهنية العربية" متى وجدت (أطباء، محامون، مهندسون..).

6) رؤساء تحرير الصحف المعتبرة.

7) رؤساء لجان العمال المنتخبون في السلطات المحلية العربية.

8) رؤساء لجان المعلمين في المدارس الثانوية.

سلطات المؤتمر العام وأجهزته :

(أ) يجتمع المؤتمر العام مرة في كل سنتين أو بطلب رئيس المؤتمر أو من ثلث أعضـــائه ومـــن الأمانة العامة عند الضرورة .. ويبحث في اجتماعه التقارير عن عمـــل اللجـــان المنبـــثقة عنه والقضايا العالقة، ويرسم السياسة العامة، وينظر في إمكانية قبول ممثلين جدد لقطاع من القطاعات العربية الفاعلة الغير ممثلة فيه.

(ب) ينتخب رئيس "الهيئة العربية العليا" ونوابه مرة كل خمس سنوات (ما دامت الـــدورة الانتخابـــية للسلطات المحلية كذلك) وبعد فترة لا تتجاوز الثلاثة أشهر من الموعد التي جرت فيه انتخابات السلطات المحلية. ورئيس الهيئة هو رئيس المؤتمر العام ما دام رئيسًا "للهيئة العربية".

(ت) يتقـــبل اســـتقالة رئيس "الهيئة العربية العليا" ويتم انتخاب خلف له من بين صفوفه في مدة لا تتجاوز أربعين يومًا، على أن يحل مكانه نائبه الأول.

(ث) عـــزل أي مـــن نواب الرئيس وانتخاب خلف له في مدة أقصاها أسبوعان ومن بين صفوفه.

(ج) يملـــك عزل رئيس الهيئة بالأغلبية التي انتخب بموجبها ويتم انتخاب خلفه من بين صفوف المؤتمر العام في مدة لا تتجاوز 40 يومًا.

(ح) يشـــكل من بين صفوفه مجلس استشاري لرئيس الهيئة من (3–5) ويملك "رئيس الهيئة" اختيار مستشار له كما يريد.

(خ) يختار المؤتمر العام مديرًا عامًا بموجب مواصفات محددة.

(د) يختار المؤتمر العام مستشارًا قضائيًّا له وفي حال وجود نقابة للمحامين تختار النقابة أحد أعضائها.

(ذ) يختار المؤتمر العام مدقق حسابات ليشرف على الأمور المالية.

اللجنة التنفيذية والأمانة العامة :

هي الهيئة المنتخبة من قبل المؤتمر العام لتشرف على مجمل النشاط التي تقوم به اللجان المتخصصة في كل المجالات وتضع التفاصيل للخطوط العريضة التي يقرها المؤتمر العام. وهي تستطيع عند الضرورة دعوة المؤتمر العام .. وهي التي تنتخب الأمين العام ونوابه وسكرتاريته، والناطق الرسمي لها وتتكون الأمانة العامة من:

1) ممثل أو مندوب عن كل كتلة من الكتل البرلمانية العربية.
2) ثلاثة رؤساء بلديات وثلاثة رؤساء مجالس محلية منتخبين.
3) رئيس لجان الطلاب العرب في حال انتخبت اللجان في الجامعات المعتبرة (القدس – تل أبيب – حيفا – بئر السبع – بار إيلان) لجنة موحدة.
4) رئيس لجنة أولياء أمور الطلاب القطرية.
5) مندوب منتخب من قبل النقابات المهنية متى وجدت.
6) مندوب منتخب عن الصحافة.

تختار الأمانة العامة سكرتيرًا لها من داخلها أو من بين أعضاء المؤتمر العام. وبشكل مرحلي تعتمد على المستشار القضائي ومدقق الحسابات الذي يعمل مع رئاسة المؤتمر.

إلى جانب الأمانة العامة تعمل لجان متخصصة تختار بموجب مقاييس معتبرة سواء من بين صفوفها أو من بين صفوف المؤتمر العام أو من خارجه كما تفرضه الظروف .. وهذه اللجان تعمل في حقول:

* التربية والتعليم ورعاية الثقافة على أنواعها ومحاولة التأثير في صياغة برنامج التربية والتعليم في المدارس العربية.

* لجنة البيئة والصحة .. محاولة استصدار رخص لمراكز طبية متطورة في الوسط العربي والعمل على تحسين البيئة.

* لجـــنة تخطـــيط استراتيجي وظيفتها ملاحقة الخرائط الهيكلية وتوسعة نفوذ البلدات العربية، وتوفير الأرض للأجيال القادمة.

* لجـــنة مالـــية وظيفتها جمع الأموال الملائمة عن طريق إقامة صندوق عام لتمويل كل المشاريع ونشاطات "الهيئة العربية العليا" على أن يكون خاضعًا لرقابة صارمة ودقيقة.

* لجـــنة تطويـــر الوسط العربي، تعمل على إعداد دراسات لمشاريع صناعية تستوعب بعض الأيدي العاملة من أجل تقليل الاعتماد على السلطات المركزية في الدولـــة .. ومـــن واجـــبها تجنيد الدعم الحكومي لمشاريعها، وكذلك تجنيد رؤوس الأموال المطلوبة الداعمة من الداخل والخارج.

* لجـــنة لرعاية القيم الاجتماعية والسياسية والحضارية، وبعث مفاهيم وتعاليم التعددية الثقافية والسياسية، والتربية الديمقراطية والأخلاق الحميدة، وتحريك معاني الإخـــلاص والتضحيات في مستواها الفردي والجماعي، وبعث قيم التراث وتجديده على المستوى الفردي والجماعي.

* مركز دراسات متخصص ومستقل، وإصدار مجلة دورية متخصصة.

* لجنة الكتاب العربي لتنشيط البحث العلمي والإنجاز الثقافي.

* اللجـــنة الخارجية وظيفتها حشد الدعم المعنوي والمادي "للهيئة العربية العليا" مـــن داخـــل الدولة وخارجها .. وتقيم علاقات ودية مع المؤسسات الرسمية وغير الرســـمية فـــي دول العالم. وتشرح قضاياها ومواقفها من القضايا المحلية والدولية وتعتمد الزيارات المتبادلة.

* لجـــنة الرفاه الاجتماعي أو رعاية ذوي الحاجات (يتيم، مريض، ذي عاهة، مساكين، محتاجين مثل طلاب علم موهوبين، مرضى بحاجة لعمليات، وغير ذلك).

جهاز الرقابة العامة :

هي مؤسسة من المؤسسات المهمة التي تعمل على رقابة وتقييم العمل في أجهزة "الهيـــئة العربية العليا" على اختلافها. وسلطاتها تطول كل الشخصيات والمؤسسات وتقريـــرها عـــن نشـــاطات الأجهزة المختلفة له وزنه وثقله في تقييم عمل الأفراد والهيئات ومحاربة الفساد والغش والتضليل بكل أنواعه وعلى جميع الأصعدة.

هيـــئة الـــرقابة العامــــة مستقلة وتنتخب مرة كل خمس سنوات من بين صفوف المؤتمـــر العام، وتستمد شرعيتها وسلطاتها من المؤتمر العام والرأي العام المحلي فـــي ضبط وتقييم ورعاية العمل وتحاسب الجميع على التقصير بمقتضى الدستور والقوانين العامة في البلاد.

وخلاصة القول: لا بد من الكلمة ذات الدلالة والمعنى والتعبير الواضح والحجة البيـــنة التـــي لا تصدر إلا عن إنسان مليء بمعاني الخير والصدق والإخلاص .. والذي ينتمي إلى جماعة قائمة تزاحم في المجتمع لتحقيق هذه المعاني .. هؤلاء هم وحدهـــم رســـل شعبهم وأمتهم لتحقيق آمالها وتطلعاتها، هؤلاء هم أصحاب الكلمة الحية تمييزًا لهم عن أصحاب الصياح والصخب الذين بردت فيهم الكلمة وخفت فلا وزن لها. إلى كل هؤلاء اقدم هذه الورقة . محمد سعيد ريان ــ كابول.

مصادر البحث

المصادر بالعربية :

1- القرآن الكريم ــ اسم السورة والآية في متن البحث.
2- المنجد في اللغة العربية والأعلام، دار الشرق، بيروت 1986.
3- المعجم الوسيط ــ الدكتور إبراهيم أنيس وآخرون ط 2 ــ القاهرة 1972.
4- إرنسـت باركـر ــ النظرية السياسية عند اليونان ــ الجزء الأول مؤسسة سجل العرب ــ القاهرة 1966.
5- أحمد شحلان ــ الضرورة في السياسة ومختصر كتاب السياسة لأفلاطون ــ عن العبرية ــ مركز دراسات الوحدة العربية بيروت 1998.
6- ابـو الأعلـى المودودي: نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور، جدة، الدار السعودية 1985.
7- إحسان عباس ــ عهد أردشير ــ دار صادر بيروت 1967.
8- الفضل شلق: الأمة والدولة، دار المنتخب العربي ط1 بيروت 1993.
9- برهان غليون: نقد السياسة "الدين والدولة" المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ ط2 بيروت 1993.
10- أبـو الفـتوح محمـد جلال شرف ود. على عبد المعطي محمد، دار المعرفة الجامعية ــ الاسكندرية، مصر، 1987.
11- الوزير زيد بن علي ــ الفردية ــ مركز التراث والبحوث اليمني ط1، 2000.
12- ج. س. هيرسون ــ سياسات الأفكار ــ مكتبة الأنجلو ــ المصرية، القاهرة 1987.
13- صدر الدين القبانجي: علم السياسة: تجديد من وجهة نظر إسلامية، الشركة العالمية للكتاب ــ لبنان 1997.
14- خاتمي محمد: مدينة السياسة - دار الجديد ط1، 2000.
15- لؤي صافي: العقيدة والسياسة ــ المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط1 هيرندن ــ فرجينيا ــ الولايات المتحدة الأمريكية 1996.
16- الجابـري محمد عابد: العقل السياسي العربي ــ المركز الثقافي العربي، بيوت ــ الحمراء 1991.
17- ديبريه ريجبس ــ نقد العقل السياسي ــ دار الآداب ترجمة عفيف دمشقية ــ بيروت 1986
18- العـزي سويم: المفاهيم السياسية المعاصرة ــ العالم الثالث، المركز الثقافي العربي ط1 ، 1987.
19- مقدمـة فـي علـم السياسة ــ Peter Gill and G. Pouton ــ ترجمة د. محمد مصالحة ــ الجامعة الأردنية ــ عمان 1997.

20- عـــادل عـــبد الله: التفكيك ـــ إرادة الاختلاف وسلطة العقل ـــ دار الحصاد للنشر والتوزيع سورية ـــ دمشق 1997.
21- الطلـــيعة الأدبية ـــ مقال التفكيك ـــ المركز واللعب ـــ ندوة شارك فيها دريدا وهيبوليت مع آخرين ـــ عدد 5-6 / 1990.
22- مجلة الفكر العربي المعاصر ـــ عبد العزيز عرفه ـــ التفكيك والاختلاف المرجأ العدد 48، 49.

وكذلك مجلة أفكار عدد 151 نيسان 2001 عمان.

23- السبيل (صحيفة) عدد 379 ـــ نيسان 2001 عمان.

24- إيان لوستيك ـــ العرب في الدولة اليهودية ـــ سيطرة إسرائيل على أقلية قومية ـــ الترجمة العربية ـــ وكالة عرفة ـــ القدس 1980.

25- التعلـــيم والأقلية العربية في إسرائيل ـــ قضايا ومطالب ـــ التقرير الذي صدر عن مؤتمر التعليم العربي الثالث – مطبعة الكرمة – حيفا 1991.

26- فصل المقال ـــ صحيفة ـــ 30.3.2001 عدد 234 الناصرة.

27- صـــبري جـــريس: تـــاريخ الصهيونية ـــ الجزء الثاني ـــ مركز الأبحاث منظمة التحرير الفلسطينية 1986.

28- هندســـة الهويـــة زمـــن السلام ـــ أ.ب. يهوشواع ـــ مقالة ـــ صحيفة "الكرمل" رام الله ـــ فلسطين عدد 54 لعام 1998.

29- الـــنظام الداخلي للتجمع الوطني الديمقراطي ـــ العضوية نشرة المؤتم الثالث نوفمبر 1999 ـــ الناصرة.

30- محاضرة يهوشواع في جامعة شيكاغو بالولايات المتحدة عام 1995 كما أوردتها "الكرمل" فصلية العدد 54 شتاء 1998.

31- الكرمل (فصلية) عدد 51 ربيع 1997 ـــ رام الله ـــ فلسطين.

32- وليد الخالدي ـــ كي لا ننسى، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ـــ بيروت ـــ لبنان ط1، 1997

المصادر بالعبرية :

33- القـــاموس العـــبري المركـــز ـــ ابن شوشان، دار نشر كريات سيفر (قرية الكتاب) القدس 1991.
34- معجم الكلمات الأجنبية بالعبرية ـــ دار نشر عمي حاي ـــ تل أبيب 1964.
35- موســـوعة العلوم الاجتماعية ـــ باللغة العبرية ـــ مكتبة العمال (سفريات هبوعليم) تل أبيب 1967 المجلد الثالث.
36- هشيسع عربي يهودي ـــ قراءة في الانقسام العربي اليهودي ـــ مجموعة مقالات ـــ مقـــال

لعزمي بشارة ــ مكتبة من أجل الديمقراطية (سفرياة لديمقراطيا) إسرائيل 2000 بالعبرية.
37- ســامي ميخائيل ــ محاضرة في كيبوتس كفار ــ بلوم شمالي إسرائيل بثته القناة الثانية في التلفزيون الإسرائيلي بالعبريو بعد ظهر يوم الخميس 12.7.2001.
38- تقرير "سيكوي" ايلول 1993 (جمعية رفع تكافؤ الفرص) النشرة العبرية.
39- اتجاهات جديدة (كيفونيم حدشيم) مجلة تعنى بالصهيونية واليهودية أكتوبر 2000 بالعبرية.
40- هشيســع هــيهودي عربــي بيســرائيل ــ روت جفيزون وآخرون ــ المعهد الإسرائيلي للديمقرطية ــ إسرائيل 2000 ــ بالعبرية.
41- رؤوبيــن يفتاح إيل ــ قراءة في الانقسام اليهودي العربي ــ المعهد الإسرائيلي للديمقراطية ــ 2000 ــ بالعبرية.
42- مديــناه يســرائيل بيــن يهدوت ليديموقراطية (دولة إسرائيل بين اليهودية والديموقراطية) مجموعة مقالات تحضير يوسي ديفيد ــ المكتبة من أجل الديمقراطية ــ إسرائيل 2000.
43- نوينبرغر ــ إسرائيل بين اليهودية والديمقراطية ــ مقالة.
44- أرنون سوفير ــ مقالة في المصدر السابق.
45- بينــي موريــس ــ ولادة مشــكلة اللاجئين الفلسطينيين 1947 ــ 1949 ــ دار نشر عام عوفيد، تل أبيب 1991.

المصادر بالانجليزية :

46- Webster's new universal dictionary, Barn's and Noble books, 1992, p.1113.
47- The Concise Oxford Dictionary, Clarendon press, 1963:
48- Handbook of world history by: Joseph Dunner Peter Owen London, 1968 p. 755-756.
49- Roger D. Masters: The Biological nature of the state in world politics N2 1983.
50- Israel and the Arab world, Aharon Cohen London 1970.
51- Amiram Gonen, and Rassem Khamaisi, The Arab in Israel in the aftermath of peace-making, the floersheimer institute for policy studies, Jerusalem 1993.
52- Danial Elazer: Local Government in Israel. The Jerusalem Center for Public Affairs. University of America U.S.A. 1992.
53- Jerusalem Post, June 1976.
54- C. Klein, Israel as a notion state and the problem of the Arab minority in a search of a status. Tel-Aviv 1987.
55- Fundamentalism, Sectarianism and Revolution, Cambridge U.K. 1999.
56- Said Edward W. Culture and Imberialism. N.Y. Uintage books 1994.

فهرس

القسم الثالث
الدولة الإسرائيلية من منظار يهودي

القسم الرابع
الأقلية العربية الفلسطينية فى الدولة اليهودية والمستقبل المجهول

المؤلف

محمد سعيد علي ريان :

* من مواليد 1940 ولد في قرية كابول من الجليل في شمال فلسطين وأنهي تعليمه الجامعي في الجامعة العبرية في القدس وفي جامعة حيفا في موضوعي الفلسفة والعلوم السياسية .

* **شغل العديد من المناصب :**

1- سكرتير لجنة الطلاب العرب في الجامعة العبرية في عامي 1967/1966 ، وقد اعتقل في أثناء حرب 1967 فترة من الوقت كعنصر معاد للسياسة الإسرائيلية، اضطر بعدها للالتحاق بجامعة استوكهولم في السويد عامي 1968/1967 وعلي أثر نشاطه السياسي ضد السياسات والممارسات الإسرائيلية ضد الأقلية العربية التي تعيش في الدولة اليهودية اضطرته السلطات السويدية لمغادرة السويد والعودة إلى وطنه من جديد ، ولكنه وجد الله في السويد فآمن هناك بالإسلام وانتقل من الفكر الماركسي الذي كان يعتقده إلى العقيدة الإسلامية .

2- في عام 1987 أقام مع آخرين " المركز الأكاديمي للدراسات الشرقية " .

3- في عام 1986/1985 أصدر مع بعض قادة الحركة الإسلامية مجلة "الصراط" ومجلة "حراء" ــ أصدر في عام 1999 فصلية "البرهان" .

4- أقام مع بعض قادة الحركة الإسلامية "كلية الدعوة والدراسات الإسلامية" في مدينة أم الفحم ثم استقال على أثر احتجاج على المنهج الذي اتبعته إدارة الكلية.

5- عضو الإدارة العامة للحركة الإسلامية حتى عام 1995 .

6- رئيس مركز التخطيط الإستراتيجي للسلطات المحلية العربية حتى عام 1999.

7- رئيس مجلس محلي كابول من عام 1990 حتى عام 1998 .

* **من مؤلفاته :**

ــ العشرات من المقالات الفكرية في المجلات والصحف المحلية .

ــ آيات قرآنية في مقابل مسبات شيطانية ــ رد على سلمان رشدي .

ــ Divine Verses Instead Of Satanic Revitments .

ــ دراسة نقدية لكتاب (Who Is God In Islam) لمؤلفه عبد المسيح .

ــ رحلة الإنسان ما بين الفكر والاعتقاد .

ــ الإسلام ما بين الفكر والاعتقاد .

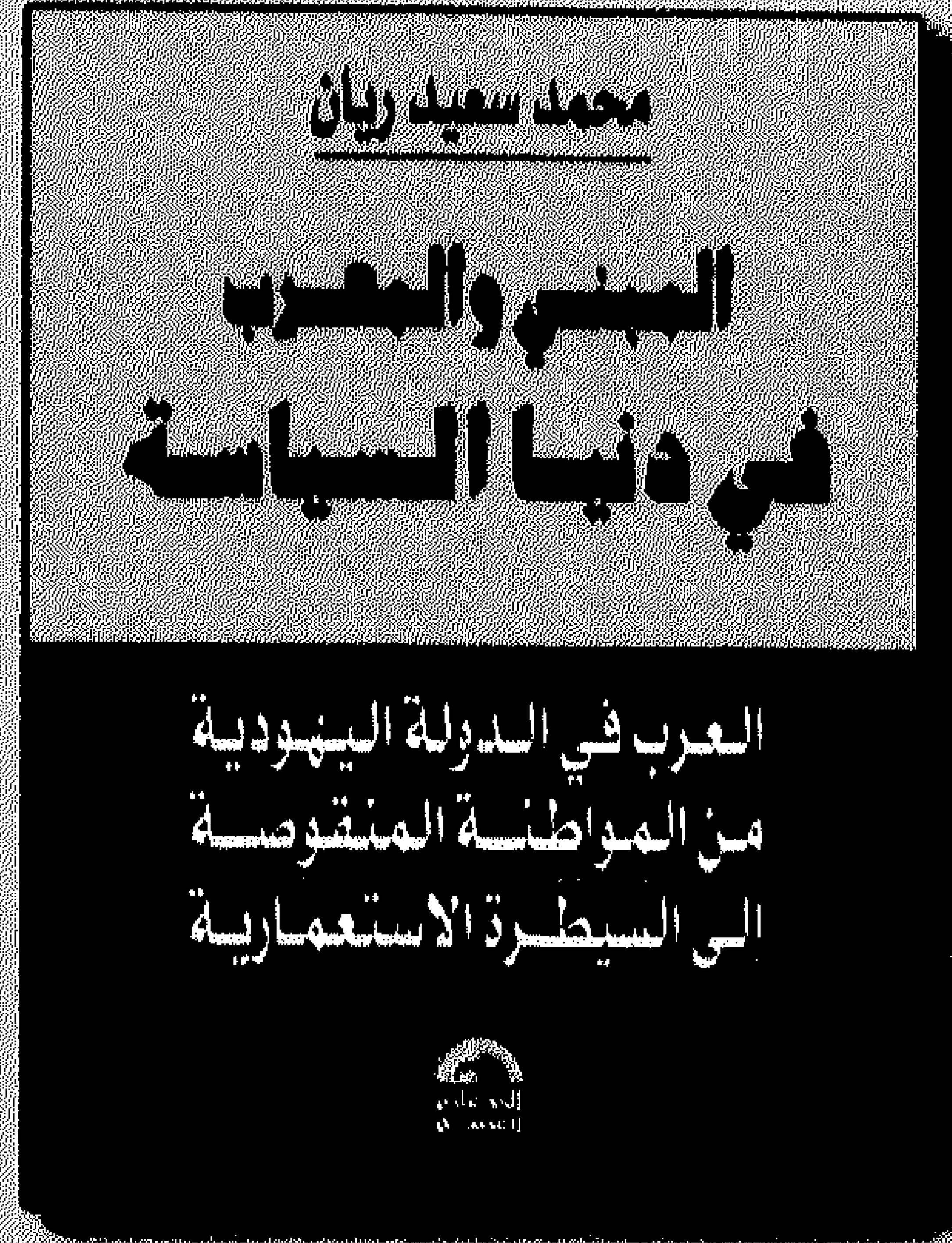
ــ الإسلام ما بين : جمود النص على المعاني وحركة المعاني في نطاق النص.

قائمة إصدارات
مركز الحضارة العربية

موسوعة تاريخ حضارات العالم ريدرسميث	ترجمة: زينات الصباغ
تكتولوجيا الحضارات القديمة بين القرآن والسحر والعلم	هشام كمال عبد الحميد
اللاتينية العربية (دراسة لغوية مقارنة /مقدمة ومعجم)	د. علي فهمي خشيم
رحلة الكلمات	د. على فهمى خشيم
بحثا عن فرعون العربى	د. على فهمى خشيم
هل فى القرآن أعجمى ؟	د. على فهمى خشيم
تطور العقائد شارل جنيبيرت	ترجمة د. محمد محمد حسانين
النبى الخاتم : هل وُجد ؟ ومن يكون ؟	د. جمال الحسينى أبو فرحة
أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث	صلاح زكى
رسالة إلى العقل العربى "مدخل إلى فلسفة عربية للعلم"	د. عبد الحكيم بدران
خيانة المثقفين	د. عبد الحكيم بدران
عالم المعلومات الجديد مايكل ديرتوزوس	ترجمة : بهاء شاهين
صراع الحضارات (إثبات الأنا ونفي الآخر)	شعيب عبد الفتاح
الإسلام والغرب الأمريكى بين حتمية الصدام وإمكانية الحوار	محمد إبراهيم مبروك
مستقبل القومية العربية فى عصر العولمة	د. مصطفى عبد الغنى
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغنى
حقيقة الغرب	د. مصطفى عبد الغنى
صورة العرب في الغرب	د. عزة على عزت
خفايا المستقبل: إلى أين تمضي البشرية وأين موقعنا ؟	محمد الحديدى
الشخصية المصرية فى الأمثال الشعبية	د. عزة عزت
صورة الرئيس	د. عزة عزت
ثقافة العروبة	د.محمد عبد الشفيع عيسى
التفكير التكنولوجى والعولمة	د.محمد عبد الشفيع عيسى
بين الثقافة والسياسة .. شخصيات صنعت التاريخ	د.محمد عبد الشفيع عيسى
المياه العربية بين خطر العجز ومخاطر التبعية	عبد الله العقالى
المياه فى الوطن العربى (الندرة .. التلوث)	د. عبد الحكيم بدران
العلوم للجماهير باربارا كاستيل	ترجمة د. عبد الحكيم بدران
العدل والحرية	سالم القمودى
عبد الرحمن بدوي فيلسوف الوجودية الهارب إلى الإسلام	د. سعيد اللاوندى
إشكالية ترجمة معانى القرآن الكريم	د. سعيد اللاوندى
العرب وإسرائيل (ميزان القوى ومستقبل المواجهة)	د.محمد عبد الشفيع عيسى
حماس .. حركة المقاومة الإسلامية	خالد أبو العمرين
عندما يصغر التاريخ	محمد سعيد ريان
المبنى والمعرب في دنيا السياسة	محمد سعيد ريان
المخططات اليهودية للسيطرة على العالم	أحمد أنور
السلام الإسرائيلى (قراءة فى المشروعات الاسرائيلية)	حسين معلوم
السوق الشرق أوسطية (من هرتزل إلى مابعد باراك)	إكرام عبد الرحيم
الشرق أوسطية والعروبة	د. مصطفى عبد الغنى
مشروع للانتحار القومي !	مصباح قطب
السلام القتال؛ (سلام أشد هولا من الحروب)	محمد خليفة
أوهام السلام	عبد الخالق فاروق
في جنازة المقاطعة العربية لإسرائيل	شفيق أحمد على
الملف السري للسادات والتطبيع	شفيق أحمد على
مخابرات ومخدرات	شفيق أحمد على
عصر المسيح الدجال	هشام كمال عبد الحميد
عبادة الشيطان على ضفاف النيل	حسين عبد الواحد
الماسونية	خليل إبراهيم حسونة
الحركات الهدامة	خليل إبراهيم حسونة
الصهيونية السياسية	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب في الأدب الصهيوني	خليل إبراهيم حسونة
الاستيطان الصهيوني	خليل إبراهيم حسونة
الإرهاب الأمريكي	خليل إبراهيم حسونة
القدس	خليل إبراهيم حسونة
يهود ضد إسرائيل	ياسر حسين
حلف الضحية والجلاد	ترجمة : زينات الصباغ
غزة أريحا - المأزق والخلاص	عبد القادر ياسين
غزة أريحا - التسوية المستحيلة	چورج المصرى
صفقة التسوية الأردنية الإسرائيلية	د. السيد عوض
أساطير التوراة	عاطف عبد الغنى
التناقض في تواريخ وأحداث التوراة	محمد قاسم
الحرب العالمية الرابعة	ياسر حسين
القوة العسكرية الإسرائيلية	جمال الدين حسين
سقوط نجم مخابرات إسرائيل	جمال الدين حسين
عملية السرب الأحمر	جمال الدين حسين
الاختراق الإسرائيلي للزراعة في مصر	صلاح بديوى
اختراق الأمن الوطني المصري	عبد الخالق فاروق
الهجرة وتهديد الأمن القومى العربى	د. عبد اللطيف محمود
دموع الجواسيس	أحمد فؤاد
أسرار الجاسوسية ولعبة المخابرات	يوسف هلال
إسرائيل والفن العربي من أم كلثوم إلى عادل إمام وهنيدى	أحمد فؤاد
آسامة بن لادن (رجل ضد الغرب)	شهاب نصار
المستوطنات الإسرائيلية (صورة من الداخل)	شهاب نصار
حوارات الزمن الصعب	محمد همام
عشوائية بناء الإنسان المصرى	د. محمد لطفى فرحات
أزمة الانتماء في مصر	عبد الخالق فاروق
استرداد مصر (هل هناك مخرج مما نحن فيه)	محمد الحديدى
التطرف الديني ومستقبل التغيير في مصر	عبد الخالق فاروق
تحليل أداء السياسة التعليمية فى مصر	د. عبد اللطيف محمود
كارثة المعونة الأمريكية	جما ل غيطاس
محاضرات فى القانون الدولى العام	د. ميلود المهذبي
قضية لوكيربي وأحكام القانون الدولى	د. ميلود المهذبي
أزمة لوكيربي والخروج من بيت الطاعة الأمريكى	د. السيد عوض
العلاقات الليبية - الأمريكية	د. السيد عوض
بان أمريكان ١٠٣ (اتهام ليبيا أم اتهام أمريكا)	مجموعة باحثين
حلايب .. نزاع الحدود بين مصر والسودان	أحمد محجوب
الإخوان والعسكر	حيدر طه
القوي الخارجية والاتجاهات الإقليمية في السودان	د. السيد فليفل
نظم الحكم العنصرية في جنوب أفريقيا	د. السيد فليفل

إصداراتنا تشمل : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - أدبية (رواية ، قصة ، شعر ، مسرح) - مترجمة - علمية - جامعية - دراسات - معارف عامة - تراث - أطفال ، خدمات إعلامية وثقافية .

الآراء الواردة فى الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز



يمكن أن نفهم الحركة الصهيونية على أنها حركة سياسية أبدعها وأنتجها العقل اليهودي ليستخدمها آلية من أجل بناء دولة. وبعد قيام دولة إسرائيل فمن التناقض أن تتحول هذه الدولة من هدف للصهيونية لتصبح وتتحول إلى أداة وآلة بيد الصهيونية لتحقيق توسعاتها الاستيطانية الكولونيالية في المنطقة.. فإن كان من الممكن إيجاد تسوية سياسية للنزاع العربي الإسرائيلي، فمن غير الممكن -إن لم يكن من العسير- أن يتعايش العرب كل العرب مع المشروع الصهيوني، فالمشروعان العربي والصهيوني كمفهومين متغايرين لا يتسع لهما نص واحد. وما لم تتم عملية فك الارتباط ما بين الدولة الإسرائيلية (اليهودية) وبين الحركة الكولونيالية الصهيونية، وتتمكن الدولة الإسرائلية من أن تتخذ قراراتها وتصوغ سياسيتها بمقتضى مصلحة سكانها فقط، فلن تتم تسوية سياسية بين العرب وإسرائيل.. لأن البلهاء والحمقى فقط هم الذين يعقد ما أو سلامًا مع من لا يعترف بهم ولا بحقوقهم ولا لأراضيهم، وهذا ما يعلنه الكثير من المثقفين اليهود، بروفوسور درور وغيره من تأكيدهم على صهيونية ال الدولة آلة صهيونية، وأن الصهيونية لم تحقق كل أ فماذا يعنى كل ذلك؟

